مقدمة الطبعة السابعة

ليس فى ذهنى من جديد أقوله للقارىء الكريم ، فى مقدمة الطبة السادسة ، إلا أن ألفت نظره الى أهم الزيادات التى وفقنى الله تعالى لإضافتها الى الكتاب ، وأشهد أن خلو الكتاب عنها فيما مضى كان مظهر نقص، وهو ما لا أبرىء عملى منه على كل حال .

من أبرز الزيادات ، البحث الذى جعلت عنوانه : (الحصار الإقتصادى) وأقصد به مقاطعة المشركين لرسول الله وآل بيته ، وانحصار المسلمين فى شعب أبى طالب طيلة ثلاث سنوات .

ولقد أتيح لى عند تحليل هذه الحادثة و التعليق عليها أن أسفه الرأى العجيب القائل بأن الدعوة الإسلامية التى إنبعث بها النبى صلى الله عليه وسلم إنما كانت ثورة يسار ضد يمين ! ... ولم يكن هذا القول الباطل قد تكامل ميلاده بعد فى أدمغة أصحابه ، عندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

ومن أهم الزيادات أيضا موضوع حج أبى بكر رضى الله عنه بالناس فى عام تسع من الهجرة .

وفى شرح هذا البحث أوضحت المزيد من تقاليد المشركين و عاداتهم الباطلة فى طوافهم بالبيت ، ومعنى إنتساخ العهد الذى كان بينهم و بين المسلمين بإعلان الحرابة ، وما فى ذلك من الدلائل الفقهية الهامة، كما أتيح لى فى هذا الصدد أن أزيد معنى الجهاد فى الشريعة الإسلامية إيضاحا وأن أؤكد للقارىء أن ليس فى الشريعة الإسلامية شىء مما يسمى بالحرب الدفاعية فى باب الجهاد .

إن ما يسمى بالحرب الدفاعية ليس شيئا أكثر مما هو داخل فى باب (الصيال) و أحكامه معروفة فى الفقه الإسلامى ، وهو بمعزل عن الجهاد الإسلامى الذى شرعه الله تعالى لإعلاء كلمة الإسلام و تحقيقا للمجتمع الإسلامى المنشود .

أما هذه الطبعة الأخيرة ، فقد أتيح لى أن أضيف عليها فصلا جديدا يدخل فى عداد المقدمات الهامة التى بدأت بها هذا الكتاب ، وجعلتها مدخلا لبحوثه ، وعنوانه : (السيرةالنبوية كيف تطورت دراستها ، وكيف يجب فهمها اليوم).

عرضت فيه للمنهج العلمى فى كتابة السيرة النبوية ، ومدى تأثرها بالمذاهب الحديثة فى كتابة التاريخ ودراسته ، وأشرت فيه إلى الأصابع التى لعبت ـ عن طريق بعض المذاهب ـ بأحداث السيرة النبوية تبديلا و تأويلا وإخفاءا ، وكيف أن لعب هذه الأصابع غدا الى حين من الزمن ، يطلق عليه : المدرسة الجديدة فى كتابة السيرة . ولم ينته سلطان هذه المدرسة إلا بعد أن ظهرت العقلية العلمية الواعية لفهم الإسلام عموما و السيرة النبوية خصوصا .

كما أن القارىء سيجد زيادات وتعديلات أخرى منثورة هنا و هناك ، أرجو أن يكون الكتاب قد دنا بها خطوة أخرى نحو الكمال الذى هو من خصائص أكمل الورى سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام .

ومرد كثير من هذه التعديلات إلى أخوة مخلصين تفضلوا على بالنصيحة و التذكير ، أجزل الله لهم المثوبة و الأجر .

أسأل الله تعالى أن يجنبنى غوائل النفس ، وأن يكرمنى بنعمة الإخلاص لوجهه الكريم ، وان يلهم قارئى الكريم دعوة خالصة لى فى ظهر الغيب .

دمشق : 1 شوال سنة 1397

13 أيلول سنة 1977

محمد سعيد رمضان

مقدمة الطبعة الثانية

1- هذه هى الطبعة الثانية لكتاب فقه السيرة ، أقدمها الى الذين تعنيهم دراسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويهمهم الوقوف على فقه السيرة ودروسها وعظاتها ، بعد أن زدت فى كثير من أبحاثه ، وعدت بالتهذيب و التنقيح إلى بعض فصوله ، رجاء أن يزداد الكتاب بذلك قربا الى الكمال ، مع اليقين بأن الكمال المطلق غاية لا تدرك ، والعصمة من الزلل مستوى لا يصار إليه ، اللهم إلا ما أكرم الله به من ذلك أنبياءه المقربين ، فتلك مزية لهم لم تعط لغيرهم ، وإنما أكرمهم الله بها لكى يتضح للناس الفرق بين من يعمل عقله فى المسائل تأملا واجتهادا ، و بين من أرشده الله الى الحق فيها وحيا و إلهاما ، مع ما أولاهم من العقل الكامل و البصيرة النيرة الصافية .

2- وما كنت أتوقع ، يوم ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تنفذ نسخها فى هذه المدة اليسيرة ، وأن تجد ما وجدته من الإقبال فى مختلف البلاد العربية و الإسلامية ، وإن كنت أعلم أننى قد سلكت فى كتابة السيرة النبوية و التعليق عليها مسلكا من شأنه أن يصحح أغلاط كثير ممن كتبوا فى هذا العصر، وأن يميط الغشاء عن المغالطات التى كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من الكاتبين المستشرقين و المستغربين وهى أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها و رعايتها وترويجها مدرسة فكرية معينة نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر وراحت تمد من آثارها وظلالها ، الى أيامنا هذه .

ولقد أدركت مما بلغنى من حمد القراء للطريقة التى كتبت بها هذه الفصول أن تلك المدرسة لم تعد تخدع إلا قلة من بقايا المفتونين بإسمها واسم مؤسسيها ودعاتها ، وأن الحقائق الناصعة فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم تظل هى المشرقة السائدة ويظل العقل الحر نزاعا إليها موقنا بها غير مطمئن الى أى تأويل و تحليل يستهدف تحويرها أو التلاعب بها .

3- ولقد علم عامة الباحثين و المفكرين أن من أهم أسباب نشأة تلك المدرسة فى حينها ، ذلك الإنبهار الذى أصيب به كثير من العقول العربية المسلمة من أنباء النهضة العلمية فى أوروبا . فقد راحت تلك العقول تتوهم - تحت تأثير ذلك الإنبهار - أنه ليس بين المسلمين و بين أن ينهضوا مثل تلك النهضة إلا أن يفهموا الإسلام هنا كما فهمت أوروبا النصرانية هناك ، وأن يضعوا حقائق الإسلام الغيبية من وراء إكتشافات العلوم المادية ، فلا يؤمنوا بغيب لم يدركه العلم ، ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع . فإذا فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوروبا فى علومها ولحقوها فى رقيها

و فنونها . ومن هنا أنشأ أقطاب تلك المدرسة ما زعموه (الإصلاح الدينى) ، والدين الصحيح ما كان يوما ما ليفسد حتى يحتاج الى إصلاح أو مصلح ، وكان من مظاهر هذا (الإصلاح) ظهور أول تجربة تحاول تحليل حياة النبى صلى الله عليه وسلم تحليلا يسير فى خضوع منكسر وراء العقلية الأوروبية وتحت لواء ما زعموه (العلم الحديث) .أجل فلقد كان كتاب (حياة محمد) لحسين هيكل التجربة الرائدة فى هذا المضمار أعلن فيه الرجل أنه لايريد أن يفهم حياة محمد عليه الصلاة و السلام إلا كما يأمر به(العلم) ، ولذلك فلا خوارق ولا معجزات فى حياة النبى عليه الصلاة و السلام ، إنما هو القرآن ، و القرآن فقط ، وتذكر الكاتب أن يستشهد فى هذا بقول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ونسى أن يقف عند قوله فى نفس القصيدة :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشى إليه على ساق بلا قدم

وانبرى الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر إذ ذاك ، يقرظ الكتاب ، ويبارك الخطوة الرائدة .

وانطلق محمد فريد وجدى هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته داعيا فيها الى فهم الإسلام و السيرة النبوية عن طريق العلم ولو إقتضى ذلك الإعراض عن الخبر الصادق الذى ثبت فى الكتاب و السنة ، وإنما كان يقصد ب (طرق العلم) أن لا يستسلم العقل للغيبيات ولا للخوارق و المعجزات وإن جاء بها الخبر الصادق المتواتر ، كأن العلم إنما يتحقق بإنكار كل ما لم يقع تحت حسك وشعورك !!! .

4- ومعلوم كيف استغل الإحتلال البريطانى فى مصر إذ ذاك ، هذا الفهم الجديد للإسلام عند طائفة من أقطاب الفكر و حملة القلم ، إستغله فى إضعاف الوازع الدينى فى أفئدة المسلمين ، (وأى وازع دينى يبقى فى نفس من أنكر فكرة المعجزة من أساسها فى الدين ، وهل الدين شىء غير معجزة الوحى الإلهى الى رسله و أنبيائه ؟) فراحت التربية الإستعمارية تباعد بين المسلمين ومنهجهم الإسلامى ، وتقيم بينهم وبينه منهجا آخر كل ما فيه من المؤيدات أنه منهج أوروبى عريق !.....

5- ثم مرت الأزمنة وتوالت السنوات ، فتبين لكل باحث منصف ، أن تلك المدرسة لم تكن على شىء من التأمل الفكرى الحر ولا من البحث العلمى النزيه، وإنما كانت رد فعل أثاره الإنبهار و الشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين ، تهيأ لها بسبب ظروف خاصة أحاطت بها ، أن تطلع على الحياة الأوروبية فتستهويها زخرفها وملاذها ، فاتخذوا من نزوات نفوسهم حاكما مسلطا على عقولهم واصطنعوا بذلك مدرسة فكرية ظاهرها (الإصلاح الدينى) وباطنها الإستخذاء النفسى و الإنهيار الفكرى بين يدى نهضة الغرب ، وتبين لكل باحث ايضا أن تلك المدرسة لم تكسب اربابها ودعاتها أى نهضة علمية كالتى نهضتها أوروبا كما كانوا يوهمون أو يتوهمون . كل ما جنته أيدى ذلك (الإصلاح الدينى) فقدان الحقيقتين معا ، فلا هم على حقيقتهم الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا .

6- من أجل ذلك أردت أن يكون أهم عملى فى هذا الكتاب هو الإقدام على غزالة بقية الأطلال القائمة لتلك المدرسة المذكورة :
إن المسلم لاينبغى لحظة واحدة أن يحاول فهم حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه عبقرى أو قائد خطير أو داهية محنك . فمثل هذه المحاولة ليس إلا معاندة أو معابثة للحقائق الكبرى التى تزخر بها حياة محمد عليه الصلاة و السلام . فلقد أثبتت هذه الحقائق الجلية الناصعة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان متصفا بكل صفات السمو و الكمال الخلقى و العقلى و النفسى ، ولكن كل ذلك اكن ينبع من حقيقة واحدة كبرى فى حياته عليه الصلاة و السلام، ألا وهى أنه نبى مرسل من قبل الله تعالى . وأن من العبث الغريب أن نضع الفروع موضع الأصل ثم نتجاهل موضع الأصل مطلقا ! . ولا ريب أن الرد على ذلك لا يكون إلا بلفت النظر الى الأصل ، بل الى الأصل وحده .كما أن المسلم لا ينبغى له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم هى القآن وحده، ما دام أنه لا ينكر أن له عليه الصلاة و السلام سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها . أما إن كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضا . إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن .
و الإقدام على تأويل هذا وتسليم ذاك طبق ما تستهوى النفس ويتفق مع الغرض ، إسفاف غريب فى تصنع البحث و الفهم ، لا يقدم عليه من كان كريما على نفسه معتزا بعقله .

7- وكان فيما رأيته من الرضى و الحماس اللذين استقبل بهما القراء عملى هذا ، أعظم دليل على أن كل هذا الذى أنفقه دعاة السوء و محترفوا الغزو الفكرى من مستشرقين و مستغربين و أذناب و جهال ، من وقت طويل وجهد عظيم وكتابات مستفيضة متلاحقة- لا يمكنه أن يتسبب فى تحويل شىء من الحق الى الباطل أو من الباطل الى الحق ، وعلى أن الحقيقة الفكرية لايمكن أن تغتال .

ولئن أمكن مخادعتها أو التلبيس عليها ، فلن يكون ذلك إلا الى أمد ..... ثم ينحسر الخداع ويزول التلبيس و تشرق الحقيقة مرة أخرى من جديد . ويستفيد الباحثون و المتأملون من ذلك عبرة تمدهم بمزيد من الحذر و الوعى .

ومهما يكن صحيحا ما يقوله الناس من إبتعاد المسلمين عن منهجهم الإسلامى العظيم هذه السنوات الأخيرة ، فإن الذى أعتقده أن الناشئة المسلمة اليوم تمتلك من الوعى الإسلامى ودقة التأمل و الملاحظة ما لم يكن يملكه المسلمون فى أى عهد (قريب) مضى.

. ولسوف لايمر زمن طويل حتى تجد أن هذا الوعى قد إنقلب الى حركة إيجابية عاملة ، تصلح الإنحراف ، وتقوم الإعوجاج ، وتعيد البناء الإسلامى من جديد .

8- و من ناحية أخرى فقد فضلت أن أسير فى كتابة الأبحاث على المنهج المدرسى القائم على إستنباط القواعد و الأحكام ، مبتعدا عن المنهج الأدبى التحليلى المجرد ، وإن كان لكل مزيته و فائدته ، ذلك لأن المجال الذى أقدم فيه الكتاب (و هو المجال الجامعى) ينسجم ويتفق مع الطريقة الأولى . ولقد وجدت من رضى القراء عن هذا المنهج - على إختلافهم - ما دفعنى الى مزيد من التوسع فى ذلك و الدقة فيه ، وإن كنت أعلم أننى لم استوف البحث حقه ولم أعالج كل ما ينبغى معالجته. ومرد ذلك : أولا ، الى عجزى وقصورى ولا شك ، ثانيا : الى أننى لا أريد أن أفيض فى ذكر المسائل و الأحكام و متعلقاتها الى الحد الذى يشق معه القارىء أن يقرأ الكتاب كله لقاء جهد يسير . فإن الكتاب إذا تجاوز الى هذا الحد ، قلت فائدته بنظرى و أصبح مرجعا يستعان به عند المناسبات ، بدلا من أن يكون كتابا سهلا سائغا يقتنى للقراءة و الدرس فى أعم الأحوال .

9- غير أن هنالك فئة أخرى من الناس ، لم يعجبها هذا الذى صنعت، بل ذهبت بعض أفرادها فى نقده مذهبا تسربلت فيه بلباس الضغينة و الحقد ، بدلا من أن يظهر فى مظهر البحث العلمى المتجرد .

ولوددت لو أننى نبهت الى خطأ انحرفت اليه لدى البحث ، أو غفلة أصابتنى عند بيان حكم أو دليل من قبل أخ مخلص ، لأشكر له تنبيهه وأدعو له بالمثوبة و الأجر ، ولكننى لم أقع بدلا من ذلك إلا على ما لا حصيلة له من القول المنبعث عن رغبة واضحة فى الإساءة و التشفى و الإنتصار للعصبة و العصبية .

10 - فلقد وجدت - مثلا - فى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل أصحابه ما أوضح بشكل لا خفاء فيه مشروعية التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم حيا وميتا ، فقررت ذلك بعد أن عرضت بين يديه ما لا يمكن رده من الأدلة والبراهين.

ووجدت فى سيرته صلى الله عليه وسلم ما أوضح مشروعية القيام للقادم ، فذكرت هذه الأدلة وأوضحت ما ذكره العلماء من الفرق بين القيام للقادم و القيام على الرجل الجالس ، وما أوضحته السنة فى ذلك ، ثم قررت مشروعية هذا القيام إذا انضبط بشروطه و قيوده التى بينتها السنة الصحيحة ، وقواعد الأصول و الأحكام .

ووجدت فيها ما أوضح مشروعية قضاء الصلاة الفائتة سواء فاتت بسهو أو عمد فعرضت الأدلة ثم قررت الحكم على ضوئها .

ولو وجدت الأدلة قاضية بغير الذى اعتمدته ، لقلت غير ذلك ولاتبعت ما يرشد اليه الأصل و الدليل، ولكننى لا استطيع بأى حال أن أغمض العين عن مدرك الأحكام و أدلتها ، لأقلد فئة من الناس اليوم ، طاب لها أن تتخذ من مخالفة الأئمة وجمهور العلماء مذهبا جديدا لها ، و ألا يتورع الكثير منها على انتقاصهم، بل عن لعنهم على رؤوس الأشهاد .

ونعوذ بالله من أن ينقلب لدينا البحث العلمى فى العقل الى مثل هذه العصبية المستحكمة فى النفس !.

11- ولوددت والله ، لو أن هذه الفئة التى تظل تشغل أفكار الناس و أوقاتهم بآرائها واجتهاداتها الفرعية ، حاولت أن تشتغل هى الأخرى بهذا الذى وقع الناس فيه من أمور ومشكلات جسيمة خطيرة تحتاج الى بذل الطاقات الهائلة وحصر الجهود العظيمة فى سبيل معالجتها وتخليص المسلمين من آفاتها . ولكنها تظل ويا للعجب متنكرة متجاهلة لكل هذا الذى يفور به الزمن من أحداث ، ويحوم حول العقل من نواقص الدين و الإيمان ، لتضمن لنفسها العكوف الهادىء على هذا الذى تسعى لإثارته بين الناس من مسائل لا جديد فيها أكثر مما وقع فيها من خلاف قديم ، ولا فائدة يرجى من الخصومة فيها أكثر من إثارة الضغائن فى النفوس.

ولقد كان بوسع هذه الفئة أيضا ـ لو أنها كانت مخلصة لوجه الله فى دأبها هذا ـ أن تعتنق الرأى الذى تطمئن إليه، ثم تترك الآخرين لما اطمأنوا هم أيضا اليه من المذهب و الراى ، وتقلع عن الإستمرار فى محاولة بسط سلطانها على الناس بالخصومة و العنف و تسفيه الأفكار . فلقد ظل جمهور المسلمين من قبلنا يجتمعون على التمسك بالأمور القطعية من إعتقادية وعملية ، ويضفرن الجهد للإهتمام بها و الذود عنها ، فإذا ما بحثوا بعد ذلك فى الأمور الإجتهادية الظنية لم يبالوا أن يختلفوا فى صدد كثير منها الى مذاهب متعددة دون أن يندفع أحد فيهم الى محاولة بسط سلطانه على الآخرين واستعبادهم لما انقدح فى ذهنه من الرأى .

ولو أنهم رضى الله عنهم فعلوا شيئا من هذا ، لقضى على الوحدة الإسلامية قبل أن تدرج فى المهد ، ولما عثرنا فى تاريخنا الإسلامى على شىء مما نظل نزهى به اليوم من مظاهرالقوة و الحضارة و المجد .

12- وأنا إنما أدعو القارىء بصدد البحث فى هذه المسائل التى خالفت فيها هذه الفئة المذكورة ، والتقيت فى فهمها بمذهب جمهور المسلمين الى أن يمعن النظر فى الدليل وسلامته وقوته ، بعد أن يكون على بينة منه ومن طريقة الإستدلال به . ولا عليه بعد ذلك أن يركن الى ما يطمئن إليه فكره وعقله ، دون أن يجعل لأى تعصب فكرى الى نفسه من سبيل . وإنما الخطورة كل الخطورة فى أن يتحول الرأى فى العقل الى عصبية مستكنة فى النفس ، وليست الخطورة فى أن يختلف اثنان حول مسألة انقدح لكل منهما فيه دليل مقنع .

و أسأل الله سبحانه أن يجمعنا على الحق وأن يهدينا سواء السبيل ، وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه إنه سميع مجيب .

دمشق : 17 جمادى الأولى 1388

10 أيلول 1968

محمد سعيد بن ملا رمضان البوطى

أهمية السيرة النبوية فى فهم الإسلام

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية وفقهها ، مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ، ولا سرد ما طرف أو جمل من القصص و الأحداث ولذا فلا ينبغى أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية ، شأنها كشأن الإطلاع على سيرة خليفة من الخلفاء أو عهد من العهود التاريخية الغابرة .

وإنما الغرض منها ، أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية فى مجموعها متجسدة فى حياته صلى الله عليه وسلم ، بعد أن فهمها مبادىء وقواعد و أحكام مجردة فى الذهن .

أى أن دراسة السيرة النبوية ، ليست سوى عمل تطبيقى يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة ، فى مثلها الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم .

و إذا أردنا أن نجزىء هذا الغرض ونصنف أجزاءه ، فإن من الممكن حصرها فى الأهداف التفصيلية التالية :

1- فهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم (النبوية) من خلال حياته و ظروفه التى عاش فيها ، للتأكد من أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد عبقرى سمت به عبقريته بين قومه ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحى من عنده وتوفيق من لدنه .

2- أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى فى كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة ، كى يجعل منها دستورا يتمسك به ويسير عليه ،ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى فى ناحية من نواحى الحياة فإنه واجد كل ذلك فى حياةالرسول صلى الله عليه وسلم أعظم ما يكون من الوضوح و الكمال .

ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كلها إذ قال : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الأحزاب 21 .

3- أن يجد الإنسان فى دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده ، إذ أن كثيرا من آيات القرآن إنما يجليها وتفسرها الأحداث التى مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وموقفه منها .

4- أن تتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته صلى الله عليه وسلم أكبر قدر من الثقافة و المعارف الإسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقا بالعقيدة و الأحكام و الأخلاق ، إذ لا ريب أن حياته صلى الله عليه وسلم إنما هى صورة مجسدة نيرة لمجموع مبادىء الإسلام و أحكامه .

5- أن يكون لدى المعلم و الداعية الإسلامى نموذج حى عن طرائق التربية و التعليم ، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم مربيا فاضلا ومعلما ناصحا لم يأل جهدا فى تلمس أجدى الطرق الصالحة الى كل من التربية و التعليم خلال مختلف مراحل دعوته .

وإن من أهم ما يجعل سيرته صلى الله عليه وسلم وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته عليه الصلاة و السلام شاملة لكل النواحى الإنسانية و الإجتماعية التى توجد فى الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث أنه عضو فعال فى المجتمع .

فحياته عليه الصلاة و السلام تقدم إلينا نماذج سامية للشاب المستقيم فى سلوكه ، الأمين مع قومه

و أصحابه ، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعى الى الله بالحكمة و الموعظة الحسنة ، الباذل منتهى الطاقة فى سبيل إبلاغ رسالته ، ولرئيس الدولة الذى يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة ، وللزوج المثالى فى حسن معاملته والأب فى حنو عاطفته مع تفريق دقيق بين الحقوق و الواجبات لكل من الزوجة و الأولاد، وللقائد الحربى الماهر والسياسى الصادق المحنك ، وللمسلم الجامع - فى دقة وعدل - بين واجب التعبد و التبتل لربه ، والمعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله و أصحابه .

لاجرم إذاً ، أن دراسة السيرة النبوية ليست إلا إبرازا لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة فى أرفع نموذج و أتم صورة .

القسم الأول - السيرة النبوية - كيف تطورت دراستها وكيف يجب فهمها اليوم

لا ريب أن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشكل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ العظيم الذى يعتز به المسلمون على إختلاف لغاتهم و أقطارهم .

وانطلاقا من هذه السيرة دون المسلمون التاريخ ..... ذلك لأن أول ما دونه الكاتبون المسلمون من وقائع التاريخ و أحداثه ، هو أحداث السيرة النبوية ، ثم تلا ذلك تدوين الأحداث التى تسلسلت على إثرها الى يومنا هذا .

حتى التاريخ الجاهلى الذى ينبسط منتشرا وراء سور الإسلام فى الجزيرة العربية ، إنما دعاه المسلمون من العرب و غيرهم واتجهوا الى رصده و تدوينه . على هدى الإسلام الذى جاء فحدد معنى الجاهلية ، وعلى ضوء المعلمة التاريخية الكبرى التى تمثلت فى مولد أفضل الورى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيرة حياته . إذاً ، فالسيرةو النبوية تشكل المحور الذى تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الإسلام فى الجزيرة العربية . بل هى العامل الذى أثر فى أحداث الجزيرة العربية أولا ، ثم فى أحداث سائر العالم الإسلامى ثانيا .

ولقد إمتلك فن الرواية لأحداث التاريخ عند العرب و المسلمين منهجا علميا دقيقا لرصد الوقائع وتمييز الصحيح منها عن غيره ، لم يملكمثله غيره . غير أنهم لم يكونوا ليكتشفوا هذا المنهج ، ولم يكونوا لينجحوا فى وضعه موضع التنفيذ فى كتاباتهم التاريخية ، لولا السيرة النبوية التى وجدوا أنفسهم أمام ضرورة دينية تحملهم على تدوينها تدوينا صحيحا لا يشوبها وهم ولا يتسلل اليها خلط أو إفتراء .... ذلك لأنهم علموا أن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسنته هما المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى . ثم هما النوذج الأسمى لكيفية تطبيقه و العمل به . فكان أن نهض بهم دافع اليقين بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأن القرآن كلام الله تعالى ، وبأنهم يحملون ومسئولية العمل بمقتضاه ، وأن الله تعالى محاسبهم على ذلك حسابا دقيقا - - نهض بهم اليقين بكل ذلك الى تحمل أقسى الجهد فى سبيل الوصول الى منهج علمى تحصن فيه حقائق السيرة والسنة النبوية المطهرة.. . وإنما أقصد بالمنهج العلمى قواعد مصطلح الحديث ، وعلم الجرح و التعديل . فمن المعلوم أن ذلك إنما وجد أولا لخدمة السنة المطهرة التى لابد أن تكون السيرة النبوية العامة قاعدة لها .

ثم إنه أصبح بعد ذلك منهجا لخدمة التاريخ عموما ، وميزانا لتمييز حقائقه عن الأباطيل التى تعلق به.

يتبين لك من هذا أن كتابة السيرة النبوية ، كانت البوابة العريضة الهامة التى دخل منها المسلمون الى دراسة التاريخ وتدوينه عموما ، وأن القواعد العلمية التى إستعانوا بها لضبط الروايات و الأخبار ، هى ذاتها القواعد التى أبدعتها عقول المسلمين شعورا منهم بالحاجة الماسة الى حفظ مصادر الأسلام وينابيعه الأولى من أن يصيبها أى دخيل يعكره .

كيف بدأت ثم تطورت كتابة السيرة :

تأتى كتابة السيرة النبوية - من حيث الترتيب - فى الدرجة الثانية بالنسبة لكتابة السنة النبوية . فلا جرم أن كتابة السنة ، أى الحديث النبوى ، كانت أسبق من كتابة السيرة النبوية عموما . إذ أن السنة بدأت كتابتها كما هو معلوم ، فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بإذن ، بل بأمر منه صلى الله عليه وسلم . وذلك بعد أن إطمأن الى أن أصحابه قد تنبهوا للفارق الكبير بين اسلوبى القرآن المعجز و الحديث النبوى البليغ . فلن يقعوا فى لبس بينهما .

أما كتابة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه بصورة عامة ، فقد جاء ذلك متأخرا عن البدء بكتابة السنة ، وإن كان الصحابة يهتمون بنقل سيرته ومغازيه شفاهاً .

ولعل أول من إهتم بكتابة السيرة النبوية عموما هو (عروة بن الزبير المتوفى عام 92 ثم أبان بن عثمان المتوفى عام 105 ثم وهب بن منبه المتوفى 110 ثم شرحبيل بن سعد المتوفى 123 ثم ابن شهاب الزهرى المتوفى عام 124 .

إن هؤلاء ولاريب يعدون فى مقدمة من إهتموا بكتابة السيرة النبوية ، كما تعد كتاباتهم طليعة هذا العمل العلمى العظيم ، بل تعد الخطوة الألوى - كما ألمحنا - الى كتابة التاريخ و الإهتمام به عموما ، هذا بقطع النظر عن أن الكثير من من أحداث السيرة منثور فى كتاب الله تعالى وفى بطون كتب السنة النبوية التى تهتم من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم بأقواله و أفعاله، لاسيما ما يتعلق منها بالتشريع . غير أن جميع ما ما كتبه هؤلاء قد باد وتلف مع الزمن ، فلم يصل الينا منه شىء ، ولم يبق منه إلا بقايا متناثرة - روى بعضها الطبرى . ويقال أن بعضها الآخر - وهو جزء مما كتبه وهب بن منبه - محفوظ فى مدينة هايدلبرج بألمانيا . ولكن جاء فى الطبقة التى تلى هؤلاء من تلقف كل ما كتبوه ، فأثبتوا جله فى مدوناتهم التى وصل إلينا معظمها بحمد الله و تو فيقه . ولقد كان فى مقدمة هذه الطبقة محمد بن إسحاق المتوفى عام 152 . وقد إتفق الباحثون على أن ما كتبه محمد بن إسحاق يعد من أوثق ما كتب فى السيرة النبوية فى ذلك العهد ولئن لم يصل إلينا كتابه (المغازى) بذاته ، إلا أن أبا محمد الملك المعروف بابن هشام قد جاء من بعده ، فروى لنا كتابه هذا مهذبا منقحا ، ولم يكن قد مضى على تأليف ابن إسحاق له أكثر من خمسين عاما .

يقول ابن خلكان : (وابن هشام هذا ، هو الذى جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المغازى و السير لإبن إسحاق ،وهذبها ، ولخصها ، وهى السيرة الموجودة بأيدى الناس و المعروفة بسيرة ابن هشام). وعلى كل ، فإن مصادر السيرة النبوية التى إعتمدها سائر الكتاب على إختلاف طبقاتهم محصورة فى المصادر التالية :

أولا :- كتاب الله تعالى . فهو المعتمد الأول فى معرفة الملامح العامة لحياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الإطلاع على المراحل الإجمالية لسيرته الشريفة ، بقطع النظر عن أسلوب القرآن فى بيان ذلك .

ثانيا :- كتب السنة النبوية ، وهى تلك التى كتبها أئمة الحديث المعروفون بصدقهم و أمانتهم ، كالكتب الستة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيره ، وإن كانت عناية هذه الكتب الأولى إنما تنصرف الى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله من حيث أنها مصدر تشريع ، لا من حيث هى تاريخ يدوّن . ولذلك رتبت أحاديث كثير من هذه الكتب على الأبواب الفقهية ، ورتب بعضهاى على أسماء الصحابة الذين رووا هذه الأحاديث ، ولم يراع فيها التتابع الزمنى للأحداث .

ثالثا :- الرواة الذين اهتموا بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته عموما ، وقد كان فى الصحابة الكثير ممن اهتم بذلك ، بل مامن صحابى كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشهد من مشاهد سيرته إلا رواه لسائر الصحابة ولمن بعده أكثر من مرة . ولكن دون أن يهتم واحد منهم فى بادىء الأمر بجمعها وتدوينها . وأحب أن ألفت النظر الى الفرق بين عموم ما يسمى كتابة وتقييد ، وخصوص ما يسمى تأليفا وتدوينا . أما الأول فقد كان موجودا بالنسبة للسنة النبوية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا آنفا ، وأما الثانى (ويراد به الجمع و التنسيق بين دفتين) فقد ظهر فيما بعد ، عندما ظهرت الحاجة الى ذلك .

المنهج العلمى فى رواية السيرة النبوية :

من المعلوم أن كتابة السيرة النبوية ، تدخل فى عموم ما يسمى تأريخا ، وإن كانت السيرة النبوية ـ كما أوضحنا ـ منطلقا للتاريخ و حافزا على رصد الوقائع و الأحداث التى خلت قبلها و التى جاءت متسلسلة على أعقابها .

ولكن على أى منهج إعتمد كتاب السيرة النبوية فى تاريخها وتدوينها ؟

لقد كان منهجهم المعتمد فى ذلك إتباع ما يسمى اليوم بالمذهب الموضوعى فى كتابة التاريخ ، طبق قواعد علمية سنشير إليها . ومعنى هذا أن كتاب السيرة النبوية وعلماؤها ، لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة ا، إلا تثبيت ما هو ثابت منها ، بمقياس علمى يتمثل فى قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند و المتن ، وفى قواعد الجرح و التعديل المتعلقة بالرواة وتراجمهم و أحوالهم. فإذا انتهت بهم هذه القواعد العلمية الى أخبار ووقائع ، وقفوا عندها ، ودونوها ، دون أن يقحموا تصوراتهم الفكرية أو إنطباعاتهم النفسية أو مألوفاتهم البيئية الى شىء من تلك الوقائع بأى تلاعب أو تحوير .

لقد كانوا يرون أن الحادثة التاريخية التى يتم الوصول الى معرفتها ، ضمن نفق من هذه القواعد العلمية التى تتسم بمنتهى الدقة ، حقيقة مقدسة ، يجب أن تجلى أمام الأبصار و البصائر كما هى كما كانوا يرون أن من الخيانة التى لا تغتفر أن ينصب من التحليلات الشخصية و الرغبات النفسية التى هى فى الغالب من إنعكاسات البيئة ومن ثمار العصبية ، حاكم مسلط يستعبد منها ما يشاء ويحور فيها كما يريد .

ضمن هذه الوقاية من القواعد العلمية ، وعلى ذلك الأساس من النظرة الموضوعية ، للتاريخ ، وصلت إلينا السيرة النبوية للمصطفى صلى الله عليه وسلم بدءا من ولادته ونسبه ، الى طفولته ، فصبوته اليافعة ، الى الإرهاصات الخارقة التى صاحبت مراحل طفولته وشبابه ، الى بعثته وظاهرة الوحى التىى تجلت فى حياته ، الى أخلاقه وصدقه و أمانته ، الى الخوارق و المعجزات التى أجراها الله تعالى على يديه ، الى مراحل الدعوة التى سار فيها لتلبية امر ربه ، من سلم ، فدفاع ، فجهاد مطلق

حيثما طاف بالدعوة الى الله تعالى أى تهديد ، الى الأحكام و المبادىء الشرعية التى أوصى بها إليه ، قرآنا معجزا يتلى وأحاديث نبوية تشرح وتبين .

لقد كان العمل التاريخى إذا بالنسبة الى هذه السلسلة من سيرته صلى الله عليه وسلم ، ينحصر فى نقلها الينا محفوظة مكلوءة ضمن الوقاية العلمية التى من شأنها ضبط الرواية من حيث الإسناد واتصاله ، ومن حيث الرجال وتراجمهم ، ومن حيث المتن أو الحادثة وما قد يطوف بها من شذوذ ونحوه . أما عملية إستنباط النتائج و الأحكام و المبادىء و المعانى من هذه الأخبار (بعد القبول التام لها) فعمل علمى آخر لا شأن له بالتاريخ ، وما ينبغى أن يخرج به بحال من الأحوال .

إنه عمل علمى متميز ، ومستقل بذاته ، ينهض بدوره على منهج وقواعد أخرى من شأنها أن تضبط عملية إستنباط النتائج و المبادىء من تلك الأحداث ، ضمن قالب علمى يقصيها عن سلطان الوهم وشهوة الإرادة النفسية التى يعبر عنها أمثال وليم جيمس بإرادة الإعتقاد .

ومن هذه القواعد : القياس الإستقرائى ، وقانون الإلتزام بأنواعه المختلفة ، والدلالات بأنواعها .....الخ .

ولقد إستنبطت من أحداث السيرة النبوية طبقا لهذه القواعد أحكام كثيرة منها ما يتعلق بالإعتقاد و اليقين ، ومنها ما يتعلق بالتشريع و السلوك . المهم فى هذا الصدد أن نعلم بأنها جاءت منفصلة عن التأريخ و تدوينه ، بعيدة عن معناه ومضمونه ، وإنما كانت نتيجة معاناة علمية أخرى نهضت فى حد وجودها على البنيان التاريخى الذى قام بدوره على القواعد العلمية التى ذكرناها .

السيرة النبوية على ضوء المذاهب الحديثة فى كتابة التاريخ :

فى القرن التاسع عشر ظهرت طرائق كثيرة فى كتابة التاريخ وتدوينه ، الى جانب الطريقة الموضوعية أو ما يسمونه بالمذهب العلمى ، وقد تلاقى معظم هذه المذاهب فيما أطلق عليه اسم المذهب الذاتى . ويعد (فرويد) من أكبر الدعاة اليه و المتحمسين له .

ولا يرى أقطاب هذا المذهب من ضير فى أن يقحم المؤرخ نزعته الذاتية أو إتجاهه الفكرى أو الدينى أو السياسى ، فى تفسير الأحداث وتعليلها و الحكم على أبطالها ... بل أنهم يرون أن هذا واجب المؤرخ ، لا مجرد وصف الأخبار وتجميع الوقائع العارية .

وهذه الطريقة تجعل كتابة التاريخ وتدوينه عملا فنيا مجردا ، ولا تسمح بعدّه نهوضا بعمل علمى دقيق .

ونحن وإن كنا لسنا بصدد الحديث عن المذاهب التاريخية ونقدها ، ةفإن علينا ألاّ نخفى أسفنا من أن يجد هذا المذهب ـ فى عصر العلم والإعتزاز به وبمنهجه ـ دعاة إليه ومؤمنين به . ذلك لأن هذا المذهب كفيل أن يمزق جميع الحقائق و الأحداث التى يحتضنها الزمن فى هيكله القدسى القديم الماثل أمام الأجيال ، بفعل سجات من أخيلة التوسم وشهوة الذات و عصبية النفس والهوى . وكم من حقيقة مسخت ، وأحداث نكّست ، وأمجاد دثرت ، وبرآء ظلموا تحت سلطان هذه المحكمة الوهمية الجائرة .

فهل كان لهذا المذهب الجديد من تأثير على كتابة السيرة النبوية وطريقة تحليلها ؟

و الحقيقة أن هذه المذهب الجديد فى كتابة التاريخ قد أصبح أساسا لمدرسة جديدة فى دراسة السيرة النبوية وفهمها عند طائفة من الباحثين . فكيف نشأت هذه المدرسة ؟ .... وما هى عوامل نشأتها ؟ ....وما مصيرها اليوم ؟ ...

تعود نشأة هذه المدرسة الى أيام الإحتلال البريطانى لمصر ، لقد كانت مصر آنذاك منبر العالم الإسلامى ، يعنو إليه بتفكيره وعقله كلما أراد أن يعلم عن الإسلام علما ، كما يعنو الى كعبة الله بوجهه كلما أراد حجا أو صلاة . وكان فى إستمرار هذا الصوت العظيم من جانب ، وفى إستمرار إنصات العالم الإسلامى اليه من جانب آخر ، ما لا يدع للإحتلال البريطانى فرصة هدوء أو إستقرار .

ومهما أخضعت بريطانيا لنفسها الوادى كله تحت سلطان من قوة الحديد و النار . وإنه خضوع موقوت لا يطمإن اليه ، ما بقيت للأزهر هذه القيادة الحية .

لذا فقد كان لابد للإحيلال البريطانى من الإقدام على أحد علاجين لا ثالث لهما :

أولهما : أن يقطع ما بين الأزهر و الأمة ، بحيث لا يبقى له عليه سلطان .

ثانيهما : أن يتم التسلل الى مركز العمليات القيادية فى الأزهر ذاته ، فتوجه قيادته الوجهة التى ترضى مصالح الإحتلال وتهىء له أسباب الطمأنينة و الإستقرار .

ولم تتردد بريطانيا فى إختيار العلاج الثانى ، نظراً الى أنه أقرب منالا وأبعد عن الملاحظة و الإنتباه .

وكان السبيل الوحيد الى هذا التسلل نحو القيادة العلمية و الفكرية داخل الأزهر ، الإعتماد على نقطة ضعف أليمة كانت تعانى منها مشاعر الأمة الإسلامية عامة ، بما فيها مصر وغيرها . وهى إحساس المسلمين بما إنتابهم من الضيعة والتخلف و الشتات ، الى جانب ملاحظتهم للنهضة العجيبة التى نهضها الغرب فى شتى المجالات الفكرية و العلمية و الحضارية لقد كان المسلمون يتطلعون ولا ريب الى اليوم الذى يتحررون فيه من الأثقال التى خلفتهم الى الوراء ، ليشتركوا مع الآخرين فى رحلة الحضارة و المدنية و العلم الحديث .

من هذا السبيل تسلل الهمس ، بل الكيد الإستعمارى الى صدور بعض قادة الفكر فى مصر ، ولقد كان مؤدى هذا الهمس أن الغرب لم يتحرر من أغلاله ، إلا يوم أخضع الدين لمقاييس العلم ..... فالدين شىء و العلم شىء آخر ، ولا يتم التوفيق بينهما إلا بإخضاع الأول للثانى .

وإذا كان العالم الإسلامى حريصا حقا على مثل هذا التحرر فلا مناص له من أن يسلك الطريق ذاته ، وأن يفهم الإسلام هنا ، كما فهم الغرب النصرانية هناك . ولا يتحقق ذلك إلا بتخليص الفكر الإسلامى من سائر الغيبيات التى لاتفهم ولا تخضع لمقاييس العلم الحديث .

وسرعان ما خضع لهذا الهمس ، أولئك إنبهرت أبصارهم بمظاهر النهضة الأوروبية الحديثة ، ممن لم تترسخ حقائق الإيمان بالله تعالى فى قلوبهم ولا تجلت حقائق العلم الحديث و ضوابطه فى عقولهم . فتنادو فيما بينهم الى التحرر من كل عقيدة غيبية لم تصل إليها إكتشافات العلم الحديث ، ولم تدخل تحت سلطان التجربة و المشاهدة الإنسانية .

فكان أن قاموا بما أسمى فيما بعد بالإصلاح الدينى . واقتضى منهم ذلك أمورا عديدة ، منها تطوير كتابة السيرة النبوية وفهمها ، واعتماد منهج جديد فى تحليلها ، يتفق مع ما استهدفوه من الإعراض عن كل ما يدخل فى نطاق الغيبيات و الخوارق التى لا يقف العلم الحديث منها موقف فهم أو قبول . ولقد كان لهم فى الطريقة الذاتية فى كتابة التاريخ خير ملجأ يعينهم على تحقيق ما قصدوا إليه . وبدأت تظهر كتب وكتابات فى السيرة النبوية ، تستبدل بميزان الرواية و السند وقواعد التحديث وشروطه ، طريقة الإستنتاج الشخصى ، وميزان الرضى النفسى ، ومنهج التوسم الذى لا يضبطه شىء إلا دوافع الرغبة ، وكوامن الأغراض و المذاهب التى يضمرها المؤلف .

واعتمادا على هذه الطريقة أخذ يستبعد هؤلاء الكاتبون كل ما قد يخالف المألوف ، مما يدخل فى باب المعجزات و الخوارق من سيرته صلى الله عليه وسلم . وراحوا يروجون له صفة العبقرية و العظمة و البطولة وما شاكلها ، شغلا للقارىء بها عن صفات قد تجره الى غير المألوف من النبوة و الوحى و الرسالة ونحنوها مما يشكل المقومات الأولى لشخصية النبى صلى الله عليه وسلم .

ويعد كتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد) أبرز نموذج لهذا الإتجاه فى كتابة السيرة النبوية . ويعبر مؤلفه عن إتجاهه هذا بصراحة وفخر عندما يقول (إننى لم آخذ بما سجلته كتب السيرة و الحديث ، لأننى فضلت أن أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية) !

ومن نماذج هذه الطريقة الحديثة فى كتابة السيرة وفهمها . تلك المقالات المتتابعة التى نشرها المرحوم محمد فريد وجدى فى مجلة نور الإسلام تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة) و التى يقول فى بعض منها (وقد لاحظ قراؤنا

أننا حرصنا كل الحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة ، على الأ نسرف فى كل ناحية من نواحى الإعجاز ، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشىء من التكلف) .

ومن نماذج هذه الطريقة أيضا تلك الكتابات الكثيرة التى ظهرت لطائفة من المستشرقين عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فى نطاق أعمالهم وكتاباتهم التاريخية التى قامت على المنهج الذاتى الذى ألمحنا إليه آنفا .

إنك لترا هم يمجدون شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، وينوهون بعظمته وصفاته الحميدة بعيدا عن كل ما قد ينبه القارىء الى شىء من معانى النبوة أو الوحى فى حياته ، وبعيدا عن الإهتمام بالأسانيد و الروايات التى قد يضطرهم الأخذ بها الى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم إعتمادها أو الإهتمام بها . وهكذا وجد أبطال هذه المدرسة الجديدة ، فى إتباع المذهب الذاتى فى كتابة التاريخ ، الميدان الفسيح الذى يمكنهم من نبذ كل ما لا يعجبهم من حقائق السيرة النبوية مهما جاءت مدعومة بدلائل العلم اليقين ، متخذين من ميولهم النفسية ، ورغباتهم الشخصية و أهدافهم البعيدة ، حاكما مطلقا على حقائق التاريخ وتحليل ما وراءه من العوامل ، وحكما مطلقا لقبول ما ينبغى قبوله ورفض ما يجب رفضه . لقد رأينا- مثلا - أن كل خارقة مما قد جاء به متواتر السنة ، وربما صريح القرآن ، تؤول ولو بتكلف وتمحل ، بما يعيدها الى الوفاق المألوف ، وبما يجعلها تنسجم مع الغرض المطلوب .

فطير الأبابيل ، يؤول - على الرغم من أنف الآية الصريحة الواضحة - بداء الجدرى .

و الإسراء الذى جاء به صريح القرآن ، يحمل على سياحة الروح وعالم الرؤى .

و الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين فى غزوة بدر يؤولون بالدعم المعنوى الذى أكرمهم الله به !

وآخر المضحكات العجيبة التى جاءت على هذا الطريق ، تفسير النبوة فى حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم و إيمان الصحابة به وعموم الفتح الإسلامى ، بأن جميعه لم تكن إلا ثورة يسار ضد يمين ، أثارتها النوازع الإقتصادية إنتجاعا للرزق وطلبا للتوسع ، وألهبتها ردود الفعل لدى الفقراء ضد الأغنياء و أصحاب الإقطاع ..... !

وبعد فقد كانت هذه الطريقة فى دراسة السيرة النبوية خصوصا ، و التارخ الإسلامى عموما مكيدة خطيرة عشيت عن رؤيتها أعين البسطاء من بعض المسلمين وصادقت هوى وقبول حسناً عند طائفة أخرى من المنافقين و أصحاب الأهواء .

لقد غاب عن أعين أولئك البسطاء ، أن ذلك الهمس الإستعمارى الذى يدعو المسلمين الى ما أسموه بثورة الإصلاح فى شئون العقيدة الإسلامية ، إنما تستهدف فى الحقيقة نسف هذه العقيدة من جذورها .

وغاب عنهم أن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، إنما يعنى حشوه بمنجزات ناسفة تحيله أثرا بعد عين . ذلك لأن الوحى الإلهى - وهو ينبوع الإسلام ومصدره - يعدّ قمة الخوارق و الحقائق الغيبية كلها . ولا ريب أن الذى يسرع الى رفض ما قد جاء فى السيرة النبوية من خوارق العادات ، بحجة إختلافها عن مقتضى سنن الطبيعة و مدارك العلم الحديث ، يكون أسرع لرفض الوحى الإلهى كله بما يتبعه و يتضمنه من إخباراته عن النشور و الحساب و الجنة و النار بالحجة الطبيعية ذاتها .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح فى ذاته لا يحتاج فى عصر ما الى مصلح يتدارك شأنه ، أو إصلاح يغير من جوهره

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم ، لو كانوا يتمتعون بحقيقته وينسجمون مع منطقيته . ولكن أعينهم غشيت فى غمرة إنبهارها بالنهضة الأوروبية الحديثة وما قد حف بها من شعارات العلم و ألفاظه ، فلم تبصر من حقائق المنطق و العلم إلا عناوينها وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة الى فهم كامل لما وراء تلك العناوين والى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات . فلم يعد يستأثر بتفكيرهم إلا خيال نهضة (إصلاحية) تطور العقيدة الإسلامية هنا كما تطورت العقيدة النصرانية هناك .

وهكذا ، فقد كان عماد هذه المدرسة الحديثة التى أشرنا اليها بإيجاز هياجا فى النفس ، أكثر من أن يكون حقيقة علمية مدروسة إستحوذت على العقل .

مصير هذه المدرسة اليوم :

و الحقيقة أن الإهتمام بهذه المدرسة فى كتابة السيرة وفهمها ، والحماسة التى ظهرت يوما ما لدى البعض فى الأخذ بها - إنما كان منعطفا تاريخيا ومرّ ... وعذر اولئك الذين كتب عليهم أن يمروا بذلك المنعطف أو يمر هو بهم ، أنهم كانوا - كما قلنا - يفتحون أعينهم ،ذ ذاك على خبر النهضة العلمية فى أوروبا ، بعد طول غفلة و إغماض . وإنه لأمر طبيعى أن تنبهر العين عند أول لقياها مع الضياء ، فلا تتبين حقائق الأشياء ، ولا تتميز الأشباه عن بعضها . حتى إذا مر الوقت ، واستراحت العين الى الضياء أخذت الأشياء تتمايز وبدت الحقائق جلية لا لبس فيها ولا غموض .

وهذا ما قد تم فعلا ، فقد إنجابت الغاشية ، وصفت أسباب الرؤية السليمة أمام الأبصار ... أبصار الجيل الواعى المثقف اليوم . فانطلق يتعامل مع حقيقة العلم و جوهره ، بعد أولئك الذين أخذوا بألفاظه وانخدعوا بشعاراته . ثم عادوا وقد أيقنوا ببصيرة الباحث العليم المفكر الحر ، بأن شيئا مما يسمى بالخوارق و المعجزات لايمكن أن تتنافى فى جوهرها مع حقائق العلم وموازينه .

وذلك لأن الخوارق سميت كذلك لخرقها لما هو مألوف أمام الناس ، وما كان للإلف أو العادة أن يكون مقياسا علميا لما هو ممكن وغير ممكن . هيهات أن يقضى العلم يوما ما بأن كل ما استأنست إليه عين الإنسان مما هو مألوف ممكن الوقوع ، وأن كل ما استوحشت منه عين الإنسان مما هو غير مألوف له غير ممكن الوقوع .

ولقد علم كل باحث ومثقف اليوم بأن أحداث ما إنتهت إليه مدارك العلماء فى هذا الصدد ، هو أن العلاقة التى نراها بين الأسباب و مسبباتها ، ليست إلا علاقة إقتران مطرد ، إكتسبت تحليلا ثم تعليلا ، ثم إستنبط منها القانون الذى هو تابع لظهور تلك العلاقة وليس العكس .

فإن رحت تسأل القانون العلمى عن رايه فى خارقة أو معجزة الهية ، قال لك بلسان الحال الذى يفقهه كل عالم بل كل متبصر بثقافة العصر : ليست الخوارق و المعجزات من موضوعات بحثى واختصاصى ، فلا حكم لى عليها بشىء . ولكن إذا وقعت خارقة من ذلك أمامى فإنها تصبح فى تلك الحال موضوعا جاهزا للنظر و التحليل ، ثم الشرح و التعليل ، ثم تغطى تلك الخارقة بقانونها التابع لها .

وقد إنقرض الزمن الذى كان بعض العلماء يظنون فيه أن أثر الأسباب الطبيعية فى مسبباتها أثر حتمى يستعصى على التخلف و التغيير . وانتصر الحق الذى طالما نبه إليه ودافع عنه علماء المسلمين عامة و الإمام الغزالى خاصة ، من أن علاقات الأسباب بمسبباتها ليست أكثر من رابطة إقتران مجردة ، وما العلم فى أحكامه و قونينه إلا جدار ينهض فوق اساس هذا الإقتران وحده .

أما سر هذا الإقتران فهو عند ذلك الإله العظيم الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ولقد رأينا العالم التجريبى (دافيد هيوم) كيف يجلى هذه الحقيقة بأنصع بيان صارم .

نعم لابد أن يشترط كل ،نسان عاقل يحترم العقل و الحقيقة ، لقبوله أى خبر ، سواء تضمن أمرا خارقا أو مألوفا ، شرطا واحدا ، ألا وهو أن يصل ذلك الخبر اليه عن طريق علمى سليم ينعض على قواعد الرواية و الإسناد ومقتضيات الجرح و التعديل ، بحيث يورث الجزم و اليقين ، وتفصيل القول فى هذه الموازين العلمية العظيمة يستلزم كلاما طويل الذيل لسنا بصدد شىء منه الآن .

إن رجل العلم اليوم ، ليأخذ منه العجب كل مأخذ ، عندما يقف أمام هذا الذى يقوله حسين هيكل فى مقدمة كتابه (حياة محمد) (وإننى لم آخذ بما سجلته كتب السيرة و الحديث ، لأننى فضلت أن أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية) !

أى أنه يطمئنك الى أنه لم يأخذ حتى بما قد ثبت فى صحيحى البخارى ومسلم ، حفظا لكرامة العلم ..! إذاً فإن ما يرويه الإمام البخارى ضمن قيود رائعة عجيبة من الحيطة العلمية النادرة فى رواية الكلمة و الخبر ، إنحراف عن جادة العلم .... على حين تكون طريقة الإستنتاج و الحدس و التخمين وما يسمونه بمنهج التوسم ، حفظا لكرامته والتزاما لميزانه و جادّته ...!

أليس هذا من أفجع الكوارس النازلة برأس العلم .

وأخيرا كيف ندرس السيرة النبوية على ضوء ما قد ذكرناه :

من المعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، عندما ظهر فى الجزيرة العربية ، قدّم نفسه الى العالم على أنه نبى مرسل من قبل الله عز وجل الى الناس كافة ، ليؤكد لهم الحقيقة التى بعث بها الأنبياء الذين خلوا من قبل ، ولتحملهم المسئولية التى حمّلها الأنبياء السابقون أقوامهم ، موضحا أنه آخر نبى مرسل فى سلسلة الرسل الذين تعاقبوا مع الزمن ، ثم زاد نفسه تعريفا لهم فأوضح أنه ليس إلاّ بشرا من الناس يسرى عليه جميع سمات البشرية و أحكامها ، ولكن أن إئتمنه - بواسطة الوحى - على تبليغ الناس رسالة تعرفهم بهوياتهم الحقيقية ، وتنبههم الى موقع هذه الحياة الدنيا من خارطة المملكة الإلهية زمانا و مكانا ، وإلى مصيرهم الذى سيلقونه حتما بعد الموت ، كما تلفت أنظارهم الى ضرورة إنسجامهم فى سلوكهم الإختيارى مع هوياتهم التى لا مفر منها ، أى أن عليهم أن يكونوا عبيدا لله بتعيينهم وسلوكهم الإختيارى ، كما تحققت فيهم هذه العبودية بالواقع الإضطرارى . ثم أكد لهم بكل مناسبة أنه لا يملك أن يزيد أو ينقص أو يبدل شيئا من مضمون هذه الرسالة التى حمّله الله مسؤولية إبلاغها الى الناس جميعا ، بل أكد البيان الإلهى ذاته هذه الحقيقة قائلا :

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فمامنكم من أحد أحد عنه حاجزين) .

وإذا فإن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يقدم نفسه للعالم زعيما سياسيا ، أو قائدا وطنيا ، أو رجل فكرة ومذهب ، أو مصلحا إجتماعيا .... بل لم يتخذ لنفسه ، خلال حياته كلها أى سلوك قد يوحى بأنه يسعى سعيا ذاتيا الى شىء من ذلك

وإذا كان الأمر هكذا ، فإن الذى يفرضه المنطق علينا أن ندرس حياة رجل هذا شأنه ، أن ندرس حياته العامة من خلال الهوية التى قدم نفسه الى العالم عل أساسها ، لنستجلى فيها دلائل الصدق أو عدمه على ما يقول ...!

وهذا يلزمنا بلا ريب ، أن ندرس جميع النواحى الشخصية و الإنسانية فى حياته ، ولكن على أن نجعل من ذلك كله قبسا هاديا يكشف لنا ببرهان علمى وموضوعى عن حقيقة هذه الهوية التى قدم نفسه الى العالم على أساسها ، نعم ربما كان مقبولا أن نزعم بأننا لسنا مضطرين أن نشغل أفكارنا وعقولنا بهذا الذى أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يشغل الناس به من معانى النبوة و الرسالة فى شخصه ، لو أن الأمر لم يكن متعلقا بمصيرنا ، ولم يكن له من شأن تجربتنا و سلوكنا .

أما وأن القضية متعلقة بذواتنا وتكشف - إن صح الأمر - عن واجبات فى المعرفة و السلوك إن لم نسع الى تحقيقها ، وقعنا من ذلك فى مغبة شقاء عظيم و هلاك وبيل - إذاً فالمسألة أخطر من أن نتصور أنها لا تعنينا ، أو أن نمر عليها معرضين عابثين !

من العبث البين عندئذ أن نعرض عن دراسة هذه الهوية التى عرّف محمد صلى الله عليه وسلم العالم على نفسه من خلالها ، ثم نتشاغل بالتأمل فى جوانب أخرى من شخصه لا صلة لها بنا ، وليس لها بتلك الهوية أى تعلق أو مساس .

أجل وأى عبث أعبث من أن يقف أمامنا هذا الرجل : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ليكشف لنا عن ذاته ، ثم ليقو ل لنا محذرا بملء يقينه و مشاعره : والله لتموتن كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون ، ووالله إنها لجنة أبدا ، أو نار أبدا - ثم لا يهمنا من شخصه وكلامه هذا إلا التأمل فى عبقريته أو فصاحته وحكمته ! .

أليس هذا كما لو أقبل إليك إنسان و أنت على مفترق طرق ، يعّرفك منها على السبيل الموصل الهادى ويحذرك من المتاهات المهلكة ، فلم تلتفت من كل ما يقوله لك إلا إلى مظهره ولون ثيابه و طريقة حديثه ، ثم رحت تجعل من ذلك موضع درس وتحليل تستغرق فيه ؟ ! ..

إن المنطق يقضى أن تدرس حياة محمد صلى الله عليه وسلم من شتى جوانبها : نشأته و أخلاقه ، وحياته الشخصية و البيتية ، وصبره وكفاحه ، وسلمه وحربه ، وتعامله مع أصدقائه و أعدائه ، وموقفه من الدنيا و أهوائها وزخرفها . دراسة موضوعية تتوخى الصدق و الدقة بناء على المنهج العلمى الذى يقضى باتباع قواعد الرواية و الإسناد وشروط الصحة فيها - أقول إن المنطق يقضى بأن ندرس ذلك كله ، ولكن على أن تتخذ منه سلّما للوصول الى نهاية من البحث و الدرس تتأكد فيها من نبوته ، ونتبين فيها حقيقة الوحى فى حياته ، حتى إذا تجلى لنا ذلك بعد البحث الموضوعى المتجرد عن أى هوى أو عصبية ، أدركنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يخترع لنا من عنده شرعة و أحكاما ، وإنما كان أمينا على إبلاغها إيانا ، قضاءاً مبرما من لدن رب العالمين ، وعندئذ نتنبه الى أعظم مسؤولياتنا تجاه هذه الشرائع و الأحكام رعاية وتنفيذا .

ثم إن كل من ألزم نفسه من دراسة السيرة النبوية بالجوانب الإنسانية المجردة وراح يخللها بعيدا عن الهوية التى قدم النبى صلى الله عليه وسلم نفسه للناس على أساسها ، لابد أن يحبس نفسه ضمن ألغاز مغلقة لاسبيل الى الخروج منها بأى تحليل . لابد مثلا أن يقف ذاهلا حائرا أما لغز الفتح الإسلامى الذى قضى بأن يكون لطائفة من السيوف القديمة التى طالما أكل بعضها بعضا سلطان سحرى فى القضاء على حصن الحضارة الفارسية و جبروت البأس الرومانى . ولابد مثلا أن يقف حائرا كل الحيرة أمام لغز القانون الذى تكامل فى الجزيرة العربية قبل أن ينمو فيها نبت أى ثقافة ، وقبل أن يمتد إليها رواق أى حضارة أو مدنية ! تشريع متكامل توجت به الجزيرة العربية ، وهى لا تزال فى مرحلة المهد من سعيها الى المعرفة و الثقافة و الحياة الإجتماعية المعقدة ، كيف يتفق ذلك مع ما هو بدهى عند علماء الإجتماع من أن نشأة القانون المتكامل فى حياة الأمة ثمرة لنضجها الثقافى و الحضارى ، ونتيجة لتركيبها الإجتماعى المتطور ؟ !.

ألغاز تفعله ، لايمكن لمن لم يضع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى الحسبان ، أن يجد لها أى حل فى نطاق الأسباب و التعليلات المادية المألوفة . وكم رأينا من باحثين - من هذا القبيل - يتطوعون بأفكارهم ذات اليمين و ذات الشمال بحثا عن مخرج من الحيرة دون أن يعودوا من سعيهم بأى طائل . ولكن سبيل المخرج من هذه الحيرة واضح مع ذلك . فالسبيل هو أن نكون منطقيين وموضوعيين فى دراسة السيرة النبوية ، نجعل من الهوية التى عرّف على نفسه من خلالها محورا لدراسة حياته العامة كما قلنا ، حتى إذا سلمتنا هذه الدراسة الى اليقين بأنه نبى مرسل من قبل الله تعالى ، أسلمتنا نبوته بدورها الى المخرج من الحيرة و الوقوف على السر بالنسبة لهذه الألغاز ، إن النبى الصادق فى نبوته لا بد أن يكون مؤيدا من قبل الإله الذى أرسله ، ولابد أن يكون القرآن وحى هذا الإله إليه ، فالقانون المتكامل إذاً تنزيله وشرعته وليس من تأليف أمة أمية حتى يقع العجب وتطبق الحيرة .

وهذا الإله يقول للمؤمنين فى محكم تبيانه : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)

ويقول : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فىالأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) . ويقول : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلاّ بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلاّ من عند الله إن الله عزيز الحكيم) . فقد اتضح المبهم ،وظهر الحل ، وانجابت الغشاوة ، وعاد الأمر طبيعيا إذ ينصر خالق القوى و القدر عباده المؤمنين به الملتزمين بمنهجه ويحقق لهم الفوز على من يشاء .

بل الحيرة كل الحيرة كانت تقع لو أن الله التزم النصر لرسوله و التأييد لعباده المؤمنين ، ثم لم تقع معجزة ذلك النصر و التأييد .

سر إختيار الجزيرة العربية مهداً لنشأة الإسلام

ولابدّ قبل أن ندخل فى الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم ، وعن الجزيرة العربية التى نشأ فيها واختاره الله منها - من أن نستجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تكون بعثته عليه الصلاة و السلام فى هذه البقعة من العالم دون غيرها ، وأن تكون نشأة الدعوة الإسلامية على يد العرب قبل غيرهم .

ولبيان هذا ينبغى أولا أن نعلم خصائص العرب و طباعهم قبل الإسلام ، وأن نتصور البقعة الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها وموقعها مما حولها وأن نتصور فى مقابل ذلك ما كانت عليه الأمم الأخرى إذ ذاك كالفرس و الروم و اليونان والهنود ، من العادات و الطباع و الخصائص الحضارية .

ولنبدأ أولا بعرض موجز لما كانت عليه الأمم التى تعيش من حول الجزيرة العربية قبيل الإسلام . كان يتصدر العالم إذ ذاك دولتان إثنتان ، تتقاسمان العالم المتمدن هما : فارس و الروم ، ويأتى من ورائهما اليونان و الهند . أما فارس فقد كانت حقلا لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة . كان فيها الزرادشتية التى إعتنقها ذوو النفوذ و السلطة الحاكمون ، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو إبنته أو أخته ، حتى أن يزدجرد الثانى الذى حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بابنته . هذا الى جانب إنحرافات خلقية مشينة مختلفة لا مجال لسردها هنا .

وكان فيها (المزدكية) التى قامت كما يقول الإمام الشهرستانى على فلسفة أخرى هى حل النساء و إباحة الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء و النار و الكلأ ، وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات و الأهواء وصادفت لديهم قبولا عظيما .

أما الرومان ، فقد كانت تسيطر عليهم الروح الإستعمارية ، وكانت منهمكة فى خلاف دينى بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى ، وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الإستعمارى فى مغامرة عجيبة من أجل تطوير المسيحية و التلاعب بها حسبما توحى بها مطامعها و أهواءها المستشرية . ولم تكن هذه الدولة فى الوقت نفسه أقل إنحلالا من دولة فارس ، فقد كانت تسودها حياة التبذل و الإنحطاط و الظلم الإقتصادى من جراء كثرة الأتاوات ، ومضاعفة الضرائب .

أما اليونان فقد كانت غارقة فى هوسات من خرافاتها و أساطيرها الكلامية التى منيت بها دون أن ترقى منها الى ثمرة أو نتيجة مفيدة .

وأما الهند فقد كانت كما قال عنها الأستاذ أبو الحسن الندوى : أنه قد إتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى ، فقد ساهمت الهند مع جاراتها و شقيقاتها فى التدهور الأخلاقى و الإجتماعى .

هذا ، وينبغى أن نعلم أن القدر المشترك الذى أوقع هذه الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من إنحلال واضطراب وشقاء ، إنما هو الحضارة و المدنية اللتين تقومان على أساس القيم المادية وحدها دون أن يكون ثمّة مثل أعلى يقود هذه الحضارة و المدنية فى سبيلها المستقيم الصحيح . ذلك أن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب ... فإن عدم أهلها التفكير الصائب و المثل العليا الصحيحة إستحالت الحضارة فى أيديهم إلى وسيلة للنزول بها الى درك الشقاء و الإضطراب ، أما إن أوتى أهلها مقياسا من العقل الرشيد الذى قلما يأتى إلا بواسطة الدين و الوحى الإلهى ، فإن القيم الحضارية و المدنية كلها تصبح وسائل جميلة سهلة الى السعادة التامة فى مختلف أنواعها ومظاهرها .

* * *

أما الجزيرة العربية فقد كانت هادئة ، بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذه الإضطرابات كلها ، فلم يكن لدى أهلها من الترف و المدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون فى خلق وسائل الإنحلال وفلسفة مظاهر الإباحية و الإنحطاط الخلقى ووضعها فى قوالب من الدين ،

ولم تكن لديهم من الطغيان العسكرى الرومانى ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أى رقعة من حولهم ، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة و الجدل اليونانى ما يصبحون به فريسة للأساطير و الخرافات .

كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة (الخام) التى لم تنصهر بعد فى أى بوتقة محوّلة ، فكانت تترآى فيها الفطرة الإنسانية السليمة ، والنزعة القوية الى الإتجاهات الإنسانية الحميدة ، كالوفاء و النجدة و الكرم والإباء و العفة . إلاّ أنه كانت تعوزهم المعرفة التى تكشف لهم الطريق الى كل ذلك . إذ كانوا يعيشون فى ظلمة من الجهالة البسيطة و الحالة الفطرية الأولى ، فكان يغلب عليهم - بسبب ذلك - أن يضلوا الطريق الى تلك القيم الإنسانية فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف و العفة ، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم ، ويثيروا فيما بينهم الحروب و المعارك بدافع الإباء و النجدة .

وهذه الحالة هى التى عبر عنها الله عز وجل بالضلال حينما وصفها بقوله : (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) البقرة (198) ، وهى صفة إذا ما نسبت الى حال الأمم الأخرى إذ ذاك - تدل على الإعتذار لهم أكثر من أن تدل على تسفيههم أو تعييرهم بها .

ذلك أن الأمم الأخرى كانت تستهدى لإنحرافاتها العظيمة بمشاعل الحضارة و الثقافة و المدنية . فكانت تتقلب فى حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر ، ثم إن الجزيرة العربية تقع بالنسبة لرقعتها الجغرافية فى نقطة الوسط بين هذه الأمم التى تموج من حولها .

و الناظر إليها اليوم يجد - كما يقول الأستاذ محمد المبارك - كيف أنها تقف فى الوسط التام بين حضارتين جانحتين : إحداهما حضارة الغرب المادية التى قدمت عن الإنسان صورة بتراء لا تقع حتى على جانب جزئى من الحقيقة ، وأخراهما الحضارة الروحية الخيالية فى أقصى الشرق كتلك التى كانت تعيش فى الهند و الصين وما حولهما .

فإذا تصورنا حالة العرب فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وحالة الأمم المختلفة الأخرى المحيطة بهم ، سهل علينا أن نستجلى الحكمة الإلهية التى إقتضت أن تتشرف الجزيرة العربية دون غيرها بمولده و بعثته صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون العرب هم الطليعة الأولى التى تحمل الى العالم مشعل الدعوة الى الدين الإسلامى الذى تعبد الله به الجنس البشرى كله من أقصى العالم الى أقصاه .

وهى ليست كما يظن البعض أن أصحاب التدين الباطل و الحضارات الزائفة يصعب فيهم العلاج و التوجيه لإفتخارهم بما هم عليه من فساد ولرؤيتهم إياه شيئاً صالحا ، أما الذين لا يزالون يعيشون فى فترة البحث و التنقيب ، لا ينكرون جهلهم ولا يدّعون ما لم يؤتوه من مدنية وعلم وحضارة ، فهم أطوع للعلاج و التوجيه - نقول ليست هذه هى الحكمة ، لأن مثل هذا التحليل يصدق بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة وطاقته مخلوقة فهو يفرق بين ما هو سهل و صعب عليه ، فيفضل الأول ويتهرب من الثانى طمعا فى الراحة وكراهية للنصب . ولو تعلقت إرادة الله تعالى بأن يجعل مشرق الدعوة الإسلامية من جهة ما فى أرض فارس أو الروم أو الهند ، لهيأ لنجاح الدعوة فيها من الوسائل ما هيأ لها فى الجزيرة العربية ، وكيف يعز عليه ذلك وهو خالق كل شىء ومبدع كل وسيلة وسبب .

ولكن الحكمة فى هذا الإختيار من نوع الحكمة التى إقتضت أن يكون الرسول أميّا لا يتلوا من كتاب ولا يخطه بيمينه كما قال الله تعالى حتى لا يرتاب الناس فى نبوته عليه الصلاة و السلام وحتى لا تتكاثر لديهم الأسباب للشك فى صدق دعوته .

إذ من تتمة هذه الحكمة الإلهية أن تكون البيئة التى بعث فيها عليه الصلاة و السلام أيضا بيئة أمية بالنسبةللأمم الأخرى التى من حولهم أى لم يتطرق إليها شىء من الحضارات المجاورة لها ، ولم تتعقد مناهجها الفكرية بشىء من الفلسفات التائهة حولها .

ذلك أنه كما يخشى من دخول الريبة فى صدور الناس إذا ما رأوا النبى متعلما مطلعا على الكتب القديمة وتاريخ الأمم البائدة و حضارات الدول المجاورة - كذلك يخشى من دخول هذه الريبة فى الصدور إذا ما ظهرت الدعوة الإسلامية بين أمّة لها شأن فى

الحضارة و المدنية و الفلسفة وتاريخ ذلك ، كدولة الفرس أو اليونان أو الرومان ، إذ ربّ مرتاب مبطل يزعم أنها سلسلة التجارب الحضارية و الأفكار الفلسفية أبدعت أخيرا هذه الحضارة الفذة و التشريع المتكامل .

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحكمة بصريح العبارات حينما قال : (هو الذى بعث فى الأميين رسول منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب و الحكمة وإن كانوا من قبله لفى ضلال مبين) .

فلقد إقتضت إرادة الله تعالى أن يكون رسوله أميّا ، وأن يكون القوم الذين ظهر فيهم هذا الرسول أميين أيضا فى غالبيتهم العظمى ، حتى تكون معجزة النبوة و الشريعة الإسلامية واضحة فى الأذهان لا لبس بينها و بين الدعوات البشرية المختلفة ، وهذا ينطوى ـ كما هو واضح ـ علر رحمة عظيمة بالعباد .

وهنالك حكم أخرى لا تخفى على الباحث نجملها فيما يلى :

1- من المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وامنا ، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية ، وحقق فى ذلك الوادى دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة و السلام . ومن لوازم هذا كله و متمماته أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدا للدعوة الإسلامية التى هى ملة أبينا إبراهيم وأن تكون بعثة خاتم النبيين ومولده فيها ، كيف لا وهو نسل إبراهيم عليه الصلاة و السلام .

2- البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة ، بسبب أنها تقع ـ كما قلنا ـ فى نقطة الوسط بين الأمم المختلفة التى من حولها .

وهذا مما يجعل إشاعات الدعوة الإسلامية تنتشر بين جميع شعوب الدول المحيطة بها فى سهولة ويسر ، وإذا أعدت النظر الى سير الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين وجدت مصداق ذلك جليا واضحا .

3- إقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هى لغة الدعوة الإسلامية وأن تكون وسيلة المباشرة الأولى لترجمة كلام الله عز وجل وإبلاغه إلينا . ولعلنا لو أمعنا النظر فى خصائص اللغات وقارنا بينها ، لوجدنا أن اللغة العربية تمتاز بكثير من الخصائص التى يعز وجودها فى اللغات الأخرى ، فأجدر بها أن تكون لغة المسلمين الأولى فى مختلف ربوعهم و بلادهم .

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وعلاقة دعوته بالدعوات السماوية السابقة

محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، فلا نبى بعده ، وهذا مما أجمع عليه المسلمون ، وعرف من الدين بالضرورة ، قال عليه الصلاة والسلام : (مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنا بيتا فأحسنه و أجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة و أنا خاتم النبيين) .

أما دعوته وعلاقتها بدعوات الأنبياء السابقين ، فقائمة على أساس التأكيد و التتميم كما يدل عليه الحديث السابق . وبيان ذلك أن دعوة كل نبى تقوم على أساسين إثنين : الأول : العقيدة ، و الثانى :التشريع و الأخلاق . فأما العقيدة فلم يختلف مضمونها منذ بعثة آدم عليه السلام الى بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما هى الإيمان بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به من الصفات ، و الإيمان باليوم الآخر و الحساب و الجنة و النار ، فكان كل نبى يدعو قومه للإيمان بهذه الأمور ، وكان كل منهم مصدق لدعوة من سبقه ومبشرا بدعوة من سيأتى بعده ، وهكذا تلاحقت بعثتهم الى مختلف الأقوام و الأمم ليؤكد الجميع حقيقة واحدة أمروا بتبليغها وحمل الناس على الإذعان لها ، ألا وهى الدينونة لله عز وجل وحده ، وهذا ما بينه الله تعالى بقوله فى كتابه الكريم :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الشورى 13

بل إنه لا يتصور أن تختلف دعوات الأنبياء الصادقين فى شأن العقيدة ، لأن أمور العقيدة من نوع الإخبار ، والإخبار عن شىء لا يمكن أن يختلف ما بين مخبر وآخر إذا فرضنا الصدق فى خبر كل منهما ، فمن غير المعقول أن يبعث أحد الأنبياء ليبلغ الناس أن الله ثالث ثلاثة (سبحانه عما يقولون) ثم يبعث من بعده نبى آخر ليبلغهم أن الله واحد لا شريك له ويكون كل منهما صادقا فيما بلغ عن الله تعالى . هذا عن العقيدة ، أما عن التشريع وهو سنّ الأحكام التى يتوخى منها تنظيم حياة المجتمع و الفرد ، فقد كان يختلف فى الكيف و الكم ما بين بعثة نبى وآخر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وسبب ذلك أن التشريع من نوع الإنشاء لا الإخبار ، فلا يرد فيه ما أوردناه على إختلاف العقيدة . ثم من المفروض أن يكون للتطور الزمنى و لإختلاف الأمم و الأقوام أثر فى تطور التشريع واختلافه ، بسبب أن أصل فكرة التشريع قائم على أساس ما تقتضيه مصالح العباد فى دنياهم و آخرتهم ، هذا الى أن كل بعثة نبى من الأنبياء السابقين كانت خاصة بأمة معينة ولم تكن عامة للناس كلهم ، فكانت الأحكام التشريعية محصورة فى إطار ضيق حسبما تقتضيه حال تلك الأمة بخصوصها .

فقد بعث موسى عليه السلام لبنى إسرائيل وكان الشأن يقضى - بالنسبة لحال بنى إسرائيل إذ ذاك - أن تكون شريعتهم شديدة قائمة فى مجموعها على أساس العزائم لا الرخص . ولما مرت الأزمنة وبعث فيهم سيدنا عيسى عليه السلام كان يحمل إليهم شريعة أسهل و أيسر مما كان قد بعث به موسى عليه السلام من قبل ، وانظر فى هذا الى قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو يخاطب بنى إسرائيل (ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة و لأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم) آل عمران 50

فقد بين لهم أنه فيما يتعلق بأمور العقيدة ، مصدق لما جاء فى التوراة ومؤكدا له ومجدد للدعوة إليه ، أما بالنسبة للتشريع و أحكام الحلال و الحرام ، فقد كلف ببعض التغييرات و إيجاد بعض التسهيلات ونسخ بعض ما كانوا قد يعانونه من الشدة فى الأحكام .

وبناء على هذا فإن بعثة كل رسول تتضمن عقيدة وتشريعا : فأما العقيدة فعمله بالنسبة لها ليس سوى تأكيد لنفس العقيدة التى بعث بها الرسل السابقون دون أى إختلاف أو تغيير .

وأما التشريع ، فإن شريعة كل رسول ناسخة لشريعة من سبقه إلا ما أيده التشريع المتأخر أو سكت عنه ، وذلك على مذهب من يقول : شريعة من قبلنا شريعة لنا إذا لم يرد ما يخالفها .

ويتضح مما سبق أنه لا توجد أديان سماوية متعددة وإنما توجد شرائع سماوية متعددة نسخ اللاحق السابق الى ان استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التى قضت حكمة الله أن يكون مبلغها هو خاتم النبيين و الرسل أجمعين . أما الدين الحق فواحد ، بعث الأنبياء كلهم للدعوة إليه و أمر الناس بالدينونة له منذ آدم عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو الإسلام .

به بعث إبراهيم و إسماعيل ويعقوب ، يقول الله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العلمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ و أنتم مسلمون) البقرة 130-132

وبه بعث عيسى عليه السلام ، يقول اله تعالى :(فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون) آل عمران 52

قد يقال : فلماذا يحتفظ الذين نسبتهم الى موسى عليه الصلاة و السلام بعقيدة خاصة تختلف عن عقيدة التوحيد التى بعث بها الأنبياء كلهم ؟ ولماذا يؤمن من يدعون نسبتهم الى عيسى عليه الصلاة و السلام بعقيدة خاصة أخرى ؟ .

و الجواب على هذا ما قاله الله عز وجل فى كتابه الكريم :(إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهمالعلم بغيا بينهم) آل عمران 19

وما قاله أيضا فى سورة الشورى عقب قوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) الآية :(وما تفرقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب) الشورى 14 .

فالأنبياء كلهم بعثوا بالإسلام الذى هو الدين عند الله ، وأهل الكتاب يعلمون وحده الدين ويعلمون أن الأنبياء إنما جاءوا ليصدق كل منهم الآخر فيما بعث به من الدين ، وما كانوا ليتفرقوا الى عقائد متباينة مختلفة ولكنهم اختلفوا وتفرقوا واختلقوا على أنبيائهم ما لم يقولوه ، رغم ما جاءهم من العلم فى ذلك ، بغيا بينهم كما قال الله تعالى .

الجاهلية وما كان فيها من بقايا الحنيفية

وهذه أيضا مقدمة هامة لابد من دراستها قبل الخوض فى أبحاث السيرة وما فيها من فقه و عظات ، إذ هى تنطوى على حقيقة لا يزال خصوم هذا الدين يطمسون عليها ويزيفونها بأشكال من الوهم و الأباطيل .

وخلاصة هذه الحقيقة أن الإسلام ليس إلا إمتداداً للحنيفية السمحة التى بعث الله بها أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وقد صرح بذلك كتاب الله عز وجل فى آيات كثيرة منها قوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو إجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) الحج 78 وقوله تعالى :(قل صدق الله فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)

وأنت خبير أن العرب هم أولاد إسماعيل ابن إبراهيم عليهما الصلاة و السلام ، فكان أن توارثوا ملّة أبيهم ومنهاجه الذى بعث به من توحيد الله وعبادته و الوقوف عند حدوده وتقديس حرماته .

وفى مقدمة ذلك تعظيم البيت الحرام وتقديسه واحترام شعائره والذود عنه و القيام بخدمته وسدانته فلما إمتدت بهم القرون و طال عليهم الأمد ، أخذوا يخلطون الحق الذى توارثوه بكثير من الباطل الذى تسلل إليهم ، شأن سائر الأمم و الشعوب عندما يغشاها الجهل ويبعد بها العهد ويندّس بين صفوفها المشعوذون و المبطلون .

فدخل فيهم الشرك واعتادوا عبادة الأصنام وتسللت إليهم التقاليد الباطلة و الأخلاق الفاحشة ، فابتعدوا بذلك عن ضياء التوحيد وعن منهج الحنيفية وعمت بينهم الجاهلية التى رانت عليهم أمدا من الدهر ، ثم إنقشعت عنهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان أول من أدخل فيهم الشرك وحملهم على عبادة الأصنام عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خزاعة : روى ابن اسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن جون الخزاعى : يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خندف يجرّ قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه ، فقال أكثم : عسى أن يضرنى شبهه يارسول الله ؟ قال : لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى) .

وروى ابم هشام كيفية إدخال عمرو بن لحىّ هذا ، عبادة الأصنام فى العرب فقال : خرج عمروبن لحىّ من مكة الى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم (مآب) من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق ، ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له (هبل) فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

وهكذا إنتشرت عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية وشاع فى أهلها الشرك ، فانسلخوا من عقيدة التوحيد التى كانوا عليها واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، وانتهوا الى مثل ما إنتهت إليه الأمم الأخرى من الضلالات و القبائح فى المعتقدات و الأفعال .

وكان من أهم ما دفعهم الى ذلك كله الجهل و الأمية و التأثر بمن كان حولهم من أشتات القبائل و الأمم غير أنه بقيت فيهم بقية من الناس - وإن كانت تقل مع الزمن - ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد، سائرة على نهج الحنيفية : تصدق بالبعث و النشور وتوقن بأن الله يثيب المطيع و يعاقب العاصى ، وتكره هذا الذى استحدثه العرب من عبادة الأوثان وضلالات الرأى و الفكر ، ولقد إشتهر من هذه البقية كثيرون : كقس بن ساعدة الأيادى ، ورئاب الشنّى ، وبحيرا الراهب .

كما أنه بقيت فى عاداتهم بقايا من عهد إبراهيم ومبادىء الدين الحنيف وشعائره - وإن كانت تتضاءل وتضعف مع الزمن - فكانت جاهليتهم تظل منصبغة ، بقدر ما بآثار من شعائر الحنيفية ومبادئها ، وإن كانت هذه الشعائر و المبادىء لا تكاد تظهر فى حياتهم إلاّ مشوهة فاسدة ، وذلك كتعظيم البيت و الطواف به والحج و العمرة وكالوقوف بعرفة وهدى البدن ، فأصل ذلك كله مشروع ومتوارث لديهم من عهد إبراهيم عليه الصلاة و السلام ولكنهم كانوا يطبقونه على غير وجهه ويقحمون فيه الكثير مما ليس منه ، وكإهلالهم بالحج والعمرة ، فقد كانت كنانة وقريش يقولون إذا أهلوا : (لبيك الهم لبيك ، لبيك لا شريك ، إلاّ شريك هو لك ، تملكه وما ملك) فيوحدونه - كما قال ابن هشام - بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده .

و الخلاصة أن نشأة التاريخ العربى إنما تمت فى كنف الحنيفية السمحة التى بعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فكانت تغمر حياتهم عقيدة التوحيد ونور الهداية و الإيمان ، ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحق رويدا رويدا، بعامل إمتداد الزمن و تطاول القرون وبعد العهد وأخذت حياتهم تنغمر بدلا من ذلك بظلمات الشرك و ضلالات الفكر وعماهة الجهل ، مع إستمرار بقايا من معالم الحق القديم ومبادئه تخب فى سير بطىء مع تاريخهم ، تذوى وتضعف مع الدهر ويقل أنصارها ما بين سنة و أخرى . فلما استنارت شعلة الدين الحنيف من جديد ، ببعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، أقبل الوحى الإلهى الى كل ما قد تكثف من ضلالات و ظلمات خلال تلك الحقبة الطويلة من الزمن فمحاه و أنار مكانه بقبس الإيمان و التوحيد ومبادىء العدالة و الحق ، وأقبل الى تلك البقايا التى إمتدت بها الحياة الى مشرق النور الجديد ، مما كان قد بعث به إبراهيم عليه السلام و أقرته الشرائع الإلهية ، فأقرها وأكدها وجدد الدعوة اليها .

ولا ريب أن من نافلة القول وفضوله أن نؤكد بأن هذا الذى نقرره شىء معروف بالبداهة لمن إطلع على التاريخ ، وأنه شىء ثابت بالبداهة لمن درس شيئا من الإسلام ، غير أننا نضطر فى هذا العصر الى أن نضيع كثيرا من الوقت فى تأكيد البديهيات وتوضيح الواضحات . وذلك بعد أن رأينا بأعيننا كيف يخضع بعض الناس إعتقاداتهم لمجرد ما قد يكون فى نفوسهم من الرغبة و الإرادة .

أجل لفقد عاشت هذه النوعية من الناس ، ولم يعد يهمها أنها إنما تصفد عقلها بأقسى أغلال العبودية و الإسترقاق الفكرى ! .

وما أعظم الفرق بين أن تكون إرادتك من وراء عقيدتك ، وبين أن تكون عقيدتك وراء إرادتك . ما أعظم الفرق بينهما علواً وإسفافاً ، وعزة وانحطاطا !

لقد وجد ناس يقولون - بالرغم من بداهة ما قلناه ووضوح براهينه - إن العصر الجاهلى أخذ يستيقظ قبيل البعثة على السبيل الأمثل الذى يجب إتباعه ، وأحذت الأفكار العربية تثور على مظاهر الشرك و عبادة الأصنام وما يحف بها ويتبعها من خرافات جاهلية ، ولقد تمثلت هذه اليقظة و الثورة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الجديدة .

ومعنى هذه الدعوة - كما لا يخفى عليك - أن التاريخ الجاهلى كان يزداد تفتحا على حقائق التوحيد ونور الهداية مع إمتداد الزمن وتطاول الدهر ، أى أنهم كلما إبتعدوا عن عهد إبراهيم وقامت بينهم وبينه قرون أخرى ، إزدادوا قربا الى مبادىء دعوته حتى

بلغ هذا القرب مداه الأخير إبّان بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم ! . فهل هكذا يقرر التاريخ ، أم أنه يقرر عكس ذلك تماما فى أبسط ما تنطق به (ألف باؤه) الواضحة المفهومة ؟

كل باحث و متأمل حر ، يعلم أن العهد الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم إنما كان أبعد العهود الجاهلية عن هديه عليه الصلاة و السلام بالنسبة لسائر العهود الأخرى ، والأطلال التى كانت لدى العرب عند بعثته عليه الصلاة و السلام من معالم الحنيفية السمحة ومبادئها والتى كانت تتمثل فى لمع خاطفة من كراهية الأصنام و الترفع عن عبادتها وفى النزوع الى بعض الفضائل و القيم التى أقرها الإسلام - هذه الأطلال لا تبلغ معشار ما كان بارزاً واضحاً منها لديهم قبل بضعة قرون . وقد كان المتوقع حسب تصور هؤلاء إذاً لمعنى النبوة و البعثة ، أن تكون بعثته عليه الصلاة و السلام قبل الزمن الذى بعث فيه بعدة قرون و أجيال !!

وأما أناس آخرون ، فقد طاب لهم أن يقرروا بأن محمد صلى الله عليه وسلم لمّا لم يستطع القضاء على معظم ما كان معروفا لدى العرب من الأعراف و التقاليد و الطقوس و الإعتقادات الغيبية ، عمد فأسبغ على كل ذلك ثوب الديانة وأخرجه مخرج التكليفات الإلهية ، وبتعبير آخر : إنما أتى محمد عليه الصلاة و السلام ليضيف الى جملة العقائد الغيبية عند العرب رقابة عليا قوامها شخصية إله قادر على ما يشاء ، فعال لما يريد ، فقد استمر العرب بعد الإسلام يؤمنون بالسحر و بالجن وبسائر العقائد المماثلة ، كما أنهم ظلوا على ما كانوا عليه من الطواف بالكعبة وتقديسها و أداء طقوس وشعائر معينة نحوها .

و إنما ينطلق هؤلاء فى دعواهم هذه من فرضيتين اثنتين لا يريدون أن يتصوروا خطأهما بحال ، الفرضية الأولى : أن محمد صلى الله عليه وسلم ليس نبيا ، والثانية : أن ما كان لدى العرب من بقايا إبراهيم التى تحدثنا عنها ، إنما هو من مخترعاتهم وتقاليدهم التى إبتدعوها مع الزمن من عند أنفسهم ، فليس إحترام الكعبة وتقديسها أثراً من آثار دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما أمره ربه بذلك ، وإنما هو شىء نسجته البيئة العربية فكان تقليداً من جملة التقاليد العربية المختلفة .

وفى سبيل المحافظة على هاتين الفرضيتين أن لا يصيبهما خدش أو وهن ، يغمض أربابهما العين عن جميع الأدلة و الوقائع التاريخية الجلية الكبرى التى تقف فى طريقهما أو التى تردّهما وتكشف عن زيفهما و بطلانهما .

غير أن المعلوم أن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يوصل الباحث إليها ما دام أنه لا يخط السبيل نحوها إلا ضمن ما تسمح به الفرضية التى وضعها فى ذهنه سلفا وقبل أى بحث . إن من المعلوم أن مثل هذا البحث إنما هو صورة من أوضح صور العبث و المضحك .

ولذلك فإننا لا نجد مناصا من أن نأخذ عبين الإعتبار كل دليل عقلى أو واقعة تاريخية لدى محاولة الوصول الى أى حقيقة ، ما دمنا لا نقصد إلا الحقيقة الذاتية نفسها ، وما دمنا لا نريد أن نكذب على أنفسنا و على الناس فنصطنع البحث الحر إبتغاء حمل الآخرين على فكرة معينة مهما كان شأنها ومهما كانت علاقتها بالحقيقة وواقع الأمر ، لا لشىء إلا لمجرد التعصب لها .

فنحن لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم المختلفة مثل ظاهرة الوحى و معجزة القرآن وظاهرة التطابق بين دعوته ودعوة الأنبياء السابقين وجملة صفاته و أخلاقه ، لمجرد أن تسلم لن فرضية أن محمداً عليه الصلاة و السلام ليس بنبىّ .

كما أنه لا يمكننا بحال أن نغمض الفكر عن التاريخ الذى ينص على بناء إبراهيم للكعبة المشرفة بأمر ووحى من الله جل جلاله وعن جملة ما تعاقب الأنبياء على الدعوة إليه من توحيد الله عز وجل و الإيمان بالغيبيات المتعلقة بيوم الحشر و الجزاء وما يتبعه من جنة ونار مما دلت عليه نصوص الكتب السماوية السابقة وصدقه التاريخ ووعته الدهور و الأجيال ، لمجرد أن تسلم لنا

فرضية أن ما نسميه (بقايا عهد إبراهيم) فى العهد الجاهلى لم يكن إلا تقليد إبتدعها الفكر العربى وأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما جاء ليطليها بطلاء الدين .

ومن الجدير بالذكر أن تعلم أن الناس يطيب لهم أن يزعموا هذا الزعم ، لا يسوقون بين يدى زعمهم هذا ولا من خلفه أى برهان أو دليل مهما كان نوعه ، إنما هو العرض المجرد لهذا التصور وبسطه فى عبارات ممطوطة مكررة ليس إلاّ .

ولعلك تطلب منى مثالاً على ذلك . إذاً فدونك فاقرأ كتاب بنية الفكر الدينى للمستشرق الإنكليزى المعروف (جيب) فستبصر حينئذ مدى ما تفعله العصبية العمياء بهؤلاء الناس تلك العصبية العجيبة التى كثيراً ما تحمل صاحبها على أن يتجرد حتى من مقومات كرامته وأن يتباله أمام شوامخ الأدلة و الحقائق الناصعة كى لا يلزم بالخضوع لها .

إن بنية الفكر الدينى فى الإسلام بنظر جيب إنما هى تلك العقائد و الأفكار الغيبية عند العرب : (الأحيائية العربية) فقد تأمل محمد صلى الله عليه وسلم فيها فغير ما أمكنه تغييره ثم عمد الى الباقى مما لم يمكنه التخلص منه فكساه حلّة الدين الإسلامى ثم لم ينس أن يدعمه بهيكل من الأفكار و المواقف الدينية الملائمة ، وهنا واجهته المشكلة العظمى التى إعترضت سبيله ، فهو يريد أن يبنى هذه الحياة الدينية لا للعرب فقط بل لشعوب وأمم بأسرها ، فكان أن أقام هذه الحياة ضمن منهج القرآن .

تلك هى خلاصة أفكاره فى الكتاب . وتقرأ هذه الأفكار من أولها الى آخرها فلا تجده يقدم دليل واحد على شىء مما يقول . وتتأمل فى هذا الذى يعرضه ، فلا تشك فى أن الرجل قد إستودع قواه العقلية بعيدا عن عن المكان الذى جلس يكتب فيه ، واستعاض عنها بأوهام وخيالات خصبة راح يستوحى منهما كل ما يقرره ويحكم عليه .

ويبدوا أنه حينما جلس يكتب مقدمة الترجمة العربية له ، تصور كيف أن القراء سينبذون أفكاره هذه عن الإسلام بإحتقار ، فراح يعتذر ! . راح يعتذر بأن قال : إن الأفكار التى أسست عليها هذه الفصول ليست بنات دماغ هذا المؤلف ، بل سبقنى إليها ودلنى عليها جماعة من المفكرين ومن أقطاب المسلمين وقد يطول إحصاؤهم ، فسأكتفى بذكر أحدهم بسبيل المثال ، هو الشيخ الكبير شاه ولى الله الدهلوى . ثم نقل نصاً للشاه ولى الله الدهلوى عزاه الى ج 1 ص 122 من كتابه حجة الله البالغة ، ويبدوا أنه إطمأن الى أن أحداً من القراء لن يجشم نفسه مشقة الرجوع الى الكتاب و التأكد من النص الذى فيه ، فحرف على لسان الرجل ما شاء له هواه ، واقتنص منه ما رآه كفيلا بتحوير معناه وتنكيس مقصده ، حتى حمله بذلك من الوزر مالم يحمل و أنطقه بما هو منه برىء .

فأما النص كما إنتزعه واقتنصه من أصله فهو (أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث بعثة تتضمن بعثة أخرى ، فالأولى إنما كانت الى بنى إسماعيل ... وهذه البعثة تستوجب أن يكون مادة شريعته ما عندهم من الشرائع وسنن العبادات ووجوه الإرتفاقات ، إذ الشرع إنما هو إصلاح ما عندهم لا تكليفهم بما لا يعرفونه أصلاً) .

وأما النص الكامل الثابت فى كتاب حجة الله البالغة الى جانب نفس العبارات التى إقتنصها ليحور معناها فهو ما يلى : (واعلم أنه صلى الله عليه وسلم بعث بالحنيفية الإسماعيلية ، لإقامة عوجها وإزالة تحريفها و إشاعة نورها ، وذلك قول الله تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) ولما كان الأمر فى ذلك وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة وسننها مقررة ، إذ النبى إذا بعث الى قوم فيهم بقية سنة راشدة فلا معنى لتغييرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها لأنه أطوع لنفوسهم وأثبت عند الإحتجاج عليهم ، وكان بنوا إسماعيل توارثوا منهاج أبيهم إسماعيل ، فكانوا على تلك الشريعة الى أن وجدعمرو بن لحىّ ، فأدخل فيها أشياء برأيه الكاسد ، فضل و أضل ، وشرع عبادة الأوثان وسيّب السوائب وبحر البحائر ، فهنالك بطل الدين واختلط الصحيح بالفاسد وغلب عليهم الجهل و الشرك و الكفر فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم مقيما لعوجهم ومصلحاً لفسادهم ، فنظر صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم فما كان منها موافقا لمنهاج إسماعيل عليه السلام أو من شعائر الله أبقاه ، وما كان منها تحريفا أو فساداً أو من شعائر الشرك أو الكفر أبطله وسجل على إبطاله)

ولا ريب أننا لا نسوق عمل مثل هذا (الباحث) وتحريفه للنظر و المناقشة فمن العبث مناقشة لغو مفضوح مثل هذا اللغو ، ولكننا نقصد أن يعلم القارىء مدى ما تفعله العصبية العمياء بصاحبها . كما نريد أن يقف على حقيقة ما يتشدق به البعض عن منهجية البحث العلمى وموضوعيته لدى علماء الغرب ثم مدى ما يفعله التقليد الذليل الأعمى ببعض المسلمين أنفسهم .

وإذاً فقد أدركت حقيقة العلاقة بين الإسلام و الفكر الجاهلى الذى كان سائدا لدى العرب قبل ظهوره ، كما أدركت العلاقة بين العصر الجاهلى و الملّة الحنيفية التى كان قد بعث بها إبراهيم عليه الصلاة و السلام . وقد تجلى لك من ذلك ، السبب الذى من أجله أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من العادات و المبادىء التى كانت سائدة عند العرب ، فى حين أنه ألغى سائرها وذهب فى حربها و القضاء عليها كل مذهب .

وبذلك نكون قد إنتهينا من عرض هذه المقدمات التى لابد منها بين يدى دراستنا لجوهر السيرة النبوية واستنباط فقهها و عظاتها . وستجد خلال أبحاثنا القادمة مزيداً من البراهين التى تؤكد ما أوضحناه وتزيد فى تجليته و الكشف عن حقيقته .

القسم الثانى : من الميلاد الى البعثة

نسبه صلى الله عليه وسلم وولادته ورضاعته :

أما نسبه صلى الله عليه وسلم ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويدعى شيبة الحمد ، ابن هاشم ابن عبد مناف واسمه المغيرة ، ابن قصى واسمه زيداً ، ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

فهذا القدر المتفق عليه من نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم . أما ما فوق ذلك فمختلف فيه ، لا يعتمد عليه فى شىء . غير أن مما لا خلاف فيه أن عدنان من ولد إسماعيل نبى الله ابن إبراهيم خليل الله عليهما الصلاة و السلام ، وأن الله عز وجل قد إختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب ، فما تسلل شىء من أدران الجاهلية الى شىء من نسبه صلى الله عليه وسلم .

روى مسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله إصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفاى هاشما من قريش واصطفانى من بنى هاشم .

وأما ولادته صلى الله عليه وسلم فقد كانت فى عام الفيل ، أى العام الذى حاول فيه أبرهة الأشرم غزو مكة وهدم الكعبة فرده الله عن ذلك بالآية الباهرة التى وصفها القرآن الكريم . وكانت على الأرجح يوم الإثنين لإثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول .

وقد ولد يتيما ، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب فعنى به جده عبد المطلب واسترضع له ـ على عادة العرب إذ ذاك ـ إمرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبى ذؤيب .

وقد أجمع رواة السيرة أن بادية بنى سعد كانت تعانى إذ ذاك سنة مجدبة قد جف فيها الضرع ويبس الزرع ، فما هو إلا أن صار محمد صلى الله عليه وسلم فى منزل حليمة واستكان الى حجرها وثديها حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها ممرعة خضراء فكانت أغنامها تروح منها عائدة الى الدار شباعا ممتلئة الضرع . وقد حصلت أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم فى بادية بنى سعد (حادثة شق الصدر) التى رواها مسلم ثم أعيد بعدها الى أمه وقد تم له من العمر خمس سنوات .

ولما أصبح له من العمر ست سنوات ماتت أمه آمنة ، وما إن تحول الرسول الى كفالة جده عبد المطلب حتى وافته هو الآخر منيته فمات وقد تم للنبى صلى الله عليه وسلم ثمان سنوات ، فكفله عمه أبو طالب.

العبر و العظات :

يؤخذ هذا المقطع من سيرته صلى الله عليه وسلم مبادىء وعظات هامة نجملها فيما يلى :

1- فيما أوضحناه من نسبه صلى الله عليه وسلم دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب على سائر الناس ، وفضل قريش على سائر القبائل الخرى ، تجد هذه الدلالة واضحة فى الحديث الذى رويناه عن مسلم ، وقد وردت أحاديث كثيرة أخرى ، فمن ذلك ما رواه الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال : من أنا ؟ فقالوا أنت رسول الله عليك السلام ، فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً .

واعلم أن مقتضى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محبة القوم الذين ظهر فيهم و القبيلة التى ولد فيها ، لا من حيث الأفراد و الجنس بل من حيث الحقيقة المجردة . ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية ، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها .

ولا ينافى ذلك ما قد يلحق من سوء بكل من قد إنحرف من العرب و القرشيين عن صراط الله عز وجل ، وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التى إختارها الله لعباده ، لأن هذا الإنحراف أو الإنحطاط من شأنه أن يودى بما كان من نسبة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ويلغيها من الإعتبار .

2- ليس من قبيل الصدفة أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيما ، ثم لا يلبث أن يفقد أمه وجده أيضاً ، فينشأ النشأة الأولى من حياته بعيداً عن تربية الأب ورعايته ومحروماً من عاطفة الأم وحنوّها . ولقد إختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ، لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل الى إدخال الريبة القلوب أو إيهام الناس بأن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها منذ صباه ، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ، ولم لا ؟ وإن جده عبد المطلب كان صدراً فى قومه ، فلقد كانت إليه الرفادة و السقاية .

ومن الطبيعى أن يربى الجد حفيده أو الأب إبنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث .

لقد شاءت حكمة الله عز و جل أن لا يكون للمبطلين من سبيل الى مثل هذه الريبة ، فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجدّه ، وحتى فترة طفولته الأولى ، فقد أرادت حكمة الله عز وجل أن يقضيها فى بادية بنى سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفى جده وانتقل الى كفالة عمه أبى طالب الذى إمتدت حياته الى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات - كان من تتمة هذه الحكمة أن لا يسلم عمه ، حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلا فى دعوته ، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها بعيداً عن الذراع التى تمعن فى تدليله و المال الذى يزيد فى تنعيمه ، حتى لا تميل به نفسه الى مجد المال و الجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة و الزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول إبتغاء الوصول للثانى .

3- يدل ما إتفق عليه رواة السيرة النبوية من أن منازل حليمة السعدية عادت مترعة خضراء بعد أن كانت مجدبة قاحلة ، وعاد الدرّ حافلافى ضرع ناقتها الكبيرة المسنّة بعد أن كان يابساً لا يتندى بقطرة لبن - يدل ذلك على علوّ شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ورفعة مرتبته عند ربه حتى عندما كان طفلاً صغيراً كغيره من الأطفال . فقد كان من أبرز مظاهر إكرام الله له أن أكرم بسببه بيت حليمة السعدية التى تشرفت بإرضاعه . وليس فى ذلك غرابة ولا عجب ، فقد علمتنا الشريعة الإسلامية أن نستسقى عند إنحباس المطر ببركة الصالحين من الناس ومن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء إستجابة الله لدعائنا ، فكيف إذا تشرف المكان برسول الله نفسه ، وهو طفل رضيع قد إستكان الى حجر حليمة والتقم ثديها . إن من الجدير أن تكون سببيته لإخضرار الأرض المجدبة من حوله أبلغ من سببية سقوط قطر السماء وينابيع الأرض . وما دام الكل بيد الله تعالى وهو وحده

مسبب الأسباب جميعها فأجدر برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى مقدمة أسباب البركة و الإكرام الإلهى ذلك أن رحمة الله الى الناس بصريح تبيانه سبحانه وتعالى (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)

4- تعد حادثة شق الصدر التى حصلت له عليه الصلاة و السلام أثناء وجوده فى مضارب بنى سعد من إرهاصات النبوة ودلائل إختيار الله إياه لأمر جليل ، وقد رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك فيما يرويه مسلم فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاده الى مكانه . وجاء الغلمان يسعون الى أمه - مرضعته - ينادون : أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون .

وليست الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم - إستئصال غدة الشر فى جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لو كان الشر منبعه غدة فى الجسم أو علقة فى بعض أنحائه ، لأمكن أن يصبح الشرير خيّرا بعملية جراحية ، ولكن يبدوا أن الحكمة الإلهية هى إعلان أمر رسول الله وتهيئه للعصمة و الوحى منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب الى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته ،إنها إذاً عملية تطهير معنوية ، ولكنها إتخذت هذا الشكل المادى الحسّى ، ليكون فيه الإعلان الإلهى بين أسماع الناس و أبصارهم . وأيّاً كانت الحكمة ، فلا ينبغى- وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً- محاولة البحث عن المخارج لنخرج منها بهذا الحديث عن ظاهره و حقيقته الى التأويل الممجوجة البعيدة المتكلفة.

ولن تجد من مسوغ لمن يحاول هذا - رغم ثبوت الخبر وصحته - إلا ضعيف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغى أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية وصحتها فإذا ثبت ذلك ثبوتاً بيّناً فلا مناص من قبوله موضوعاً على الراس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالات اللغة العربية و أحكامها . والأصل فى الكلام عن حقيقته الى مختلف الدلالات المجازية ليتخير من بينها ما يروق له ، لانشلّت قيمة اللغة وفقدت دلالاتها وتاه الناس فى مفاهيمها . ثم فيم البحث عن التأويل ومحاولة إستنكار الحقيقة ؟

أما إن ذلك لا يأتى إلاّ من ضعف فى الإيمان ، وبالتالى من ضعف فى اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ، وإلا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله سواء عرفت الحكمة و العلّة أم لم تعرف .

رحلته الأولى الى الشام ثم كدحه فى سبيل الرزق:

ولما تم له صلى الله عليه وسلم من العمر إثنتا عشرة سنة ، سافر عمه أبو طالب الى الشام فى ركب للتجارة ، فأخذه معه . ولما نزل الركب (بصرى) مرّوا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليماً بالإنجيل خبيراً بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرا النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل يتأمله ويكلمه ، ثم إلتفت الى أبى طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ فقال: إبنى (وكان ابو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه) فقال له بحيرا ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون أبو هذا الغلام حياً . فقال : هو ابن أخى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال بحيرا : صدقت ، فارجع به بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه هنا ليبلغنه شراً ، فإنه كائن لإبن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به أبو طالب عائدا الى مكة .

ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعى للرزق وراح يشتغل برعى الغنم ، ولقد قال عليه الصلاة و السلام عن نفسه فيما بعد : (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة) . وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشباب من مظاهر اللهو و العبث .

قال عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عن نفسه : (ما هممت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة لو أبصرت لى غنمى حتى

أدخل مكة أسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت ما هذا ؟ فقالوا عرس ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، فنمت فما أيقظنى إلاّ حرّ الشمس فعدت الى صاحبى ، فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة اخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء .)

العبر و العظات :

يدل حديث بحيرا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو حديث رواه عامة علماء السير ورواتها وأخرجه الترمذى مطولا من حديث أبى موسى الأشعرى على أن أهل الكتا ب من يهود و نصارى ، كان عندهم علم ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم ومعرفة بعلاماته ، وذلك بواسطة ما جاء فى التوراة و الإنجيل من خبر بعثته وبيان دلائله و أوصافه ، والدلائل على ذلك كثيرة مستفيضة . فمنها ما رواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس و الخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ويقولون : إن نبيا سيبعث قريبا سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم ولما نكثوا عهدهم أنزل الله فى ذلك قوله :(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) البقرة 89 .

وروى القرطبى وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاى منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) البقرة 136 سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابيا فأسلم ، أتعرف محمداً كما تعرف إبنك ؟ فقال نعم وأكثر . بعث الله أمينه فى سمائه الى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته ، أما ابنى فلا أدرى ما الذى قد كان من أمه . ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسى تتبع خبر النبى صلى الله عليه وسلم وصفاته من الإنجيل و الرهبان و علماء الكتاب .

ولا ينافى هذا أن كثيرا من أهل الكتاب ينكرون هذا العلم ، وأن الأناجيل المتداولة خالية عن الإشارة الى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم . فمن المعلوم بداهة ما تقلب على هذه الكتب من أيدى التبديل و التغييرالمتلاحقة وصدق الله إذ يقول فى محكم تبيانه : (ومنهم أميّون لايعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ وإن هم إلاّ يظنون ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) البقرة 78-79 .

- أما إقباله على رعى الأغنام لقصد إكتساب القوت و الرزق ففيه ثلاث دلائل هامة :

الأولى : الذوق الرفيع و الإحساس الدقيق اللذان جمّل الله بهما نبيه صلى الله عليه وسلم لقد كان عمه يحوطه بالعناية التامة ، وكان له فى الحنو و الشفقة كالأب الشفوق ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما إن آنس فى نفسه قدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب ، ويجهد جهده لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤنة الإنفاق عن عمه . وربما كانت الفائدة التى يجنيها من وراء عمله الذى إختاره الله له ، فائدة قليلة غير ذات أهمية بالنسبة لعمه أبى طالب ولكنه على كلّ تعبير أخلاقى رفيع عن الشكر ، وبذل للوسع ، وشهامة فى الطبع ، وبر فى المعاملة .

الثانية : وتتعلق ببيان نوعية الحياة التى يرتضيها الله لعباده الصالحين فى دار الدنيا ، لقد كان سهلا على القدرة الإلهية أن تهىء للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر حياته ، من أسباب الرفاهية ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ورعاية الأغنام سعياً وراء القوت . ولكن الحكمة الإلهية تريد منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما إكتسبه بكد يمينه ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبنى جنسه ، وشر المال ما أصابه الإنسان وهو مستلق على ظهره دون أن يرى أى تعب فى سبيله ، ودون أن يبذل أى فائدة للمجتمع فى مقابله .

الثالثة : إن صاحب أى دعوة ، لن تقوم لدعوته أى قيمة فى الناس إذا ما كان كسبه ورزقه من وراء دعوته أو على أساس من عطايا الناس وصدقاتهم ، ولذا فقد كان صاحب الدعوة الإسلامية أحرى الناس كلهم بأن يعتمد فى معيشته على جهده الشخصى أو

مورد شريف لا إستجداء فيه حتى لا تكون عليه لأحد من الناس منّة أو فضل فى دنياه فيعيقه ذلك عن أن يصدع بالحق فى وجهه غير مبالى بالموقع الذى تقع من نفسه . وهذا لامعنى وإن يكون قد خطر فى بال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة ، إذ أنه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأن الدعوة و الرسالة الإلهية - غير أن هذا المنهج الذى هيأه الله له ينطوى على هذه الحكمة ويوضح أن الله تعالى قد أراد أن لا يكون فى شىء من حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته أو يؤثر عليها أى تأثير سلبى فيما بعد البعثة .

- وفيما قصه النبى صلىالله عليه وسلم عن نفسه فى خبر حفظ الله إيّاه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه ، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية :

الأولى : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان متمتعا بخصائص البشرية كلها ، وكان يجد فى نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التى إقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها ، فكان يحس بمعنى السمر و اللهو ويشعر بما فى ذلك من متعة ، وتحدثه نفسه لو تمتع بشىء من ذلك كما يتمتع الآخرون .

الثانية - أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الإنحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التى هيأه الله لها ، فهى حتى عندما لا يجد لديه الوحى أو الشريعة التى تعصمه من الإستجابة لكثير من رغائب النفس ، يجد عاصما آخر خفيا يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأته الأقدار لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام.

وفى إجتماع هاتين الحقيقتين لديه صلى الله عليه وسلم دليل واضح على أن ثمة عناية إلهية خاصة تسيره وتأخذ بيده بدون وساطة الأسباب العادية كوسائل التربية و التوجيه ، ومن ذا الذى يوجهه فى طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبنى قومه وجيرانه ، غرباء عن هذا الطريق ، ضالون عن هذه الوجهة ؟

لا جرم إذاً أن العناية الإلهية الخاصة التى جعلت لشباب النبى صلى الله عليه وسلم طريقا دقيقاً من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية ، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التى خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها ، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس فى تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية و الفكرية و السلوكية فى الحياة .

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وقد إنتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات و الأهواء ، فلا يجد فى نفسه ما يدفعه أصلا الى ترك أغنامه أمانة عند زميله ليهبط الى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون . غير أن ذلك لا يدل حينذاك على أكثر من شذوذ فى تركيبه النفسانى ، وهى ظاهرة يوجد لها نماذج فى كل عصر وقوم ، وإذاً فليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التى تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية نحوه ، وإنما أرادت حكمة الله عز وجل أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلهية بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب فى صدقه .

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة - كما يروى ابن الأثير وابن هشام - إمرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق ، أرسلت إليه ليخرج فى مالها الى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة . وقد قبل محمد صلى الله عليه وسلم هذا العرض فرحل الى الشام عاملا فى مالها ومعه ميسرة . فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيرها ، وعاد الى خديجة بأرباح مضاعفة ، فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم ، ووجد ميسرة من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم و عظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له ، وإعجاباً به فروى ذلك لخديجة .

فأعجبت خديجة بعظيم أمانته ، ولعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه ، فعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منيّة) ، فوافق النبى عليه الصلاة و السلام ، وكلم فى ذلك أعمامه فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد . وتزوجها عليه الصلاة و السلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاما ولها من العمر أربعون . وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين الأول منهما عتيق بن عائذ التميمى ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمى واسمه هند ابن زرارة .

العبر و العظات :

أما عمله صلى الله عليه وسلم فى مال خديجة ، فهو استمرار لحياة الكدح الذى بدأه برعاية الأغنام ، ولقد شرحنا طرفاً مما يتعلق بذلك من الحكمة و العبرة .

وأما فضلها و منزلتها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فلقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة حياته ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق .

روى البخارى ومسلم أن علياً رضى الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خير نسائها مريم ابنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد .

روى البخارى ومسلم أيضا أن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما غرت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم إلاّ على خديجة ، وإنى لم أدركها ، قالت وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة فيقول أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت فأغضبته يوما فقلت : خديجة ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى قد رزقت حبها .

وروى أحمد و الطبرانى من طريق مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتنى العبرة فقلت : هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خير منها ؟ فغضب ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء .

وأما قصة زواجه منها صلى الله عليه وسلم ة فإن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم إهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع بمن هى أقل منها سناً أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ويتجلى لنا أنه صلى الله عليه وسلم إنما رغب فىا لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة ولقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبى عليه الصلاة و السلام الخمسين من العمر ، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأى إمرأة أو فتاة أخرى ، وما بين العشرين و الخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الإستزادة من النساء و الميل الى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم تجاوز هذه الفترة من العمر دون ان يفكر كما قلنا بأن يضم الى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة و الكثير من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج عن مألوف أو عرف بين الناس ، هذا رغم أنه تزوج خديجة وهى أيّم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره . وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد قلوبهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين و المستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون إلاّ دعاء ونداء ، كما قال الله عز وجل ،, فقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى صلى الله عليه وسلم مقتلا يصاب منه الإسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة محمد ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب و الروح .

ومعلوم أن المبشرين ومعظم المستشرقين ، هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون القدح فى هذا الين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم ، أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع و التقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث ولا لفهم ، إنما هو هواية التقليد و الإتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس : أنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامى فى شىء ، وأن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الإستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الإستعمار الفكرى من مبشرين و مستشرقين ، فهذا هو إختيارهم ، من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم ! . أجل إن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبنى جلدتهم ، وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج .

وإلاّ فموضوع زواج النبى صلى الله عليه وسلم من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر ، العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم ، على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً.

يريدون أن يلصقوا به صلى الله عليه وسلم صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد ! وموضوع زواجه عليه الصلاة و السلام هو وحده السبيل الكافى على عكس ذلك تماما ، فالرجل الشهوانى ، لا يعيش الى الخامسة و العشرين من العمر فى بيئة مثل البيئة العربية فى جاهليتها ، عفيف النفس ، دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله ، والرجل الشهوانى لايقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيّم لها ما يقارب ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه الى شىء مما حوله وإن من حوله الكثير وله الى ذلك أكثر من سبيل ، الى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج خكمة وسبب يزيدان المسلم إيماناً بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه وكمال أخلاقه ، وأيّاً كانت الحكمة و السبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة لرغبة جنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر و الرغبة الجنسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها ... خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجاته الفطرية الطبيعية . ولسنا نرى الأطناب فى الدفاع عن زواجه عليه الصلاة و السلام ، على نحو ما يفعل كثير من الباحثين ، لإذ لا نعتقد أن ثمة مشكلة تحتاج الى النظر أو البحث ، وإن أوهم خصوم الإسلام ذلك .

ورب حق من حقائق الإسلام ، لا يطمع خصومه لإبطاله ، بأكثر من إستجرار المسلمين الى مناقشة دفاعية فى شأنه .

إشتراكه صلى الله عليه وسلم فى بناء الكعبة

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت فيها .. بناها بوحى من الله تعالى وأمر له بذلك (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بناءها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادى سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة . ولقد كان إحترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب .

ولقد شارك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فى بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعالة ، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلاّ إزاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح .

وروى البخارى فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال لما بنيت الكعبة ، ذهب النبى صلى الله عليه وسلم و العباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم : إجعل إزارك على رقبتك ، فخرّ الى الأرض وطمحت عيناه الى السماء فقال : أرنى إزارى فشده عليه .

ولقد كان له صلى الله عليه وسلم أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن إختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فقد خضع الجميع لإقتراحه الذى أبداه حلا للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

العبر و العظات :

نورد فى تعليقنا على هذا المقطع من سيرته صلى الله عليه وسلم أربعة أمور :

أولها : أهمية الكعبة ، وما جعل الله لها من الشرف وقداسة فى الأرض ، وحسبك الأدلة على ذلك أن الذى باشر تأسيسها وبناءها هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأمر من الله تعالى لتكون أول بيت لعبادة الله وحده ومثابة للناس و أمنا .

غير أن هذا لا يعنى أو يستلزم أن يكون للكعبة تأثير على الطائفين حولها أو العاكفين فيها ، فهى (علىما لها من قداسة ووجاهة عظيمة عند الله) حجارة لا تضر ولا تنفع . ولكن الله عز وجل لما بعث إبراهيم عليه السلام بتكسير الأصنام و الطواغيت وهدم بيوتها و القضاء على معالمها ونسخ عبادتها ، إقتضت حكمته جل جلاله أن يشيد فوق الأرض بناءاً يكون شعاراً للتوحيد لله وعبادته وحده، ويظل مع الدهرتعبيراً للعالم عن المعنى الصحيح للدين و العبادة وعن بطلان كل من الشرك و عبادة الأصنام ، لقد قضت البشرية ردحاً من الزمن تدين العبادة للحجارة و الأصنام و الطواغيت وتنشىء لها المعابد ، ولقد آن لها أن تدرك بطلان وزيف كل ذلك ، وآن لها أن تستعيض عن تلك المعابد هذا الرمز الجديد ... هذا المعبد الذى أقيم لعبادة الله وحده ، يدخله الإنسان ليقف عزيزاً لا يخضع ولا يذل إلا لخالق الكون كله ، وإذا كان لابد للمؤمنين بوحدانية الله و الداخلين فى دينه من رابطة يتعارفون بها ، ومثابة يؤوبون إليها ، مهما تفرقت بلدانهم وتباعدت ديارهم واختلفت أجناسهم ولغاتهم - إذا كان لابد من ذلك فليس أجدر من هذا البيت الذى أقيم رمزاً لتوحيد الله ، ورداً على باطل الشرك و الأصنام ، من أن يكون هو الرابطة و المثابة لهم جميعاً ، يتعارفون فى حماه ، ويلتقون على الحق الذى شيّد ليكون تعبيراً عنه ، فهو الشعار الذى يجسد وحدة المسلمين فى أقطار الأرض ، ويعبر عن توحيد الله و العبادة له وحده مهما أقيم من آلهة زائفة وانتصب من متألهين باطلين على مر الأزمنة و العصور .

وهذا معنى قول الله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)

وهذا هو المعنى الذى يلحظه الطائف بالبيت الحرام ، بعد أن يملأ قلبه من معنى العبودية لله تعالى و القصد الى تحقيق أوامره من حيث إنها أوامر ومن حيث أنه عبد مكلف بتلبية الأمر وتحقيق المأمور به ، ومن هنا جاءت قداسة البيت وعظم مكانته عند الله تعالى وكانت ضرورة الحج إليه و الطواف من حوله .

ثانيها : بيان أهم ما تعاقب على الكعبة من الهدم و البناء :

بنيت الكعبة خلال الدهر كله ، أربع مرات بيقين ، ووقع الخلاف و الشك فيما قبل هذه المرات الأربع :

فأما المرة الأولى منها : فهى التى قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه الصلاة و السلام يعينه إبنه إسماعيل عليه الصلاة و السلام ، وذلك إستجابةمنه لأمر ربه جل جلاله ، ثبت ذلك بصريح الكتاب و السنة الصحيحة ، أما الكتاب فقول الله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) البقرة 127 .

وأما السنة ، فأحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس ، وجاء فيه : (.. ثم قال - أى إبراهيم - يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا ، وأشار

الى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى) صحيح البخارى

ونقل الزركشى عن تاريخ مكة للأزرقى أن إبراهيم عليه الصلاة و السلام جعل طول بناء الكعبة فى السماء سبعة أذرع وطولها فى الأرض ثلاثين ذراعا وعرضها فى الأرض إثنين وعشرون ذراعا وكانت بغير سقف ، وحكى السهيلى أن طولها فى السماء كان تسعة أذرع . أقول ولعل هذه أقرب من رواية الأزرقى .

وأما المرة الثانية : فهى تلك التى بنتها قريش قبل الإسلام ، واشترك فى بنائها الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا ، فجعلوا طولها فى السماء ثمانى عشر ذراعا ، ونقصوا من طولها فى الأرض ستة أذرع وجزءا من الذراع تركوها فى الحجر. وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روته عائشة (يا عائشة لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم .

وأما المرة الثالثة : فقد كانت عندما إحترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزتها جيوش من أهل الشام ، وخلاصة ذلك أنهم حاصروا عبد الله بن الزبير بمكة بقيادة الحصين بن نمير السكونى فى آخر سنة ست وثلاثين ، بأمر من يزيد ، ورموا البيت بالمنجنيق ، فتهدم واحترق ، فانتظر ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم ، فاستشارهم قائلا : أيها الناس أشيروا علىّ فى الكعبة ، أنقضها ثم أبنى بناءها أو أصلح ما وهى منها ، فقال له ابن عباس : أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه وأحجاراً أسلم الناس عليها ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته ما رضى حتى يجدّه فكيف بيت ربكم ؟ إنى مستخير ربى ثلاثاً ثم عازم على أمرى . ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام حتى بلغوا به الأرض فأقام ابن الزبير أعمدة من حوله وأرخى عليها الستور ثم باشروا فى رفع بنائه وزاد فيه الأذرع الستة التى قد أخرجت منه ، وزاد فى طوله الى السماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه و الآخر يخرج منه . وإنما جرأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة رضى الله عنها السابق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما المرة الرابعة : فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير ، روى الإمام مسلم بسنده عن عطاء أنه لما قتل عبد الله بن الزبير كتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسّ نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء ، أما مازاد فى طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه الى بنائه ، وسدّ الباب الذى فتحه ، فنقضه و أعاده الى بنائه .

قالوا ، وقد عزم الرشيد بعد ذلك على أن ينقضها ويعيدها كما بناها ابن الزبير ، فقال له مالك ابن أنس رحمه الله : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة الملوك من بعدك ، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلاّ غيره ، فتذهب هيبته فى قلوب الناس ، فصرفه عن رأيه فيه .

فهذه هى المرات الأربع التى بنيت فيها الكعبة بيقين .

أما الخامسة التى وقع فيها الشك و الخلاف ، فهى تتعلق بما قبل إبراهيم عليه الصلاة و السلام ، هل كانت الكعبة مبنية قبل ذلك أم لا ؟

جاء فى بعض الآثار و الروايات أن أول من بناها هو آدم عليه السلام ، ومن أبرز ما ورد فى ذلك ما رواه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث الله جبريل صلى الله عليه وسلم الى آدم وحواء فقال لهما : (إبنيا لى بيتاً) فخط لهما جبريل عليه الصلاة و السلام ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أصابه الماء فنودى من تحته حسبك يا آدم ، فلما بنياه أوحى الله إليه أن يطوف به ، وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح عليه الصلاة و السلام ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه) .

ثم قال البيهقى تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً ، ومعلوم أن ابن لهيعة ضعيف لا يحتج به . وهناك روايات وآثار قريبة فى المعنى من هذا الذى رواه البهقى إلاّ أن جميعها لا يخلو من ضعف أو نكارة ، وقيل أيضا أن أول من بناه شيث عليه الصلاة و السلام .

فتكون الكعبة إذا إعتمدنا هذه الآثار و الروايات الضعيفة ـ قد بنيت خمس مرات خلال الدهر كله .

غير أن الأولى بالإعتماد هو ما ثبت يقينا من ذلك ، وهو أنها بنيت أربع مرات كما أوضحنا ، وأما ما وراء ذلك وما بين هذه المرات فنكل علمه الى الله تعالى ، عدا عما لحقها من ترميمات و إصلاحات بعد ذلك .

ثالثها :- مدى حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى تدبير الأمور ، وسياسة القضايا ، وقطع دابر الخصومات ،،وبين من ؟ بين أقوام قلما قامت بينهم خصومة ثم نامت قبل أن تراق فيهم بسببها الدماء . وقد وصل بهم الخلاف كما تعلم الى درجة كادت أن ينشب فيما بينهم القتال ، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، ةومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، دون أن يردها الى الوفاق أى رأى أو تدبير ، حتى كان خمود نار الفتنة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن ينبغى أن نحيل هذه المزية فيه صلى الله عليه وسلم ، الى ما إختاره الله له من القيام بعبء الرسالة و النبوة ، قبل أن نحيلها الى العبقرية التى جبل عليها صلى الله عليه وسلم و الذكاء الذى فطر عليه .

فالأساس الأول فى تكوينه صلى الله عليه وسلم أنه رسول و نبى ، ثم تأتى المزايا الأخرى كلها من عبقرية و دهاء وذكاء مبنية على هذا الأساس ولاحقة به .

رابعها :- مدى سمو منزلته صلى الله عليه وسلم بين رجال قريش على إختلاف درجاتهم و طبقاتهم ، فقد كان ملقباً عندهم بالصادق الأمين ، وكان محبوباً منهم كلهم ، وكانوا لا يرتابون فى صدقه إذا حدّث ، وفى كريم أخلاقه إذا عومل ،ة وفى عظيم إخلاصه إذا استعين به واعتمد عليه .

وهذه ظاهرة تكشف لك عن مدى الحقد و العناد اللذين إمتلأت بهما أفئدة هؤلاء أنفسهم ، بعد أن جاءتهم الرسالة من عند الله ، وأخذ يبلغها الى هؤلاء القوم الذين قابلوه بالعناد و الإيذاء .

إختلاؤه فى غار حراء

ولما أخذت سنّه تدنو نحو الأربعين ، نشأ لديه حب للعزلة بين الفترة و الأخرى ، وحبب الله إليه الإختلاء فى غار حراء ـ وحراء جبل يقع فى الجانب الشمالى الغربى من مكة ـ فكان يخلو فيه ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك الى شهر ، ثم يعود الى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلا حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى يعود الكرة الى غار حراء، وهكذا الى أن جاءه الوحى وهو فى إحدى خلواته .

العبر و العظات :

إن لهذه الخلوة التى حببها الله تعالى إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة ، دلالة عظيمة جداً ، لها أهمية كبرى فى حياة المسلمين عامة و الداعين الى الله تعالى خاصة ، فهى توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحلياً بالفضائل قائماً بألوان العبادات ، حتى يجمع الى ذلك ساعات من العزلة و الخلوة يحاسب فيها نفسه ، ويراقب الله تعالى ويفكر فى مظاهر الكون ، ودلاءل ذلك على عظمة الله .

هذا فى حق المسلم الذى يريد لنفسه الإسلام الصحيح ، فكيف بمن يريد أن يضع نفسه موضع الداعى الى الله و المرشد الى الطريق الحق .

وحكمة ذلك أن للنفس الإنسانية آفات لا يقطع شرتها إلا دواء العزلة عن الناس ، ومحاسبتها فى نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها . فالكبر ، والعجب ، والحسد ، والرياء ، وحب الدنيا - كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم فى النفس وتتغلغل الى أعماق القلب ، وتعمل عملها التهديمى فى باطن الإنسان رغم ما قد يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة ، والعبادات المبرورة ، ورغم ما قد ينشغل به من القيام بشؤون الدعوة و الإرشاد وموعظة الناس . وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يتخلى صاحبها بين كل فترة و أخرى مع نفسه ليتأمل فى حقيقتها ومنشئها ومدى حاجتها الى عناية الله تعالى وتوفيقه فى كل لحظة من لحظات الحياة ، ثم ليتأمل الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق عز وجل وفى عدم أى فائدة لمدحهم أو قدحهم ، ثم ليتفكر فى مظاهر عظمة الله تعالى وفى اليوم الآخر وفى الحساب وطوله ، وفى عظيم رحمة الله تعالى وعظيم عقابه . فعند التفكير الطويل المتكرر فى هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللا حقة بالنفس ويحيى القلب بنور العرفان و الصفاء ، فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل الى تكدير مرآته .

وشىء آخر له بالغ الأهمية فى حياة المسلمين عامة وأرباب الدعوة خاصة : هو تربية محبة الله عز وجل فى القلب ، فهو منبع التضحية و الجهاد وأساس كل دعوة متأججة صحيحة ، ومحبة الله لا تتأتى من مجرد الإيمان العقلى به ، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يوما لتؤثر فى العواطف و القلوب ، ولو كان كذلك ، لكان المستشرقون فى مقدمة المؤمنين بالله ورسوله ، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حباً لله ورسوله ، أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيماناً منه بقاعدة رياضية أو مسألة من مسائل الجبر ؟

وإنما الوسيلة الى محبة الله تعالى - بعد الإيمان به - كثرة التفكر و التأمل فى مدى جلاله وعظمته ، ثم الإكثار من ذكره سبحانه وتعالى بالقلب و اللسان ، وإنما يتم كل ذلك بالعزلة و الخلوة و الإبتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها فى فترات متقطعة متكررة من الزمن .

فإذا قام المسلم بذلك وتهيأ له أداء هذه الوظيفة ، نبتت له من ذلك فى قلبه محبة إلهية عارمة ، تجعله يستصغر كل عظيم ، ويحتقر كل مغرية من المغريات ، ويستهين بكل إيذاء وعذاب ، ويستعلى فوق كل إذلال أو إستهزاء، فتلك هى العدة الكبرى التى ينبغى أن يتسلح بها الدعاة الى الله تعالى ، وتلك هى العدة التى جهز الله بها نبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية . ذلك لأن الدوافع الوجدانية فى القلب من خوف ، ومحبة ورجاء تفعل ما لا يفعله الفهم العقلانى المجرد .

ولقد أجاد الشاطبى رحمه الله عندما فرق فى هذه الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا فى ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم ، وخواصهم الذين دخلوا فى ربقة هذه التكاليف يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم ،يقول : (فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد ، والثانى حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف و الرجاء و المحبة ، فالخوف سوط سائق ، والرجاء حاد قائد ، و المحبة تيار حامل ، فالخائف يعمل مع وجود المشقة ، غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون وإن كان شاقاً ، والراجى يعمل مع وجود المشقة أيضا ، غير أن الرجاء فى تمام الراحة يحمل على الصبر على تمام التعب ، والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً الى المحبوب ، فيسهل عليه الصعب ، ويقرب عليه البعيد ، وتفنى القوى ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة) .

واتخاذ الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية فى القلب مما أجمع المسلمون على ضرورته ، وهو ما يسمى بالتصوف عند جمهور العلماء و الباحثين ، أو بالإحسان عند بعضهم ، أو بعلم السلوك عند بعض آخر كالإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

والإختلاء الذى كان يمارسه صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة كان واحدة من هذه الوسائل لتحقيق هذه الدوافع نفسها . بيد أنه لا ينبغى أن يفهم معنى الخلوة كما شذ البعض ففهموها حسب شذوذهم ، وهو الإنصراف الكلى عن الناس واتخاذ الكهوف و الجبال موطناً واعتبار ذلك فضيلة بذاتها .

فذلك مخالف لهديه صلى الله عليه وسلم ولما كان عليه عامة أصحابه، إنما المراد هو إستحباب إتخاذ الخلوة دواءً لإصلاح الحال كما ذكرنا ، والدواء لا ينبغى أن يؤخذ إلا بقدر ، وعند اللزوم ، وإلاّ إنقلب الى داء ينبغى التوقى منه ، وإذا رأيت فى تراحم الصالحين من استمر على الخلوة والإبتعاد عن الناس ، فمردّ ذلك الى حالة خاصة به ، وليس عمله حجة على الناس .

بدء الوحى

روى الإمام البخارى عن السيدة عائشة تصف كيفية بدء الوحى وتقول :

أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال له إقرأ : فقال ما أنا بقارىء قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : إقرأ : فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى وغطنى حتى بلغ منى الجهد فقال إقرأ : فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى وغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عم خديجة ، وكان إمرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل فى العبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة يابن عم ، إسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس (أى جبريل أو الوحى) الذى نزل على موسى ياليتنى فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرنّك نصراً مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى .

واختلف فى الزمن الذى فتر فيه الوحى فقيل ثلاث سنوات ، وقيل أقل من ذلك ، والراجح ما رواه البيهقى من أن المدة كانت ستة أشهر . ثم روى البخارى عن جابر ابن عبد الله قال وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى فأنزل الله عز وجل : يا أيها المدثر قم فأنذر ـ الى قوله : والرحز فاهجر ، فحمى الوحى وتواتر .

العبر و العظات :

حديث بدء الوحى هذا ، هو الأساس الذى يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته ، وفهمه و اليقين به هما المدخل الذى لابد منه الى اليقين بسائر ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من أخبار غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة (الوحى) هى الفيصل الوحيد بين الإنسان الذى يفكر من عنده ويشرع بواسطة رايه وعقله ، والإنسان الذى يبلغ عن ربه دون أن يغير أو

ينقص أو يزيد . من أجل هذا يهتم محرفوا التشكيك بالإسلام ، بمعالجة موضوع الوحى فى حياته صلى الله عليه وسلم ، ويبذلون جهداً فكرياً شاقاً فى تكلف وتمحل من أجل التلبيس فى حقيقته و الخلط بينه وبين الإلهام ، وحديث النفس ، بل وحتى الصرع أيضاً ، وذلك لعلمهم بأن موضوع الوحى هو منبع اليقين عند المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله . فلئت أتيح تشكيكهم بحقيقته ، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد و أحكام ، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل ما دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من المبادىء و الأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتى .

من أجل تحقيق هذه الغاية ، أخذ محترفوا الغزو الفكرى ، يحاولون تأويل ظاهرة الوحى وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السنة الشريفة . وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة وراح كل منهم يسلك الى ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة .

فمن متصور بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يزل يفكر ..... الى أن تكونت فى نفسه بطريقة الكشف التدريجى المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالقضاء على الوثنية ، ومن مفضل على ذلك إشاعة القول بأنه صلى الله عليه وسلم إنما تعلم القرآن ومبادىء الإسلام من بحيرا الراهب ، ومن قائل بأن الأمر ليس هذا ولا ذاك ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم كان رجلاً عصبياً أو مصاباً بداء الصرع .

ونحن حينما ننظر الى مثل هذه التمحلات العجيبة التى لا يرى العاقل مسوغاً لها إلا التهرب من الإقرار بنبوته صلى الله عليه وسلم ، ندرك فى جلاء ووضوح الحكمة الإلهية الباهرة من بدء نزول الوحى عليه صلى الله عليه وسلم بهذه الطريقة التى إستعرضناها الآن ، فى حديث الإمام البخارى .

لماذا رأى رسول الله جبريل بعينى رأسه لأول مرة ، وقد كان بالإمكان أن يكون الوحى من وراء حجاب ؟

لماذا قذف الله فى قلبه عليه الصلاة و السلام الرعب منه و الحيرة فى فهم حقيقته، وقد كان ظاهر محبة الله لرسوله وحفظه له يقتضى أن يلقى السكينة فى قلبه ويربط على فؤاده فلا يخاف ولا يرتعد ؟

لماذا خشى على نفسه أن يكون هذا الذى تمثل له فى الغار آتياً من الجن ، ولم يرجح على ذلك أن يكون ملكا أميناً من عند الله ؟

لماذا إنفصل الوحى عنه بعد ذلك مدة طويلة ، وجزع النبى صلى الله عليه وسلم بسبب ذلك جزعاً عظيماً حتى أنه كان يحاول - كما ذكر الإمام البخارى - أن يتردى من شواهق الجبال ؟

هذه أسئلة طبيعية بالنسبة للشكل الذى إبتدأ به الوحى ، ولدى التفكير فى أجوبتها نجدها تنطوى على حكمة باهرة ، ألا وهى أن يجد المفكر الحر فيها الحقيقة الناصعة الواقية عن الوقوع فى شرك محترفى الغزو الفكرى و التأثر بأخيلتهم المتكلفة الباطلة .

لقد فوجىء محمد عليه الصلاة و السلام وهو فى غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له إقرأ ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحى ليست أمراً ذاتيا داخلياً مردّه الى حديث النفس المجرد ، وإنما هى إستقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات ، وضم الملك إليه إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلا فى كل مرة إقرأ - يعتبر تأكيداً لهذا التلقىالخارجى ومبالغة فى نفى ما قد يتصوّر من أن الأمر لا يعدو أن يكون خيالاً داخلياً فقط .

ولقد داخله الخوف و الرعب مما سمع ورأى ، حتى أنه قطع خلوته فى الغار وأسرع عائداً الى البيت يرجف فؤاده ، لكى يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن متشوقاً للرسالة التى سيدعى الى حملها وبثها فى العالم ، وأن ظاهرة الوحى هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشىء مما قد يتصوره أو يخطر فى باله ، وإنما طرأت طروءاً مثيراً على حياته وفوجىء بها دون أى توقع سابق .ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج فى التأمل و التفكير الى أن تتكون فى نفسه - بطريقة الكشف التدريجى المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها ! .

ثم إن شيئا من حالات الإلهام أو حديث النفس أو الإشراق الروحى أو التأملات العلوية ، لا يستدعى الخوف و الرعب وامتقاع اللون ، وليس ثمة أى إنسجام بين التدرج فى التفكير و التأمل من ناحية ومفاجأة الخوف و الرعب من ناحية أخرى ، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين و المتأملين نهباً لدفعات من الرعب والخوف و المفاجئة المتلاحقة . وأنت خبير أن الخوف و الرعب ورجفان الجسم وتغير اللون - كل ذلك من الإنفعالات القسرية التى لاسبيل الى إصطناعها و التمثيل بها ، حتى لو فرضنا إمكان صدور المخادعة و التمثيل منه صلى الله عليه وسلم ، وفرضنا المستحيل من إنقلاب طباعه المعروف بها قبل البعثة الى عكس ذلك تماما .

ويتجلى مزيد من صورة المفاجئة المخيفة لديه صلى الله عليه وسلم ، فى توهمه بأن هذا الذى رآه وغطه وكلمه فى الغار قد يكون آتياً من الجن ، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر :(لقد خشيت على نفسى) أى من الجان ، ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين و الجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة و الصفات الحميدة .

وقد كان الله عز وجل قادراً على أن يربط على قلب رسوله ويطمئن نفسه بأن هذا الذى كلمه ليس إلا جبريل : ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله الى الناس - ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الإنفصال التام بين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وشخصيته بعدها ، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامى لم يطبخ فى ذهن محمد صلى الله عليه وسلم مسبقا ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً .

ثم إن ما ألهم الله به خديجة من الذهاب به صلى الله عليه وسلم الى ورقة بن نوفل ، وعرض عليه الأمر ، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذى فوجىء به عليه الصلاة و السلام إنما هو الوحى الإلهى الذى كان قد نزل على الأنبياء من قبله ، وإزالة لغاشية اللبس التى كانت تحوم حول نفسه بالخوف و التصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه .

أما إنقطاع الوحى بعد ذلك ، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر ، علىالخلاف المعروف فيه ، فينطوى على مثل المعجزة الإلهية الرائعة ، إذ فى ذلك أبلغ الرد على ما يفسر به محترفوا الغزو الفكرى الوحى النبوى من أنه الإشراق النفسى المنبعث لديه من طول التأمل و التكرار وأنه أمر داخلى منبعث من ذاته نفسها .

لقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذى رآه لأول مرة فى غار حراء مدة طويلة ، وأن يستبد به القلق من أجل ذلك ، ثم يتحول القلق لديه الى خوف فى نفسه أن يكون الله قد قلاه بعد أن أراد أن يشرفه بالوحى و الرسالة ، لسوء قد صدر منه ، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه وراحت تحدثه نفسه ، كلما وصل الى ذروة جبل أن يلقى بنفسه منها ! الى أن رأى ذات يوم الملك الذى رآه فى غار حراء ، وقد ملأ شكله ما بين السماء و الأرض يقول : يا محمد أنت رسول الله الى الناس ، فعاد مرة أخرى وقد إستبد به الخوف و الرعب الى البيت ، حيث نزل عليه قوله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) .

إن هذه الحالة التى مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تجعل مجرد التفكير فى كون الوحى إلهاماً نفسياً ، ضرباً من الجنون ، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية و التأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

وإذاً فإن حديث بدء الوحى على النحو الذى ورد فى الحديث الثابت الصحيح ، ينطوى على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله الى الناس فى أمر الوحى و النبوة التى أكرم اله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة فى أن تكون بداءة الوحى على النحو الذى أراده الله عز وجل .

وربما عاد بعد ذلك محترفوا التشكيك ، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه صلى الله عليه وسلم الوحى بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك أحد منهم سواه ؟

والجواب أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار إذ أن وسيلة الإبصار فينا محدودة بحدّ معين ، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشىء معدوما إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته ، على أن من اليسير على الله جل جلاله - وهو الخالق لهذه

العيون المبصرة -أن يزيد فى قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى ، يقول مالك بن نبى فى هذا الصدد : (إن عمى الألوان مثلا يقدم لنا حالة نموذجية ، لايمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ،وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق البنفسجية لا تراها أعيننا ، ولا شىء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون ، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية) .

ثم إن إستمرار الوحى بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحى وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة ، ونستطيع أن نجمل هذه اللالات فيما يلى :-

1- التمييز الواضح بين القرآن و الحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفى بأن يستودع الثانى ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة له بالنبوة ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ و الحروف بواسطة جبريل عليه السلام ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذى يتلقاه من جبريل بكلامه هو صلى الله عليه وسلم .

2- كان النبى صلى الله عليه وسلم يسأل عن بعض الأمور ، فلا يجيب عليها ، وربما مر على سكوته زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن فى شأن ذلك السؤال ، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن فى شأن سؤاله . وربما تصرف الرسول فى بعض الأمور على وجه معين ، فتنزل الآيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما إنطوت على عتب أو لوم له صلى الله عليه وسلم .

3- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميّاً .... وليس من الممكن أن يعلم الإنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف .... وأم موسى حينما ألقت وليدها فى اليم .... وقصة فرعون .... ولقد كان هذا من جملة الحكم فى كونه صلى الله عليه وسلم أميّاً : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) العنكبوت 48 .

4- إن صدق النبى صلى الله عليه وسلم اربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعى أن يكون صلى الله عليه وسلم من قبل ذلك صادقاً مع نفسه ، ولذا فلا بدّ أن يكون قد قضى فى دراسته لظاهرة الوحى على أى شك يخايل لعينه أو فكره .

وكأن هذه الآية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحى : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) يونس 94

ولذا روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بعد أن نزلت هذه الآية : لا أشك ولا أسأل .

القسم الثالث : من البعثة الى الهجرة

مراحل الدعوة الإسلامية فى حياة النبى عليه الصلاة و السلام

مرت الدعوة الإسلامية فى حياته عليه الصلاة و السلام منذ بعثته الى وفاته بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الدعوة سراً ، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية : الدعوة جهراً ، وباللسان فقط ، دون قتال واستمرت الى الهجرة .

المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً مع قتال المعتدين و البادئين بالقتال أو الشر واستمرت هذه المرحلة الى عام صلح الحديبية .

المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع محاربة كل من وقف فى سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول فى الإسلام - بعد فترة الدعوة و الإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين .

وكانت هذه المرحلة هى التى استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية ، وحكم الجهاد فى الإسلام .

الدعوة سرا

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يستجيب لأمر الله ، فأخذ يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام ، ولكنه كان يدعو الى ذلك سراً حذراً من وقع الماجأة على قريش التى كانت متعصبة لشركها ووثنيتها ، فلم يكن عليه الصلاة و السلام يظهر الدعوة فى المجالس العمومية لقريش ، ولم يكن يدعو إلاّ من كانت تشده إليه صلة قرابة أو معرفة سابقة .

وكان فى أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعلى ابن ابى طالب ، وزيد ابن حارثة مولاه عليه الصلاة و السلام ومتبناه ، وأبو بكر ابن أبى قحافة ، وعثمان ابن عفان ، والزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد ابن ابى وقاص ... وغيرهم رضى الله عنهم جميعا .

فإن هؤلاء يلتقون بالنبى سراً وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب الى شعاب مكة يستخفى فيها عن أنظار قريش . ثم لما أربى الذين دخلوا فى الإسلام على الثلاثين - ما بين رجل وامرأة - إحتار لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أحدهم ، وهو الأرقم ابن ابى الأرقم ، ليلتقى بهم فيها لحاجات الإرشاد و التعليم ، وكانت حصيلة الدعوة فى هذه الفترة ما يقارب الأربعين رجلا وامرأة دخلوا فى الإسلام ، عامتهم من الفقراء و الأرقاء وممن لا شأن له بين قريش .

العبر و العظات :

1- وجه السرية فى بدء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :

لا ريب أن تكتم النبى صلى اله عليه وسلم فى دعوته الى الإسلام ، خلال هذه السنوات الأولى ، لم يكن بسبب الخوف على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه الوحى وقوله تعالى : (يا أيها المدثر قم فأنذر) علم أنه رسول الله الى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس ، على أن الله عز وجل لو أمره من اول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً ، لما توانى عن ذلك ساعة ، ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه .

ولكن الله عز وجل ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحى - أن يبدأ الدعوة فى فترتها الأولى ، بسرية وتكتم ، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها ، تعليماً للدعاة من بعده ، وإرشاداً لهم الى مشروعية الأخذ بالحيطة و الأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير و العقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول الى غايات الدعوة وأهدافها ، على أن لا يتغلب كل ذلك على الإعتماد و الإتكال علىالله وحده وعلى ألا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير و الفعالية فى تصوره وتفكيره ، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلا عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة الى الإسلام .

ومن هنا تدرك ، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة و السلام فى هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً .

وبناءاً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية ، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة ـ من حيث التكتم و الجهر ، أو اللين و القوة ـ حسبما تقتضيه الظروف وحال العصر الذى يعيشون فيه ، وهى مرونة حددتها الشريعة الإسلامية ، إعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم ، ضمن الأشكال و المراحل الأربعة التى سبق ذكرها ، على أن يكون النظر فى كل ذلك الى المصلحة للمسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب عليهم الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع .

ويقرر العز ابن عبد السلام حرمة الخوض فى مثل هذا الجهاد قائلا : (فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام ، لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس فى طيها مصلحة)

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث الظاهر فقط .

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فإنها فى الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضى ـ فى مثل هذا الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى ، وإلا هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل .

و الخلاصة أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار فى الدعوة إذا أمكن الجهر بها بها وكان ذلك مفيداً ، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين و المتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة و الدفاع عنها ، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين فى عقر دارهم إذا ما توافرت وسائل ذلك و أسبابه .

2ـ الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام و الحكمة من إسراعهم الى الإسلام قبل غيره :

وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا فى الإسلام فى هذه المرحلة كان معظمهم خليطا من الفقراء و الضعفاء و الأرقاء فما الحكمة من ذلك ؟ وما السر فى أن تأسس الدولة الإسلامية على أركان مثل هؤلاء الناس ؟ .

والجواب أن هذه الظاهرة هى الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء فى فترتها الأولى ، ألم تر الى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم : (ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك إتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) هود 27 ، والى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين ، حتى قال الله عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون و أشياعه : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) الأعراف 137 ، وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً ، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون ، وآمن به الناس المستضعفون ، حتى قال الله فى ذلك : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنّا بالذى آمنتم به كافرون) .

والسر فى ذلك أن حقيقة هذا الدين الذى بعث الله به عامة أنبيائه ورسله إنما هى الخروج عن سلطان الناس وحكمهم الى سلطان الله وحكمه وحده ، وهى حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين ، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين و المستذلين و المستعبدين . فيكون رد الفعل أمام الدعوة الى الإسلام لله وحده وهو المكابرة و العناد من أولئك المتألهين و المتحكمين ، والإذعان والإستجابة من هؤلاء المستضعفين ، وانظر ، فإن هذه الحقيقة تتجلى بوضوح فى الحديث الذى دار بين رستم قائد الجيش الفارسى فى وقعة القادسية ، وربعى ابن عامر الجندى البسيط فى جيش سعد ابن أبى

وقاص فقد قال له رستم : ما الذى دعاكم الى حربنا و الولوع بديارنا ؟ فقال : جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ثم نظر الى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله ، فقال متعجباً : (لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولكنى لا أرى قوماً أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا ، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى تصنعون أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض .....)

فالتفت المستضعفون بعضهم الى بعض يتهامسون : صدق والله العربى .....

أمّا القادة والرؤساء فقد وجدوا فى كلام ربعى هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته ، وقال بعضهم لبعض : (لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه) .

ولا يعنى هذا الكلام أن المستضعفين الذين أسرعوا الى الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة فى التخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم . ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، كان قدرا مشتركا بين زعماء قريش و مستضعفيها ، فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يخبر عن ربه ، غير أن الزعماء و الكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الإنقياد و الإتباع له ، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب . وأما الفقراء و المستضعفون فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم و الإنقياد له عليه الصلاة و السلام شىء ، أضف الى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بألوهية الله وحده من الإعتزاز به وعدم الإكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته ، فهذا الشعور الذى هو ثمرة الإيمان بالله عز وجل ، يزيد فى نفس الوقت قوة ويجعل صاحبه فى نشوة وسعادة غامرة .

ومن هنا تعلم عظم الفرية التى يفتريها بعض محترفى الغزو الفكرى فى هذا العصر ، حينما يزعمون بأن الدعوة التى قام بها محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما هى من وحى بيئته العربية نفسها ، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربى إذ ذاك . فلو كان ذلك كذلك ، لما كان رصيد هذه الدعوة خلال ثلاث سنوات من بدايتها أربعون رجلا وامرأة ، عامتهم من الفقراء و المستضعفين والموالى و الأرقاء ، وفى مقدمتهم أخلاط من مختلفى الأعاجم : صهيب الرومى ، وبلال الحبشى .

وسوف تجد فى البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هى التى أرغمته على الهجرة من بلاده و أرغمت أتباعه من حوله على التفرق هنا وهناك و الخروج الى بلاد الحبشة مهاجرين وذلك كراهية منها للدعوة التى زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها و أفكارها .

الجهر بالدعوة

قال ابن هشام : ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من النساء و الرجال حتى فشى ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق ، وأن يبادى الناس بأمره وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه . ثم قال الله له : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال له : (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن إتبعك من المؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين) .

وحينئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ أمر ربه ، فاستجاب لقوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) بأن صعد الى جبل الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدىّ ، حتى إجتمعوا ، ةفجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر : ما هو ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب تباً لك سائر اليوم .. ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتبّ) . ثم نزل الرسول صلى الله عليه وسلم فاستجاب لقوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) بأن جمع من حوله ذويه وأهل قرابته وعشيرته ، فقال يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة ابن كعب : أنقذوا أنفسكم من

النار ، يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لك من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلاها .

وكان رد فعل قريش أمام جهره بالدعوة ، أن أدبروا عنه وتنكروالدعوته معتذرين بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا الدين الذى ورثوه عن آبائهم وأصبح من تقاليد حياتهم وحينئذ نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم الى ضرورة تحرير أفكارهم وعقولهم من عبودية الإتباع و التقليد ، واستعمال العقل و المنطق ، وأوضح لهم أن آلهتهم التى يعكفون على عبادتها لا تفيدهم أو تضرهم شيئا ، وأن توارث آباءهم وأجدادهم لعبادتها ليس عذرا فى إتباعهم بدون دافع إلا دافع التقليد ، كما قال الله عز وجل فى حقهم :(وإذا قيل لهم تعالو الى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) !؟

فلما عاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وجرّ إعتذارهم عن تمسكهم بعبادة الأصنام بأنها تقاليد آباءهم وأجدادهم ، الى وصف آباءهم بعدم العقل ـ أعظموا الأمر ، وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وإلا عمه أبا طالب الذى حدب عليه ، ومنعه ، وقام دونه .

العبر و العظات :

فى هذا المقطع من سيرته عليه الصلاة و السلام دلالات ثلاث نجملها فيما يلى :

أولا :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما صدع بالدعوة الى الإسلام فى قريش وعامة العرب فاجأهم بما لم يكونوا يتوقعونه أو يألفونه ، تجد ذلك واضحا فى رد أبى لهب عليه ، ثم فى إتفاق معظم المشركين من زعماء قريش على معاداته و مقاومته ، وفى ذلك الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بشرعته و أحكامه ثمرة من ثمار القومية ، ويدعون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما كان يمثل بدعوته التى دعا إليها آمال العرب و مطامحهم فى ذلك الحين .

وليس الباحث بحاجة الى أن يتعب نفسه بأى رد أو مناقشة لهذه الدعوى المضحكة عندما يطّلع على سيرته صلى الله عليه وسلم ، فالذين يروجون لها بين الناس هم أول من يعلم سخفها وبطلانها ، ولكنها على كل حال دعوى لابد منها فى نظرهم من أجل إزاحة الدين وسلطانه عن سبيل المبادىء و الأفكار الأخرى ، فليس المهم أن تكون الدعوى صحيحة حتى يمكن الترويج لها ، ولكن المهم أن تكون مصلحتهم وأغراضهم تتطلب ترويج ذلك وادعاءه ، ولعلك لم تنس ما ذكرناه مفصلا فى المقدمة الخامسة بصدد هذا الموضوع .

ثانيا : كان من الممكن أن لا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرابته خاصة ، إكتفاءاً بعموم أمره الآخر وهو قوله : ((فاصدع بما تؤمر) إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرابته فى عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة و الإنذار ، فما الحكمة من خصوصية الأمر بإنذار عشيرته الأقربين ؟

والجواب أن فى هذا إلماحاً الى درجة المسئلوية التى تتعلق بكل مسلم عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً .

فأدنى درجة فى المسئولية هى مسؤولية الشخص عن نفسه ، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة إبتداء الوحى تلك المدة الطويلة الى رأيناها ، أى ريثما يطمئن محمد صلى الله عليه وسلم الى انه نبى مرسل ، وأن ما ينزل عليه إنما هو الوحى من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولا ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادىء ونظم و أحكام .

أما الدرجة التى تليها ، فهى مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوى قرباه وتوجيها الى القيام بحق هذه المسئولية خصص الله الأهل و الأقارب بضرورة الإنذار و التبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ و الجهر به ، وهذه الدرجة من المسؤولية يشترك فى ضرورة تحمل أعباءها كل مسلم صاحب أسرة أو قربى ، وليس من إختلاف بين دعوة الرسول فى قومه ودعوة المسلم فى

أسرته بين أقاربه ، إلا أن الأول يدعو الى شرع جديد منزل عليه من الله تعالى ، وهذا يدعو بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى بعث إليه ، فهو يبلغ عنه وينطق بلسانه ، وكما لا يجوز للنبى أة الرسول فى قومه أن يعقد عن تبليغهم ما اوحى إليه ، فكذلك لا يجوز لرب الأسرة أن يقعد عن تبليغ أهله وأسرته ذلك ، بل يجب أن يحملهم على إتباع ذلك حملا ويلزمهم به إلزاما .

أما الدرجة الثالثة ، فهى مسئولية العالم عن حيّه وبلدته ، ومسئولية الحاكم عن دولته وقومه ، وكل منهما ينوبان فى ذلك مناب الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ هما الوارثان الشرعيان له لقوله عليه الصلاة و السلام : العلماء ورثة الأنبياء ، ولتسمية الإمام و الحاكم خليفة ، أى خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . على أن العلم و الدراية من لوازم الإمام و الحاكم فى المجتمع الإسلامى ، فليس من خلاف بين طبيعة المسئولية المنوطة برسول الله صلى الله عليه وسلم و المنوطة بالعلماء و الحكام فى الإتساع و الشمول . إلا أن الرسول كما قلنا يبلغ شرعا جديداً يوحى إليه من الله تعالى ، أما هؤلاء فيمشون على قدمه ويهتدون بهديه ويلتزمون سنته وسيرته فيما يفعلون ويبلغون .

و إذاً فقد كان صلى الله عليه وسلم يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مكلفاً ، وكان يتحمل المسئولية تجاه أسرته و أهله بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة وقربى ، ثم كان يتحمل المسئولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبيا ورسولا مرسلا من الله عز وجل .

ويشترك مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الأولى كل مكلف ، وفى الثانية كل صاحب أسرة ، وفى الثالثة العلماء و الحكام .

<u>ثالثا :</u> عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه أن يأسروا أنفسهم للتقاليد الموروثة عن آبائهم و أجدادهم دون تفكر منهم فى مدى صلاحها وفسادها ، ودعاهم الى تحرير عقولهم من أسر الإتباع الإعمى وعصبية التقاليد التى لا تقوم على شى ءمن أساس الفكر و المنطق .

وفى هذا دليل على أن مبنى هذا الدين ـ بما فيه من عقائد وتشريعات ـ إنما هو على العقل و المنطق ، وأن المتوخى فى التمسك به إنما هو مصلحة العباد العاجلة و الآجلة ، ولذلك كان من أهم شروط صحة الإيمان بالله وما يتبعه من امور إعتقادية أخرى أن يقوم على أساس من اليقين و الفكر الحر ، دون أدنى تأثر بأى عرف أو تقليد ، حتى قال صاحب جوهرة التوحيد فى أرجوزته المعروفة :

فكل من قلد فى التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد

ومن هنا تعلم أن الدين جاء حرباً على التقاليد ، و الدخول فى أسرها ، إذ هو قائم فى كل مبادئه و أحكامه على أساس العقل و المنطق السليمين ، على حين أن التقاليد قائمة على مجرد باعث الإقتداء والإتباع ، أى دون أن يكون فيه لعنصر البحث و التفكير الحر أى تأثير ، إذ أن كلمة التقاليد إنما تعنى ، فى وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء افجتماع (مجموعة العادات التى يرثها الآباء عن الأجداد ، ا, التى تسرى بمجرد عامل الإحتكاك فى بيئة من البيئات أو بلدة من البلدان بشرط أن يكون عامل التقليد المجرد هو العصب الرئيسى الذى يمد فى تلك العادات من أجل الحياة و البقاء) .

فجميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة فى مجتمعاتهم ، ومن مظاهر اللهو فى أفراحهم ، ومن أشكال الحداد فى مآسيهم و أحزانهم ، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الإقتباس التلقائى عن طريق التأثر و الإحتكاك جميع ذلك يسمى فى إصطلاح اللغة وعلم الإجتماع (تقاليد) .

إذا علمت هذا ، أدركت أن الإسلام لا يمكن أن ينطوى على شىء مما يسمى بالتقاليد ، سواء ما كان منه متعلقا بالعقيدة أو مختلف النظم و الأحكام ، إذ العقيدة قائمة على أساس العقل و المنطق ، والأحكام قائمة على أساس المصالح الدنيوية و الأخروية وهى مصالح تدرك بالتفكير و التدبّر الذاتى وإن قصر عن إدراكها فهم بعض العقول لبعض العوارض و الأسباب .

وإذا تبين لك هذا ، أدركت مدى خطورة الخطيئة التى يقع فيها من يطلقون كلمة (التقاليد الإسلامية) على مختلف ما يتضمنه الإسلام من عبادات وأحكام تشريعية و أخلاقية .

إذ من شأن هذه التسمية الظالمة وترويجها أن توحى الى الأذهان أن قيمة السلوك والخلق الإسلامى ليست بسبب كونه مبدأ إلهيا يكمن فيه سر سعادة البشر - كما هو الحق - وإنما سبب أن كلا من النظام و الخلق الإسلامى إنما هو عادات قديمة موروثة من الآباء و الأجداد ، ولا ريب أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء أن يضيق أكثر الناس ذرعاً بهذا الميراث القديم الذى يراد فرضه على المجتمع فى عصر كل ما فيه متطور ومتقدم وجديد ، والواقع أن إطلاق هذا الشعار على الأحكام الإسلامية ، ليس فى مصدره خطيئة عفوية ، وإنما هو حلقة فى سلسلة حرب الإسلام بالشعارات الباطلة المدسوسة .

فالغرض الأول من ترويج كلمة (تقاليد إسلامية) ، هو أن يؤتى بمعظم نظم الإسلام و أحكامه ، ويسدل فوقها شعار (التقاليد) حتى إذا مر على ذلك زمن ، وارتبط معنى التقاليد بنظم الإسلام و أحكامه فى أذهان الناس ، ونسوا أن هذه النظم إنما هى فى حقيقتها مبادىء قائمة على أساس ما يقتضيه العقل و البحث السليم - أصبح من السهل على أعداء الإسلام أن يحاربوه من النقطة التى تنفذ إليها حرابهم و سهامهم ، إذ لا ريب أن المسلمين إذا استفاقوا ليجدوا معظم مبادىء الإسلام و أحكامه ، كشؤون الزواج و الطلاق ، وحجاب المراة وصيانتها ، وعامة قضايا السلوك و الأخلاق - قد أسبل عليها رداء التقاليد ، فإن من الطبيعى أن يجدوا بعد ذلك من يدعو الى نبذ التقاليد و الخروج عن إسارها وكسر قيودها ، خصوصا فى هذا العصر الذى أصبحت السيادة فيه لحرية الرأى و التفكير .

ولكن الحقيقة أن الإسلام لا تقاليد فيه .

إنه الدين الذى جاء ليخلص العقل من براثن التقاليد ، كما رأينا فى أولى خطوات الدعوة التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن جميع ما أتى به الإسلام من نظم و تشريعات ، إنما هى مبادىء و المبدأ هو ما يقوم على أساس من التفكير و العقل ، ويستهدف الوصول الى مقصد معين ، وإذا كانت المبادىء البشرية قد تخطىء الصواب أحياناً لشذوذ فى أفكار أصحابها ، فإن مبادىء الإسلام لا تخطىء الصواب أبداً لأن الذى شرعها هو خالق العقول و الأفكار ، وفى هذا وحده دليل عقلى كاف للإقتناع بهذه المبادىء و اليقين بوجاهتها وصوابها . أما التقاليد ، فإنما هى تلك التيارات السلوكية التى ينجرف فيها الناس تلقائياً بمجرد باعث المحاكاة و التقليد لدى الإنسان .

المبادىء هى الخط الذى يجب أن ينضبط بها تطور الزمن ، لا العكس .

والتقاليد هى مجموعة الطفيليات التى نبتت تلقائياً وسط الحقول الفكرية للمجتمع فهى الحشائش الضارة التى لابد من إجتثاثها و تنقية سبيل التفكير السليم عنها .

الإيـــذاء

ثم إن قريشاً اشتدت فى معاداتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه ، اما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد لاقى من إيذائهم أنواعاص كثيرة ، من ذلك ما رواه عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل ابو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ك أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ . ومنه ما رواه عبد الله ابن عمر قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش ، جاء عقبة ابن أبى معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه ،

فجاءت فاطمة رضى الله عنها فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك ، ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء و الغمز و اللمز كلما مشى بينهم أو مر بهم فى طرقاتهم أو نواديهم .

ومنه ما رواه الطبرى وابن اسحاق أن بعضهم عمد الى قبضة من التراب فنثرها على راسه وهو يسير فى بعض سكك مكة ، وعاد الى بيته و التراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب و هى تبكى ورسول الله يقول لها : يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك .

وأما اصحابه رضوان الله عليهم ، فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب ، حتى مات منهم من مات تحت التعذيب وعمى من عمى ، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئاً ، ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذى لاقاه كل منهم ، ولكنا ننقل هنا ما رواه الإمام البخارى عن خبّاب ابن الأرتّ أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردةً وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت يا رسول الله : ألا تدعو لنا ؟ فقعد وهو محمر الوجه ، فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف إلا الله .

العبر والعظات :

أول ما قد يخطر فى بال المتأمل ، حينما يرى قصة ما لقيه صلى الله عليه وسلم و أصحابه من المشركين ، من صنوف العذاب و الإيذاء ، هو أن يتساءل : فيم هذا العذاب الذى لقيه النبى و أصحابه وهم على الحق ؟ ولماذا لم يعصمهم الله عز وجل منه وهم جنوده وفيهم رسوله يدعون الى دينه ويجاهدون فى سبيله .

والجواب أن أول صفة للإنسان فى الدنيا ، أنه مكلف ، أى أنه مطالب من قبل الله تعالى بحمل ما فيه كلفة ومشقة ، وأمر الدعوةالى الإسلام و الجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف ، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى ، إذ لا معنى للعبودية لله تعالى إن لم يكن ثمة تكليف ، وعبودية الإنسان لله عز وجل ضرورة من ضرورات ألوهيته سبحانه وتعالى ، فلا معنى للإيمان بها إن لم ندرك عبوديتنا له .

فقد إستلزمت العبودية - إذاً - التكليف ، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس و الأهواء ، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله فى هذه الدنيا تحقيق أمرين إثنين :

أولهما : التمسك بالإسلام و إقامة المجتمع الإسلامى الصحيح .

ثانيهما : سلوك السبل الشاقة إليه واقتحام المخاطر وبذل المهج و المال من أجل تحقيق ذلك .

أى أن الله عز وجل كلفنا بالإيمان بالغاية ، وكلفنا الى جانب ذلك بسلوك الوسيلة الشاقة الطويلة الى هذه الغاية مهما بلغت المسألة فى خطورتها و صعوبتها .

ولو شاء الله لجعل السبيل الى إقامة المجتمع الإسلامى بعد الإيمان به سهلاً معبداً ، ولكن السير فى هذه السبيل لا يدل حينئذ على شىء من عبودية السالك لله تعالى وعلى أنه قد باع حياته وماله له عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به ، وعلى أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأمكن حينئذ أن يلتقى على هذه الجادة المؤمن و المنافق والصادق و الكاذب ، فلا يتمحص الواحد منهم عن الآخر ، وإذاً فإن ما يلاقيه الدعاة الى الله تعالى و المجاهدون فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى ، سنة إلهية فى الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حكم ثلاث :

أولا : صفة العبودية الملازمة للإنسان ، لله عز وجل ، وصدق الله إذ يقول : (وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون) .

ثانياً : صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية ، فما من رجل أو إمرأة يبلغ أحدهما عاقلا سن الرشد ، إلا وهو مكلف من قبل الله تعالى بتحقيق شرعة الإسلام فى نفسه وتحقيق النظام الإسلامى فى مجتمعه ، على أن يتحمل فى سبيل ذلك كثيراً من الشدة و الأذى ، حتى يتحقق معنى التكليف .

ثالثاً : إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين ، فلو ترك الله تعالى الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على السنتهم فقط ، لاستوى الصادق و الكاذب ، ولكن الفتنة و الإبتلاء ، هما الميزان الذى يميز الصادق عن الكاذب ، وصدق اللهالقائل فى محكم كتابه :(ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولو آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) العنكبوت 1،2 والقائل :(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .

وإذا كانت هذه هى سنة الله فى عباده ، لفن تجد لسنةالله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا حتى مع أنبيائه و أصفيائه ، من أجل ذلك أوذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوذى من قبله الأنبياء جميعاً و المرسلين ، ومن أجل ذلك أوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات منهم من مات تحت العذاب وعمى من عمى ، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله عز وجل .

فإذا أدركت طبيعة العذاب الذى يلقاه المسلم فى طريقه الى إقامة المجتمع الإسلامى ، علمت أنه ليس فى حقيقته عقبات أو سدود تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية ، كما قد يتوهم بعض الناس ، بل هو سلوك فى الطريق الطبيعى الذى خطه الله تعالى بين المسلم و الغاية التى أمره بالمسير إليها ، أى أن المسلمين يتقربون الى الغاية التى كلفهم الله بالوصول إليها ، بمقدار ما يجدونه فى طريقهم الى ذلك من العذاب ، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء .

ولذا فإنه لا ينبغى للمسلم أن يتوهم اليأس ، إذا ما عانى شيئاً من المشقة أو المحنة ، بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين أى أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر و النكبات سعياً الى تحقيق أمر ربهم عز وجل .

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلامى، وتوهموا أن هذا الذى يرونه من الأذى و العذاب إنما هو عنوان ودليل على إبتعادهم عن النصر ـ كان جواب هؤلاء من الله تعالى : ألا إن نصر الله قريب .

وتجد برهان هذا جلياً فيما رويناه من قصة خباب بن الأرتّ رضى الله عنه ، حينما جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذى إكتوى به معظم جسده ، يشكو إليه صلى الله عليه وسلم ويسأله الدعاء للمسلمين و النصر ، فقد كام جواب الرسول صلى الله عليه وسلم له بهذا المعنى ، إن كنت تتعجب من العذاب وألأذى وتستغرب أن ترى ذلك فى سبيل الله عز وجل فاعلم أن هذا هو السبيل ... وتلك هى سنة الله فى جميع عباده الذين آمنوا به : مشط الكثير منهم فى سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المفرق و القدم فما صدهم ذلك شىء من دين الله .

وإن كنت ترى فى العذاب دلائل اليأس و القنوط من النصر ، فأنت متوهم ، بل الحق هو أن تجد العذاب و الألم سيراً فى الطريق ودنوّا من النصر ، وسينصرن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى إلا الله و فى رواية زائدة : و الذئب على غنمه .

وهذا المعنى نفسه هو السر فى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشّر أصحابه بأن الله سيفتح لهم بلاد فارس و الروم ، ومع ذلك فلم تفتح هذه البلاد عليهم إلا بعد وفاته عليه الصلاة و السلام بزمن غير يسير ولقد كان من مقتضى فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه ومدى محبة الله عز وجل له أن يفتح كل تلك البلاد فى حياته وبقيادته وتحت إشرافه ، بدلا من أن يسجل التاريخ

فتحها بقيادة أحد أتباعه صلى الله عليه وسلم . لقد كان هذا قريباً من محبة الله لرسوله ، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذى ذكرناه .

لم يكن المسلمون فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قد دفعوا من اجل إنتصارهم فى بلاد الشام و العراق أقساط الثمن كله ، ولابد قبل النصر من دفع كامل الثمن ، لابد من ذلك ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجوداً بينهم ، وليست المسألةأن ترتبط الفتوحات باسم الرسول صلى الله عليه وسلم وتتم بقيادته وتحت إشرافه من اجل عظيم محبة الله تعالى له ، ولكن المسألة هى أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله على صدقهم فى هذه البيعة ، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وقعوا بالقبول و الرضى تحت قول الله تعالى : (إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) .

سياسة المفاوضات

جاء فيما يرويه ابن هشام عن ابن اسحاق أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ذا بصيرة ورأى فى قومه ـ قال فى نادى قريش : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكلمه ، فجاء عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يابن أخى ، إنك منا حيث علمت من الشرف فى العشيرة والمكانة فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم .... فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يا أبا الوليد أسمع .

قال يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم .... قال فاسمع منى ، ثم قال :(بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيلمن الحمن الرحيم ، كتاب فصلت أياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذ1يراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه ، وويل للمشركين) ثم مضى رسول الله فى القراءة وعتبة يسمع حتى وصل الى قول الله تعالى (فإن أعرضوا فقد أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة بفيه وناشده أن يكف عن القراءة ، وذلك خوفا مما تضمنته الآية من تهديد ، ثم عاد عتبة الى أصحابه فلما جلس بينهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت بمثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .... يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم .

قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأى فاصنعوا ما بدا لكم .

وروى الطبرى وابن كثير وغيرهما أن نفرا من المشركين فيهم الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل جاؤوا فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه المال حتى يكون أغناهم وأن يزوجوه أجمل أبكارهم على أن يترك شتم آلهتهم وتسفيه عاداتهم ، فلما رفض إلا الدعوة الى الحق الذى بعث به ، قالوا نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوما ، فرفض ذلك أيضا ونزل قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين) .

ثم إن أشراف قريش عادوا فكرروا المحاولة التى قام بها عتبة ابن ربيعة فذهبوا إليه مجتمعين ، وعرضوا عليه الزعامة و المال ، وعرضوا عليه الطب إن كان هذا الذى يأتيه رئيا من الجن ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف

فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون بشيراًونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا و الآخرة ، وإن تردّوه علىّ ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

فقالوا له : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل امءاً ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليفجر لنا أنهاراً كأنهار الشام و العراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن بعث لنا منهم قصىّ ابن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل وليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبغى .... فإ، صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول ، فقال لهم : ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، ثم إنهم قالوا له ـ بعد طول كلام وخصام ـ إنا قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل فى اليمامة يقال له الرحمن ، وأنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وأنّا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا . ثم قاموا وانصرفوا عنه .

العبر و العظات :

فى هذا المشهد الذى عرضناه من سيرته صلى الله عليه وسلم ثلاث دلائل كل واحدة منها على جانب كبير من الأهمية :

الدلالة الأولى : وهى توضح لنا فى تمحيص دقيق حقيقة الدعوة التى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وتفصلها عن كل ما قد يلتبس بها من الأهداف و الأغراض التى قد يضمرها فى أنفسهم عادة أرباب الدعوات الجديدة و المنادون بالثورة و الإصلاح .

هل النبى صلى اله عليه وسلم يضمر من وراء دعوته الوصول الى ملك ؟ أو لعله يضمر الوصول الى مستوى رفيع من الزعامة أو الغنى ، أو لعل الأمر لا يعدو خيالات تتراءى له بسبب مرض يعانيه ؟ .

كل هذه الإحتمالات ، وسائل قد يتذرع بها محترفوا الغزو الفكرى وأعداء هذا الدين ولكن يا لأسرار الحياة العظيمة التى هيأها رب العالمين لرسوله ! .... لقد ملأ الله عز وجل حياة رسوله بالمواقف و المشاهد التى تقطع دابر كل إحتمال ، وتقطع السبيل الى كل وسواس ، وتدع أرباب الغزو الفكرى حيارى فى الطريقة التى ينبغى لهم أن يسلكوها فى حربهم الفكرية .

كان من جليل حكمةالله تعالى أن يقوم مشركوا قريش بسلسلة من المفاوضات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن صوروا فى أنفسهم كل هذه الإحتمالات ، وهم أدرى الناس بطبيعة دعوته و الغاية البعيدة من رسالته و بأنه لن ينزل عند شىء من مغرياتهم ، ولكن هكذا أرادت الحكمة الإلهية حتى ينطق التاريخ بتكذيب كل من سأتى من محترفى الغزو الفكرى و التشكيك مع الزمن .

لقد فكر أمثال كريمر وفان فلوتن طويلا .... ثم لم يجدوا من سبيل لأداء مهمة التشكيك و الغزو إلا أن يغمضوا أعينهم عن الحقيقة ويزعموا أن دوافع محمد عليه الصلاة والسلام فى دعوته إنما كانت الرغبة فى السيادة و الملك ، وإن صدموا رؤوسهم فى هذا الزعم بصخور عاتية تقذفهم وتردهم الى الوراء أشواطاً . لقد سخر الله من قبلهم عتبة ابن ربيعة و أمثاله ، لحمل هذه الدوافع و الآمال ووضعها بين يدى محمد صلى الله عليه وسلم لينالها قريبة سائغة وليبصر قريش كلها وقد دانت له وألقت من يدها ما رفعته

من السلاح ووسائل التعذيب فى وجهه ووجه أصحابه ، فلماذا لم يلن الرسول لهم ، ولم يتحول الى هذه الغنيمة التى سيقت إليه ما دام أنها الدافع له من وراء رسالته ودعوته ؟ .

وهل ينصت طالب الملك و الزعامة لمن سعى يعرضهما عليه ، فى مفاوضة طويلة وتخويف وتهديد ورجاء ، ليقول لهم أخيرا : (ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً و نذيراً ..... فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا و الآخرة وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

ثم إن معيشته الحياتية كانت مطابقة لكلامه هذا ، فلم يعرض عن الملك و الزعامة بلسانه ، ليصل إليهما خلسة بسعيه وعمله ، بل كان صلى الله عليه وسلم بسيطا فى مأكله ومشربه , ولا يعلو عما عليه حال الفقراء و المساكين . قالت عائشة رضى الله عنها فيما يرويه البخارى (لقد توفى النبى صلى الله عليه وسلم وما فى رفى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى فأكلت منه حتى طال علىّ) ويقول أنس رضى الله عنه فيما يرويه البخارى أيضا : لم يأكل النبى صلى الله عليه وسلم على خوان حتى مات ، وما أكل خبزاً مرققا حتى مات) .

وكان بسيطا للغاية فى ملبسه و أثاث بيته ، يؤثر فى جنبه الحصير وما عرف أنه نام على شىء وثير ، حتى إن نساءه جئن إليه يوما وفيهن السيدة عائشة رضى الله عنها يشتكين الفاقة ويطالبنه بمزيد من النفقة لزينتهن ولباسهن حتى لا تكون إحداهن أقل شأناً من مثيلاتها من نساء الصحابة ، فأطرق ولم يجب ، ثم نزل قول الله تعالى : (يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما) ، فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن هاتين الآيتين ، ثم خيرهن بين قبول العيش معه على الحالة التى هو فيها ، أو الإصرار على مطالبهن من النفقة وزيادة الزينة و المال وحينئذ يفارقهن و يسرحهن سراحاً جميلا ، فاخترن العيش معه على ما هو عليه .

فكيف يشك العقل ـ أى عقل ـ بعد هذا كله فى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكيف يصح أن يتوهم الفكر او الخيال بأنه قد يكون مدفوعا برغبة الزعامة أو الطمع فى الغنى ؟ فهذه هى الدلالة الأولى التى تؤخذ من هذا المشهد الذى ذكرناه .

الدلالة الثانية : وهى تبين لنا معنى الحكمة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسك ويتصف بها . هل الحكمة أن تضع أنت السياسة التى تراها فى سير الدعوة مهما كانت كيفيتها و مهما كان نوعها ؟ وهل أعطاك الشارع صلاحية أن تسلك أى سبيل أو وسيلة تراها ما دام هدفك من وراء ذلك هو الحق ؟

لا ..... إن الشريعة الإسلامية تعبدتنا بالوسائل كما تعبدتنا بالغايات . فليس لك أن تسلك الى الغاية التى شرعها الله لك إلا الطريق المعينة التى جعلها الله وسيلة إليها و للحكمة و السياسة الشرعية معان معتبرة ، ولكن فى حدود هذه الوسائل المشروعة فقط .

والدليل ما رويناه آنفا ، فقد كان من المتصور فى باب الحكمة و السياسة الشرعية أن يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بالزعامة و الملك على أن يجمع فى نفسه إتخاذ الملك و الزعامة وسيلة الى تحقيق دعوة الإسلام فيما بعد ، خصوصاً وأن للسلطان والملك وازعاً قوياً فى النفوس ، وحسبك أن أرباب الدعوات و المذاهب ينتهزون فرصة الإستيلاء على الحكم كى يستعينوا بسلطانه على فرض دعوتهم و مذاهبهم على الناس . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرض مثل هذه السياسة و الوسيلة الى دعوته ، لأن ذلك ينافى مبادىء الدعوة نفسها .

لو جاز أن يكون مثل هذا الأسلوب نوعا من أنواع الحكمة و السياسة الرشيدة ، لإنمحى الفرق بين الصادق الصريح فى صدقه و الكاذب الذى يخادع فى كذبه ولتلاقى الصادقون فى دعوتهم مع الدجالين و المشعوذين على طريق واحدة عريضة إسمها : الحكمة و السياسة .

إن فلسفة هذا الدين تقوم على عماد الشرف و الصدق فى كل من الوسيلة و الغاية ، فكما أن الغاية لا يقوّمها إلا الصدق و الشرف وكلمة الحق ، فكذلك الوسيلة لا ينبغى أن يخطها إلا مبدأ الصدق و الشرف و كلمة الحق ، ومن هنا يحتاج أرباب الدعوة الإسلامية فى معظم حالاتهم وظروفهم الى التضحية و الجهاد لأن السبيل التى يسلكونها لا تسمح لهم بالتعرج كثيراً ذات اليمين وذات الشمال .

ومن الخطأ أن تحسب مبدأ الحكمة فى الدعوة إنما شرع من أجل تسهيل عمل الداعى أو من أجل تفادى المآسى و الأتعاب، بل السر فى مشروعية الحكمة فى الدعوة إنما هو سلوك أقرب الوسائل الى عقول الناس و أفكارهم ، وعنى هذا أنه إذا إختلفت الأحوال وقامت عثرات الصد و العناد دون سبيل الدعوة ، فإن الحكمة حينئذ إنما هى إعداد العدة للجهاد و التضحية بالنفس و المال ، إن الحكمة هى أن تضع الشىء فى مكانه . وهذا هو الفرق بين الحكمة و المخادعة ، وبين الحكمة و المسالمة .

وأنت خبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما إستبشر بما رآه من دلائل إقبال بعض زعماء قريش على فهم الدين ، إنصرف إليهم بكليته مبتهجاً يكلمهم ويشرح لهم ما يستفسرون عنه من حقائق الإسلام ، حتى دعاه ذلك الإستبشار و الطمع فى هدايتهم الى أن يعرض عن الصحابى الضرير عبد الله ابن أم مكتوم حينما مر بهم فوقف الى جانبهم يستمع ، وأخذ هو الآخر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك منه عليه الصلاة و السلام حرصاً على الفرصة أن لا تفوته وأملا فى أن يجيب عبد الله ابن أم مكتوم فى أى وقت آخر ، فعاتبه الله على ذلك فى سورة : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى) وأنكر عليه إجتهاده هذا ،وإن كانت غايته مشروعة ونبيلة ، ذلك لأن الوسيلة قد إنطوت على كسر خاطر مسلم أو ما يدل على الإعراض عنه وعدم الإلتفات إليه من أجل إجتذاب قلوب المشركين فهى ليست بمشروعة ولا مقبولة .

والخلاصة أنه ليس لأحد من الناس أن يغير شيئا من أحكام الإسلام ومبادئه ، أو يتجاوز شيئاً من حدوده أو يستهين بها ، باسم إتباع الحكمة فى النصيحة و الدعوة لأن الحكمة لا تعتبر إلا إذا كانت مقيدة ومنضبطة ضمن حدود الشريعة ومبادئها و أخلاقها.

الدلالة الثالثة : ونستفيدها من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من تلك المطالب التى طلبتها قريش منه صلى الله عليه وسلم شرطاً لإتباعها إياه ، وهو موقف أيده الله فيه ، ففيه كما ذكر عامة المسلمين نزل فيه قول الله تعالى :(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله و الملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) .

وليس السبب فى عدم إستجابة الله لهم ذلك ، ما قد يظنه البعض من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أوتى من المعجزات إلا معجزة القرآن ، ولذلك لم يستجب لهم مطالبهم ، وإنما السبب أن الله عز وجل علم أنهم إنما يطالبون بذلك كفراً وعناداً وإمعاناً فى الإستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو واضح فى أسلوب طلبهم ونوع المطاليب التى عرضوها ، ولو علم الله عز وجل فيهم صدق الطلب وحسن النية وأنهم مقبلون فى ذلك على محاولة التأكد من صدق النبى عليه الصلاة و السلام ، لحقق لهم ذلك ، ولكن أمر قريش فى ذلك مطابق لما وصفه الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله تعالى :(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وإذا علمت ذلك أدركت أنه لا تنافى بين هذا وما ثبت من إكرام الله لنبيه عليه الصلاة و السلام بالمعجزات الكثيرة المختلفة مما سنفصل القول فيه قريباً إن شاء الله .

الحصار الإقتصادى :

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى ابن عقبة ، وعن ابن اسحاق وعن غيرهما أن كفار قريش أجمعوا امرهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلموا فى ذلك بنى هاشم وبنى المطلب ولكنهم أبوا تسليمه صلى اله عليه وسلم إليهم ، فلما عجزت قريش عن

قتله صلى الله عليه وسلم أجمعوا على منابذته و منابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب ، فكتبوا بذلك كتاباً تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وعلقوا الكتاب فى جوف الكعبة . والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات ، بدءاً من المحرم سنة سبع من البعثة الى السنة العاشرة منها ، وقيل استمر ذلك سنتين فقط .

ورواية موسى ابن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى الحبشة ، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار . أما رواية ابن اسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه صلى الله عليه وسلم الى الحبشة وبعد إسلام عمر .

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين ، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب بنى المطلب ، وإنما شعاب مكة متفرقة ، واجتمع فيه من بنى هاشم وبنى المطلب المسلمون و الكافرون ، أما المسلمون فتديناً وأما الكافرون فحمية ، إلا ما كان من أبى لهب ، عبد العزى ابن عبد المطلب ، فإنه خرج الى قريش فظاهر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فجهد النبى صلى الله عليه وسلم و المسلمون جهداً شديداً فى هذه الأعوام الثلاث واشتد عليهم البلاء ، وفى الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر . وذكر السهيلى أنهم كانوا إذا قدمت العير مكة ، يأتى أحد أصحاب رسول الله الى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله ، فيقوم أبو لهب فيقول يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به .

فلما كان على رأس ثلاث سنوات من بدء هذا الحصار ، تلاوم قوم من بنى قصى ، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه ،وأرسل الله على صحيفتهم التى كتب فيها نص المعاهدة الأرضة فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد ، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التى فيها ذكر الله عز وجل .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بذلك ، فقال له أبو طالب : أربك أخبرك بذلك ؟ قال نعم ، فمضى فى عصابة من قومه الى قريش ، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهماً إياهم أنه نازل عند شروطهم فجاؤو بها وهى مطوية ، فقال أبو طالب : إن ابن أخى قد أخبرنى ولم يكذبنى قط ، أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التى كتبتم الأرضة فأتت على كل ما كان فيها من جور وقطيعة رحم ، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم ، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا وإن كان الذى يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون ، فقالوا قد رضينا بالذى تقول .

ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا سحر ابن أخيك ! وزادهم ذلك بغياً وعدواناً .

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا فى نقض الصحيفة ، وإنهاء هذا الحصار . وهم : هشام ابن عمرابن الحارث ، وزهير ابن أمية ، والمطعم ابن عدى ، وأبو البخترى ابن هشام ، وزمعة ابن الأسود .

وكان أول من سعى الى نقضها بصريح الدعوة زهير ابن أمية ، أقبل على الناس عند الكعبة فقال يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم و المطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، ثم قال بقية الخمسة نحواً من هذا الكلام ، ثم قام المطعم ابن عدى الى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ، الى بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج الى مساكنهم .

العبر و العظات :

هذه القطيعة الظالمة ، تصور قمة الشدة التى لقيها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه طيلة ثلاثة أعوام ، وقد رأيت المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب ، شاركوا المسلمين فى تحملها ، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا ، فقد كان الذى دفعهم إليه حمية القرابة و الرحم ، وإباء الذل الذى كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد صلى الله عليه وسلم ومشركى قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونه ويفتكون به ، بقطع النظر عن العقيدة و الدين ، فقد آثروا إذاً أن يجمعوا بين رغبتين فى صدورهم :

الأولى : الثبات على الشرك و الإستكبار على الحق الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم .

الثانى : الإنصياع للحمية التى تدعوا الى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمه ، بحق كان أو باطل .

أما المسلمون وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما صبرهم على ذلك الإنصياع لأمر الله ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهو أن الدنيا عندهم فى جنب مرضات الله عز وجل ، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه ، قد تسمع بعض المبطلين من محترفى الغزو الفكرى يقولون : إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وتحوطها بالرعاية و الحفظ ! ... و الدليل على ذلك موقفهم السلبى من مشركى قريش فى مقاطعتهم للمسلمين .

وإنها لمغالطة مكشوفة ، لا يتماسك عليها حجاب أى منطق ولو كان صوريا ، ذلك لأن من الطبيعى جداً أن تقود الحمية الجاهلية بنى المطلب وبنى هاشم الى الذود عن حياة ابم عمهم عندما تتهددها يد غريبة ويدنوا منها بالسوء شخص دخيل .

والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القربى الى مثل هذا التعصب ، لا تنظر الى مبدأ ، ولا تتأثر بحق أو بباطل ، وإنما هى العصبية ولا شىء غير العصبية ، ولذلك أمكن أن يجتمع فى ذوى قرباه صلى الله عليه وسلم صفتان متناقضتان بحسب الظاهر وهما : الإستكبار على دعوته و الجحود بها ، و الإنتصار له ضد سائر المشركين فى قريش .

ومع ذلك فأى فائدة حققوها للنبى صلى الله عليه وسلم من وراء إعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كما أوذى هو وأصحابه ، ومضت قريش فى قطيعتها للمسلمين بالضراوة و الشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم أو بنو المطلب من غلوائهما شيئاً .

والمهم أن تعلم بأن حماية الأقاربلرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن حماية للرسالة التىبعث بها وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد و التغلب على الكافرين و الرد لمكائدهم وعدوانهم ، فأنعم بذلك من جهد مشكور ، وسبيل يتنبهون إليها .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المؤمنون ، فما الذى كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟ ... وأى غاية كانوا يتأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟

بماذا يجيب على هذا السؤال أولئك الذين يتأولون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإيمان أصحابه به على أنها ثورة يسار ضد يمين أى ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟

تصور هذه السلسلة التى إستعرضناها ، من حلقات الإيذاء و التعذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولإصحابه ، ثم أجب على ضوئها : كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة إقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الإقتصادية فيها ؟

لقد عرض المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم الملك و الثراء والزعامة ، على أن يتخلى عن الدعوة الى الإسلام ، فلماذا لم يرض عليه الصلاة و السلام بذلك ، ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كى يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشىء أكثر من الحكم يكون فى أيديهم و المال يكون فى جيوبهم ؟

ولقد قوطع محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة إقتصادية وإجتماعية مع بنى قومه ، فلم تترك سلعة تتسلل الى أيديهم ، ولم يترك طعام يدخل الى بيوتهم ، حتى راحوا يأكلون أوراق الشجر ، وهم على ذلك صابرون ، محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ ! ..

وعندما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه ، تركوا المال و الأرض و الممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة ، وقد تجردوا من كل ما يتعلق به الطامعون فى المال ، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا ، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم ، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام ؟ ! ..

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون ملاحظة الأمرين التاليين :

الأول : أن الجماعة الأولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة كانت أغلبيتهم من الفقراء و الموالى و المضطهدين ، وهو ما يدل على أنهم ينقسون بإتباعهم محمد صلى الله عليه وسلم عن شىء من كربهم ، وإنهم كانوا يتأملون مستقبلا إقتصادياً أفضل لأنفسهم فى ظل الدين الجديد .

الثانى : أن هؤلاء الأصحاب ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا ، وأقبل إليهم الثراء و المال ، وهو دليل على أن خطة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ترمى الى تحقيق هذه الغاية ، وأنت إذا تأملت فى إستدلالاتهم على ما يتصورونه ، بهاتين الملاحظتين أدركت كم هو نصيب الخيال من عقولهم ومنهج تفكيرهم .

أما أن الجماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانت على الأغلب من الفقراء و الموالى ، فنعم ، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أى علاقة أو نسب ، إن شريعة تقضى بإرساء العدالة بين الناس ، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية متجبر ومستكبر ، من المسلم أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين إستمرؤوا حياة البغى و الظلم ، لأنها تحملهم المغارم أكثر من أن تقدم إليهم المغانم ، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم ، بل كل إنسان ليس له فى تجارة البغى و الإستغلال نصيب ، لأنها تقدم لهم المغانم أكثر من أن تقدم لهم المغارم ، أو لأنهم - على أقل تقدير - ليست لهم مع الناس مشكلات تجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكليفاتها .

إن معظم من كان حول رسول الله صلى اله عليه وسلم كان مستيقناً أنه على الحق وأنه نبى مرسل ، ولكن أرباب الزعامات وعشاق العظمة و السيطرة ، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقاً لهم عن الإستسلام لهذا الحق و التفاعل معه ، أما الآخرون فلم يجدوا ما يعيقهم عن الإستسلام لشىء ىمنوا به واستيقنوه . فما العلاقة بين هذه الحقيقة التى يفهمها كل باحث ، وما يزعمه أولئك الزاعمون ؟

وأما أن خطة الدعوة الإسلامية التى سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تستهدف إمتلاك المسلمين لمنابع الثروة واستيلائهم على عروش الملك واستيلاب السيادة منهم ، بدليل أن المسلمين قد وصلوا فعلاً الى ذلك - فإنه والله أشبه بمحاولة الجمع بين المشرق و المغرب ! ..

إذا كان المسلمون قد تمكنوا من فتح بلاد الروم و الفرس ، فى حقبة يسيرة من الزمن ، بعد أن صدقوا الله فى إسلامهم ، أفيكون ذلك دليلاً على أنهم أسلموا طمعاً بعرش الروم و الفرس ؟! ..

لو أنهم أرادوا من وراء إسلامهم الوصول الى شهوة من شهوات الدنيا أياً كانت ، لما تحقق لهم ولا الجزء اليسير من معجزة ذلك الفتح .

لو كان عمر ابن الخطاب وهو يجهز جيش القادسية ويودع سعد ابن أبى وقاص ، يستهدف كنوز كسرى ، ويسيل لعابه رغبة فى أن ينقلب فى مثل نعيمه ويجلس على مثل عرشه ، لما عاد إليه سعد إلا بأثقال من الخيبة و الهوان ، ولكنهم صدقوا الله فى الجهاد من أجل نصرة دين الله ، فصدقهم فيما أكرمهم به من تمليكهم زمام الحكم وإغنائهم بما لم يكونوا يحلمون .

لو كان الحلم الذى يراود المسلمين فى معركة القادسية ، وصولاً الى ثروة وتقلباً فى نعيم وتحقيقاً للذائذ العيش إذاً لما دخل ربعى ابن عامر رضى الله عنه سرادق رستم مزدرياً مظاهر الترف التى غمس فيها السرادق غمساً يتوكأ بزج رمحه على البسط و النمارق الفاخرة حتى أفسدها ، ولما قال لرستم إن دخلتم الإسلام تركناكم وأرضكم وأموالكم ! ... أهكذا يقول من جاء ليستلب الملك و الأرض و المال ؟

لقد أكرمهم الله بمقدرات الدنيا كلها ، لأنهم لم يكونوا يفكرون فيها ، وإنما كان تفكيرهم منصرفاً الى تحقيق مرضاة الله ، ولو كانوا يستهدفون من جهادهم هذه المقدرات لما وصلوا الى شىء منها

المسألة بما فيها ليست إلا تحقيقاً للقانون الإلهى الذى يقول :(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) ، وأن تفهم هذا القانون لأيسر ما يكون على العقل أى عقل كان ، بشرط واحد أن يكون صاحبه حراً عن العبودية لأى رغبة أو غرض .

أول هجرة فى الإسلام

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يحميهم ويمنعهم مما هم فيه ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن ملكها لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام ، وكان فى مقدمة المهاجرين : عثمان ابن عفان وزوجته ، رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة وزوجته ، والزبير ابن العوام ، ومصعب ابن عمير وعبد الرحمن ابن عوف .... حتى إجتمع فى أرض الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة وثمانون رجلاً .

فلما رأت قريش ذلك ، أرسلت الى النجاشى عبد الله ابن ابى ربيعة وعمرو ابن العاص (ولم يكن قد أسلم بعد) بهدايا مختلفة كثيرة ، إليه وإلى حاشيته وبطارقته ، رجاء أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين فى جواره ويسلمهم مرة أخرى الى أعدائهم .

فلما كلما النجاشى فى ذلك ـ وكانا قد كلما بطارقته من قبله وقدما إليهم ما جاءا به من الهدايا ـ رفض النجاشى أن يسلم أحد من المسلمين إليهما حتى يكلمهم فى شأن دينهم الجديد هذا ، فجىء بهم إليه ، ورسولا قريش عنده ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الملل ؟ .

فكان الذى كلمه جعفر ابن أبى طالب ، فقال : أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، ونهانا عن الفواحش ..... فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان .... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك .

فسأله النجاشى أن يتلو عليه شىء مما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله ، فقرأ عليه جعفر ابن ابى طالب صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشى حتى إخضلت لحيته ، ثم قال لهم : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . ثم إلتفت الى رسولى قريش قائلا : إنطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون . ثم إنهما عادا فقالا للنجاشى : أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون . فأرسل إليهم فى ذلك ، فقال جعفر ابن ابى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : يقول هو عبد الله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده الى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود . ثم رد إليهما هداياهما ، وزاد إستمساكه بالمسلمين الذين إستجاروا به ، وعاد الرسل الى قريش خائبين .

وبعد فترة من الزمن بلغهم إسلام أهل مكة فرجعوا لما بلغهم ذلك حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل ، فلم يدخل احد منهم إلا بجوار ، أو مستخفياً وكان جميعهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ، وكان من بين من دخل بجوار عثمان ابن مظعون ، دخل بجوار الوليد ابن المغيرة ، وأبو سلمة دخل بجوار ابى طالب

العبر و العظات :

نأخذ من حديث هجرة المسلمين الى الحبشة ثلاث دلالات :

الدلالة الأولى - إن الدين والإستمساك به و إقامة دعائمه ، أساس ومصدر لكل قوة ، وهو السياج لحفظ كل حق من مال وارض وحرية وكرامة ، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة الى الإسلام و المجاهدين فى سبيله أن يجندوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه ، وأن يجعلوا من الوطن والأرض و المال و الحياة وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها ، حتى إذا إقتضى الأمر بذل ذلك كله فى سبيلها وجب بذله .

ذلك أن الدين إذا فقد أو غلب عليه ، لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض ، بل سرعان ما يذهب كل ذلك من ورائه ، أما إذا قوى شأنه وقامت فى المجتمع دعائمه ورسخت فى الأفئدة عقيدته ، فإن كل ما كان قد ذهب فى سبيله من مال وأرض ووطن يعود ..... يعود أقوى من ذى قبل حيث يحرسه سياج من الكرامة و القوة و البصيرة ...

ولقد جرت سنة الله فى الكون على مر التاريخ أن تكون القوى المعنوية هى الحافظة للمكاسب و القوى المادية ، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الإجتماعية الصحيحة ، فإن سلطانها المادى يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباص ، ومهما كانت فقيرة فى خلقها ، مضطربة فى عقيدتها تائهة أو جانحة فى نظمها ومبادئها فإن سلطانها المادى يغدو أقرب الى الإضمحلال و مكتسباتها المادية أسرع الى الزوال .

وقد تصادف أن تجد أمة تائهة فى عقيدتها عن جادة الصواب منحطة فى مستواها الخلقى و الإجتماعى ، وهى مع ذلك واقفة على قدميها من حيث القوة و السلطان المادى ، ولكنها فى الحقيقة و الواقع تمر بسرعة نحو هاوية سحيقة . و السبب فى أنك لا تحس بحركة هذا المرور وسرعته هو قصر عمر الإنسان أمام طول عمر التاريخ و الأحقاب . ومثل هذه الحركة إنما تبصرها عين التاريخ الساهرة لا عين الإنسان الغافل الساهى . وقد تصادف أن تجد أمة تعرّت عن كل مقوماتها المادية من ثروة ووطن ومال فى سبيل الحفاظ على العقيدة الصحيحة وفى سبيل بناء النظام الإجتماعى السليم ، ولكن ما هى إلا فترة قصيرة حتى تجد أرباب هذه العقيدة الصحيحة وما يتبعها من الخلق و النظام الإجتماعى السليم قد إستحوذ على وطنهم المسلوب ومالهم المغصوب وعادت إليهم قوتهم مضاعفة معززة .

وأنت لن تجد الصورة الصحيحة عن الكون و الإنسان و الحياة إلا فى عقيدة الإسلام الذى هو دين الله عز وجل لعباده فى الأرض ولن تجد من النظام الإجتماعى العادل السليم إلا فى نظام الإسلام وهديه . ولذا فقد كان من أسس الدعوة الإسلامية التضحية بالمال و الوطن و الحياة فى سبيله ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال و الوطن و الحياة .

ومن أجل هذا شرع مبدأ الهجرة فى الإسلام ، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه - بعد أن نالهم من أذى المشركين ما خشى عليهم معه فتنتهم فى الدين - الى الهجرة والخروج من الوطن .

وانت خبير أن هذه الهجرة نفسها ضرب غير يسير من ضروب العذاب و الألم فى سبيل الدين ، فهى ليست فى الحقيقة هرباً من الأذى و الراحة ، بل هى تبديل للمحنة ريثما يأتى الفرج و النصر .

وأنت خبير أيضاً أن مكة لم تكن إذ ذاك دار إسلام حتى قال : فكيف ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا إبتغاء سلامة أرواحهم الى بلاد كافرة ، فمكة و الحبشة وغيرها كانت سواء إذ ذاك ، وأيها كان أعون للصحابى على ممارسة دينه و الدعوة إليه ، فهى أجدر بالإقامة فيها .

أما الهجرة من دار الإسلام فحكمها بين الوجوب و الجواز و الحرمة ، أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بشعائر الإسلام فيها كالصلاة و الصيام والآذان و الحج ...

وأما الجواز فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به ، فيجوز له أن يخرج منها الى دار إسلامية أخرى .

وأما الحرمة فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره .

الدلالة الثانية ـ ونأخذ منها حقيقة العلاقة القائمة بين ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى عليه السلام ، فقد كان النجاشى على دين عيسى عليه الصلاة و السلام وكان مخلصاً وصادقاً فى نصرانيته ، ولقد كان مقتضى إخلاصه هذا أن لا يتحول عنها الى ما يخالفها وأن لا ينتصر لمن تختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام .

أى فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون إنتماءهم الى عيسى ابن مريم وتمسكهم بالإنجيل ، من أن عيسى ابن الله تعالى وثالث ثلاثة ، لتمسك النجاشى (الذى كان من أخلص الناس لنصرانيته) بذلك ولرد على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاءوا من أجله .

ولكنا رأينا النجاشى يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى ابن مريم بقوله : إن هذا و الذى جاب به عيسى ابن مريم ليخرج من مشكاة واحدة . يقول ذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين من حوله ، وهذا يؤكد ما هو بديهى الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاؤوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها عن بعضهم قيد شعرة ، ويؤكد لنا أن إختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالى .

الدلالة الثالثة ـ أنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا فى حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة الى ذلك ، سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشى إذ كان نصرانياً ، ولكنه أسلم بعد ذلك ، أو كان مشركاً كأولئك الذين عادوا الى مكة فى حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة وكأبى طالب عم الرسول ، وكالمطعم ابن عدى الذى دخل الرسولصلى الله عليه وسلم مكة فى حمايته عندما رجع من الطائف

وهذا مشروط ـ بحكم البداهة ـ بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدعوة الإسلامية ، أو تغييراً لبعض أحكام الإسلام ، أو سكوتاً على إقتراف بعض المحرمات ، وإلا لم يجز على المسلم الدخول فيها .

ودليل ذلك ما كان من موقفه صلى الله عليه وسلم حينما طلب منه أبو طالب أن يبقى على نفسه ولا يحمّله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهتهم بسوء ، فقد وطن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمه وأبى أن يسكت عن شىء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه .

أول وفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى غمرة ما كان يلاقيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العذاب و الإيذاء وفد الى ىرسول الله صلى الله عليه وسلم أول وفد من خارج مكة لفهم شىء عن الإسلام . وكانوا بضعة وثلاثين رجل من نصارى الحبشة جاؤوا مع جعفر ابن ابى طالب لدى عودته الى مكة . فلما جلسوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واطّلعوا على صفاته و احواله وسمعوا ما تلى عليهم من القرآن ، آمنوا كلهم ، فلما علم بذلك أبو جهل أقبل إليهم قائلا : ما رأينا ركباً أحمق منكم ! ... أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نسأل أنفسنا خيراً .

فنزل فيهم قول الله عزو جل : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا إنّا كنّا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنةالسيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) .

العبر و العظات :

ينبغى أن يسترعى إنتباهنا من خبر هذا الفد أمران إثنان :

أولاً : فى قدوم هذا الوفد الى مكة ولقاء الرسول صلى الله عليه وسلم و التعرف على الإسلام فى غمرة ما كان المسلمون يعانونه من العذاب وإيذاء ومقاطعة وتضييق ، دلالة باهرة على أن ما قد يلاقيه أرباب الدعوة الإسلامية فى طريقهم من الآلام و المصائب لا يعنى بحال من الأحوال الفشل ، ولا يستلزم الضعف أو التخاذل أو اليأس . بل العذاب كما قلنا طريق لابد من سلوكها للوصول الى النجاح و النصر . لقد جاء هذا الوفد وكانوا يزيدون على ثلاثين رجلاً من النصارى وقيل بل كانوا يزيدون على أربعين رجلاً ، جاؤوا يمخرون عباب البحر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليعلنوا الولاء للدعوة الجديدة ، وليعلنوا بلسان الحال أن أعداء الدعوة الإسلامية لن يستطيعوا (مهما ضيقوا عليها ومهما عذبوا وآذوا أربابها ومهما قاطعوهم وائتمروا عليهم) أن يمنعوها من أن تؤتى ثمارها أو أن يحبسوها عن الإنتشار فى مشارق الأرض ومغاربها .

وكأنما قد علم أبو جهل بهذه الحقيقة فتجلت آثارها على نفسه ولسانه فى الكلمات الحاقدة التى واجه بها أفراد ذلك الوفد ، ولكن ما عساه أن يصنع ؟ إن كل ما يستطيع هو وأمثاله أن يصنعوه ، إنزال مزيد من العذاب و الإيذاء بالمسلمين ، أما أن لا تبلغ الدعوة مداها وأن لا تؤتى ثمارها ، فليس له الى ذلك من سبيل .

ثانيا : ما هى نوعية الإيمان الذى آمنه أفراد هذا الوفد ؟ هل هو إيمان من يخرج من ظلمات الكفر الى النور؟ الواقع أن غيمانهم كان مجرد إستمرار لإيمانهم السابق ، ومجرد سلوك بمقتضى ما كانوا يؤمنون به من عقيدة ودين . فقد كانوا على حد تعبير رواة السيرة أهل إنجيل يؤمنون به ، ويسيرون على هديه . ولما كان الإنجيل يأمر بإتباع الرسول الذى يأتى من بعد عيسى عليه السلام ويتحدث عن صفاته و مميزاته ، فقد كان من مقتضى إستمرار الإيمان ، الإيمان بهذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وإذاً فإن إيمانهم به عليه الصلاة و السلام لم يكن عملية إنتقال من دين الى دين بسبب تفضيل أحدهما على الآخر ، وإنما كان إستمراراً لحقيقة الإيمان بعيسى عليه السلام وما أنزل إليه ، وهذا هو معنى قولهم فى الآية الشريفة :(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أى إنا كنا مسلمين ومؤمنين بهذا الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، من قبل بعثته ، لأنه مما يدعو إليه الإنجيل للإيمان به .

وهذا هو شأن كل من تمسك تمسكاً حقيقياً بما جاء به عيسى عليه السلام أو بما جاء به موسى عليه السلام إذ الإيمان بالتوراة و الإنجيل يستدعى الإيمان بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك امر الله رسوله أن يكتفى من دعوة أهل الكتاب الى الإسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما فى التوراة و الإنجيل الذى يدّعون الإيمان به فقال جل جلاله :(قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة و الإنجيل) .

وهذا يقتضى تأكيد ما بيّناه من أن الدين الحق واحد لم يتعدد ، منذ خلق الله آدم عليه السلام الى بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كلمة (الأديان السماوية) التى يستعملها بعض الناس كلمة لا معنى لها . نعم ، هناك شرائع سماوية متعددة وكل شريعة سماوية ناسخة لما قبلها من الشرائع ، ولكن ينبغى أن لا نخلط بين (الدين) الذى يطلق أو ما يطلق على العقيدة ،و (الشريعة) التى تطلق على الأحكام السلوكية المتعلقة بالعبادات و المعاملات .

عام الحزن

وهو العام العاشر من بعثته صلى الله عليه وسلم ، فقد توفيت زوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وتوفى عمه أبو طالب ، ويقول ابن سعد فى طبقاته : كان بين وفاة خديجة وأبى طالب شهر وخمسة أيام . وقد كانت خديجة رضى الله عنها ، كما قال ابن هشام ، وزير صدق على افسلام يشكو الرسول إليها ويجد عندها أنسه وسلواه ، أما أبو طالب فقد كان عضداً وحرزاً فى أمره ، وكان ناصراً له على قومه. يقول ابن هشام : فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى إعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته و التراب على رأسه ، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك .

ولقد أطلق النبى صلى الله عليه وسلم على هذا العام عام الحزن لشدة ما كابد فيه من الشدائد فى سبيل الدعوة .

العبر و العظات :

ترى ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله تعالى فى إستلاب أبى طالب من الحياة قبل أن يشتد ساعد المسلمين فى مكة ويتكون لهم شىء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول- قدر الإمكان - من كثير من المصائب و الشدائد ، وما الحكمة فى أن يتعجل القضاء باستلاب زوجته خديجة رضى الله عنها ، وقد كان يجد عندها أنسه وسلواه ، وينفض بمساعدتها عن كاهله كثيراً من أحاسيس الشدائد و الآلام ؟

تبرز هنا ظاهرة هامة تتعلق بأسس العقيدة الإسلامية . فلو أن أبا طالب بقى الى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى كان يدفعها الى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وإن لم يظهر الإيمان بها والإنضواء تحتها ، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء قيامه بالدعوة ، بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح البال .

لقد قضت حكمة الله تعالى أن يفقد الرسول عمه ابا طالب وزوجته خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان فى الظاهر حامياً له ومؤنساً ، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولاهما - أن الحماية و العناية و النصر ، إنما يأتى كل ذلك من الله عز وجل . ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين و الأعداء، فسواء كان ثمّة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر و التوفيق .

ثانيا - ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاء أو عذاب او إضطهاد ، وإنما معنى العصمة التى تعهد الله بها رسوله فى قوله :(والله يعصمك من الناس) أى العصمة من القتل ومن اى صد أو عدوان من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية ، فقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء من ذلك قدراً غير يسير ، وذلك لا ينافى العصمة التى وعد الله بها أنبياءه ورسله ، ولذلك يقول الله تعالى :(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنّا كفيناك المستهزئين) ويقول له :(ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

ومن الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله عز وجل من ا، يلاقى الرسول ما لاقى من المحنة على طريق الدعوة ، أن يستسهلها ويستخف بها المسلمين فى كل عصر ممن أنيطت بهم مسئولية الدعوة الإسلامية ، فلو أن النبى صلى الله عليه وسلم نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه و المسلمون من بعده بأن يستريحوا كما إستراح ، ولاستثقلوا المصائب و المحن التى قد يواجهونها فى طريقهم الى الدعوة الإسلامية .

أما والحالة هذه ، فإن مما يخفف وقع المحنة و العذاب على المسلمين شعورهم أنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم يسيرون فى نفس الطريق التى أوذى فيها رسول الله . وهما أصابهم من ألم السخرية بهم او إهانة الناس لهم ، فإن

ذلك لا يفتّ فى عضدهم بعد أن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقى التراب فى السوق على رأسهحتى إضطر أ، ينقلب الى بيته لتقوم إحدى بناته فتغسل عن رأسه الشريفة التراب ، مع أنه حبيب الله وصفوته من خلقه . وسنجد فى هجرته صلى الله عليه وسلم الى الطائف وما لاقاه إذ ذاك ما يجعل المسلمين يستسهلون كل محنة وعذاب فى سبيل أن يضربوا مع رسولهم بنصيب مما قاساه و عاناه فى سبيل الدعوة الإسلامية , هذا شىء

والشىء الآخر الذى يتعلق بهذا المقطع من سيرته عليه الصلاة و السلام هو أن بعض الناس يحسبون أن سبب تسمية الرسول لهذا العام عام الحزن إنما هو مجرد فقده عمه وزوجته ، وربما إستساغوا إقامة علائم الحزن و الحداد على موتاهم مدة طويلة من الزمن مستدلين بهذا ، و الواقع أن هذا خطأ فى الفهم و التقدير ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد ، ولم يطلق على تلك السنة : عام الحزن ، لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم . بل سبب ذلك ما أعقب وفاتهما من إنغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية فى وجهه ، فقد كانت حماية عمه له تترك مجالات للدعوة كثيرة وسبلا مختلفة للتوجيه و الإرشاد و التعليم .... وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به ربه . أما بعد وفاته ، فقد سدت فى وجهه تلك المجالات ، فمهما حاول وجد صداً وعدواناً ، وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة فى وجهه . فيعود بدعوته كما ذهب بها : لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد ، بل الكل ما بين مستهزىء ومعتد ، ومتهكم به ، فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من الوظيفة التى كلفه الله بها بنتيجة ، فمن أجل ذلك سمى العام عام الحزن .

بل لقد كان حزنه على أن لا يؤمن الناس بالحق الذى جاء به ، شيئاً غالباً على نفسه ، فى أكثر الأحيان ، ومن أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية ، ومذكرة إياه بأنه ليس مكلفاً بأكثر من التبليغ ، فلا داعى الى أن يذهب نفسه عليهم حسرات إذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا ، إستمع مثلاً الى هذه الآيات : (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن إستطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)

هجرة الرسول الى الطائف

ولما نالت قريش من النبى صلى الله عليه وسلم ما وصفناه من الأذى ، خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .

ولما إنتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف ، هم يومئذ ساداته ، فجلس إليهم ودعاهم الى الله وكلمهم بما جاءهم من اجله ، فردوا عليه رداً منكراً ، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول ، فقام رسول الله من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش إذاً فلم يجيبوه الى ذلك ايضاً ، ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ،ةويصيحون به ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدميان وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج فى رأسه عدة شجاج ، حتى وصل رسول الله الى بستان لعتبة ابن ربيعة ، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد عليه الصلاة و السلام وقد أنهكه التعب و الجراح ، الى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه فلما إطمأن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك الظل ، رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء :(اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى أم الى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا و الآخرة ، من أن ينزل بى ىغضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) .

ثم إن ابنى ربيعة- صاحبى البستان - تحركت الشفقة فى قلبيهما فدعو غلاما لهما نصرانياً يقال له (عداس) فأرسلا إليه قطفاً من العنب فى طبق ، فلما وضع عداس العنب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : كل ، مد رسول الله يده قائلا : بسم الله ، ثم أكل فقال عداس متعجباً : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له الرسول : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل) ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى ؟ فقال عداس وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك أخى ، كان نبياً وأنا نبى ..... فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال ابن اسحاق : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنصرف من الطائف راجعاً الى مكة ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الذين ذكرهم الله تعالى فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوّا الى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا الى ما سمعوا وقد قص الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم فى قوله :(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا) الى قوله (يجركم من عذاب أليم) وقوله (قل أوحى إلى أنه إستمع نفر من الجن) ..... الآيات

ثم عاد رسول اله صلى الله عليه وسلم - ومعه زيد ابن حارثة - يريد دخول مكة فقال له زيد كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم أرسل رجلاً من خزاعة الى مطعم ابن عدىّ يخبره أنه داخل مكة فى جواره ، فاستجاب مطعم لذلك . وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة .

العبر و العظات :

إذا تأملنا فى هذه الهجرة التى قام بها النبى صلى الله لعيه وسلم ، وما إنطوت عليه من العذاب الواصب الذى رآه عليه الصلاة و السلام ، ثم فى شكل عودته الى مكة - نستخلص الأمور التالية :

أولا : أن ما كان يلاقيه النبى عليه الصلاة و السلام من مختلف ألوان المحنة ، لا سيما هذا الذى رآه فى ذهابه الى الطائف ، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس .

فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون وخالقه ، وأحكام العبادات و الأخلاق و المعاملات ، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر و المصابرة اللذين أمر الله تعالى بهما فى قوله :(يا أيها اللذين آمنوا إصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) ، ولقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم القيام بالعبادات بالوسيلة التطبيقية ، فقال : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) وقال :(خذوا عنى مناسككم) وليبين أن الصبر ومصارعة الشدائد من أهم مبادىء الإسلام التى بعث بها الى الناس كافة .

وربما يتوهم من إطلع على ظاهرة سيرة هجرته عليه الصلاة و السلام الى الطائف : أنه صلىالله عليه وسلم قد غلب على أمره هناك ، وأن الضجر قد نال منه ، وأنه ربما إستعظم كل تلك المحنة و المشاق التى أصابته ، ولذلك توجه الى الله تعالى بذلك الدعاء بعد أن إطمأن فى بستان إبنى ربيعة .

ولكن الحقيقة أنه عليه الصلاة و السلام قد إستقبل تلك المحنة راضياً ، وتجرع تلك الشدائد صابراً محتسباً ، وإلا فقد كان بوسعه - لو شاء - أن ينتقم من السفهاء الذين آذوه ومن الزعماء الذين أغروا به سفهاءهم وردوه ذلك الرد المنكر ، ولكنه عليه الصلاة و السلام لم يشأ ذلك .

ودليل ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال: لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال ، فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك

الجبال لتأمره بما شئت ، قال فنادانى ملك الجبال وسلم علىّ ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ،فقال رسول الله : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

إذاً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه وأمته من بعده بما كان يلاقيه ، الصبر ، بل وفن الصبر أيضاً على جميع الشدائد و المكاره فى سبيل الله عز وجل .

ربما يقول قائل : فما معنى رفع صوته بالشكوى إذاً ، وما معنى دعاءه الذى تدل ألفاظه وصيغته على الضجر و الملل من طول المحاولة التى لم تأت بنتيجة إلا الأذى و العذاب ؟

والجواب أن الشكوى الى الله تعالى تعبد ، والضراعة له و التذلل على بابه تقرب وطاعة ، وللمحن و المصائب خكم ، من أهمها أنها تسوق صاحبها الى باب الله تعالى وتلبسه جلباب العبودية له ، فليس إذاً بين الصبر على المكاره و الشكوى الى الله تعالى أى تعارض ، بل الواقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمنا فى حياته كلا الأمرين ، فكان بصبره الشديد على المحن يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة و الدعاة الىالله خاصة ، وكان بطول ضراعته والتجائه الى الله تعالى يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها .

على أن النفس البشرية مهما تسامت فهى لا تتجاوز دائرة بشريتها على كل حال ، والبشر مجبول فى أصل فطرته على الإحساس و الشعور ..... الشعور بلذة النعيم و الشعور بألم العذاب ، وهو مجبول على الركون الى الول و الفزع من الثانى .

وهذا يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى وهو يوطن نفسه لتلقى كل أنواع الضر و العذاب فى سبيل ربه فهو مع ذلك بشر ، يتألم للضر ويستريح للنعيم .

ولكنه مع هذا يفضل الضر مهما كانت آلامه ، على النعيم مهما كانت لذائذه ، إرضاءاً لوجه ربه وأداءاً لحق العبودية ، ولا ريب أن هذا هو مناط استحصال الثواب وظهور معنى التكليف للإنسان .

ثانيا: إذا تأملت فى مشاهد سيرته صلى الله عليه وسلم مع قومه ، وجدت أن ما كان يجده صلى الله عليه وسلم من الأذى فى هذه المشاهد قد يكون قاسياً شديداً ، بيد أنك واجد فى كل مشهد منها ما يعتبر رداً إلهياً على ذلك الإيذاء وما يهدف إليه أربابه ، كى يكون فى ذلك مواساة وسلوى للرسول عليه الصلاة و السلام ، وكى لا يتجمع فى النفس من عوامل التألم و الضجر ما يدخل إليها اليأس .

ففى مشهد هجرته للطائف ، وما قد إكتنفها من العذاب المضنى : عذاب الإيذاء و عذاب الخيبة ، مما قد مر ذكره ـ تجد رداً إلهياً واضحاً على سفاهة أولئك الذين آذوه ولحقوا به ، واعتذاراً له عن سفاهتهم و غلظتهم ، تجد ذلك فى مظهر الرجل النصرانى (عداس) حينما جاء يسعى إليه وفى يده طبق فيه عنب ، ثم إنكب فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه وذلك عندما أخبره عليه الصلاة و السلام أنه نبى . وحسبنا لتصوير مشهد هذا الإعتذار من إيذاء أولئك السفهاء ، أن ننقل لكلام مصطفى صادق الرافعى رحمه الله فى ذلك بعد أن ذكر القصة : (يا عجبا لرموز القدر فى القصة)! ..

لقد اسرع الخير و الكرامة و الإجلال ، فأقبلت تعتذر عن الشر و السفاهة و الطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة . وكان إبنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا ا لى أبى طالب عم النبىصلى الله عليه وسلم من أشراف قريش يسألونه ، أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم و بينه ، أو ينازلوه إياه حتى يهلك أحد الفريقين ، فانقلبت الغريزة الوحشية الى معناها الإنسانى الذى جاء به هذا الدين لأن المستقبل الدينى للفكر لا الغريزة .

وجاءت النصرانية تعانق الإسلام وتعزه ، إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الدين العقل .

ثم أتم القدر رمزه فى هذه القصة ، بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءاً حلاوة ، فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامى العظيم الذى إمتلأ حباً ، كل حبة فيه مملكة)

ثالثاً - وفيما كان يفعله زيد ابن حارثة رضى الله عنه ، من وقاية الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه من حجارة السفهاء ، حتى إنه شج فى رأسه عدة شجاج - نموذج لما ينبغى أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة ، من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه وإن إقتضى ذلك التضحية بحياته .

هكذا كانت حال الصحابة رضى الله عنهم بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولئن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير موجود بيننا اليوم ، فلا يتصور الدفاع عنه بالنحو الذى يفعله الصحابة رضى الله عنهم ، فإن ذلك يتحقق على نحو آخر : هو أن لا نضن على أنفسنا بالمحن و العذاب فى سبيل الدعوة الإسلامية وأن نسهم بشىء من تحمل الجهد و المشاق التى تحملها النبى صلى اله عليه وسلم .

على أنه ينبغى أن يكون هنالك قادة للدعوة الإسلامية فى كل عصر وزمن ، يخلفون قيادة النبى صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، فعلى المسلمين كلهم أن يكونوا من حولهم جنوداً مخلصين لهم ، يفدونهم بالمهج و الأموال ، كما كان شأن الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً - فيما قصه علينا ابن إسحاق من إستماع النفر من الجن إليه ، وهو يصلى فى جوف الليل بنخلة ، دليل على وجود الجن وأنهم مكلفون ، وأن منهم من آمن بالله ورسوله ومنهم من كفر ولم يؤمن . وقد إرتفعت الدلالة الى درجة القطع ، بحديث القرآن عنهم فى نصوص قاطعة صريحة ، كالآيات التى فى صدر سورة الجن ، وكقوله تعالى فى سورة الأحقاف :(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) الى قوله تعالى :(ويجركم من عذاب أليم) .

واعلم أن القصة التى ساقها ابن اسحاق ورواها ابن هشام فى سيرته ، قد ذكرها البخارى ومسلم و الترمذى على نحو قريب و بتفصيل آخر .

واللفظ الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عباس ، أنه صلى الله عليه وسلم إنطلق فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين فقالوا : مالكم قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ؟ قال : ما حال بيننا وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ماذا فى هذا الأمر الذى حدث ، فانطلقوا فضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذى حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد الى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا الى قومهم ، فقالوا يا قومنا إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم : قل أوحى إلى أنه إستمع نفر من الجن ، وإنما اوحى إليه قول الجن .

واللفظ الذى رواه مسلم و الترمذى ، متفق مع هذا ، ولكنهما زادا عليه فى صدر الحديث (ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، إنطلق فى طائفة .....) الحديث

قال فى الفتح : فكأن البخارى حذف هذه اللفظة عمداً ، لأن ابن مسعود أثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الجن ، فكان ذلك مقدّماً على نفى ابن عباس ، وقد أشار الى ذلك مسلم ، فأخرج عقب حديث ابن عباس هذا حديث ابم مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أتانى داعى الجن فانطلقت معه فقرأت عليه القرآن . ويمكن الجمع بالتعدد أى يمكن الجمع بين الروايتين بتعدد الحادثة . ثم إن الذى رواه البخارى ومسلم و الترمذى يختلف عما رواه ابن إسحاق من ناحيتين :

الأولى - أن رواية ابن إسحاق خالية من الإشارة الى أنه كان يصلى بأصحابه ، بل هى تفيد أنه كان يصلى منفرداً ، فى حين أن الروايات الأخرى ذكرت أنه كان يصلى بأصحابه .

الثانية - أن رواية ابن إسحاق ليس فيها تقييد الصلاة بالفجر ،والروايات الأخرى تنص على أنه كان يصلى الفجر .

فأما رواية ابن اسحاق فلا إشكال فيها ، غير أن الرواية الأخرى تشكل من ناحيتين :

الأولى :- أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن معه فى ذهابه الى الطائف ورجوعه منها إلا زيد ابن حارثة ، كما قد علمت ، فكيف يستقيم أنه كان يصلى بطائفة من أصحابه ؟

الثانية :- أن الصلوات الخمس لم تشرع إلا ليلة الإسراء و المعراج ، وإنما كان المعراج بعد ذهاب الرسول الى الطائف ، على ما ذهب إليه كثير من المحققين ، فكيف يستقيم أنه كان يصلى الفجر ؟

و الجواب على الإشكال الأول أنه يحتمل أن يكون قد إلتقى ببعض من أصحابه عندما وصل الى نحلة (وهو مكان قريب من مكة) فصلى بهم الفجر هناك .

أما الإشكال الثانى ، فجوابه أن يقال بأن حادثة الجن واستماعهم القرآن منه صلى الله عليه وسلم تكرر أكثر من مرة ، فقد رويت مرة عن ابن عباس ورويت بصورة أخرى عن ابن مسعود ، وكل منهما صحيح ، وهذا ما ذهب إليه جمهور المحققين ، هذا على القول بأن حادثة الإسراء و المعراج كانت بعد الهجرة الى الطائف أما على القول بأنها كانت قبل ذلك فلا إشكال البتة.

والذى يهمنا أن نعلمه بعد هذا كله ، هو أن على المسلم أن يؤمن بوجود الجن ، وبأنهم كائنات حية كلفها الله عز وجل بعبادته كما كلفنا بذلك ، ولئن كانت حواسنا و مداركن لا تشعر بهم ، فذلك لأن الله عز وجل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التى بثها فى أعيننا ، ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعاً معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة .

ولما كان جود هذه الخليقة مسندا إلى أخبار يقينية متواترة وردت إلينا من الكتاب و السنة ، وكان أمرها معلوماً من الدين بالضرورة أجمع المسلمون على أن إنكار الجن أو الشك فى وجودهم يستلزم الردة و الخروج عن الإسلام ، إذ أن إنكارهم لشىء علم أنه من الدين بالضرورة ، عدا أنه يتضمن تكذيب الخبر الصادق المتواتر الوارد إلينا عن الله عز وجل وعن رسوله .

ولا ينبغى أن يقع العاقل فى أشد مظاهر الغفلة و الجهل من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم فيمضى يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجن ، من أجل أنه لم ير الجان ولم يحس بهم .

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم ، يستدعى إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها ، و القاعدة العلمية المشهورة تقول : عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود . أى عدم رؤيتك لشىء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً أو غير موجود .

خامساً :- ما موقع كل ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى سياحته هذه فى الطائف وما هو أثر كل هذا الذى عاناه ، فى نفسه ؟

يتضح الجواب على هذا فيما قاله النبى صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة ، حينما سأله زيد متعجباً : كيف تعود يا رسول الله الى مكة وهم أخرجوك ؟ فقد أجابه فى ثقة واطمئنان قائلا : (يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه)

وإذاً فإن كل ذاك الذى رآه وعاناه فى الطائف ، بعد القسوة و العذاب اللذين رآهما فى مكة ، لم يكن له أى تأثير على ثقته بالله تعالى أو على قوة العزيمة الإيجابية فى نفسه .

ولا والله ، ليست هذه عزيمة بشر آتته الطبيعة مزيداً من التحمل وقوة الإرادة ، ولكنه يقين النبوة كان ثابتاً فى قلبه صلى الله عليه وسلم فهو يعلم إنما ينفذ أمر ربه و يسير فى الطريق التى أمره الله أن يسير فيها ، ومما لا ريب فيه أن الله بالغ أمره ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً .

والفائدة التعليمية لنا فى هذا الأمر ، هى أن لا تصدنا المحن و العقبات التى تكون فى طريق الدعوة الإسلامية عن السير ، وأن لا تبث فينا روح الدعة و الكسل ، ما دمنا نسير على هدى من الإيمان بالله وتوفيقه فمن استمد القوة من الله جدير بأن لا يعرف لليأس و الكسل معنى ، إذ ما دام هو الآمر ، فلا شك أنه هو الناصر أيضاً .

وإنما يأتى التخاذل والكسل و اليأس بسبب العقبات و المحن التى تعترض السبل و المبادىء الأخرى التى لم يأمر بها الله تعالى إذ فى مثل هذه الحال يركن العاملون الى قوتهم الخاصة بهم وجهودهم التى يستقلون بها ، ومعلوم أن كل ذلك محدود بنطاق بشرى معين ، فمن الطبيعى أن ينقلب كل من القوة و التصميم بسبب طول المعاناة و الآلام و المحن ، الى يأس وتخاذل نظراً لمقياس القوة البشرية المحدودة .

معجزة الإسراء و المعراج

ويقصد بالإسراء الحالة التى أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالقدس ، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به الى طبقات السماوات العلا ثم الووصل به الى حد إنقطعت عنده عموم الخلائق من ملائكة وإنس وجن ، كل ذلك فى ليلة واحدة .

وقد إختلف فى ضبط تاريخ هذه المعجزة هل كانت فى العام العاشر من بعثته صلى الله عليه وسلم أم بعد ذلك . والذى رواه ابن سعد فى طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم و الروح معاً ، ولذلك فهى من معجزاته الباهرة التى أكرمه الله بها ، أما قصة ذلك فقد رواها البخارى ومسلم بطولها :

وفيها أنه صلى اله عليه وسلم أتى بالبراق ، وهو دابة فوق حمار ودون بغل يضع حافره عند منتهى طرفه ..... وفيها أنه صلىالله عليه وسلم دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين ، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختار عليه الصلاة و السلام اللبن ، فقال جبريل : إخترت الفطرة .... وفيها أنه عرج به صلى الله عليه وسلم الى السماء الأولى فالثانية فالثالثة ..... وهكذا حتى ذهب به الى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى .... وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين وهى فى أصلها خمسون صلاة فى اليوم و الليلة .

ولما كانت صبيحة اليوم التالى وحدث الرسول صلى اله عليه وسلم الناس بما شاهد ، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضاً ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه . وتحداه بعضهم أن يصف لهن بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما زاره لم يخطر فى باله أن يجيل النظر فى أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه ، فجلى له الله عز وجل صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلياً كما يسألون . روى البخارى ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :(لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه) . أما أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول ، رجاء ان يستعظمه فلا يصدقه ، فقال : إن كان قال ذلك فقد صدق ، إنى لأصدقه على أبعد من ذلك .

وفى صبيحة ليلة الإسراء و المعراج جاء جبريل وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة وأوقاتها ، وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلى ركعتين صباحاً ومثليهما مساءاً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

العبر و الدلالات :

أولا : كلمة عن الرسول و المعجزات :

يولع بعض الباحثين بالمبالغة فى تصوير حياة الرسول صلى الله عليه وسلم على أنها حياة بشرية عادية ، وذلك من خلال

الإطناب فى بيان أن حياته صلى الله عليه وسلم ، لم تكن معقدة وراء الخوارق و المعجزات ، بل كان منكراً لها غير عابىء بها ولا ملتفت الى المطالبين بها ، وأنه كان يؤكد دائماً أن المعجزات و الخوارق ليست من شأنه وليس له إليها سبيل ، ويكثرون فى هذا من الإستشهاد بمثل قوله تعالى :(قل إنما الآيات عند الله) بحيث يخيل الى القارىء أو السامع أن سيرته صلى الله عليه وسلم كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات و الآيات التى يؤيد الله بها فى العادة أنبياءه الصادقين. وإذا أمعنا فى منبع هذه النظرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد أنها فى الأصل فكرة بعض المستشرقين و الباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون ، وأوجست كونت ، وهيوم ، وجولد زيهر ، وغيرهم ، وأساس هذه النظرية عندهم وسببها هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً . ذلك لأن الإيمان بالله عز وجل إذا استقر فى النفس ، سهل الإيمان بكل شىء بعد ذلك ولم يبق شىء فى الدنيا يستحق أن يسمى فى الحقيقة معجزة .

ثم تلقف هذه النظرية منهم ، أناس من المسلمين ، كان من سوء حظ العالم الإسلامى أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أى سبب سوى الإفتتان بزخرف خداعهم وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التى هبت فى أنحاء أوروبا ، وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده ، ومحمد فريد وجدى ، وحسين هيكل .

ثم نظر محترفوا التشكيك وأرباب الغزو الفكرى ، فوجدوا فى هذا الذى يقوله بعض من المسلمين أنفسهم ما يفتح لهم آفاقاً و ميادين جديدة لغزوهم الفكرى و تشكيك المسلمين بدينهم ، يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة ... وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية وغرس الأفكار الإلحادية فى الرؤوس . فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كالبطولة و العبقرية و القيادة فى عبارات من الإعجاب و الإطراء ، ويبالغون فى نفس الوقت فى تصوير حياته العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات و خوارق العادات ، كى يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبى صلى الله عليه وسلم فى أذهان المسلمين مع مرور الزمن ، قد تكون صورة (محمد العبقرى) أو تكون صورة (محمد القائد) أو تكون صورة (محمد البطل) ولكنها لا ينبغى على أى حال من الإحوال أن تكون صورة (محمد النبى الرسول) إذ تكون جميع حقائق النبوة بما يحف بها ويستلزمها من وحى ..... وغيبيات وخوارق ، قد قذف بها - بعامل هذا الترويج لألقاب العبقرية و البطولة البعيدين عن المعجزات و الخوارق - الى عالم ما يسمونه : الميتيولوجيا (الأساطير) ذلك لأن ظاهرة الوحى و النبوة تعتبران فى رأس المعجزات . وحينئذ لا ينبغى أن يتصور - بطبيعة الحال - أى سبب لتكاثر مختلف الناس و الأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم فى دعوته ، إلا التأيثر بالعبقرية ومقومات القيادة فى حياته ... وانظر ! فإن هذا القصد الذى يهدفون إليه يتجلى واضحاً فى إشاعة كلمة (محمديين) كتسمية جديدة بدلا عن : مسلمين .

ولكن ما هو موقه هذا التخيل و التصور من حقيقة أمر محمد صلى الله عليه وسلم وشأنه ، إذا ما حاولنا إستجلاء الحقيقة على ضوء البحث المنطقى و الموضوعى ؟

أولا :- إذا عدنا الى التأمل فى ظاهرة الوحى التى تجلت واضحة فى حياة النبى عليه الصلاة و السلام (وقد مر البحث فيها بتفصيل واف) رأينا أبرز صفة فى حياته عليه الصلاة و السلام هى (النبوة) لا شك فى ذلك ولا ريب ، والنبوة هى من المعانى الغيبية التى لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة وإذاً فإن معنى المعجزة الخارقة قائم فى أصل كيانه عليه الصلاة و السلام فلا يتسنى نفى المعجزات و الخوارق عنه صلى الله عليه وسلم إلا بهدم معنى النبوة نفسها ونسخها من حياته ، وذلك يساوى بالبداهة إنكار الدين نفسه ، ولئن لم يصرح بهذه النتيجة بعض الباحثين المستشرقين ، مكتفين ببيان ذكاء الرسول ومدى عبقريته و شجاعته وسياسته للأمور ، فذلك إكتفاء منهم برسم المقدمات عن بيان النتائج إذ النتيجة تأتى بطبيعتها بعد التسليم بمقدماتها .

على أن كثيرين صرحوا بالنتيجة ، بعد أن ضاقت بها صدورهم ، مثل شبلى شميل حينما سمى الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة !.

وأنت خبير أنه لا معنى للبحث فى إنكار جزئيات المعجزات أو إثباتها ، إذا كان أصل الدين محل شك أو إنكار .

ثانياً :- إذا تأملنا فى سيرته صلى الله عليه وسلم ووقائع حياته ، وجدنا أن الله سبحانه وتعالى أجرى معجزات كثيرة على يديه ، لا مناص من قبولها ، ولا مجال لردها ، لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التى ترتقى بالفكر و العقل الى درجة اليقين و القطع .

فمن ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء ، ومسلم فى كتاب الفضائل ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الطهارة ، وغيرهم من أئمة الحديث بطرق مختلفة كثيرة ، حتى نقل الزقانى عن القرطبى قوله : إن نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم تكرر عدة مواطن فى مشاهد عظيمة ، وورد من طرق كثيرة يفيد مجموعها القطعى المستفاد من التواتر المعنوى .

ومن ذلك حديث إنشقاق القمر على عهده صلى الله عليه وسلم حينما سأله المشركون ذلك ، فقد أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم فى كتاب صفة القيامة ، وأخرجه غيرهما من عامة علماء الحديث ، وقال ابن كثير : (قد وردت بذلك الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة) وهذا أمر متفق عليه بين العلماء : أنه وقع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وإنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ومن ذلك حديث الإسراء و المعراج الذى نسوق هذا البحث بمناسبته وهو حديث متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته ، وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لا يفتأون يروجون صفة العبقرية ، والعبقرية وحدها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويبعدون اسم المعجزات و الخوارق عن حياته يتجاهلون هذه الأحاديث المتواترة التى بلغت من الصحة درجة القطع ، فلا يتحدثون عنها سلباً ولا إيجاباً كأن كتب الحديث غير ممتلئة بها ، يعدّ لكل منها ما قد يزيد على عشرة طرق .

ومن الواضح أن سبب هذا التجاهل هو التهرب من الإشكال العويص الذى سيواجهونه لدى النظر فى هذه الأحاديث ، إذ هى تناقض فى خط صريح واضح النظرية التى تطوف برؤسهم .

ثالثاً - المعجزة ، كلمة لا يوجد لها معنى ذاتى عند التامل و التدبر ، وما يراد بها إنما هو معنى نسبى مجرد ، فالمعجزة فيما تواضع عليه إصطلاح الناس كل أمر خارج على المألوف و العادة ، وكل من المألوف يتطور بتطور الأزمنة و العصور ، ويختلف باختلاف الثقافات و المدارك و العلوم . فرب أمر كان قبل فترة من الزمن معجزة فانقلب اليوم الى شىء معروف و مألوف ، ورب أمر مألوف فى بيئة متمدنة مثقفة ، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين .

بل الحق الذى يفهمه كل عاقل ، أن المألوف وغير المألوف معجزة فى أصله .

فالكواكب معجزة ، وحركة الأفلاك معجزة ، وقانون الجاذبية معجزة ، والمجموعة العصبية فى الإنسان معجزة و الدورة الدموية فيه معجزة ، والروح التى فيه معجزة ، والإنسان نفسه معجزة ، وكم كان دقيقاً ذاك العالم الفرنسى (شاتوبريان) الذى أطلق على الإنسان اسم (الحيوان الميتافيزيقى) أى الحيوان الغيبى المجهول .

غير أن الإنسان ينسى - من طول الإلف واستمرار العادة - وجه المعجزة وقيمتها فى هذا كله ، فيحسب جهلاً منه و غروراً أن المعجزة هى تلك التى تفاجىء ما ألفه واعتاده فقط ! ... ثم يمضى يتخذ مما ألفه واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء أو كفره بها ! وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى فى مدارج المدنية و العلم .

وتأمل يسير من الإنسان ، يوضح له بجلاء أن الإله الذى خلق معجزة هذا الكون كله ، ليس عسير عليه أن يزيد فيه معجزة أخرى أو أن يبدل ويغير فى بعض أنظمته التى أنشأ العالم عليها ولقد تأمل مثل هذا التأمل المستشرق الإنكليزى (وليم جونز) حينما قال : (القدرة التى خلقت العالم ، لا تعجز عن حذف شىء منه أو إضافة شىء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه أنه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقول عنه غير متصور ، ليس غير متصور الى درجة وجود العالم !)

يقصد أنه لم يكن هذا العالم موجوداً ، وقيل لواحد ممن ينكر المعجزات و الخوارق ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا ، فإنه سيجيب رأساً إن هذا غير متصور ، ويأتى نفيه لتصور ذلك أشد بكثير من نفيه لتصور معجزة من المعجزات . فهذا ما ينبغى أن يفهمه كل مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم وما أكرمه الله به من المعجزات .

ثانياً :- موقع معجزة الإسراء و المعراج من الأحداث التى كانت تمر برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين .

لقد عانى رسول الله صلى اله عليه وسلم ألواناً كثيرة من المحن لاقاها من قريش ، وكان آخر ما عاناه لدى هجرته الى الطائف مما مر ذكره و بيانه . ولقد ظهر فى دعائه الذى ناجى به ربه بعد أن جلس يستريح فى بستان ابنى ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور بالضعف و الحاجة الى النصير وذلك هو مظهر عبودية الإنسان لله تعالى وظهر فى إلتجائه ذلك شىء من معنى الشكاة إليه سبحانه وتعالى و الطمع منه فى عافيته ومعونته ، ولعله خشى أن يكون الذى يلاقيه إنما هو بسبب غضب من اله عليه لأمر ما .... ولذلك كان من جملة دعائه قوله :(إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى)

فجاءت ضيافة الإسراء و المعراج من بعد ذلك تكريماً من الله تعالى له ، وتجديداً لعزيمته وثباته ، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذى يلاقيه عليه الصلاة و السلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه ، أو أنه قد غضب منه ، وإنما هى سنة الله مع محبيه ومحبوبيه ، وهى سنة الدعوة الإسلامية فى كل عصر وزمن .

ثالثاً :- المعنى الموجود فى الإسراء به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس

إن فى الإقتران الزمنى بين إسرائه عليه الصلاة و السلام الى بيت المقدس و العروج به الى السماوات السبع ، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى وفيه دلالة واضحة أيضاً على العلاقة الوثيقة بين ما بعث الله به كل من عيسى ابن مريم ومحمد ابن عبد الله عليهما الصلاة و السلام ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذى إبتعثهم الله عز وجل به .

وفيه دلالة على مدى ما ينبغى أن يوجد لدى المسلمين فى كل عصر ووقت ، من الحفاظ على هذه الأرض المقدسة ، وحمايتها من مطامع الدخلاء و أعداء الدين ، وكأن الحكمة الإلهية تهيب بمسلمى هذا العصر أن لا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة ، وأن يطهروها من رجسهم ، ويعيدوها الى أصحابها المؤمنين .

ومن يدرى ؟ لفعل واقع هذا الإسراء العظيم هو الذى جعل صلاح الدين الأيوبى رحمه الله يستبسل ذلك الإستبسال العظيم ويفرغ كل جهده فى سبيل صد الهجمات الصليبية عن هذه البقعة المقدسة حتى ردهم على أعقابهم خائبين .

رابعاً :- وفى إختيار النبى صلى الله عليه وسلم اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة ، أى الدين الذى ينسجم فى عقيدته و أحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة ، فليس فى الإسلام شىء يتعارض و الطبيعة الأصيلة فى الإنسان ولو أن الفطرة كانت جسماً ذا طول وأبعاد ، لكان الدين الإسلامى الثوب المفصل على قدره

وهذا من أهم أسرار سرعة تقبل الناس له وسعة إنتشاره ، إذ الإنسان مهما ترقى فى مدارج الحضارة وغمرته السعادة المادية ،

فإنه يظل نزاعاً الى إستجابة نوازع الفطرة لديه ، ميالاً الى الإنعتاق عن ربقة التكلفات و التعقيدات البعيدة عن طبيعته ، والإسلام هو النظام الوحيد الذى يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية .

خامساً :- كان الإسراء و المعراج بكل من الروح و الجسد معاً ، على ذلك إتفق جمهور المسلمين من المتقدمين و المتأخرين ، قال النووى فى شرح مسلم ما نصه :(و الحق الذى عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء و المحدثين و المتكلمين أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا إستحالة فى حملها عليه فيحتار الى تأويل)

ويقول ابن حجر فى شرحه على البخارى : (إن الإسراء و المعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسده وروحه ، وإلى هذا ذهب جمهور من علماء المحدثين و الفقهاء و المتكلمين وتواردت عليه ظواهر الخبار الصحيحة ولا ينبغى العدول عن ذلك إذ ليس فى العقل ما يحيله حتى يحتاج الى تأويل) .

ومن الأدلة التى لا تقبل الإحتمال على أن افسراء و المعراج كانا بالجسد و الروح معاً ، ما ذكرناه من إستعظام مشركى قريش لذلك ، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له . إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم على هذا الوجه ، لما استدعى الأمر منهم أى تعجب أو إستعظام أو إستنكار ، لأن المرئيات فى النوم لا حدود لها ، بل ويجوز ويجوز مثل هذه الرؤيا على المسلم و الكافر ، ولو كان الأمر كذلك ما سألوه أيضاً عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام و التحدى .

أما كيف تمت هذه المعجزة وكيف يتصورها العقل ، فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون و الحياة ! ... لقد قلنا آنفاً أن كل مظاهر هذا الكون ليست فى حقيقتها إلا معجزات ، فكما تتصورها العقول فى سهولة ويسر يمكن أن تتصور هذه أيضاً فى سهولة و يسر .

سادساً:- إحذر وأنت تبحث عن معجزة الإسراء و المعراج أن تركن الى ما يسمى ب (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند ، وقد شاء ذاك الذى فعل فعلته الشنيعة أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس رضى الله عنهما ، وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس برىء منه ، وأنه لم يؤلف أى كتاب فى معراج الرسول ، بل وما ظهرت حركة التأليف إلا فى أواخر عهد الأمويين .

ولما وقف دعاة السوء على هذا لاكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكفل زعزعة إيمان كثير من الناس راحوا يروجون له ويدعون إليه (وكان فى جملة من كتب مادحاً ومعظماً الدكتور لويس عوض ، وما أدراك من هو لويس عوض) مع أنهم يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس وأن أحاديثه كلها باطلة ، ولكن الكذب سرعان ما ينقلب عندهم صحيحاً إذا كان فيه ما يشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم .

عرض الرسول نفسه على القبائل وبدء إسلام الأنصار

كان النبى صلى الله عليه وسلم خلال هذه الفترة كلها ، يعرض نفسه فى مواسم الحج من كل سنة على القبائل التى تتوافد الى البيت الحرام ، يتلو عليهم كتاب الله ويدعوهم الى توحيد الله فلا يستجيب له أحد .

يقول ابن سعد فى طبقاته : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوافى الموسم كل عام يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ و مجنة وذى المجاز ، يدعوهم الى ا، يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحد ينصره ، ويقول :(يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً فى الجنة) وأبو لهب وراءه يقول : (لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب) فيردون علي رسول الله أقبح الرد ويؤذونه .

وروى ابن اسحاق عن الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر الى الله يضعه حيث يشاء ، قال ، أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك .

وفى السنة الحادية عشر من البعثة عرض نفسه على القبائل شأنه فى كل عام ، فبينما هو عند العقبة (موضع بين منى ومكة منها ترمى جمرة العقبة) لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم الخير ، فسألهم : (من أنتم ؟)

قالوا : نفر من الخزرج

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم ، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال ، قال لهم اليهود : إن نبياً مبعوث الآن قد أطبل زمانه ، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . !

فلما كلم الرسول هؤلاء النفر ودعاهم الى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا : (تعلموا والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه) فأجابوه الى ما دعاهم إليه من الإسلام ، وقالوا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة و الشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم اله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك . ثم إنصرفوا ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل .

بيعة العقبة الأولى

وانتشر الإسلام خلال تلك السنة فى المدينة ، ولما كان العام الذى يليه ، وافى الموسم من الأنصار إثنا عشر رجلاً ، لفقوه بالعقبة ، وهىالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء (أى على نمطها فى البنود التى بايع النساء عليها ، أى أنه لم يبايعهم فيها على الحرب و الجهاد ، وكانت بيعة النساء ثانى يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال) وكان منهم : أسعد ابن زرارة ، ورافع ابن مالك ، وعبادة ابن الصامت ، وأبو الهيثم ابن التيهان .

وقد روى عبادة ابن الصامت خبر هذه المبايعة ، فقال : كنا إثنى عشر رجلا ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعالو بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم و أرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب منكم من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره الى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه) قال عبادة ابن الصامت : فبايعناه على ذلك . فلما أرادوا الإنصراف بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى مقرىء المدينة .

العبر و العظات :

أرأيت كيف بدأ التحول فى طبيعة ما كان يلاقيه النبى صلى الله عليه وسلم طيلة هذه السنوات التى خلت من عمر بعثته صلى الله عليه وسلم ؟

لقد أينع الصبر ، وبدأ الجهد يثمر ، واستغلظ الزرع وأخذ يستوى على سوقه ليعطى النتيجة و الغلال .

ولكن فلنلتفت مرة أخرى ـ قبل البحث عن الثمرة و البشائر ـ الى طبيعة ذلك الصبر النبوى العظيم ، أمام كل تلك الشدائد المختلفة الجسام .

لقد رأينا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصر الدعوة على قومه قريش الذين لم يألوا جهداً فى إذاقته كل أصناف المحن و المصائب . بل كان يدخل بين القبائل الآتية من خارج مكة من شتى الجهات و الأطراف بمناسبة موسم الحج ، فيعرض نفسه كدلال عليهم ويدعوهم الى بضاعة الدين وكنز التوحيد ، ويذهب ويجىء بينهم فلا يرى مجيباً له . روى أحمد وأصحاب السنن و الحاكم وصححه أن رسول الله صلى اله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : هل من رجل يحملنى الى قومه ، فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى ؟

إحدى عشرة سنة ، والرسول صلى الله عليه وسلم (بأبى هو وأمى) يعانى من حياة لا راحة فيها ولا إستقرار ، تتربص قريش فى كل دقيقة منها بقتله ، وتصب عليه من ألوان المحن و الشدائد ، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزيمته ولا يضعف شيئاً من قوته وسعيه .

إحدى عشرة سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعانى من غربة هائلة مظلمة بين قومه وجيرانه وكافة الجماعات و القبائل المحيطة به ، فلا ييأس ولا يضجر ولا يؤثر ذلك على شىء من أنسه بربه عز وجل ، إحدى عشرة سنة من الجهاد و الصبر المتواصل فى سبيل الله وحده ، هى الثمن و الطريق الى نشأة مد إسلامى زاخر عظيم ينتشر فى مشرق العالم وغربه ، تتساقط أمامه قوة الروم وتتهاوى بين يديه عظمة فارس ، وتذوب من حوله قيم النظم و الحضارات .

ثمن من الجهاد و الصبر و التعب وخوض الشدائد ، كان من السهل جداً على الله عز وجل أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامى بدونه ، ولكن تلك هى سنة الله فى عباده ، أراد أن يتحقق فيهم التعبد له إختياراً ، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً .

ولا يتحقق التعبد بدون بذل الجهد ، ولا يمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو إستشهاد . وليس من العدل أن يكسب الإنسان الغنم دون أن يبذل على ذلك شيئاً من الغرم .

من أجل كل ذلك كلف الله الإنسان بأمرين إثنين :

1- إقامة شرع الإسلام و مجتمعه .

2- السير الى ذلك فى طريق شائكة مجهدة غير معبدة .

والآن فلنتأمل فى هذه الثمار التى أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة سنة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وطبيعتها وكيفية نموها :

أولا:- جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قومه عليه الصلاة و السلام رغم جواره معهم واحتكاكه بهم فلماذا؟

قلنا فى أوائل هذا الكتاب : لقد إقتضت حكمة الله تعالى الباهرة أن تسير الدعوة الإسلامية فى سبيل لا تدع أى شك للمتأمل فى طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الإيمان بها ، ولا يقع أى إلتباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى ، من أجل ذلك كان الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومن أجل ذلك بعث فى أمة من الأميين الذين لم يقتبسوا حضارة ولا يعرفوا مدنية أو ثقافة معينة ، ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم و الأمانة و النزاهة .

ومن أجل ذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون أنصاره الأول من غير بيئته وقومه ، حتى لا يظن ظان بأن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته . وهذا فى الواقع من أجلّ المعجزات التى تكشف للمتأمل أن يداً إلهية تحوط حياة الدعوة النبوية و ظروفها من كل جانب ، كى لا توجد فى أى جانب منها ثغرة لمطعن ،

يقوم بهمشكك أو محترف ، وهذا ما قاله واحد من الباحثين الأجانب أنفسهم ، فقد جاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى ، نقلاً عن دينه Dient قوله :

(إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبى صلى اله عليه وسلم بهذا الأسلوب الأوروبى المحض ، لبثوا ثلاثة أرباع قرن ، يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة نبيهم ، وكان ينبغى لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة أن يتمكنوا من هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنى لهم شىء من ذلك ؟ الجواب لم يتمكنوا من إثبات أقل شىء جديد ، بل إذا أمعنا النظر فى الآراء الجديدة التى أتى بها هؤلاء المستشرقون من فرنسيين وإنكليز وألمان وبلجيكيين وهولانديين ، لا نجد إلا خلطاً و خبطاً ،وإنك لترى كل واحد منهم يقرر ما نقضه غيره .)

ثانياً :- يتجلى لدى المتأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار ، أن اله عز وجل قد مهد حياة المدينة و لبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية ، وأنه كان فى صدور أهل المدينة تهيوء نفسى لقبول هذا الدين - فما هى مظاهر هذا التهيؤ النفسى ؟

لقد كان سكان المدينة خليطا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون ، واليهود المهاجرين إليها من أطراف الجزيرة العربية ، وكان المشركون ينقسمون الى قبيلتين كبيرتين إحداهما الأوس ، والثانية الخزرج ، وكان اليهود ثلاث قبائل : بنى قريظة ، وبنى النضير ، وبنى قينقاع .

ولقد إحتال اليهود طويلاً - كعادتهم - حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتى الأوس و الخزرج ، فراح العرب يأكل بعضهم بعضاً فى حروب طاحنة متلاحقة ، ويقول محمد ابن عبد الوهاب فى كتابه مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحرب لبثت بينهم مائة وعشرين سنة .

وفى غمار هذه الخصومة الطويلة حالفت كل من الأوس و الخزرج قبيلة من اليهود ، فحالف الأوس بنى قريظة ، وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع ، وكان آخر ما كان بينهم من المواقع موقعة (بعاث) وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة ، وكان يوماً عظيماً مات فيه أكثر رؤساؤهم .

وفى أثناء ذلك ، كان كلما وقع شىء بين العرب و اليهود ، هدد اليهود العرب بأن نبياً قد آن أوان بعثته وأنهم سيكونون من أتباعه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم .

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعاً الى هذا الدين ، وعلقت منهم آمالاً قوية به ، عسى أن تتوحد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم وتذوب وتمحى اسباب الشقاق مما بينهم .

ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله ، كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد ختى يمهد بذلك لهجرته الى المدينة ، حيث إقتضت حكمة الله أن تكون هى المنطلق للمد الإسلامى فى أرجاء الأرض كلها .

ثالثاً :- فى بيعة العقبة الأولى ، كان قد تم إسلام عدد من كبار أهل المدينة ، كما ذكرنا فكيف كانت صورة إسلامهم ؟ وما هى حدود مسؤولياتهم التى حمّلهم الإسلام إياها .

لقد رأينا أن إسلامهم لم يكن مجرد نطق بالشهادتين ، بل كان إسلامهم هو الجزم القلبى والنطق اللسانى بهما ، ثم إلتزام للبيعة التى أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، أن ينصبغ سلوكهم بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك بنظمه و أخلاقه وعامة مبادئه ، أخذ عليهم أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أى معروف يأمرهم به .

وهذه هى اهم معالم المجتمع الإسلامى الذى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنشائه ، فليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عاكفون على إنحرافاتهم وبغيهم ومفاسدهم . صحيح أن الإنسان يصدق عليه إسم المسلم إذا صدق بالشهادتين وأحل الحلال وحرم الحرام وصدّق الفرائض ، ولكن ذلك لأن التصديق بوحدانية الله ورسالة محمد

عليه الصلاة و السلام هو مفتاح الوسيلة لإقامةالمجتمع المسلم وتحقيق نظمه ومبادئه ، وجعل الحاكمية فى كل الأمور لله تعالى وحده . فحيثما وجد الإيمان بوحدانية الله تعالى وبرسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لابد ان يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى وضرورة إتباع شريعته ودستوره .

ومن أعجب العجب ، ما يعمد إليه البعض الذين تأسرهم النظم والتشريعات الوضعية ، ممن لا يريدون المجاهرة بنبذ الإسلام واطراحه ، حيث يحاولون أن يسلكوا مع خالق هذا الكون ومالكه مسلكاً أشبه ما يكون بمسلك الصلح و المفاوضات .

وسبيل المفاوضات عندهم ، أن يقسموا مظاهر المجتمع بينهم وبين الإسلام ، فللإسلام من المجتمع مساجده وسائر مظاهر العبادة ، يحكم ضمن ذلك على الناس بكل ما يريد ، ولهم منه نظمه وتشريعه وأخلاقه يغيرون منه ويبدلون كما يريدون .. !

ولو أن المتألهين و البغاة الذين أرسلت إليهم الرسل فكذبوا برسالاتهم تنبهوا لهذا الحل الطريف إزاء دعوتهم الى الإسلام ، لما تونوا عن الدخول فيه وإظهار الطواعية له ، ما دام أنه لا يكلفهم التنازل عن حاكميتهم ولا ترك شىء من قونينهم وتنظيماتهم ، ولما بخلوا فى مقابل ذلك بكلمة يرددونها أو طقوس يتركون السبيل إليها ، ولكنهم علموا أن هذا الدين يكلفهم أول ما يكلفهم الدخول فى نظام و حكم آخر ، التشريع و الحكم فيه لله وحده ، فمن أجل ذلك شاقوا الله ورسوله وعز عليهم أن يعلنوا إسلامهم لدعوة الله عز وجل .

وفى بيان هذه الحقيقة و التحذير من فهم الإسلام على أنه كلمات وعبادات فقط ، بقول الله عز وجل :(ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) .

غير أنك لا تجد فى بنود هذه المبايعة بنداً يتعلق بالجهاد ، وسبب ذلك أنه لم يكن قد شرع الجهاد و القتال فى ذلك الحين بعد ، ولذلك كانت مبايعة الرسول لأولئك الرجال الإثنى عشر خالية من الإشارة إليه وهذا معنى ما يقوله رواة السيرة من أن هذه المبايعة كانت على نمط مبايعة النساء .

رابعاً :- ما من ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان هو المتكفل بعبء الدعوة الى دين الله ، إذ هو الرسولالى الناس كافة فلا بد له من تبليغ دعوة ربه .

ولكن ماذا عن أولئك الذين يدخلون فى الإسلام وعن علاقتهم بعبء هذه الدعوة ؟

إنك لتجد الجواب على هذا فى إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب ابن عمير مع أولئك الإثنى عشر رجلاً الى المدينة بدعوة أهل المدينة الى الإسلام وتعليمهم قراءة القرآن وأحكامه وإقامة الصلاة .

ولقد إنطلق مصعب ابن عمير سعيداً بتلبية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وراح يدعو أهل المدينة الى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن ويبلغهم أحكام الله ، ولقد كان الرجل يدخل وفى يده الحربة يريد أن يقتله بها ، فما هو إلا أن يتلوا عليه شيئاً من كتاب الله تعالى ويذكر له بعض أحكام الإسلام ، حتى يلقى حربته ويتخذ مجلسه مع من حوله مسلماً موحداً يتعلم القرآن وأحكام الإسلام ، حتى إنتشر الإسلام فى المدينة كلها ولم يكن بينهم حديث إلا عن الإسلام .

وهل تعلم من هو مصعب ابن عمير هذا ؟

إنه إذ ذاك كان أنعم غلام بمكة ،وأجود شبانها حلّة وبهاءً ، لفما دخل الإسلام طوى كل تلك الرفاهية وذلك النعيم ، وانطلق فى سبيل الدعوة الإسلامية من وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرع كل شدة ويستعذب كل عذاب حتى قضى نحبه شهيداً فى غزوة أحد ، وليس له مما كان يلبسه إلا ثوب واحد ، أرادوا أن يكفنوه به ، فكانوا إذا غطوا به رأسه خرجت رجلاه وإذا غطوا رجليه

خرج رأسه فأخبروا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى للذى كان فيه من النعمة فى صدر حياته ، ثم قال :(ضعوه مما يلى رأسه واجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر)

فليست مهمة الدعوة الإسلامية وقفاً على الرسل والأنبياء وحدهم ، ولا على خلفائهم وورثتهم العلماء الذين يأتون من بعدهم ، وإنما الدعوة الإسلامية جزءاً لا يتجزء من حقيقة الإسلام نفسه، فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعئها مهما كان شأنه أو عمله واختصاصه . إذ حقيقة الدعوة الإسلامية إنما هى :(الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر) وهو جماع معنى الجهاد كله فى الإسلام .

وأنت خبير أن الجهاد فرض من فروض الإسلام تستقر تبعته على كل مسلم ، ومن هنا تعلم أنه لا معنى ولا مكان لكلمة (رجال الدين) فى المجتمع الإسلامى، حينما تطلق على فئة معينة من المسلمين ، ذلك أن كل من دخل الإسلام فقد بايع الله ورسوله على الجهاد من أجل هذا الدين ، ذكراً كان أم انثى ، عالماً أم جاهلاً ، ومهما كان شا،ه أو إختصاصه ، فالمسلمون كلهم رجال لهذا الدين ، إشترى منهم الله أرواحهم و أموالهم بأن لهم الجنة يسخرونهما فى سبيل إقامة دينه ونصر شريعته

ومن المعلوم أن هذا كله لا علاقة له بما للعلماء من إختصاص البحث و الإجتهاد وتبصير المسلمين بأحكام دينهم ، وحل ما قد يجد من المشكلات فى حياتهم ، على ضوء نصوص الشريعة الثابتةمع الزمن .

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب ابن عمير عاد الى مكة فى موسم الحج العام التالى ، ومعه جمع كبير من مسلمى المدينة ، خرجوا مستخفين مع حجاج قومهم المشركين .

قال محمد ابن اسحاق يروى عن كعب ابن مالك : فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، نمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول اللهصلى الله عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى إجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا إمرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ابن عدى قال : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب ، فتكلم القوم وقالوا : خذ منا لنفسك ولربك ما أحببت .... فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال : (أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم و أبناءكم) ، فأخذ البراء ابم معرور بيده ثم قال : (نعم ، والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح كله) ورثناها كابر عن كابر) ، فاعترض القول ـ و البراء يتكلم ـ أبو الهيثم ابن التيهان فقال :(يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :(بل الدم الدم و الهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم) ، ولقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(أخرجوا إلىّ منكم إثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم إثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى) .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء ابم معرور ثم بايع القوم كلهم بعد ذلك ، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(إرفضّوا الى رحالكم) فقال له العباس ابن عبادة ابن نفلة :(والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لم نؤمر بذلك ، ولكن إرجعوا إلى رحالكم)

فرجعنا الى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، فقالوا : يا معشر الخزرج أنه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حىّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم) فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله : ما كان من هذا شىء وما علمناه ، وقد صدقوا ، لم يعلموه ، قال (وبعضنا ينظر الى بعض) .

ونفر الناس من منى ، فتحرى القوم الخبر فوجدوا أن الأمر قد كان ، فخرجوا فى طلبنا ، فأدركوا سعد ابن عبادة بأذاخر ، والمنذر ابن عمرو ـ وكلاهما كان نقيبا ـ فأما المنذر فأعجز القوم فهرب ، وأما سعد فأخذوه ، فربطوا يديه بشراك رحله ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجبهته ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد : فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى ، إذ أقبل إلىّ رجل ممن كان معهم فقال :(ويحك ... أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لكل من جبير ابن مطعم و الحارث ابن أمية تجارهما وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى) قال: (ويحك فاهتف باسمهما) ففعلت ، فجاء مطعم ابن عدى و الحارث ابم أمية فخلصاه من أيديهم .

قال ابن هشام : وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال شروطا سوى شرطه عليهم فى بيعة العقبة الأولى ، كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، فلما أذن الله له فيها و بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة الأخيرة على حرب الأحمر و الأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

قال عبادة ابن الصامت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب ، على السمع و الطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

وكانت أول آية نزلت فى الإذن بالحرب للرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تبارك وتعالى :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز) .

العبر و العظات :

هذه البيعة الثانية تتفق فى جوهرها مع البيعة الأولى ، فكل منهما إعلان عن الدخول فى الإسلام أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ للمواثيق و العهود علىالسمع و الطاعة والإخلاص لدين الله ،والإنصياع لأوامر رسوله ، إلا أننا نلحظ فارقين مهمين جديرين بالملاحظة و الدرس ، بين كل من بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية .

الفارق الأول : أن عدد المبايعين من أهل المدينة فى المرة الأولى كان إثنى عشر رجلا فقط ، أما البيعة الثانية فقد كان بضعة وسبعين بينهم إمرأتان .

فقد عاد أولئك الإثنا عشر فى السنة الأولى ـ ومعهم مصعب ابن عمير ـ لا لينطوى كل على نفسه وينعزل فى بيته ، بل ليبشر بالإسلام كل من كان حوله من رجال ونساء : يتلو عليهم قرآنه و يبين لهم أحكامه ونظامه . فمن أجل ذلك إنتشر الإسلام تلك السنة فى المدينة إنتشاراً عظيماً حتى لم يبق بيت إلا دخلها الإسلام ، وأصبح حديث أهلها فى عامة الأوقات عن افسلام و خصائصه وأحكامه .

وتلك هى وظيفة المسلم فى كل عهد وفى كل مكان .

الفارق الثانى : أن البنود المنصوص عليها فى البيعة الأولى ، خالية من الإشارة الى الجهاد بالقوة ، ولكنها فى البيعة الثانية تضمنت الإشارة بل التصريح بضرورة الجهاد و الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته بكل وسيلة .

وسبب هذا الفارق أن أرباب البيعة الأولى إنصرفوا وهم على موعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفس المكان فى الموسم التالى ، ليعودوا إليه بعدد أوفر من المسلمين ويجددوا البيعة و العهد ، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعته على القتال ، ما دام ان الإذن به لم يأت بعد ، وما دام أن هؤلاء المبايعين سيلتقون بعد عام مرة أخرى برسول الله صلى الله عليه وسام .

لقد كانت البيعة الأولى إذاً بيعة مؤقتة ، بالنسبة لإقتصارها على تلك البنود فقط ، وهى البنود التى بايع عليها النساء فيما بعد .

أما البيعة الثانية ، فقد كانت الأساس الذى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بناءاً عليه ، ولذا فقد كانت شاملة للمبادىء التى سيتم مشروعيتها بعد الهجرة الى المدينة ، وفى مقدمتها الجهاد و الدفاع عن الدعوة بالقوة ، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته بعد فى مكة ، ولكن الله عز وجل ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن ذلك سيشرع فى المستقبل القريب.

ومن هنا تعلم مشروعية القتال فى الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته صلى الله عليه وسلم على الصحيح ، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام فى سيرته أنه إنما شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية . وليس فى بنود تلك البيعة ما قد يدل على مشروعية القتال حينئذ ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخذ على أهل المدينة عهد الجهاد نظراً للمستقبل ، عندما سيهاجر إليهم ويقيم بينهم فى المدينة . و الدليل على هذا ما سبق ذكره أن العباس ابن عبادة قال بعد البيعة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لم نؤمر بذلك ، ولكن إرجعوا إلى رحالكم)

ومن المتفق عليه أن أول ىية نزلت فى الجهاد و مشروعيته هى قوله تعالى :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) وقد روى الترمذى وغيرهما عن ابن عباس قال : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ، قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ليهلكن ، قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال ابو بكر فعرفت أن سيكون قتال .

1- من المناسب أن يسبق القتال تعريف بالإسلام ، ودعوة إليه وإقامة لحججه ، وحل للمشكلات التى قد تقف فى سبيل فهمه ، ولا ريب أن هذه المراحل الأولى فى الجهاد ، ولذا كان القيام بتحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون فى المسئولية عنها .

2- إقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن لا يحملهم واجب القتال ، إلى أن توجد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه ، ويلوذون به ، ولقد كانت المدينة المنورة أول دار فى الإسلام .

كلمة عامة عن الجهاد و مشروعيته :

هذا ، وما دام البحث سيسوقنا منذ الآن ، الى الحديث عن الجهاد و القتال ، فمن الجدير أن نقف هنا قليلا ، لنتبين كفرة صحيحة عن الجهاد و مشروعيته ومراحله .

فقد كان الحديث ولا يزال أهم تكأة يعتمد عليها محترفوا الغزو الفكرى فى خلط حق بباطل وفى محاولة لفتح الثغرات فى جوانب صرح هذا الدين الحنيف بغية التشكيك فيه و النيل منه .

ولن تعجب من الدوافع الى حصر كل همّهم فى مشروعية الجهاد بخصوصه ، إذا علمت بأن أخطر ركن من أركان الإسلام فى نظر أعدائه يخيفهم ويرعبهم ، إنما هو الجهاد ...! فهم يدركون أن هذا الركن إذا إستيقظ فى نفوسهم وأصبح ذا أثر فى حياة المسلمين فى أى عصر من الزمن فلن تقف أى قوة بالغة ما بلغت من الأهمية فى وجه الدفع الإسلامى ، ولذا ينبغى أن يكون البدء فى القيام بأى عمل بغية إيقاف المدّ الإسلامى من هذه النقطة ذاتها .....

وسنوضح فى هذه الكلمة ا,لا : معنى الجهاد و غايته فى الإسلام ، والمراحل التى تدرج فيه ، ثم المرحلة التى إستقر عندها ، ثم نبين المغالطات التى دخلت مفهومه ، والتقسيمات المتكلفة التى حملت عليه مما لا وجه له .

أما معنى الجهاد : فهو بذل الجهد فى سبيل إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامى ، وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه .
وأما غايته : فهو إقامة المجتمع الإسلامى وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة .
وأما المراحل التى مر بها : فقد كان الجهاد فى صدر الإسلام ، كما علمنا مقتصراً على الدعوة السلمية مع الصمود فى سبيلها للمحن و الشدائد ، ثم شرع الى جانبها - مع بدء الهجرة- القتال الدفاعى ، أى رد كل قوة بمثلها ، ثم شرع بعد ذلك قتال كل من وقف عقبة فى طريق إقامة المجتمع الإسلامى ، على أن لا يقبل من الملاحدة و الثنيين و المشركين إلا الإسلام وذلك لعدم إمكان الإنسجام بين المجتمع الإسلامى الصحيح وما هم عليه من الإلحاد و الوثنية ، أما أهل الكتاب فيكفى خضوعهم للمجتمع الإسلامى وانضوائهم فى دولته على أن يدفعوا للدولة ما يسمى (الجزية) مكان ما يدفعه المسلمون من الزكاة .
وعند هذه المرحلة الأخيرة إستقر حكم الجهاد فى االإسلام ، وهذا هو واجب المسلمين فى كل عصر إذا توافرت لديهم القوة و العدةاللازمة . وعن هذه المرحلة يقول الله تعالى :(قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وعنها أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله) .
ومن هنا تعلم أنه لا معنى لتقسيم الجهاد فى سبيل الله الى حرب دفاعية وأخرى هجومية ، إذ مناط شرعة الجهاد ليس هو الدفاع لذاته ولا الهجوم لذاته ، إنما مناطه حاجة إقامة المجتمع الإسلامى بكل ما يتطلبه من النظم و المبادىء الإسلامية ، ولا عبرة بعد ذلك بكونه جاء هجوماً أو دفاعاً .
أما القتال الدفاعى المشروع ، كدفاع المسلم عن ماله وعرضه أو أرضه أو حياته ، فذلك نوع آخر من القتال لا علاقة له بالجهاد المصطلح عليه فى الفقه الإسلامى ، وهو ما يسمى بقتال الصائل ، وقد أفرد له الفقهاء باباً مستقلاً فى كتب الفقه ، وما أكثر ما يخلط الباحثون اليوم بينه وبين الجهاد الذى نتحدث عنه ...!
هذه خلاصة معنى الجهاد وغايته فى الشريعة الإسلامية ، أما المغالطات و التشويهات التى دست عليه فتتمثل فى نظريتين متناقضتين فى الظاهر ولكنهما منسجمتان فى باطن الأمر و حقيقته ، إذ يتكون من كليهما وسيلة واحدة متسعة تستهدف إلغاء مشروعية الجهاد من أساسه .
أما النظرية الأولى : فهى تلك التى تنادى بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف وأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه سلكوا مسلك الإكراه ، فكان الفتح الإسلامى على أيديهم فتح قهر وبطش لا فتح قناعة وفكر .
وأما النظرية الثانية : فهى تلك التى تهتف بعكس ذلك تماماً ، أى أن الدين الإسلامى دين محبة وسلام ، لا يشرع فيه الجهاد إلا لرد العدوان المداهم ، ولا يجاب أهله إلا إذا أرغموا على ذلك وبودئوا به .
ورغم أن هاتين النظريتين متناقضتان كما ذكرنا ، فإن أرباب الغزو الفكرى أرادوا أن يستولدوا منهما غاية معينة ، هى وحدها المقصودة من كلا هاتين النظريتين ،وإليك إيضاح ذلك :
لقد أشاعوا وروجو أولاً أن الإسلام دين بطش وقهر وحقد على الآخرين ، ثم إنتظروا حتى آتت هذه الشائعة ثمارها من ردود الفعل لدى المسلمين وإنكار هذا الظلم فى حق الإسلام ..... وبينما المسلمون يتلمسون الرد على هذا الباطل ، قام من أولئك المشككين أنفسهم من إصطنع الدفاع عن الإسلام بعد طول علم وبحث متجردين ، وراح يرد هذه التهمة قائلا : إن الإسلام ليس كما قالوا دين سيف ورمح وبطش ، بل هو على العكس من ذلك : دين محبة وسلام لا يشرع فيه الجهاد إلا لضرورة رد العدوان المداهم ، ولا يرغب أهله فى الحرب ما وجدوا إلى الإسلام سبيل .
فصفق البسطاء من المسلمين طويلاً لهذا الدفاع (المجيد) فى غمرة تأثرهم من الظلم الشنيع الأول ، وصادف ذلك فى نفوسهم التحفزة للرد عليه قبولاً واستحساناً ، فأخذوا يؤيدون ويؤكدون ، ويستخرجون البراهان تلو البرهان على أن الإسلام فعلاً كما

قالوا ..... دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه فى عقر داره ،وأيقظوه من هدأته وسباته وفات أولئك البسطاء أن هذه النتيجة المطلوبة ، وهذا بعينه هو الغرض الذى التقى عليه فى السر كل من روّج الشائعة الأولى ثم أشاع الباطل الثانى . فالمقصود هو السلوك بمقدمات ووسائل مدروسة مختلفة ، تنتهى الى نسخ فكرة الجهاد من أذهان المسلمين ، وإماتة روح الطموح فى نفوسهم .

ونحن نسوق لك شاهداً على ذلك ، ما ذكره زميلنا الأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى فى كتابه (آثار الحرب فى الفقه الإسلامى) على لسان المستشرق الإنكليزى المعروف (أندرسن) ، ولننقل لك عبارته من أولها (يخاف الغربيون لا سيما الإنكليز من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم ، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد ، وصدق الله العظيم إذ يقول فيمن لاإيمان لهم :(فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) ولقد قابلت المستشرق الإنكليزى أندرسن فى مساء الجمعة 3 حزيران 1960 ، فسألته عن رأيه فى هذا الموضوع فكان من نصيحته لى أن أقول : إن الجهاد اليوم ليس بفرض بناء على مثل قاعدة (تتغير الأحكام بتغير الأزمان) ، إذ أن الجهاد فى رأيه لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لإرتباط المسلمين بالمنظمات العالمية و المعاهدات الدولية . ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام ، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تفرض بالقوة) .

ونعود إلى ما كنا عليه من حديث بيعة العقبة الثانية :

لأمر ما أراد الله عز وجل ، إنتهى الى سمع المشركين من اهل مكة خبر هذه البيعة ، وما تم فيها بين النبى صلى الله عليه وسلم و المسلمين من أهل المدينة ، ولعل من خكمة ذلك تهيىء أسباب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، فسنجد أن لهذا الخبر الذى إنتهى الى مسامع قريش أثراً كبيراً فى تضييقهم الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماعهم الرأى على قتله و التخلص منه .

ومهما يكن فإن بيعة العقبة الثانية كانت المقدمة الأولى لهجرته عليه الصلاة و السلام الى المدينةالمنورة.

إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى المدينة

قال ابن سعد فى طبقاته يروى عن عائشة رضى الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه ، فقد جعل الله له منعة وقوماً وأهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه فى الهجرة ، فقال : (قد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها) فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحابه صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر ابن ربيعة ومعه إمرأته بنت أبى حشمة ، فهى أول ظعينة قدمت المدينة ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً فنزلوا على الأنصار فى دورهم ، فآووهم ونصروهم وآسوهم .

ولم يهاجر أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متخفياً غير عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فقد روى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه لمّا همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهماً ، واختصر عنزته (عصاه) ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قر يش بفنائها فطاف فى البيت سبعاً متمكناً مطمئناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف فقال :(شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن يثكل أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى)

قال علىّ فما إتبعه إلا قوم مستضعفون علّمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه .

وهكذا تتابع المسلمون فى الهجرة الى المدينة حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلىّ ، أو معذب محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج .

العبر و العظات :

كانت فتنة المسلمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ، فتنة الإيذاء و التعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء و السخرية ، فلما أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، أصبحت فتنتهم فى ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم ، ولقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم ، أمام الفتنة الأولى و الثانية ، قابلوا المحن والشدائد بصبر ثابت وعزم عنيد .

حتى إذا أشار عليهم رسول الله بالهجرة الى المدينة ، توجهوا إليها وقد تركوا من ورائهم الوطن وما لهم فيه من مال ومتاع ونشب ، ذلك أنهم خرجوا مستخفين متسللين ، ولا يتم ذلك إلا إذا تخلصوا من الأمتعة و الأثقال ، فتركوا كل ذلك فى مكة ليسلم لهم الدين ، واستعاضوا عنها بالأخوة الذين ينتظرونهم فى المدينة ليؤووهم وينصرونهم .

وهذا هو المثل الصحيح للمسلم الذى أخلص الدين لله : لا يبالى بالوطن ولا بالمال و النشب فى سبيل أن يسلم له دينه . هذا عن أصحاب رسول الله فى مكة .

أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم وواسوهم ونصروهم ، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية و المحبة فى الله تعالى .

وأنت خبير أن الله عز وجل قد جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب وحدها ، ولذلك كان الميراث فى صدر الإسلام على أساس وشيجة الدين ، وأخوته والهجرة فى سبيله ، ولم يستقر حكم الميراث على أساس علاقة القرابة إلا بعد تكامل أفسلام فى المدينة وصارت للمسلمين دار إسلام قوية منيعة .

يقول الله عز وجل : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله و الذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أو لياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) . ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان شرعيان :

1- وجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الإسلام ، وروى الطبرى عن ابن العربى (أن هذه الهجرة كانت فرضاً فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى باقية مفروضة الى يوم القيامة . والتى إنقطعت بالفتح ، إنما هى القصد الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن بقى فى دار الحرب عصى) ومثل دار الحرب فى ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

وما يستدل على ذلك قوله تعالى :(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا ؟ فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال و النساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) .

2- وجوب نصرة المسلمين لبعضهم مهما إختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً ، فقد غتفق العلماء و الأئمة على أن المسلمين إذا قدروا على إستنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين ، فى أى جهة من جهات الأرض ، ثم لم يفعلوا ذلك فقد باؤا بإثم كبير .

يقول أبو بكر العربى : إذا كان فى المسلمين أسراء أو مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة و النصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج الى إستنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا فى إستخراجهم ، حتى لا يبقلا لأحد درهم من ذلك .

وكما تجب موالاة المسلمين ونصرتهم لبعضهم ، فإنه يجب أن تكون هذه الموالاة فيما بينهم ، ولا يجوز أن يشيع شىء من الولاية و التناصر أو التآخى بين المسلمين وغيرهم ، وهذا ما يصرح به كلام الله عز وجل ، إذ يقول :(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض و فساد كبير).

يقول ابن العربى قطع الله الولاية بين الكفار و المؤمنين ، فجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ، يتناصرون بدينهم ويتعاملون بإعتقادهم .

ولا ريب أن تطبيق مثل هذه التعاليم الإلهية ، هى أساس نصرة المسلمين فى كل عصر وزمن ، كما أن إهمالهم لها وانصرافهم الى ما يخالفها هو أساس ما نراه اليوم من ضعفهم وتفككهم وتألب أعدائهم عليهم من وكل جهة وصوب .

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

جاء فى صحاح السنة وما رواه علماء السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما وجد المسلمين قد تتابعوا مهاجرين الى المدينة ، جاء يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الآخر فى الهجرة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :(على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى) فقال أبو بكر :(وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟) قال :(نعم) فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ، وأخذ يتعهدهما بالرعاية أربعة أشهر .

وفى هذه الأثناء رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صارت له شيعة وأصحاب غيرهم بغير بلدهم ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم .

فاجتمعوا له فى دار الندوة (وهى دار قصى ابن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها) يتشاورون فيما يصنعون بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع رأيهم أخيراً على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً ، ثم يعطى كل منهم سيفاً صارما ، ثم يعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، كى لا تقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالهجرة ، وينهاه أن ينام فى مضجعه تلك الليلة .

قالت عائشة رضى الله عنها فيما يروى البخارى : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى حر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر :(هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها) فقال أبو بكر :(فداً أبى وأمى ، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا لأمر) قالت : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال البنى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : (أخرج من عندك) فقال أبة بكر :(إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(فإنى قد أذن لى فى الخروج) فقال أبو بكر : (الصحبة يارسول الله) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(نعم) فقال ابو بكر :(فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بالثمن) .

قالت عائشة : فجهزناهما أحث جهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شىء يخشى عليه إلا إستودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من صدقه وأمانته . وأمر أبو بكر غبنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقوله الناس

عنهما فى بياض النهار ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون معه من أخبار . وأمر عامر ابن فهيرة (مولاه) أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما إذا أمسى إلى الغار (غار ثور) ليطعما من ألبانها ،وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما فى كل مساء .

وروى ابن إسحاق والإمام أحمد ، كلاهما عن يحى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير ، عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه أبو بكر ، إحتمل أبو بكر ماله كله معه : خمسة آلاف درهم أو ستة ىلاف درهم ، قالت وانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت :كلا يا ابت ، إنه قد ترك لنا خيراً كيثراً ، قالت: فأخذت احجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت ياابت ضع يدك على هذا المال ، فقالت: فوضع يده عليه ، قال : لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكنى أردت أن أسكت الشيخ بذلك .

ولما كانت عتمة تلك الليلة التى هاجر فيها النبى صلى الله عليه وسلم إجتمع المشركون على باب رسول اله صلى الله عليه وسلم يتربصون به ليقتلوه ، ولكنه عليه الصلاة و السلام خرج من بينهم وقد ألقى الله عليهم سنة من النوم بعد أن ترك عليّاً رضى الله عنه فى مكانه نائماً على فراشه ، وطمأنه بأنه لن يصل إليه أى مكروه .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الى غار ثور ليقيما فيه ، وكان ذلك على الراجح فى اليوم الثانى من ربيع الأول الموافق 20 أيلول سنة (622 م) بعد أم مضى ثلاثة عشر سنة من البعثة ، فدخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حيّة ، يقى رسول الله صلى اله عليه وسلم بنفسه ، فأقاما فيه ثلاثة أيام ، وكان يبيت عندهما عبد الله ابن أبى بكر يخبرهما بأخبار مكة ، ثم يدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها ، وكان عامر ابن فهيرة يروح عليهما بقطيعه من الغنم ، فإذا خرج من عندهما عبد الله تبع عامر أثره بالغنم كى لا يظهر لقدميه أثر .

أما المشركون فقد إنطلقوا ـ بعد أن علموا بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ينتشرون فى طريق المدينة يفتشون عنه فى كل المظان ، حتى وصلوا الى غار ثور ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقدام المشركين تخفق من حولهم فأخذ الروع أبا بكر وهمس يحدث النبى صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، فأجابه عليه الصلاة و السلام :(يا أبا بكر ما ظنك بإثنين الله ثالثهما) ...

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم إلتفاتة الى ذلك الغار ولم يخطر ببال واحد منهم أن يتساءل عما يكون بداخله .

ولما إنقطع الطلب عنهما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، بعد أن جاءهما عبد الله ابن أرقط وهو من المشركين ، كانا قد إستأجراه ليدلهما على الطرق الخفية الى المدينة بعد أن إطمأنا إليه ، وواعداه مع الراحلتين عند الغار) فسارا متبعين طريق الساحل بإرشاد من عبد الله بن أرقط ، وكان قد جعل مشركوا مكة لكل من أتى برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه ديّة كل منهما . وذات يوم ، بينما كان جماعة من بنى مدلج فى مجلس لهم ، وبينهم سراقة ابن جعشم ، إذ اقبل إليهم رجل منهم فقال : إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمداً و أصحابه ، فعرف سراقة أنهم هم ، ولكنه أراد أن يثنى عزم غيره عن الطلب ، فقال له : إنك قد رأيت فلاناً و فلانا ، إنطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم . ثم لبث فى المجلس ساعة ، وقام فركب فرسه ثم سار حتى دنا من رسول الله فعثرت به فرسه فخرّ عنها ، ثم ركبها ثانية وسار حتى صار يسمع قرأة النبى صلى اله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الإلتفات ، فساخت قائمتا فرس سراقة فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت ، فلم تكد تخرج قدميها حتى سطع لأثرهما غبار إرتفع فى السماء مثل الدخان ، فعلم سراقة أنه ممنوع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وداخله رعب عظيم ، فناداهما بالأمان .فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه حتى

وصل إليهم ، فاعتذر إليه وساله أن يستغفر له ، ثم عرض عليهما الزاد و المتاع ، فقالا : لا حاجة لنا ، ولكن عمّ عنا الخبر ، فقال كفيتم .

ثم عاد سراقة أدراجه الى مكة وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول ومن معه بما يراه من القول .....

وهكذا إنطلق إليهما فى الصباح جاهداً فى قتلهما ، وعاد فى المساء يحرسهما ويصرف الناس عنهما .

قدوم قباء

ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء ، فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم ابن هدم ، حيث أدركه فيها على رضى الله عنه بعد أن أدى عنه الودائع الى أصحابها ، وأسس النبى صلى الله عليه وسلم هناك مسجد قباء ، وهو المسجد الذى وصفه الله بقوله :(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق

أن تقوم فيه ....) الآية .

ثم واصل سيره الى المدينة فدخلها لآثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول على ما ذكره المسعودى فالتف حوله النصار ، كل يمسك زمام راحلته يرجوه النزول عنده فكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم : دعوها فإنها مأمورة فلم تزل راحلته تسير فى فجاج المدينة وسككها حتى وصلت الى مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :(ههنا المنزل إن شاء الله) وجاء أبو أيوب فاختمل الرحل الى بيته ، وخرجت ولائد من بنى النجار - فيما يرويه ابن هشام - فرحات بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجواره لهن ، وهنّ ينشدنّ

نحن جوار بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه السلام لهنّ : (أتحببننى ؟) فقلن : نعم فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكنّ)

صورة عن مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى دار أبى أيوب :

روى أبو بكر ابن أبى شيبة وابن إسحاق و الإمام أحمد ابن حنبل من طرق متعددة بألفاظ متقاربة أن أبا أيوب رضى الله عنه قال وهو يحدث عن أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى فى أسفل البيت وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يانبى الله بأبى أنت و أمى إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى الأعلى ، وننزل نحن نكون فى السفل ، فقال : يا أبا أيوب ، إنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت .

قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفله وكنا فوقه فى المسكن ، ولقد إنكسرت جرّة لنا فيها ماء يوما ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه ، فنزلت إليه وأنا مشفق ، فلم أزل أستعطفه حتى إنتقل الى العلو . قال : وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أر ليده فيه أثر ، فجئته فزعاً فقلت يا رسول الله بأبى أنت و أمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت حينما ترد علينا فضل طعامك أتيمم أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة ، فقال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجى ، فأما أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ، ثم لم نضع فى طعامه شيئاً من الثوم أو البصل بعد .

العبر و العظات :

تحدثنا فى فصل سابق ، عن معنى الهجرة فى الإسلام ، عند تعليقنا على هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة ، وقلنا إذ ذاك ما خلاصته : إن الله عز وجل جعل قداسة الدين و العقيدة فوق كل شىء ، فلا قيمة للأرض و الوطن و المال و الجاه إذا كانت العقيدة وشعائر الدين مهددة بالحرب و الزوال ، ولذا فرض الله على عباده أن يضحوا بكل ذلك - إذا إقتضى الأمر - فى سبيل العقيدة و الإسلام .

وقلنا أيضا أن سنة الله تعالى فى الكون إقتضت أن تكون القوى المعنوية التى تتمثل فى العقيدة السليمةو الدين الحق هى المحافظة للمكاسب و القوى المادية ، فمهما كانت الأمة غنية فى خلقها السليم متمسكة بدينها الصحيح فإن سلطانها المادى المتمثل فى الوطن والمال و العزة يغدو أكثر تماسكاً وأرسخ بقاءاً وأمنع جانباً . ومهما كانت فقيرة فى أخلاقها مضطربة تائهة فى عقيدتها فإن سلطانها المادى المتمثل فيما ذكرناه يغدو أقرب الى الإضمحلال و الزوال ، وقلنا إن التاريخ أعظم شاهد على ذلك .

ولذلك شرع الله عز وجل مبدأ التضحية بالمال و الأرض فى سبيل العقيدة و الدين عندما يقتضى الأمر ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال و الطن و الحياة ، وإن بدا لأول وهلة أنهم تعروا عن كل ذلك وفقدوه .

وحسبنا دليلاً على هذه الحقيقة هجرة رسول اله صلىالله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، لقد كانت بحسب الظاهر تركاً للوطن وتضييعاً له ، ولكنه كان فى واقع الأمر حفاظاً عليه وضمانة له ، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشىء يبدو فى صورة الترك و الإعراض عنه فقد عاد بعد بضع سنين من هجرته هذه - بفضل الدين الذى أقام صرحه ودولته - الى وطنه الذى أخرج منه ، عزيز الجانب ، منيع القوة ، دون أن يستطيع أحد من أولئك الذين تربصوا به ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا إليه بأى سوء ...

ولنعد الآن الى التأمل فيما سردناه من قصة هجرته صلى الله عليه وسلم لنستنبط منها الدلالات والأحكام الهامة لكل مسلم :

1- من أبرز ما يظهر لنا من قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إستبقاؤه لأبى بكر رضى الله عنه دون غيره من الصحابة كى يكون رفيقه فى هذه الرحلة .

وقد إستنبط العلماء من ذلك مدى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وأنه أقرب الصحابة إليه وأولاهم بالخلافة من بعده ، ولقد عززت هذه الدلالات أموراً كيثرة أخرى مثل إستخلافه له فى الصلاة بالناس عند مرضه وإصراره على أن لا يصلى عنه غيره ، ومثل قوله فى الحديث الصحيح :(لو كنت متخذاً خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلا)

ولقد كان ابو بكر رضى الله عنه - كما رأينا - على مستوى هذه المزية التى أكرمه اله بها ، فقد كان مثال الصاحب الصادق بل و المضحى بروحه وبكل ما يملك من أجل رسول الله صلى الله عليسه وسلم ، ولقد رأينا كيف أبى إلا أن يسبق رسول الله فى دخول الغار كى يجعل من نفسه فداءاً له عليه الصلاة و السلام فيما إذا كان فيه سبع أو حية أو أى مكروه ينال الإنسان منه الأذى ، ورأينا كيف جند أمواله وأولاده ومولاه وراعى أغنامه فى سبيل خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة . ولعمرى إن هذا ما ينبغى أن يكون عليه شأن كل مسلم آمن بالله ورسوله ، ولذا يقول رسول الله صلى اله عليه وسلم :(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده و الناس أجمعين)

2- قد يخطر فى بال المسلم أن يقارن بين هجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهجرة النبى صلى الله عليه وسلم ويتساءل : لماذا هاجر عمر علانية متحدياً المشركين دون أى خوف ووجل ، على حين هاجر رسول الله مستخفياً محتاطاً لنفسه ؟ أيكون عمر ابن الخطاب أشد جرأة من النبى صلى الله عليه وسلم ؟

و الجواب ان عمر ابن الخطاب أو أى مسلم آخر غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر تصرفه تصرفاً شخصياً لا حجة تشريعية فيه ، فله أن يتخير من الطرق و الوسائل و الأساليب ما يحلو له وما يتفق مع قوة جرأته وإيمانه بالله تعالى ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مشرّع ، أى أن جميع تصرفاته المتعلقة بالدين تعتبر تشريعاً لنا ، ولذلك كلنت سنته هى المصدر

الثانى من مصادر التشريع الإسلامى مجموع أقواله و أفعاله وصفاته وتقريره ، فلو أنه فعل كما فعل عمر ، لحسب الناس أن هذا هو الواجب ! ... وأنه لايجوز أخذ الحيطة و الحذر ،والتخفى عند الخوف ، مع أن الله عز وجل أقام شريعته فى هذه الدنيا على مقتضى الأسباب و المسببات ،وإن كان الواقع الذى لا شك فيه أن ذلك بتسبيب الله تعالى و إرادته ، لأجل ذلك غستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأسباب المادية التى يهتدى إليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل ، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل إلا إعتد بها واستعملها ، فترك على ابن أبى طالب ينام فى فراشه ويتغطى ببرده ، واستعان بأحد المشركين - بعد أن أمنه- ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تخطر فى بال الأعداء ، وأقام فى الغار ثلاثة أيام متخفياً ، إلى آخر ما عبأه من الإحتياطات المادية التى قد يفكر بها العقل ، ليوضح بذلك أن الإيمان بالله عز وجل لا ينافى إستعمال الأسباب المادية التى أرادت حكمة الله تعالى أن تكون أسباباً .

وليس قيامه بذلك بسبب خوف فى نفسه ، أو شك فى إمكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة ، والدليل على ذلك أنه عليه الصلاة و السلام بعد أن إستنفد الأسباب المادية كلها ، وتحلق المشركون حول الغار الذى يختبىء فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه - بحيث لو نظر احدهم عند قدمه لأبصر الرسول صلى الله عليه وسلم - إستبد الخوف بابى بكر رضى الله عنه على حين كان يطمئنه عليه الصلاة و السلام قائلاً : يا أبا بكر : ما ظنك بإثنين الله ثالثهما) ولقد كان من مقتضى إعتماده على كل تلك الإحتياطات أن يشعر بشىء من الخوف و الجزع فى تلك الحال .

لقد كان كل ما فعله من تلك الإحتياطات إذاً وظيفة تشريعية قام بها ، فلما إنتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطاً بالله تعالى معتمداً على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الإعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون إلا على الله عز وجل ، ولكن لا ينافى ذلك إحترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون أسباباً . ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضاً ، حالته صلى الله عليه وسلم عندما لحق به سراقة يريد قتله وأصبح على مقربة منه ، لقد كان من مقتضى تلك الإحتياطات الهائلة التى قام بها أن يشعر بشىء من الخوف من هذا الذى يجد فى اللحاق به بل كان مستغرقاً فى قراءته ومناجاته ربه لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم كما بين فى كتابه المبين .

3- وفى تخلف علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أداء الودائع التى كانت عنده الى أصحابها دلالة باهرة على التناقض العجيب الذى كان المشركون واقعين فيه ، ففى الوقت الذى كانوا يكذبونه ويرونه ساحراً أو مخادعاً لم يكونوا يجدون من حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التى يخافون عليها إلا عنده ...! وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم فى صدقه ، وإنما هو بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذى جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم .

4- ثم إننا نلمح فى النشاط الذى كان يبذله عبد الله ابن أبى بكر رضى الله عنه ، ذاهباً آيباً بين الغار ومكة ، يتحسس الأخبار و ينقلها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبيه ، وفيما عمدت إليه أخته أسماء رضى الله عنها من الجد فى تهيىء الزاد و الراحلة واشتراكها فى إعداد العدة لتلك الرحلة - نلمح فى ذلك صورة مما يجب أن يكون عليه الشباب المسلم ذكوراً وإناثاً فى سبيل الله عز وجل ومن أجل تحقيق مبادىء الإسلام وإقامة المجتمع المسلم ، فلا يكفى أن يكون الإنسان منطوياً على نفسه مقتصراً على عباداته ، بل عليه ان يستنفد طاقاته وأوجه نشاطه كلها سعياً فى سبيل الإسلام ، وتلك هى مزية الشباب فى حياة الإسلام و المسلمين فى كل زمن وعصر .

وإذا تأملت فيمن كان حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إبان دعوته وجهاده ، وجدت أن أغلبيتهم العظمى كانوا شباباً لم يتجاوزوا المرحلة الأولى فى عمر شبابهم ، ولم يألوا جهداً فى تجنيد طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه .

5- أمّا ما حدث لسراقة وفرسه وهو يلحق لبرسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغى أن لا يفوتنا أنها معجزة خارقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إتفق أئمة الحديث على صحتها ونقلها وفى مقدمتهم البخارى ومسلم ، فأضفها الى معجزاته الأخرى التى سبق الحديث عنها فيما مضى .

6- ومن أبرز المعجزات الخارقة فى قصة هجرته عليه الصلاة و السلام خروجه صلى الله عليه وسلم من بيئته وقد أحاط به المشركون يتربصون به ليقتلوه ، فقد علق النوم بأعينهم جميعاً حتى لم يحس به أحد منهم ، وكان من تتمة السخرية بتآمرهم على حياته ما إمتلأت به رؤسهم من التراب الذى ألقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رؤوسهم إذ خرج من بينهم وهو يتلو قوله تعالى :(وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

لقد كانت هذ المعجزة بمثابة اإعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت ، بأن ما قد يلاقيه الرسول وصحبه من ألوان الإضطهاد و العذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه ، لا يعنى أنه قد تخلى عنهم وأن النصر قد إبتعد عن متناولهم ، فلا ينبغى للمشركين وعامة أعداء الدين أن يفرحوا ويستبشروا بذلك ، فإن نصر الله قريب وإن وسائل هذا النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى .

7- وتكشف الصورة التى إستقبلت بها المدينة المنورة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالاً و نساءاً وأطفالاً ، لقد كانوا يخرجون كل يوم الى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، حتى إذا هبّ النهار ليدبر ، عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الإنتظار صباح اليوم التالى ، فلما طلع الرسول عليهم جاشت العواطف فى صدورهم وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد و الأهازيج فرحاً لمرآه عليه الصلاة و السلام ومقدمه عليهم ، ولقد بادلهم رسول الله صلى اله عليه وسلم نفس المحبة ، حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بنى النجار من حوله ، وهنّ ينشدنّ ويتغنين بمقدمه ، قائلاً : أتحببننى ؟ والله إن قلبى ليحبكنّ .

يدلنا كل ذلك أن محبة رسول اله صلى الله عليه وسلم ليست فى مجرد الإتباع له ، بل المحبة له هى أساس الإتباع وباعثه ، فلولا المحبة العاطفية فى القلب لما وجد وازع يحمل على الإتباع فى العمل .

ولقد ضل قوم حسبوا أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لها معنى إلا الإتباع و الإقتداء وفاتهم أن الإقتداء لا يأتى إلا بوازع ودافع ، ولن تجد من وازع يحمل على الإتباع إلا المحبة القلبية التى تهز المشاعر وتستبد بالعواطف ، ولذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس الإيمان بالله إمتلاء القلب بمحبته صلى الله عليه وسلم ، بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد و الناس أجمعين ، وهذا يدل على أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس محبة الولد و الوالد أى مصدر كل منهما العاطفة و القلب وإلا لم تصح المقارنة و التفضيل بينهما .

8- أما الصورة التى رأيناها فى مقامه صلى الله عليه وسلم عند أبى أيوب الأنصارى فى منزله ، فتكشف لنا مظهر آخر من مظاهر محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه والسلام له .

والذى يهمنا من ذلك هنا ، هو التأمل فى تبرك أبو أيوب وأم أيوب ، بآثار أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قطعة الطعام ، حينما كان يرد عليهما فضل طعامه ، إذاً فالتبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم مشروع قد أقره صلى الله عليه وسلم .

وقد روى البخارى ومسلم صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار النبى صلى الله عليه وسلم و التوسل بها للإستشفاء أو العناية و التوفيق وما شابه ذلك .

من ذلك ما رواه البخارى فى كتاب اللباس ، فى باب ما يذكر فى الشيب ، من أن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تحتفظ بشعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فى جلجل لها (ما يشبه القارورة يحفظ فيه ما يراد صيانته) فكان إذا أصاب

أحد من الصحابة عين أو أذى أرسل إليها إناء فيه ماء ، فجعلت الشعرات فى الماء ، ثم أخذوا الماء يشربونه توسلا للإستشفاء و التبرك به .

ومن ذلك ما رواه مسلم فى كتاب الفضائل باب (طيب عرقه صلى الله عليه وسلم) أنه عليه الصلاة و السلام كان يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست هى فى البيت ، فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فجاءت أم سليم وقد عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره فى قواريرها ، فأفاق النبى صلى الله عليه وسلم فقال: ما تصنعين يا أم سليم ؟ فقالت يارسول الله : نرجو بركته لصبياننا ، قال : أصبت)

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين من إستباق الصحابة إلى فضل وضوئه صلى الله عليه وسلم و التبرك بالكثير من آثاره كألبسته و القدح الذى كان يشرب به .

فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية فكيف بالتوسل بمنزلته عند اللع عز وجل وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين ؟

ولا يذهبن بك الوهم إلى أننا نقيس التوسل على التبرك ،وأن المسألة لا تعدو أن تكون إستدلالا بالقياس ، فإن التوسل و التبرك كلمتان تدلان على معنى واحد وهو إلتماس الخير و البركة عن طريق المتوسل به . وكل من التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم عند الله و التوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه ، أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذى ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة ، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى ب (تنقيح المناط) عند علماء الأصول .

ولنكتف من تعليقنا على قصة هجرته صلى الله عليه وسلم عند هذا القدر ، لنتحدث بعد ذلك عن الأعمال الجليلة التى بدأ يقوم بها صلى الله عليه وسلم فى المجتمع الجديد فى المدينة المنورة .

القسم الرابع ـ أسس المجتمع الجديد

الأساس الأول (بناء المسجد)

لقد كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، تعنى نشاة أول دار إسلام إذ ذاك على وجه الأرض ، وقد كان ذلك إيذاناً بظهور الدولة الإسلامية بإشراف منشئها الأول محمد صلى الله عليه وسلم .

ولذا فقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن أقام الأسس الهامة لهذه الدولة ولقد كانت هذه الأسس ممثلة فى هذه الأعمال الثلاثة التالية :

أولاً : بناء المسجد

ثانياً : المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار خاصة و المسلمين عامة .

ثالثاً : كتابة وثيقة (دستور) حددت نظام حياة المسلمين فيما بينهم ، وأوضحت علاقتهم مع غيرهم بصورة عامة و اليهود بصورة خاصة .

قلنا فيما مضى : إن ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم بركت فى موضع كان لغلامين يتيمين من الأنصار ، وكان أسعد ابن زرارة قد إتخذه مصلى قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، فكان يصلى بأصحابه فيه . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى ذلك الموضع مسجداً ، ودعا الغلامين ـ وكانا فى كفالة أسعد ابن زرارة رضى الله عنه ـ فسام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، فقالا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إبتاعه منهما بعشرة دنانير . وكان فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت و بالنخل وبالشجر فقطعت ، وصفّت فى قبلة المسجد ، وجعل طوله مما يلى القبلة الى مؤخرته مائة ذراع ، وفى الجانبين مثل ذلك أو دونه ،

ثم بنوه باللبن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم الحجارة بنفسه ، وجعل قبلته الى بيت المقدس ، وجعل عمده الجذوع ، وسقفه بالجريد ، وقيل له : ألا نسقفه ؟ فقال : (عريش كعريش موسى : خشيبات وثمام - نبت ضعيف قصير - الشأن أعجل من ذلك ،أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال و الحصباء .

وروى البخارى فى سنده عن أنس ابن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى حيث أدركته الصلاة فى مرابض الغنم ، قال ثم إنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل الى ملأ من بنى النجار فجاؤوا ، فقال يابنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا ، فقالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا الى الله ، فقال أنس فكان فيه ما أقول لكم ، : كانت فيه قبور المشركين وكانت فيه خرب ، وكان فيه نخل . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقطع ، قال فصفوا النخل قبلة المسجد قال : وجعلوا عضادتيه حجارة وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم وهو يقول : اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار و المهاجرة .

وقد ظل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الشكل دون أى زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، ثم زاد فيه عمر رضى الله عنه بعض التحسين ، ولكنه بناه على بنائه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم باللبن و الجريد وأعاد عمده خشباً . ثم غيره عثمان رضى الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة و القصة (الجص) .

العبر و الدلائل :

بأخذ من هذا الذى ذكرناه دلائل هامة نجملها فيما يلى :

1- مدى أهمية المسجد فى المجتمع الإسلامى و الدولة الإسلامية :

فقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بمجرد وصوله الى المدينة واستقراره فيها على إقامة مجتمع إسلامى متماسك راسخ ، يتألف من هؤلاء المسلمين : المهاجرين و الأنصار الذى جمعتهم المدينة المنورة ، فكان أول خطوة قام بها فى سبيل هذا الأمر ، بناء المسجد .

ولا غرو ولا عجب ، فإن إقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الإسلامى ، ذلك أن المجتمع الإسلامى إنما يكتسب صفة الرسوخ و التماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته و آدابه ، وإنما ينبع ذلك كله من روح المسجد ووحيه .

إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة و المحبة بين المسلمين ، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا فى المسجد ، فما لم يتلاق المسلمون يومياً ، على مرات متعددة فى بيت من بيوت الله ، وقد تساقطت عما بينهم فوارق الجاه و المال و الإعتبار ، لا يمكن لروح التآلف و التآخى أن تؤلف بينهم .

إن من نظام الإسلام وآدابه ، أن تشيع روح المساواة و العدل فيما بين المسلمين فى مختلف شؤونهم وأحوالهم ، ولكن شيوع هذه الروح لا يمكن أن يتم ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدى الله عز وجل ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية ، وتعلقت قلوبهم بربهم الواحد جل جلاله ، ومهما إنصرف كل مسلم الى بيته يعبد الله ويركع له ويسجد دون وجود ظاهرة الإشتراك و الإجتماع فى العبادة ، فإن معنى العدالة و المساواة لن يتغلب فى المجتمع على معانى الأثرة والتعالى و الأنانية.

وإن من نظام الإسلام وآدابه ، أ، ينصهر أشتات المسلمين فى بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذى هو حكمه وشرعه ، ولكن ما لم تقم فى أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بهما عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تؤول الى أشتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات و الأهواء .

فمن أجل تحقيق هذه المعانى كلها فى مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة ، أسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل كل شىء فبادر الى بناء المسجد .

2- حكم التعامل مع من لم يبلغوا سن الرشد من الأطفال و الأيتام :

فقد إستدل بعض الفقهاء وهم الحنفية بهذا الحديث على صحة تصرف غير البالغ ووجه الدلالة على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إشترى المربد من الغلامين اليتيمين ، بعد أن ساومهما ، ولو لم يصح تصرفهما لما إشترى منهما ، غير أن الذين ذهبوا الى عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد- وهم جمهور الفقهاء- إستدلوا بقول الله تعالى :(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أما حديث شراء المربد فيجاب عليه بجوابين :

أحدهما- أنه جاء فى رواية عيينة أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم عمهما الذى كانا فى حجره وكفالته وابتاعه منهما بواسطته فلا حجة فيه لما ذهب إليه الحنفية .

ثانيهما - أن للنبى صلى الله عليه وسلم ولاية خاصة فى مثل هذه المور ، وأنه عليه الصلاة و السلام إنما إشترى الأرض منهما بوصف كونه ولياً عاماً لجميع المسلمين ، لا بوصف كونه فرداً منهم .

3- جواز نبش القبور الدارسة : واتخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت وطابت أرضها :

ذكر الإمام النووى تعليقاً على هذا الحديث فقال : فيه جواز نبش القبور الدارسة وأنه إذا أزيل ترابها المختلط بصديدهم ودمائهم جازت الصلاة فى تلك الأرض ، وجواز إتخاذ موضعها مسجداً ، إذا طيبت أرضه.

كما أن الحديث يدل على أن الأرض التى دفن فيها الموتى ودرست ، يجوز بيعها وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده إذا لم توقف ، وقد قال علماء السيرة عن تلك القبور التى كانت فى المربد أنها كانت قبوراً قديمة دارسة ، فلا يتأتى فيها الصديد و الدم ، ومع ذلك فقد نبشت وأزيل ما فيها من بقايا . قلت : ومحل جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ أرضها مسجداً ، إذا لم تكن الأرض وقفاً ، أما إذا كانت كذلك فلا يجوز تحويلها الى شىء آخر غير ما وقفت له .

4- حكم تشييد المساجد ونقشها وزخرفتها :

و التشييد أن تقام عمارة المسجد بالحجارة وشبهها مما يزيد فى قوة بنائه ومتانة سقفه وأركانه ، والنقش و الزخرفة ما جاوز أصل البناء من شتى أنواع الزينة .

فأما التشييد فقد أجازه واستحسنه عامة العلماء ، بدليل ما فعله عمر و عثمان رضى الله عنهما من إعادة بناء مسجده عليه الصلاة و السلام ، وهو وإن كان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يدل على المفهوم المخالف ، أى المنع من التشييد و التقوية ، إذ لا يتعلق بهما وصف يخل بالحكمة التى من أجلها شرع بناء المساجد، بل إن فى ذلك زيادة فى العناية والإهتمام بشعائر الله تعالى . واستدل العلماء أيضاً على ذلك بقوله تعالى :(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر) والعمارة إنما تكون بالتشييد وتقوية البناء و العناية به .

وأما النقش و الزخرفة ، فقد كرهها عامة العلماء ، ثم هم فى ذلك بين محرّم ومكرّه ، غير أن الذين قالوا بالحرمة و الذين قالوا بالكرهة إتفقوا على أنه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شىء من الزخرفة و النقش ، أما إذا كان المال المصروف على ذلك من البانى نفسه فيرد الخلاف فيه ، وقد ذكر الزركشى نقلاً عن الإمام البغوى أنه لا يجوز نقش المسجد من غلة الوقف ، ويغرّم القيم إن فعله ، فلو فعله رجل بماله كره لأنه يشغل قلب المصلين .

والفرق بين عموم التشييد وخصوص الزخرفة و النقش واضح .

فالأول كما قلنا لا يترتب عليه وصف أو معنى يخل بالحكمة التى من أجلها شرع بناء المسجد ، أما الزخرفة و النقش فإن كلاً منهما يترتب عليه معنى يخل بالحكمة ، إذ من شأنه صرف قلب المصلين عن الخشوع و التدبر وشغله بمظاهر الدنيا ، على حين أنه يقصد من الدخول فى المسجد الهرب من التصورات الدنيوية وتفريغ البال من زينتها و مغرياتها .

وهذا ما نبه إليه عمر رضى الله عنه حينما أمر ببناء مسجد فقال :(أكنّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر ، فتفتن الناس) ، وقد إختلف العلماء فى كتابة آية من القرآن فى قبلة المسجد هل هى داخلة فى النقش الممنوع أم لا ؟ .

يقول الزركشى فى كتابه إعلام الساجد :(ويكره أن يكتب فى قبلة المسجد آية من القرآن أو شيئاً منه ، قال مالك ، وجوزه بعض العلماء ، وقال لا بأس به ، لما روى من فعل عثمان ابن عفان ذلك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر ذلك عليه)

ومما ذكرناه يتبين لك خطا ما يعمد إليه كثير ممن يهتمون بتعمير المساجد و تشييدها اليوم ، حيث ينصرفون بكل جهودهم الى التفنن فى تزيينها ونقشها وإضفاء مختلف مظاهر الأبهة عليها ، حتى إن الداخل إليها لا يكاد يستشعر أى معنى من ذل العبودية لله عز وجل ، وإنما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الإفتخار بما إرتقى إليه فن الهندسة المعمارية ، وفنون الزخرفة العربية .

ومن أسوأ نتائج هذا التلاعب الشيطانى ببسطاء المسلمين ، أ، الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهربوا من مظاهر الإغراء الدنيوى إلى أى جهة ، لقد كان فى المساجد ما يعزى الفقير بفقره ، ويخرجه من جو الدنيا وزخرفها إلى الآخرة وفضلها ، فأصبحوا يجدون حتى فى مظهر هذه المساجد ما يذكرهم بزخرف الدنيا التى حرموها ويشعرهم بنكد الفقر وأوضاره .

فيالله ما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران الحقائق الإسلامية وانشغالهم بمظاهر كاذبة ظاهرها الدين وباطنها الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأهواء .

الأساس الثانى (الأخــوة بين المسلميــن)

ثم إن الرسول صلى اله عليه وسلم آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على الحق و المواساة ، وعلى أن يتوارثوا بينهم بعد الممات ، بحيث يكون أثر الأخوة الإسلامية فى ذلك أقوى من أثر قرابة الرحم .

فجعل جعفر ابن ابى طالب ومعاذ ابن جبل أخوين ، وجعل حمزة ابن عبد المطلب وزيد ابن حارثة أخوين ، وجعل أبا بكر الصديق رضى الله عنه وخارجة ابن زهير أخوين ، وعمر ابن الخطاب وعتبان ابن مالك أخوين ، وعبد الرحمن ابن عوف و سعد ابن الربيع أخوين ..... وهكذا

ثم ربط النبى صلى الله عليه وسلم هذا التآخى بين أفراد الصحابة بنطاق عام من الأخوة و الموالاة ، كما سنجدها فيما بعد .

وقد قامت هذه الأخوة على أسس مادية أيضاً ، وكان حكم التوارث فيما بينهم من بعض هذه المظاهر المادية . وظلت عقود هذا الإخاء مقدمة على حقوق القرابة الى موقعة بدر الكبرى ، حيث نزل فى أعقابها قول الله تعالى :(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وانقطع أثر المؤاخاة الإسلامية فى الميراث ، ورجع كل إنسان فى ذلك إلى نسبه وذوى رحمه ، وأصبح المؤمنون كلهم إخوة .

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجرىّ الأنصارىّ دون ذوى رحمة للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت :(ولكل جعلنا موالى) نسخت ، ثم قال :(والذين عاقدت أيمانكم) أى من النصر و الرفادة و النصيحة وقد ذهب الميراث .

العبر و الدلائل :

وهذا هو الأساس الثانى الذى إعتمده الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل بناء المجتمع الإسلامى و الدولة الإسلامية ،وإن أهمية هذا الأساس تظهر فى الجوانب التالية :

أولاً: إن أى دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التىخى و المحبة المتبادلة فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية لايمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الإتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

على أن التآخى أيضاً لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم اللقاء عليها و الإيمان بها ، فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى ، خرافة ووهم ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية .

ومن أجل ذلك ، فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التى جاءهم بها من عند الله تعالى و التى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الإعتبار لأى فارق إلا فارق التقوى و العمل الصالح ، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء و التعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد و الأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه .

ثانياً - إن المجتمع - أى مجتمع - إنما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتثرة مفككة ، بشىء واحد ، هو قيام مبدأ التناصر و التعاون فيما بين أشخاص هذا المجتمع ، وفى كل نواحى الحياة و مقوماتها ، فإ، كان هذا التعاون و التناصر قائما طبق نظام العدل و المساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع العادل السليم ، وإن كان ذلك قائما على الحيف و الظلم ، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف .

وإذا كان المجتمع السليم إنما يقوم على أساس من العدالة فى الإستفادة من أسباب الحياة و الرزق ، فما الذى يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه ؟

إن الضمانة الطبيعية و الفطرية الأولى لذلك ، إنما هى التآخى و التوادد يليها بعد ذلك ضمانة السلطة و القانون ، فما أرادت السلطة أن تحقق مبادىء العدالة بين الأفراد ، فإنها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من المحبة و التآخى فيما بينهم ، بل إن هذه المبادىء لاتعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ، ومن شان الأحقاد و الضغائن أن تحمل على طيها بذور الظلم و الطغيان فى أشد الصور و الأشكال .

من أجل هذا إتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حقيقة التآخى الذى أقامه بين المهاجرين و الأنصار أساساً لمبادىء العدالة الإجتماعية التى قام على تطبيقها أعظم و أروع نظام إجتماعى فى العالم ، ولقد تدرجت مبادىء هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك الأرضية الأولى ، ألا وهى الأخوة الإسلامية ، ولولا هذه الأخوة العظيمة التى تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية ، لما كان لتلك المبادىء أى أثر تطبيقى وإيجابى فى شد أزر المجتمع الإسلامى ودعم كيانه .

ثالثاً : المعنى التفسيرى الذى صاحب شعار التآخى :

لم يكن ما أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من مبدأ التآخى مجرد شعار فى كلمة أجراها على ألسنتهم ، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين المهاجرين و الأنصار ، ولذلك جعل النبى صلى الله عليه وسلم من هذه الأخوة مسؤولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة ، وكانت هذه المسؤولية تؤدى فيما بينهم على خير وجه ، وحسبنا دليلا على ذلك ما قام به سعد ابن الربيع الذى كان قد آخى الرسول بينه وبين عبد الرحمن ابن عوف ، إذ عرض على عبد الرحمن ابن عوف أن يشركه فى بيته وأهله وماله فى قسمة متساوية ، ولكن عبد الرحمن ابن عوف شكره وطلب منه أن يرشده الى سوق المدينة ليشتغل فيها ، ولم يكن سعد ابن الربيع منفرداً عن غيره من الأنصار فيما عرضه على أخيه كما قد يظن ، بل كان هذا شأن عامة الصحابة فى علاقتهم وتعاونهم مع بعض ، خصوصاً بعد الهجرة وبعد أن آخى النبى صلى الله عليه وسلم فيما بينهم .

ولذلك أيضاً ، جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطاً بهذا التآخى ، دون حقوق القرابة و الرحم ، فقد كان من حكمة هذا التشريع أن تتجلى الأخوة الإسلامية حقيقة محسوسة فى أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أن ما بين المسمين من التآخى و التحابب ليس شعاراً وكلاماً مجردين ، وإنما هى حقيقة قائمة ذات نتائج إجتماعية محسوسة تكون أهم أسس نظام العدالة الإجتماعية .

أما حكمة نسخ التوارث على أساس هذه الأخوة ، فيما بعد ، فهى أن نظام الميراث الذى إستقر أخيراً ، إنما هو نفسه قائم على أخوة الإسلام بين المتوارثين ، إذ لا توارث بين دينين مختلفين ، إلا فى الفترة الأولى من الهجرة وضعت كل من الأنصار و المهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر و المؤانسة ، بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم وتركهم ديارهم وأموالهم فى مكة ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار فى المدينة ، فكان ما أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم من التآخى بين أفراد المهاجرين والأنصار ضمانة لتحقيق هذه المسئولية ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤولية أن يكون التآخى أقوى فى حقيقته وأثره من أخوة الرحم المجردة .

فلما إستقر أمر المهاجرين فى المدينة وتمكن الإسلام فيها ، وغدت الروح الإسلامية هى وحدها العصب الطبيعى للمجتمع الجديد فى المدينة ، أصبح من المناسب إنتزاع القالب الذى كان قد صب فيه نظام العلاقة بين المهاجرين و الأنصار إثر إلتقائهم فى المدينة ، إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك و التميع فى ظل الأخوة الإسلامية العامة وما يترتب عليها من المسؤوليات المختلفة ، ولا ضير حينئذ أن يعود تأثير قرابة الرحم بين المسلمين من حيث كونها مؤثراً زائداً على قرابة الإسلام وأخوته . ، ثم إن هذا التآخى الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بمؤاخاة أخرى أقامها النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين فى مكة ، قال ابن عبد البر :(كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة ، وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين و الأنصار) .

وهذا ما ؤيكد لنا أن مناط الأخوة وأساسها إنما هو رابطة الإسلام ، غير أنها إحتاجت الى تجديد و تأكيد بعد الهجرة بسبب ظروفها و بسبب إجتماع المهاجرين و الأنصار فى دار واحدة .

فهى ليست فى الحقيقة شيئاً آخر غير الأخوة القائمة على أساس جامعة الإسلام ووحدة العقيدة ، وإنما هى تأكيد لها عن طريق التطبيق .

الأساس الثالث (كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم)

وهذا الأساس هو أهم ما قام به النبى صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة روى ابن هشام أن النبى صلى الله عليه وسلم لم تمض له سوى مدة قليلة فى المدينة حتى إجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراد فى قبيلة الأوس ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين و الأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد ذكر ابن اسحاق هذا الكتاب بدون إسناد ، وذكره ابن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد ابن جناب ابن الوليد ، ثنا عيسى ابن يونس ، ثنا كثير ابن عبد الله ابن عمرو المزنى عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، فذكر نحو ما ذكره ابن إسحاق ، وذكر الإمام أحمد فى مسنده فرواه عن سريج قال : حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً بين المهاجرين و الأنصار ..... الخ

ونحن لن نأت بنص الكتاب كله ، فهو طويل ، زولكننا نجتزىء منه البنود الهامة بنصوصها الواردة فى كتابه عليه الصلاة و السلام ، كى نقف من ورائها على مدى القيمة الدستورية للمجتمع الإسلامى ودولته الناشئة فى المدينة ، وهذه هى البنود مرتبة حسب ترتيبها فى نص الكتاب نفسه :

1- المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس

2- هؤلاء المسلمون جميعاً على إختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم ، ويفدون عانيهم بالمعروف و القسط بين المؤمنين .

3- إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه فى فداء أو عقل .

4- إن المؤمنين المتقين ، على من بغى منهم أو إبتغى دسيعه ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

5- لا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن .

6- ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس .

7- لا يحل لمؤمن أقر بما فى الصحيفة وآمن بالله و اليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو أن يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله و غضبه يوم القيامة لا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

8- اليهود ينفقون مع اليهود ما داموا محاربين .

9- يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

10- إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

11- كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو إشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله عز وجل و إلى محمد رسول الله.

12- من خرج من المدينة أمن ومن قعد أمن ، إلا من ظلم وأثم .

13- إن الله على أصدق ما فى الصحيفة وأبره ، وإن الله جار لمن بر واتقى .

العبر و الدلائل :

لهذه الوثيقة دلالات هامة تتعلق بمختلف الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامى ونلخصها فيما يلى:

1- إن كلمة الدستور هى أقرب إطلاق مناسب فى إصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة ، وهى إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أى دستور حديث يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة فى الداخل و الخارج : أى فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين . وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحى من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود - حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامى قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت - منذ بزوغ فجرها - على أتم ما قد تحتاج إليه الدولة من المقومات الدستورية و الإدارية ، وظاهر ان هذه المقومات ، أساس لابد منه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى المجتمع . ، إذ هى فى مجموعها إنما تقوم على فكرة واحدة الأمة الإسلامية وما يتعلق بها من البنود التنظيمية الأخرى ، ولا يمكن أن نجد أرضية يستقر عليها حكم الإسلام وتشريعه ما لم يقم هذا التنظيم الدستورى الذى أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أنه فى الوقت نفسه جزء من الأحكام الشرعية نفسها . ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة و التنظيم الدستورى شىء .

وهى أحبولة عتيقة ، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكرى وأرقاء الإستعمار أن يقيدوا بها الإسلام كى لا ينطلق فيعمل عمله فى المجتمعات الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة الى ذلك محصورة فى أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة لا تشريعاً و قوانين ، وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة فى الواقع ، فينبغى أن يتقلب فيصبح غير صالح لذلك ولو بأكاذيب القول .

غير أن هذه الأحبولة تقطعت سريعاً ، لسوء حظ أولئك المحترفين ، وأصبح الحديث عنها من لغو القول ومكشوف الحقد و الضغائن .

ولكن مهما يكن فينبغى أن نقول ، ونحن بصدد تحليل هذه البنود العظيمة : إن مولد المجتمع الإسلامى نفسه إنمكا كان ضمن هيكل متكامل للدولة ، وما تنزلت تشريعاته إلا ضمن قوالب من التنظيم الإجتماعى المتناسق من جميع جهاته و أطرافه ، وهذه الوثيقة أكبر شاهد على ذلك .

وهذا مع غض النظر عن قيمة الأحكام التشريعية نفسها من حيث إنها قطع و أجزاء إذا ضمت الى بعضها تكون منها تنظيم متكامل لبناء دستورى وإدارى عظيم .

2- إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التى غتسمت بها معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تؤتى هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين و اليهود ، لو لم يتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر و الغدر و الخديعة ، فما هى إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التى إلتزموا بها ، فخرجوا على الرسول و المسلمين بألوان من الغدر و الخيانة سنفصل الحديث عنها فى مكانها المناسب إن شاء الله تعالى ، فكان المسلمون بذلك فى حل مما إلتزموا به تجاههم .

3- دلت هذه الوثيقة على أحكام هامة فى الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلى :

أولاً: يدلنا البند الأول منها على أن الإسلام هو وحده الذى يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذى يجعل منهم أمة واحدة ، وعلى أن جميع الفوارق و المميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة ، تفهم هذا جلياً واصحاً فى قوله عليه الصلاة و السلام (المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فاحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس) وهو أول أساس لابد منه لإقامة مجتمع إسلامى متماسك سليم .

ثانياً: يدلنا البند الثانى و الثالث على أن من أهم سمات المجتمع الإسلامى ظهور معنى التكافل و التضامن فيما بين المسلمين بأجلى صوره وأشكاله ، فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم فى شؤون دنياهم وآخرتهم ، وإن عامة احكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس هذه المسؤولية ، وتحدد الطرائق التنفيذية لمبدأ التكافل و التضامن فيما بين المسلمين .

ثالثاً : يدل البند السادس على مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين لا من حيث أنها شعار براق للدعاية و العرض ، بل من حيث إنها ركن من أركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامى ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة ، وحسبك مظهراً لتطبيق هذه المساواة بين المسلمين ما قرره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا البند بقوله :(ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم) ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أياً كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه ، فمن أدخل من المسلمين أحداً فى جواره ، فليس لغيره حاكماً أو محكوماً أن ينتهك حرمة جواره هذا ، والمرأة المسلمة لا تختلف فى هذا عن الرجل إطلاقاً ، فلجوارها - أياً كانت - من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أى إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته ، وذلك بإجماع عامة العلماء وأئمة المذاهب .

روى الشيخان وغيرهما أن أم هانىء بنت أبى طالب ذهبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فقالت : يا رسول الله زعم ابن أمى علىّ أنه قاتل رجل أجرته : فلان ابن هبيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء .

وتستطيع أن تتأمل هذا فتعلم مدى الرفعة التى نالتها المرأة فى حمى الإسلام وظله ، وكيف أنها نالت كل حقوقها الإنسانية و الإجتماعية كما نالها الرجل سواء بسواء ، مما لم يحدث نظيره فى أمة من الأمم غير أن المهم أن تعلم الفرق بين هذه المساواة الإنسانية الرائعة التى أرستها شريعة الإسلام ، والمظاهر التقليدية لها مما ينادى به عشاق المدنية الحديثة اليوم ، تلك شريعة من المساواة الدقيقة القائمة على الفطرة الإنسانية الأصيلة ، يتوخى منها سعادة الناس كلهم نساءً ورجالاً ، أفراداً و جماعات ، وهذه نزوات حيوانية أصيلة يتوخى من ورائها إتخاذ المرأة مادة تسلية ورفاهية للرجل على أوسع نطاق ممكن ، دون أى نظر الى شىء آخر .

رابعاً : يدلنا البند الحادى عشر على أن الحكم العدل الذى لا ينبغى للمسلمين أن يهرعوا الى غيره ، فى سائر خصوماتهم و خلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومهما بحثوا عن الحلول لمشاكلهم فى غير هذا المصدر فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء فى الدنيا وعذاب الله تعالى فى الآخرة .

تلك هى أربع، أحكام إنطوت عليها هذه الوثيقة التى أقام عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية فى المدينة وجعلها منهاجا لسلوك المسلمين فى مجتمعهم الجديد ، وإن فيها لأحكاماً هامة أخرى لا تخفى لدى التأمل و النظر فيها .

ومن تطبيق هذه الوثيقة ،والإهتداء بما فيها ، و التمسك بأحكامها ، قامت تلك الدولة على أمتن ركن وأقوى اساس ، ثم إنتشرت قوية راسخة فى شرق العالم وغربه تقدم للناس أروع ما عرفته الإنسانية من مظاهر الحضارة و المدنية الصحيحة .

القسم الخامس ـ مرحلة الحرب الدفاعية

مقدمة

هذه الغزوات التالية ، التى وضعناها تحت عنوان : مرحلة الحرب الدفاعية ،هى غزوات دفاعية فعلاً ، فكل منها ـ كما سترى ـ ردّ على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون ، ولذلك فهى إنما تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية فى عصره صلى الله عليه وسلم وليست تعبيراً عن الحكم الذى إستقر على اساسه الجهاد فى الإسلام ، إنها ليست إلا دوراً من أدوار الدعوة التى تحدثنا عن قسم منها ، كدورة الدعوة سراً ثم الدعوة المسالمة جهراً .

وسنجد صورة المرحلة الأخيرة التى تشكل مع ما قبلها جملة الحكم الإسلامى فى الأحداث التى تلت صلح الحديبية ، ولقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم الى تلك النرحلة حينما قال لدى منصرفه من غزوة بنى قريظة ، فيما رواه البخارى : الآن نغزوهم ولا يغزوننا .

وإليك الآن أحداث المرحلة الدفاعية فى عمر الدعوة الإسلامية الأولى ، مكتفين منها بذكر ما يتعلق به حكم ، أو يترتب عليه عظة أو درس ، دون أن نعرج الى تفصيلات أو ذكر خىفات تطيل علينا البحث فى غير طائل .

بدء القتال ـ أول غزوة غزاها رسول الله- غزوة بدر الكبرى

قلنا فيما مضى إن صح ما دلت عليه الأحاديث و الآثار أن بدء مشروعية القتال إنما كانت بعد الهجرة ، ولقد وضعت مشروعية هذا الجهاد موضع التنفيذ فى شهر صفر على رأس إثنى عشر شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، فقد حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لأول مرة بقصد الغزو ، وكانت الغزوة إذ ذاك : غزوة ودان ، يريد قريشاً و بنى حمزة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كفى القتال فقد وادعه بنو حمزة ، وعاد النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة بدون قتال .

غزوة بدر الكبرى

وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع بعير تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبى سفيان ابن حرب ، فندب المسلمين إليها ، ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم فى مكة ، فخف بعضهم لذلك و تثاقل آخرون ، إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً فى ذلك .

وتحسس أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه الى مكة ، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ العير ، فأرسل ضمضم ابن عمرو الغفارى الى مكة ليخبر قريشاً بالخبر ويستفزهم للخروج محافظة على أموالهم .

فبلغ الخبر قريشاً ، فتجهزوا سراعاً ، وخرج كل منهم قاصدين الغزو ، حتى إنهم لم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانو قريباً من ألف مقاتل .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه وكانوا فيما رواه ابن إسحاق ، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاص ، وكانت إبلهم سبعين ، يتعاقب على الواحد منها إثنان أو ثلاثة من الصحابة ، وهم لا يعلمون من أمر قريش وخروجهم شيئاً ، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره ، إذ سلك طريق الساحل الى مكة وجعل ماء بدر عن يساره وأخذ يسرع حتى أنجى عيره وتجارته من الخطر

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه خبر مسير قريش الى المسلمين ، فاستشار من معه من أصحابه فتكلم المهاجرون فقالوا كلاماً حسناً ، وكان منهم المقداد ابن عمرو فقد قال : يا رسول الله إمض لما أمرك الله فنحن معك ..... ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ظل ينظر الى القوم ويقول لهم : أشيروا علىّ أيها الناس ، فقال له سعد ابن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أجل ، فقال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع و الطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو إستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ثم قال سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ..... والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم .

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ يتحسس أخبار قريش وعددهم عن طريق العيون التى بثها حتى علم المسلمون أنهم بين تسعمائة وألف ، وأن فيهم عامة زعماء المشركين .

وقد كان أبو سفيان أرسل إليهم أن يرجعوا إلى مكة ، إذ أنه قد أحرز العير ، ولكن أبا جهل أصر على المضى ، وكان مما قال : والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب و بمسيرنا جميعاً فلا يزالون يهابوننا .

ثم إنهم مضوا حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أدنى ماء من مياه بدر ، فقال الحباب ابن المنذر : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى و الحرب و المكيدة ؟ قال: بل هو الحرب و الرأى و المكيدة ، فقال : فإ، هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحول الى المكان و الرأى الذى أشار به الحباب ابن المنذر رضى الله عنه .

واقترح سعد ابن معاذ أن يبنى عريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكون بمأمن فيه رجاء أن يعود سالماً الى من تخلف من المسلمين فى المدينة وأن لا ينكبوا بفقده ، فوافق عليه الصلاة و السلام على ذلك ، ثم أخذ يطمئن أصحابه بتأييد الله ونصره ، حتى أنه كان يقول ، هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان (أى من المشركين) ة وهو يضع يده على الأرض ههنا وههنا ..... فما تزحزح أحدهم فى مقتله عن موضع يده .... !

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يجأر الى الله تعالى بالدعاء مساء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة ..... وظل يناشد الله متضرعا وخاشعاً وهو يبسط كفيه الى السماء حتى أشفق عليه أبو بكر رضى الله عنه ، فالتزمه من ورائه وقال له : يا رسول الله ! أبشر فوالذى نفسى بيده لينجزنّ الله لك ما وعدك ، وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له فى الضراعة ، وفى صبيحة يوم الجمعة لسنتين خلتا من الهجرة بدأ القتال بين المشركين و المسلمين ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريش وقال : شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها فلم يبق رجل إلا إمتلأت عيناه منها ، وأيد الله المسلمين بالملائكة يقاتلون الى جانبهم وانحسر القتال عن نصر كبير للمسلمين ، وقتل فى تلك الموقعة سبعون من صناديد المشركين ، وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً .

وألقيت جثث المشركين الذين صرعوا فى هذه الغزوة ـ وفيهم عامة صناديدهم ـ فى قليب بدر ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفة البئر فجعل يناديهم باسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان ابن فلان ويافلان ابن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ك والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم .

واستشار النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه فى أمر الأسرى ، فاشار عليه أبو بكر رضى الله عنه أن يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين ويتركهم عسى الله أن يهديهم ، وأشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بقتلهم لأنهم أئمة الكفر و صناديده ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم مال الى ما رآه ابو بكر من الرحمة بهم وافتدائهم بالمال ، وحكم فيهم بذلك ، غير أن آيات من القرآن نزلت عتاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وتأييداً للرأى الذى رآه عمر من قتلهم ، وهى من قوله تعالى :(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا .....) الآيات.

العبر و العظات :

تنطوى غزوة بدر الكبرى على دروس و عظات جليلة ، كما تتضمن معجزات باهرة تتعلق بتأييد الله ونصره للمؤمنين المتمسكين بمبادىء إيمانهم ، المخلصين فى القيام بمسؤوليات دينهم ، ونحن نجمل هذه الدلائل و الدروس فيما يلى :

1- يدلنا السبب الأول لغزوة بدر أن الدافع الأصلى لخروج المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن القتال و الحرب ، وإنما كان الدافع قصد الإستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت إشراف ابى سفيان ، غير أن الله تبارك وتعالى أراد لعباده غنيمة أكبر ، ونصراً أعظم ، وعملاً أشرف وأكثر إنسجاماً مع الغاية التى ينبغى أن يستهدفها المسلم فى حياته كلها ، فأبعد عنهمالعير التى كانوا يطلبونها ، وأبدلهم بها نفيراً لم يكونوا يتوقعونه وفى هذا دليل على أمرين :

الأمر الأول : أن عامة ممتلكات الحربيين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة ، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما إمتدت إليه أيديهم منها ، وما وقع تحت يدهم من ذلك إعتبر ملكاً لهم ، وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء ، على أن للمهاجرين اللذين أخرجوا من ديارهم و أبنائهم فى مكة عذراً آخر فى القصد الى أخذ عير قريش و الإستيلاء عليها، وهو محاولة التعويض ـ أو شىء من التعويض ـ عن ممتلكاتهم التى بقيت فى مكة واستولى عليها المشركون من ورائهم .

الأمر الثانى : أنه بالرغم من مشروعية هذا القصد ، فإن الله تبارك وتعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك واليق بوظيفتهم التى خلقوا من أجلها ، ألا وهى الدعوة الى دين الله و الجهاد فى سبيل ذلك ، والتضحية بالروح و المال فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ومن هنا كان النصر العظيم حليف أبى سفيان فى النجاة بتجارته ، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريش فى ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين ، وأن هذه التربية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها فى قول الله تعالى(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد اللح أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون)

2- وعندما نتأمل كيف يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصحابه ليشاورهم فى الأمر الذى فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل ، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة :

الدلالة الأولى :-إلتزامه صلى الله عليه وسلم مبدأ التشاور مع أصحابه ، وإذا إستعرضنا حياته صلى الله عليه وسلم وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ فى كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى ، مما له علاقة بالتدبير و السياسة الشرعية ، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى فى كل ما لم يثبت نص ملزم فيه من كتاب الله أو سنة رسول الله أساس تشريعى دائم لا يجوز إهماله ، أما ما يثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حكمه ، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغى أن يقضى عليه بأى سلطان .

الدلالة الثانية : خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه بعضهم ب (حكم الإمام) . وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل ، حكم تبليغى لا يخضع لأى نسخ أو تبديل ، كما أن أصل مشروعية الصلح و المعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو إجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية .

غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك ، تخضع لظروف الزمان و المكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم ، والميزان المحكم فى ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحكم المتبحر فى أحكام الدين مع إخلاص فى الدين وتجرد فى القصد ، الى جانب إعتماد دائم على مشاورة المسلمين والإستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة .

فإذا رأى الحاكم أن من والخير للمسلمين أن لا يجابهوا اعداءهم بالحرب و القوة ، وتثبت من صلاحية رأيه بالتشاور و المذاكرة فى ذلك ، فله أن يجنح الى السلم معهم لا يصادم نصاً من النصوص الشرعية الثابتة ، ريثما تأتى الظروف المناسبة و الملائمة للقتال و الجهاد ، وله أن يحمل رعيته على القتال و الدفع إذا ما رأى المصلحة و السياسة الشرعية السليمة فى ذلك الجانب .

وهذا ما إتفق عليه عامة الفقهاء ودلت عليه مشاهد كثيرة من سيرته صلى الله عليه وسلم اللهم إلا إذا داهم العدو المسلمين فى عقر دورهم وبلادهم ، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الظروف و الوسيلة ، ويعم الواجب فى ذلك المسلمين و المسلمات كافة بشرط توافر مقومات التكليف .

ثم إن الصحيح الذى إتفق عليه عامة الفقهاء أن هذه الشورى مشروعة ولكنها ليست بملزمة ، أى أن على الحاكم المسلم أن يستنير فى بحثه ورأيه ، ولكن ليس عليه أن يأخذ بآراء الأكثرية مثلاً لو خالفوه فى رأيه ..... ويقول القرطبى فى هذا :(المستشير ينظر فى إختلاف الآراء ، وينظر اقربها الى الكتاب و السنة إن أمكنه ، فإذا أرشده اللهةتعالى الى ما شاء منها عزم عليه وأنفذه متوكلاً عليه) .

3- ولا شك أن الباحث ليتساءل : لماذا لم يقع جواب أبو بكر وعمر و المقداد موقعاً كافياً من نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وظل ينظر فى وجوه القوم ، حتى إذا تكلم سعد ابن معاذ إطمأن و طابت نفسه عند ذاك ؟

والجواب أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان يريد أن يعرف رأى الأنصار بالذات فى ذلك الأمر : ترى هل سيصدرون فى آرائهم وأحكامهم عن المعاهدة التى تمت بينهم و بينه عليه الصلاة و السلام من حيث أنها معاهدة خاصة تستوجب الإلتزام بها ، وإذاً فليس من حقه أن يجبرهم على القتال معه و الدفاع عنه إلا فى داخل المدينة كما تنص على ذلك المعاهدة ، أم سيصدرون عن مشاعرهم الإسلامية ومعاهدتهم الكبرى مع الله تعالى ؟ وإذاً فمن حق الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون الأمين فيهم على هذه المعاهدة ومن واجبهم أن يبذلوا حقوق هذه المعاهدة ويقوموا بمسئولياتها كاملة .

ولدى التأمل فيما أجاب به سعد ابن معاذ ، نعلم أن المبايعة التى إرتبط بها الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة قبل الهجرة ، لم تكن إلا مبايعة مع الله تعالى ، ولم يكونوا يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يهاجر غليهم إلا دفاعاً عن دين الله تعالى وشريعته ، فليست القضية مسالة نصوص معينة إتفقوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها ، وإنما المسألة هى أنهم بذلك إنما وقعوا تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى :(إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ...) ، ولذلك كان جواب سعد ابن معاذ رضى الله عنه : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ..... فامض لما أردت فنحن معك ، أى فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التى إتفقنا عليها معاً فى بيعة العقبة .

4- يجوز للإمام أن يستعين فى الجهاد وغيره بالعيون و المراقبين ، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم و أحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة فى العدة و العدد ، ويجوز إتخاذ مختلف الوسائل لذلك ، بشرط أن لا تنطوى الوسيلة على الإضرار

بمصلحة هى أهم من مصلحة الإطلاع على حال العدو ، وربما إستلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل ، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث أنه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم .

وقد جاء فى كتب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل قريباً من بدر ، ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله النبى صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد و أصحابه وما بلغه عنهم . فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ، فقال عليه الصلاة و السلام : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فقال أذاك بذاك ظ قال :نعم ، فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين وبما قد سمعه من أمر النبى صلى الله عليه وسلم و أصحابه ، حتى إذا فرغ من كلامه قال : فممن أنتما ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء ، ثم إنصرف عنه ، فأخذ الشيخ يقول : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق؟

5- أقسام تصرفاته صلى الله عليه وسلم :

ويدلنا الحديث الذى جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم و الحباب ابن المنذر فى شأن المكان الذى نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد كما رأيت) أن تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم ليست كلها من نوع التشريع ، بل هو فى كثير من الأحيان يتصرف من حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره ، ولا ريب أننا لسنا ملزمين بإتباعه فى مثل هذه التصرفات فمن ذلك نزوله صلى الله عليه وسلم فى المكان الذى إختاره فى هذه الغزوة ، فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه الى غيره ووافقه عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن إستوثق الحباب رضى الله عنه أن إختيار النبى صلى الله عليه وسلم لذلك المكان ليس بوحى من عند الله ومن ذلك كثير من تصرفاته التى تدخل تحت السياسة الشرعية والتى يتصرف فيها النبى صلى الله عليه وسلم من حيث أنه إمام ورئيس دولة لا من حيث انه نبى ورسول يبلغ عن الله تعالى ، مثل كثير من عطاءاته و تدابيره العسكرية ، وللفقهاء تفصيل واسع فى هذا البحث لامجال لعرضه فى هذا المقام .

6- أهمية التضرع الى الله تعالى وشدة الإستعانة به :

لقد رأينا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم ، حتى أنه كان يشير الى أماكن متفرقة من الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة و السلام ، فما تزحزح أحد فى مقتله عن موضع يده كما ورد فى الحديث الصحيح .

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة فى العريش الذى أقيم له يجأر إلى الله تعالى داعياً متضرعاً ، باسطاً كفيه الى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذى وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر الصديق ، والتزمه قائلا : كفى يا رسول الله ، إن الله منجز لك ما وعد ، فلماذا كل هذه الضراعة ما دام أنه مطمئن الى درجة أنه قال : لكأنى أنظر الى مصارع القوم ، وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض ؟

والجواب : أن إطمئنان النبى صلى الله عليه وسلم و إيمانه بالنصر ، إنما كان تصديقاً منه للوعد الذى وعد الله به رسوله ، ولا شك ان الله لا يخلف الميعاد ، وربما أوحى إليه خبر النصر فى تلك الموقعة .

أما الإستغراق فى التضرع و الدعاء و بسط الكف الى السماء ، فتلك هى وظيفة العبودية التى خلق من أجلها أفنسان ، وذلك هو ثمن النصر فى كل حال .

فما النصر- مهما توافرت الوسائل و الأسباب - إلا من عند الله تعالى و بتوفيقه ، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيداً له بالطبع و الإختيار ، وما تقرب متقرب الى الله بصف أعظم من صفة العبودية،وما إستأهل إنسان بواسطة من الوسائط إستجابة دعاء من الله تعالى ، كمن إستأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزىّ ويتبرقع به بين يدى الله تعالى .

وما كل أنواع المصائب و المحن المختلفة التى تهدد الإنسان فى هذه الحياة أو تنزل به ، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته ، وتصرف آماله وفكره الى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته ، كى يفر إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه و عبوديته ، ويستجير به من كل فتنة وبلاء ، وإذا إستيقظ الإنسان فى حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها ، فقد وصل الى الحد الذى أمر الله عباده جميعاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه .

فهذه العبودية التى إتخذت مظهرها الرائع فى طول دعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشدة ضراعته و مناشدته لربه أن يؤتيه النصر ، هى الثمن الذى إستحق به ذلك التاييد الإلهى العظيم فى تلك المعركة ، وقد نصت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، ويقينا منه صلى الله عليه وسلم بهذه العبودية لله عز وجل ، كان واثقاً بالنصر مطمئناً الى أن العاقبة للمسلمين ، ثم قارن مظهر هذه العبودية التى تجلت فى موقفه صلى الله عليه وسلم ونتائج ذلك ، مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر الذى تجلى فى موقف أبى جهل حينما قال : لن نرجع حتى نرد ماء بدر فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب و بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ، ونتائج ذلك التجبر و الجبروت ... !

لقد كانت نتيجة العبودية و الخضوع لله تعالى عزة قعساء ومجداً شامخاً خضع لهما جبين الدنيا باسرها ، ولقد كانت نتيجة الطغيان و الجبروت الزائفين قبراً من الضيعة و الهوان أقيم لأربابهما حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان ، وتلك هى سنة اله فى الكون كلما تلاقت العبوديةلله حالصة مع جبروت و طغيان زائفين .

7- الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر :

إنطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد و النصر للمسلمين الصادقين ، فقد أمدّ الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم ، وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب و السنة الصحيحة ، روى ابن هشام أن النبى صلى اله عليه وسلم خفق خفقة فى العريش ثم إنتبه فقال :(أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع) ورواه البخارى أيضاً بلفظ قريب منه .

ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة فى بيان الله عز وجل ليس المقصود به ما يتوهمه البعض من المدد الروحى أو القوة المعنوية أو نحو ذلك - أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطلان هذا الوهم ، ضبط البيان الإلهى الملائكة بعدد محدود وهو الألف ، فى قوله تعالى :(فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل فى الأشياء ، ولا يكون ذلك إلا فى الأشياء المادية المحسوسة .

ومن هنا نعلم أن تقييد ا لبيان الإلهى الملائكة بعدد معين ينطوى على حكم باهرة من أجلها قطع السبيل على من يريد تناول الآية ، ويفسر الملائكة بالمعنى الذى يروق له وهو مجرد الدعم المعنوى .

ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ، إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم ، واستجابة حسية لشدة إستغاثتهم إقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال فى سبيل الله ، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم فى العدة و العدد ،وإلا فإن النصر من عند الله وحده ، وليس للملائكة أى تأثير ذاتى فى ذلك ، ومن أجل بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى معللا نزول الملائكة :(وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) .

8- الحياة البرزخية للأموات :

فى وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على فم القليب ينادى قتلى المشركين ويكلمهم بعدما ماتوا ، وفيما قاله لعمر رضى الله عنه إذ ذاك ، دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به ، لا ندرى حقيقتها ولا كيفيتها ، وأن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم ، ومن هنا يتصور معنى عذاب القبر و نعيمه ، غير أن ذلك كله إنما يخضع لموازين لا تنضبط بعقولنا وإدراكاتنا النيوية هذه ، إذ هو مما يسمى بعالم الملكوت البعيد عن مشاهداتنا و تجاربنا العقلية و المادية ، فطريق الإيمان بها إنما هو التسليم لها بعد أن تصلنا بطريق ثابت صحيح .

9- ثم إن مسألة الأسرى ومشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنهم ، وما أعقبه من حكم إفتدائهم بالمال ثم نزول آيات تعتب على النبى صلى اله عليه وسلم وعلى أصحابه إتخاذ مثل ذلك الحكم - نقول إن هذه المسالة لها دلالات مختلفة هامة :

أولا :_ الأسرى واجتهاد الرسول ، دلتنا هذه الواقعة على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا الى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - إستدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر ، وإذا صح للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد ، صح منه بناءاً على ذلك أن يخطىء فى الإجتهاد ويصيب ، غير أن الخطأ لا يستمر ، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له إجتهاده ، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن إجتهاده صلى الله عليه وسلم قد وقع على ما هو الحق فى علم الله تعالى .

ثانياً:- كما أن غزوة بدر هى أول تجربة للمسلمين فى التضحية و القتال فى سبيل الله تعالى وهم على ما كانوا عليه من الضعف والقلة ، فكذلك هى أول تجربة لهم فى رؤية الغنائم والأموال أمامهم فى أعقاب المعركة ، وهم على ما كانوا عليه من الفقر و الحاجة ، وقد عالجت الحكمة الإلهية تجربة القتال مع الضعف بأن ثبّت الله قلوبهم وطمأن نفوسهم - كما ذكرنا - بالخوارق الدالة على النصر .

ثم عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم و الأموال مع الحاجة و الفقر ، بوسائل تربوية دقيقة ، جاءت فى وقتها المناسب ، وقد تجلى أثر هذه التجربة فى مشهدين على أعقاب هذه الغزوة :

أما المشهد الأول : فحينما إنهزم المشركون وتركوا وراءهم أموالهم المختلفة ، فقد تسابق بعض المسلمين إليها واختلفوا مع بعضهم فى كيفية إستحقاقهم لها وكادوا يشتجرون على ذلك ، ولم يكن قد نزل بعد حكم توزيع الغنائم بين المقاتلين فراحوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم وينهون إليه خصومتهم فى الأمر وعندئذ نزل قول الله تعالى :(يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا اله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) .

فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم ، بل فيهما صرف لهم عن الموضوع كله ، لأن الأنفال ليست لأحد منهم ، بل هى لله و الرسول ، أما هم فعليهم إصلاح هذا الشقاق الذى وقع بينهم و إطاعة اله فى أوامره واجتناب نواهيه ، فتلك هى وظيفتهم ، أما المال و الدنيا ، فليعتمدوا فيهما على الله تعالى ، فلما ثاب هؤلاء المسلمون الى هدى هاتين الآيتين وصرفوا النظر عما إشتجروا من أجله نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنائم بين المقاتلين على إختلافهم ، وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة كما ترى .

وأما المشهد الثانى : فهو عندما تشاور الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى شأن الأسرى فقد سكنت نفوسهم إلى إفتدائهم بالمال ، وقد كانت الملاحظة فى ذلك هى الجمع بين الرحمة و الرفق بالأسرى ، عسى أن يرعووا ويؤمنوا بالله ، و العويض عما فات المهاجرين من أموالهم التى تركوها فى مكة عسى أن يقع موقعاً لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم ، وهذا الرأى الذى سكنت إليه نفس النبى صلى الله عليه وسلم يدل على مدى شفقته على أصحابه ، وهذه الشفقة هى التى جعلت

يده ترتفع بالدعاء للمهاجرين لما رآهم لدى خروجهم الى بدر ، وأن علائم الحاجة و الفقر بادية عليهم قائلاً :
(اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم وإنهم جياع فأشبعهم).
ولكن الخكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة الى المال ميزاناً أو جزء ميزان للحكم فى قضاياهم الكبرى التى قامت على أساس النظرة الدينية وحدها مهما كانت الحال و الظروف ، إذ يوشك لو تركوا هذه النظرة وهم أمام أول تجربة من هذا النوع أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطردة فتستولى النظرة المادية على مثل هذه الأحكام التى ينبغى أن تظل متسامية فى علياء لا يطولها شىء من أغراض الدنيا على إختلافها ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا أشواطاً واستطاب مذاقها أن يرتد عنها ويفطم نفسه عن مذاقها .
روى مسلم عن عمر ابن الخطاب أنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن قضى بإفتداء الأسرى فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله لعيه وسلم أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من النبى صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل :(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) الى قوله (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) .

بنو قينقاع وأول خيانة يهودية للمسلمين

قال ابن إسحاق : كان من أمر بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق قينقاع ثم قال : يا معشر اليهود ، إحذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله إليكم ، قالوا : يامحمد إنك ترى أنا كقومك ؟! .... لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنا نحن الناس .
وروى ابن هشام عن عبد الله ابن جعفر ابن المسور ابن مخرمة عن أبى عوانة أن إمرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق قينقاع وجلست الى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها ، فعقده الى ظهرها فلما قامت إنكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على يهود ، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع ، فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فيما رواه الطبرى و الواقدى فى منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة .
فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن ، حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله ابن أبى ابن سلول فقال : يا محمد ، أحسن فى موالىّ ! فلم يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرر ثانية فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأدخل يده فى جيب درعه صلى الله عليه وسلم فقال له : أرسلنى ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال له : ويحك أرسلنى ، قال : لا والله حتى لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر و الأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى أذرعات الشام ، وهلك أكثرهم فيها . وكان لعبادة ابن الصامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل ما لعبد الله ابن أبى ، فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : إننى أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ، ففيهما نزل قوله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين

فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) .

العبر و العظات :

هذه الواقعة تدل فى جملتها ، على مدى ما ركّب فى اليهود من طبيعة الغدر و الخيانة ، فلا تروق لهم الحياة مع من يجاورونهم أو يخالطونهم إلا بأن يبيتوا لهم شراً أو يحيكوا لهم غدراً ، وهم على أتم إستعداد لأن يخلقوا جميع الوسائل و الأسباب لذلك ، ولدى دراستنا التفصيلية لهذه الحادثة نخرج بدروس ومبادىء نجملها فيما يلى :

أولا :- حجاب المرأة المسلمة : لقد رأينا أن مصدر الحادثة هو إرادة اليهود المرأة العربية المسلمة على كشف وجهها ، وذلك حينما دخلت فى سوقهم لأمر يخصها ..... ولا تنافى بين هذا السبب الذى رواه ابن هشام و السبب الآخر الذى رواه بقية رواة السيرة من حقدهم على المسلمين عقب إنتصارهم فى غزوة بدر وقولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس ، فالأغلب أن السببين واقعان معاً وكل منهما متمم للآخر ، إذ من البعيد أن ينبذ إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدهم لمجرد ظهور بوادر الضغينة على وجوههم وفى كلماتهم ، بل لابد أنهم قد تصرفوا مع ذلك تصرفاً أساؤوا فيه الى المسلمين على نحو ما رواه ابن هشام .

وهو يدل على أن الحجاب الذى شرعه الإسلام للمرأة سابغ للوجه أيضاً ، وإلا لم يكن هنالك أى حاجة الى أن تسير فى الطريق ساترة وجهها ، ولو لم يكن سترها لوجهها تحقيقاً لحكم دينى يأمرها بذلك ، لما وجد اليهود ما يدفعهم الى ما صنعوا ، لأنهم إنما أرادوا من ذلك مغايظة شعورها الدينى الذى كان يبدو جلياً فى مظهرها .

وقد يقال : إن هذه القصة التى تفرد بها ابن هشام بعض اللين ، فلا تقوى على الدلالة على مثل هذا الحكم ، إلا أن يشهد لها أحاديث كثيرة أخرى ثابتة لا مجال للطعن فيها .

فمن ذلك ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها ، فى باب ما يلبس المحرم من الثياب ، قالت : لا تلثم- أى المرأة - ولا تتبرقع ولا تلبس ثوباً بورس ولا زعفران .

ومثله ما رواه مالك فى الوطأ عن نافع عن عبدالله ابن عمر كان يقول : لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين . فما معنى نهى المرأة عن أن تتبرقع أو تنتقب أثناء الإحرام بالحج ، ولماذا كان هذا النهى خاصاً بالمرأة دون الرجل ؟ لا شك أن النهى فرع عما كانت تفعله المسلمة إذ ذاك من الإنتقاب وإسدال البرقع على وجهها ، فاقتضى الحكم إستثناء ذلك فى الحج .

ومنه ما رواه مسلم وغيره من حديث فاطمة بنت قيس أنها لما طلقها زوجها ، فبت طلاقها أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتدّ فى بيت أم شريك ، ثم أرسل إليها أن بيت أم شريك يغشاه أصحابى (أى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) فاعتدى فى بيت ابن عمك ابم أم مكتوم فإنه ضرير البصر وإنك إذا وضعت خمارك ام يرك .

هذا من حيث ما ورد من الأدلة على وجوب ستر المرأة وجهها وبقية جسمها عن الرجال الأجانب ، أما من حيث الدليل على حرمة نظر الرجل الى ذلك منها ، فقد وردت بذلك أحاديث كثيرة ايضاً

فمن ذلك ما رواه أحمد و أبو داود و الترمذى عن بريرة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ :(يا علىّ لاتتبع النظرة النظرة ، فإنما الأولى لك وليست لك الآخرة) ومن ذلك ما رواه البخارى عنن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم أردف الفضل ابن العباس يوم النحر خلفه - وفيه قصة المرأة الخثعمية الوضيئة - فطفق الفضل ينظر إليها ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بذقن الفضل فحول وجهه عن النظر إليها .

فأنت ترى أنه قد إجتمع فى هذه الأحاديث نهيان : نهى المرأة عن كشف وجهها أو شىء مما سواه أمام الأجانب ، ونهى الرجل عن النظر الى ذلك منها ، وفى ذلك دلالة وافية متكاملة على أن وجه المراة عورة فى حق الأجانب عنها إلا فى حالات خاصة

مستثناه كضرورة التطبيب و التعلم و الشهادة ونحو ذلك .

على أن من أئمة المذاهب من ذهب الى أن الوجه و الكفين من المرأة ليسا بعورة ، فلا يجب سترهما وحملوا ما سبق من الأحاديث الدالة على خلاف ذلك على الندب دون الوجوب ، غير أن الجميع إتفقوا على أنه لا يجوز النظر الى شىء من جسد المرأة بشهوة ، وعلى أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها إذا عم الفسق واصبح أكثر الذين ينظرون إليها فساقاً يتأملونها بنظرات محرمة .

وإذا تأملت فى حال المسلمين اليوم وما عم فيه من الفسق و الفجور وسوء التربية و الأخلاق ، علمت أنه لا مجال للقول بجواز كشف المرأة وجهها و الحالة هذه ، إن هذا المنحدر الخطير الذى يسير فيه المجتمع الإسلامى اليوم يقتضى ـ لضمان السلامة و الحفظ ـ مزيداً من الحذر فى السير ومزيداً من التشدد فى أسباب الحيطة ريثما يتجاوز المسلمون المرحلة ويصبحون قادرين على إمتلاك أمرهم وضبط أزمتهم ب بأيديهم ، وبعبارة موجزة نقول : إن من شأن إتباع الرخص و التسهيلات الدينية أن تصبح منزلقاً ، تحت أقدام أصحابها الى التحلل العام عن أصل الواجبات ، ما لم يوجد تيار إجتماعى دينى سليم يضبط تلك الرخص ضمن منهج إسلامى عام ويحفظها عن أن تشتط وتتجاوز الحدود المشروعة .

ومن أعجب أمر بعض الناس أنهم يتعلقون بهذا الذى يسمونه : تبدل الأحكام بتبدل الأزمان فى مجال التخفيف والتسهيل و السير مع مقتضيات التحلل من الواجبات فقط ، ولكنهم لا يتذكرون هذه القاعدة إطلاقاً عندما يقتضيهم الأمر عكس ذلك ، وأنا فلست أجد مثالاً تتجلى فيه ضرورة تبديل الأحكام بتبدل الأزمان مثل ضرورة القول بوجوب ستر المرأة وجهها نظراً لمقتضيات الزمن الذى نحن فيه ، ونظرا لما تكاثر فيه من المنزلقات التى تستوجب مزيداً من الحذر فى السير وتبصر مواقع الأقدام ريثما يهىء الله للمسلمين مجتمعهم الإسلامى المنشود .

ثانياً :ـ هذه الحادثة التى صدرت من يهود قينقاع ، تدل على حقد دفين فى صدورهم على المسلمين ، ولكن لماذا تأخرت دلائل هذا الحقد فى الظهور و الإنكشاف خلال ثلاث سنين من الزمن إستطاع اليهود خلالها أن يكظموا حقدهم ويبطنوا كيدهم ؟

و الجواب : أن الذى ألهب مشاعرهم وأثار الحقد الدفين فى نفوسهم إنما هو ما وجدوه من إنتصار المسلمين فى بدر ، وهو أمر لم يكونوا يتوقعونه بحال ، فضاقت صدورهم بما إحتوته من الغيظ و الأحقاد ولم يجدوا إلا إن ينفسوا عنها بمثل هذا الذى أقدموا عليه ، بل إن حقدهم على المسلمين تجلّى صراحة فيما رويناه من كلامهم وتعليقاتهم على إنتصار المسلمين فى غزوة بدر : روى ابن جرير أن مالك ابن الصلف ـ أحد يهود المدينة ـ قال لبعض المسلمين عند رجوعهم من بدر : أغركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ؟ أما لو أسررنا نحن العزيمة أن نستجمع عليكم ، لم يكن لكم يد على قتالنا .....

ولو أن اليهود إحترموا ما بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق ، لما وجدوا من المسلمين من يسىء إليهم بكلمة أو يزعجهم فى مسكن أو مقام ، ولكنهم أبوا إلا شراً ، فكان مرد الشر على أنفسهم .

ثالثاً : معاملة المنافق فى الإسلام

هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله ابن أبى ابن سلول عن اليهود بالشكل الذى رأيناه ، لا تكاد تخفى من أمر نفاق هذا الرجل شيئاً ، فقد إتضح من موقفه ذاك أنه كان يصطنع الإسلام نفاقا ، وأنه فى أعماق قلبه إنما يضمر شراً بالإسلام و أهله .

غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامله مع ذلك كله على أنه مسلم ، فلم يخفر ذمته ، ولم يعامله معاملة المشرك أو المرتد أو الكاذب فى غسلامه ، وأجابه الى ما أصر و ألحّ فى طلبه ، وذلك يدل ـ كما أجمع العلماء ـ على أن المنافق إنما يعامل فى الدنيا من قبل المسلمين على انه مسلم يعامل كذلك ، وإن كان نفاقه مقطوع به ، وسبب ذلك أن الأحكام الإسلامية فى مجموعها تتكون من جانبين : جانب يطبق فى الدنيا ويكلف المسلمون بتطبيقه على مجتمعاتهم وفيما بينهم ، ويشرف على ذلك الخليفة أو رئيس الدولة ، وجانب آخر يطبق فى الآخرة ويكون أمره عائد الى الله تعالى .

فأما الجانب الأول فيقوم أمره على الأدلة القضائية المادية و المحسوسة بحيث لا يترتب شىء من نتائج الأحكام إلا بموجبها ، فليس للأدلة الوجدانية و القرائن الإستنتاجية أى أثر فى هذا الجانب .

وأما الجانب الثانى : فيقوم على ما إستقر فى القلوب واستكن فى الصدور ومردّ القضاء فى ذلك الى الله تعالى ، ولبيان هذه القاعدة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى عن عمر رضى الله عنه :(إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم) ، ويقول فيما رواه الشيخان :(إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما هو قطعة من النار .

و الحكمة من مشروعية هذه القاعدة ، أن تظل العدالة بين الناس فى مأمن من التلاعب بها و النيل منها إذ ربما إتخذ بعض الحكام من حجية الأدلة الوجدانية و الإستنتاجية وحدها ذريعة الى الإضرار ببعض الناس بدون حق .

وتطبيقا لهذه القاعدة الشرعية ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم إطلاعه على كثير من أحوال المنافقين وما تسره أفئدتهم ، بوحى من الله تعالى ، يعاملهم معاملة المسلمين دون أى تفريق فى الأحكام الشرعية العامة .

وهذا لا ينافى أن يكون المسلمون فى حذر دائم من المنافقين ، وأن يكونوا فى يقظة تامة أمام تصرفاتهم ، فذلك من الواجبات البدهية على المسلمين فى كل ظرف ووقت .

رابعاً : ولاية غير المسلمين

وإذا تأملنا فى النتيجة التشريعية لهذه الحادثة وهى الايات القرآنية التى نزلت تعليقاً عليها ، علمنا أنه لا يجوز لأى مسلم أن يتخذ من غير المسلم ولياً له ، أى صاحباً تشيع بينهما مسؤولية الولاية و التعاون .

وهذا من الأحكام الإسلامية التى لم يقع خلاف فيها بين المسلمين ، إذ الآيات القرآنية الصريحة فى هذا متكررة و كثيرة ، والأحاديث النبوية فى تأكيد ذلك تبلغ مبلغ التواتر المعنوى ، ولا مجال هنا لسرد هذه الأدلة فهى معروفة غير خفية على الباحث .

ولا يستثنى من هذا الحكم إلا بحالة واحدة ، هى ما إذا ألجىء المسلمون الى هذه الموالاة بسبب شدة الضعف التى قد تحملهم كرهاً على ذلك ، فقد رخص الله فى ذلك إذ قال :(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة) آل عمران 28 .

وينبغى أن نعلم أن النهى عن موالاة غير المسلمين لايعنى الأمر بالحقد عليهم ، فالمسلم منهى أن يحقد على أحد من الناس ، وينبغى أن تعلم أن هنالك فرقاً كبيراً بين ان يغضب الإنسان على أحد لله تعالى ، وأن يحقد عليه . أما الأولى فمصدره منكر لا يرضى عنه الله تعالى يستوجب من المسلم أن يغضب على فاعله بسببه ، وأما الثانى فمصدره ذات الشخص نفسه ، بقطع النظر عن تصرفاته و أعماله ، وهو ما نهى عنه الإسلام .

و الغضب لله ليس فى حقيقته إلا نتيجة شفقة على العاصى أو الكافر المستحق لذلك إذ أن المؤمن من شأنه أن يحب لجميع الناس ما يحبه لنفسه ، وليس شىء أحب الى نفس المؤمن من أن يخلصها من عذاب يوم القيامة ويضمن لها السعادة الأبدية ، فهو إذ يغضب على العصاة و الكافرين إنما يحمله على ذلك الغيرة عليهم والتأثر لما عرضوا أنفسهم له من الشقاء الأبدى وعقاب الله تعالى فى الآخرة ، وأنت خبير أن هذا ليس من الحقد فى شىء إلا إذا صح أن يكون غضب الأب على إبنه أو الأخ على أخيه من أجل مصلحته وسعادته حقداً .

ولا ينافى هذا مشروعية القسوة فى معاملة الكافرين فى كثير من الأحيان فكثيراً ما تكون القسوة هى الوسيلة الوحيدة للإصلاح و هى النتيجة التى لابد منها للشفقة و الرحمة كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقس أحياناً على من يرحم

كذلك ينبغى أن تعلم أن النهى عن موالاة الكافرين لا يستدعى جواز التساهل فى تحقيق مبدأ العدالة معهم واحترام المعاهدات التى قد تكون قائمة بين المسلمين و بينهم ، فالعدالة ينبغى لها أن تكون مطبقة دائما ، وليس للكراهية و الغضب فى الله تعالى أن يقفا حاجزاً دون تحقيق مبادىء العدالة يوماً ما ، وفى ذلك يقول الله تعالى :(ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى) ، إنما المقصود أن تعلم أن المسلمين دون غيرهم أمة واحدة ، كما نصت على ذلك الوثيقة التى شرحناها فيما مضى ، وإذا كان كذلك ، فإن ولاءهم وتآخيهم ينبغى أن يكو ن ومحصورين فيما بينهم ، أما معاملتهم فينبغى أن تكون قائمة مع الناس كلهم على أساس دقيق من العدل ورغبة الخير للجميع و الدعاء للناس جميعاً بالصلاح والرشد .

غـزوة أحــد

سببها أن بقية من زعماء قريش ممن لم يقتلوا فى غزوة بدر ، إجتمع رأيهم على الثأر لقتلاهم فى بدر ، وأن يستعينوا بعير أبى سفيان وما فيها من أموال لتجهيز جيش قوى لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعت كلمة قريش على ذلك ، وانضم غليهم غيرهم أيضاً ممن يسمّون بالأحابيش ، واستعانوا بعدد كبير من النسوة كى يمنعن الرجال من الفرار إذا أحدق بهم المسلمون ، وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخبر فاستشار أصحابه وخيرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم ، والبقاء فى المدينة ، فإن دخلوا عليهم فيها قاتلوهم ، فكان رأى بعض الشيوخ من المسلمين عدم الخروج و البقاء فى المدينة ، وكان عبد الله ابن أبى ابن سلول من أصحاب هذا الرأى ، غير أن كثير من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال فى بدر رغبوا فى الخروج ، وقالوا : يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرونا أنّا جبنّا عنهم وضعفنا ..... ولم يزل أصحاب هذا الرأى برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا ، فدخل فلبس درعه وأخذ سلاحه وظن الذين الحّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد إستكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : إستكرهناك يا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته (أى درعه) أن يضعها حتى يقاتل .

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة فى ألف من أصحابه ، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس إثنين وثلاثين شهراً من هجرته صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد إنخذل عبد الله ابن أبى بثلث الجيش - وعامتهم من شيعته وأصحابه - وكرّ راجعاً بهم وهو يقول : عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له ، وما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟

وتبعهم عبد الله ابن حرام يناشدهم الله أن لا يخذلوا نبيهم ، فلم يستجيبوا لندائه ، وقال زعيمهم :(لو نعلم قتالاً لاتبعناكم) وروى البخارى رضى الله عنه أن المسلمين إختلفوا فى أمر هؤلاء الذين إنخذلوا عن المسلمين ، ففرقة منهم تقول نقاتلهم ، وأخرى تقول دعوهم ، فنزل فيهم قوله تعالى :(فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله) .

واقترح بعض الصحابة الإستعانة باليهود ، بناءاً على ما بينهم من ميثاق التناصر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك) .

وعسكر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه - وهم لا يزيدون على سبعمائة مقاتل - فى الشعب فى أحد فجعل ظهور المسلمين إلى أحد واستقبلوا المدينة ، وجعل على الجبل خلف المسلمين خمسين رامياً ، وأمّر عليهم عبد الله ابن جبير وأوعز إليهم قائلا :(قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد إنتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا) .

وألحّ كل من رافع ابن خديج وسمرة ابن جندب أن يشتركا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى القتال وهما إبنا خمس عشرة سنة ، فردهما النبى لصغر أسنانهما ، فقيل له : يا رسول الله إن رافعاً رام ، فأجازه ، فجاء سمرة ابن جندب يقول : فأنا والله أصرع رافعاً ، فأجازه هو أيضاً .

وأمسك النبى صلى الله عليه وسلم بسيف وقال من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخرج أبو دجانة عصابة حمراء فعصب بها رأسه (وكان ذلك شأنه عندما يريد أن يقاتل حتى الموت) ثم راح يتبختر بين الصفوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن ثم اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء لمصعب ابن عمير رضى الله عنه ، وكان الذى يقود ميمنة المشركين خالد ابن الوليد ، وميسرتهم عكرمة ابن أبى جهل . فاقتتل الناس وحميت الحرب ، وراح المسلمون يحسون المشركين فى إندفاع مذهل ، وكان فى مقدمة المبارزين و المقاتلين ابو دجانة ،وحمزة ابن عبد المطلب ومصعب ابن عمير .

وقتل مصعب ابن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ اللواء على ابن أبى طالب رضى الله عنه وما هو إلا أن أنزل الله نصره على المسلمين فانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شىء ونساؤهم يدعون بالويل ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون ، فتكلم الرماة الذين كانوا يرابطون على الجبل فى النزول ، واختلفوا فيما بينهم ، فنزل كثير منهم ظناً منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وراحوا يأخذون مع أصحابهم الغنائم ، وثبت رئيسهم عبد الله ابن جبير مع عدد يسير قائلا : لا أجاوز أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظر خالد ابن الوليد الى خلاء الجبل وقلة أهله فكرّ راجعاً بالخيل وتبعه عكرمة فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وأميرهم ,اخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف .

وحينئذ إنكشف المسلمون وداخلهم الرعب ، وأخذ المسلمون يقتتلون على غير شعار أو هدى وأوجع المشركون فى المسلمين قتالاً ذريعاً حتى خلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بالحجارة حتى رمى لشقه ، وأصيبت رباعيته (السن المجاورة للناب) وشج فى وجهه ، وجعل الدم يسيل على وجهه فيمسحه وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ وجاءت فاطمة رضى الله عنها تغسل عنه الدم وعلى يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ثم ألصقته بالجرح فاستمسك .

وأثناء ذلك شاع فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وكانت هذه الشائعة من أشد ما أدخل الرعب فى قلوب بعض المسلمين ، وهى التى جعلت ضعاف الإيمان يقولون : فما مقامنا هنا إذا كان قد قتل الرسول ؟ وذهبوا يولون الأدبار ، وهى التى جعلت أنس ابن النضر يقول : بل ما فائدة حياتكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اشار الى المنافقين وإلى ضعاف الإيمان قائلاً : الله إنى أبرأ إليك مما يقول هؤلاء ، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وانطلق فشد بسيفه على المشركين حتى قتل .

وتجلى فى هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية و الفداء ممن كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل معظمهم .

روى البخارى أنه لما كان يوم أحد ، إنهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ،وأبو طلحة بين يدى النبى مجوّب عليه (مترس بنفسه عليه) بجحفة له (ترس من جلد) وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع ، يشرف النبى صلى الله عليه وسلم ينظر الى القوم فيقول أبو طلحة :ز بأبى أنت وأمى لاتشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك .

وترّس أبو دجانة نفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبل يتلاحق فى ظهره وهو منحن على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتحول ، وترّس زياد ابن السكن نفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل هو وخمسة من أصحابه ، وكان آخرهم على ما رواه ابن هشام عمارة ابن يزيد ابن السكن ، فقاتل دونه صلى الله عليه وسلم حتى أثبتته الجراح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادنوه منى ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن الحرب هدأت بين الطرفين وانحسر المشركون منصرفين ، وقد زهوا بالنصر الذى أحرزوه ، وفزع الناس لقتلاهم ، وكان فيهم حمزة ابن عبد المطلب ، واليمان وأنس ابن النضر ، ومصعب ابن عمير وعدد كبير غيرهم ، وقد تأثر النبى صلى الله عليه وسلم لمقتل عمه تأثراً كبيراً ، وقد مثّل به ، فبقر بطنه وجدع أنفه وأذناه ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من القتلى فى ثوب واحد ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير له إلى أحدهم قدمه فى اللحد ، وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلوا .

وأخذ اليهود و المنافقون يظهرون الشماتة بالمسلمين ، وراح عبد الله ابن أبى ابن سلول يقول هو وأصحابه للمسلمين : لو أطعتمونا ما قتل منكم من قتل ، وأخذوا يتساءلون عن النصر الذى كانوا يتوهمونه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى آيات من سورة آل عمران تعليقاً على إرجاف اليهود و المنافقين وبياناً لحكمة ما حصل فى غزوة أحد ، وهى تبدأ بقوله تعالى :(وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) الى قوله تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد مساء السبت ، فبات تلك الليلة فى المدينة هو وأصحابه ، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوم الأحد ، أمر بلالاً أن ينادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ..... ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه الى علىّ رضى الله عنه وخرج القوم وهم ما بين مجروح وموهون ة ومشجوج حتى عسكروا بحمراء الأسد (مكان من المدينة على بعد عشرة أميال) فأوقد المسلمون هناك نيراناً عظيمة ، حتى ترى من المكان البعيد وتوهم كثرة أصحابها .

ومرّ بهم معبد ابن معبد الخزاعى (وكان يومئذ من مشركى خزاعة) ثم تجاوزهم فمرّ على المشركين ولهم زجل و مرح وزهو بالنصر الذى لاقوه فى أحد ، وهم يأتمرون بالرجوع الى المدينة للقضاء على المسلمين ، وصفوان ابن أمية ينهاهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ فقال : ويحكم ! إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط .... فأدخل الله بذلك رعباً عظيماً فى قلوب المشركين ، وهبّوا مسرعين عائدين الى مكة .

وأقام النبى صلى الله عليه وسلم فى حمراء الأسد : الإثنين و الثلاثاء و الأربعاء ، ثم رجع الى المدينة .

العبر و العظات :

تنطوى غزوة أحد على دروس بالغة الأهمية للمسلمين فى كل عصر ، ولكأن الحكمة من وقوعها على الشكل الذى بيّناه ، أن يتكون منها درس تطبيقى عملى ، يعلم المسلمين كيفية البلوغ الى النصر فى معاركهم مع العدو ، وكيفية التحرز من مزالق الفشل و الهزيمة ، فلنقف على هذه الدروس العظيمة ولنتأمل فيها الواحدة إثر الأخرى :

أولاً:- يتجلى هنا أيضاً المبدأ الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ به نفسه ، وهو إلتزام التشاور مع أصحابه فى كل أمر يحتمل المشاورة و البحث ، ولكنا نقف هنا على فارق واحد لم نجده فى المشاورة قبيل غزوة بدر ، فقد لا حظنا أنه عليه الصلاة و السلام لم يشأ أن يعود عن موافقته لأصحابه الذين إقترحوا الخروج للقاء العدو خارج المدينة ، بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال ، رغم أنهم ندموا وعادوا عن رأيهم ورجوه البقاء إذا كان يرى ذلك وربما كان النبى صلى الله عليه وسلم يميل أو يظهر الميل - عند التشاور الى البقاء فى المدينة .

ولعل الحكمة الجليلة فى هذا ، أن البحث فى الأمر بعد أخذ العدة للقتال ، وبعد ظهور النبى صلىالله عليه وسلم فى قومه وأصحابه لابساً دروعه آخذا سلاحه - شىء خارج عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور خصوصاً فى القضايا الحربية التى تحتاج - مع

المشورة - الى قدر كبير من الحزم و العزم ، ثم إن المعنى الذى قد يتولد عن تقاعسه صلى الله عليه وسلم عن الخروج بعد أن طلع عليهم مستعداً لذلك ، إنما هو الضعف و الإضطراب فى الإرادة وهو كثيراً ما يكون نابعاً من الخوف و الحذر الذى لا معنى له ،ولذلك أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم على كلامهم بعبارة فيها كل الحزم و العزم ، دون أن يلتفت الى لغط القوم وتعاقبهم فيما بينهم ، قال :(ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل) .

ثانياً:- للمنافقين فى هذه الغزوة مشهد بارز ..... ولم لا يكون مشهدهم بارزاً فيها ، وهى إنما إنطوت على حكم و مقاصد ، من أهمها تمحيص المؤمنين عن أخلاطهم من المنافقين ؟ وإن من وراء ذلك لفوائد كبيرة للمسلمين كانت ذخراً لهم فيما بعد .

لقد رأينا كيف إنخذل عبد الله ابن أبى ابن سلول بثلاثمائة من أتباعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه ، بعد خروجهم من المدينة ، وسبب ذلك فى ظاهر ما تذرع به : أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخذ برأى الشباب الأغرار ، ولم يأخذ برأى أمثاله من الشيوخ أرباب الحجى و الأحلام ، غير أن سبب ذلك فى الحقيقة وواقع الأمر ، هو أنه لا يريد قتالاً ، لأنه لا يريد ان يعرض نفسه لمخاوفه ومغباته وتلك هى أبرز سمات المنافقين : يريدون أن يأخذوا ما فى الإسلام من مغانم ، ويبتعدوا عما فيه من مغارم و أتعاب ! ..... و إنما الذى يمسكهم على الإسلام أحد شيئين : غنيمة يتوقعونها ، أو مصائب ومحن يتوقونها .

ثالثاً:- أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشأ يستعين بغير المسلمين فى هذه الغزوة ، رغم قلة عدد المسلمين ، وقال فيما يرويه ابن سعد فى طبقاته :(لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك) ، وقد روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل تبعه فى يوم بدر ليقاتل معه : أتؤمن بالله ؟ قال لا ، قال : فارجع فلن أستعين بمشرك .

وقد ذهب جمهور كبير من العلماء ، بناءً على هذا ، الى أنه لا يجوز الإستعانة بالكفار فى القتال ، وفصّل الإمام الشافعى فى ذلك ، فقال : إن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأى و الأمانة فى المسلمين وكانت الحاجة داعية الى الإستعانة به ، وإلا فلا .

ولعل هذا هو المتفق مع القواعد ومجموع الأدلى ، إذ روى أنه عليه الصلاة و السلام قبل معونة صفوان ابن أمية يوم حنين ، والمسألة داخلة فى إطار ما يسمى بالسياسة الشرعية ، وسنذكر الفرق بين ما فعله الرسول فى حنين وما فعله فى كل من بدر وأحد فى مناسبة إن شاء الله .

رابعاً:- ومما يجدر التأمل فيه ، حال سمرة ابن جندب ورافع ابن خديج ، وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما عن خمسة عشر عاما ، وكيف جاءا يناشدان رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهما بالإشتراك فى القتال .... وأى قتال ؟ .... قتال قائم على التأهب للموت ، لا تجد فيه أى معنى من التعادل بين الفريقين : المسلمون وعددهم لا يزيد على سبعمائه ، والمشركون وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل

و العجيب أيضاً أن يقف بعض محترفى الغزو الفكرى على مثل هذه الظاهرة ، فيذهبوا فى تحليلها الى أن العرب كانوا أمة تعيش فى ظل الحروب و الغزوات الدائمة ، فكانوا ينشأون فى أجوائها و ظروفها ، ولذلك كانوا ينظرون إليها (شيباً وشباناً و أطفالاً) نظرة عادية لا تسبب لهم قدراً بالغاً من المخاوف

لا ريب أن أرباب هذا التحليل ، يغمضون أعينهم فى إصرار عجيب ، أثناء هذا الكلام عن تخاذل امثال عبد الله ابن أبى ابن سلول مع ثلاثمائة من أصحابه ، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال ، والرغبة فى الجنوح الى السلامة و الأمن ، وعن تخاذل أولئك الآخرين الذين إستعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف ، وأعرضوا عن نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج للقتال ، قائلين : لا تنفروا فى الحر .... بل وعن هزيمة المشركين فى غزوة بدر ، رغم ضخامة عددهم وقلة عدد المسلمين ، ووقوع الرعب فى أفئدتهم ، وهم هم العرب الذين نشأوا فى ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها .

من الصعوبة البالغة للمنصف أن يتهرب عما تحكم به البداهة الواضحة ، من أن سر هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال ، إنما هو الإيمان العظيم الذى إستحوز على القلب ، والذى ترتبت عليه محنة عارمة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فحيثما وجد

الإيمان ووجدت هذه المحبة ، ظهر هذا الإقدام و الإستبسال ، وحيثما ضعف الإيمان ، وضعفت المحبة فى القلب إنقلب الإقدام إحجاماً ، والإستبسال كسلاً .

خامساً:- إذا تأملت حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو ينظم الصفوف ويرتب أجنحتهم ، ويضع الحامية اللازمة فى مؤخرة المسلمين ، ويأمر الرماة أن لا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه صلى الله عليه وسلم ، نقول : إذا تأملت ذلك إتضحت حقيقة بارزة ولاحت لك من ورائها ظاهرة هامة أخرى .

أما الحقيقة البارزة : فهى البراعة العسكرية التى كانت تتصف بها قيادته صلى الله عليه وسلم فى الحروب ، فقد كان فى مقدمة المخططين لفنون القتال و طرائقه ، ولا ريب أن الله تعالى قد جهزه بعبقرية نادرة فى هذا المجال ، ولكننا نقول ا، هذه العبقرية و البراعة إنما يأتى كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية ، فمركز النبوة و الرسالة هو الذى إقتضاه أن يكون معصوماً بعيداً عن كل إنحراف وزلل ، وقد شرحنا هذا فى القسم الأول من هذا الكتاب فلا حاجة الى تكراره .

وأما الظاهرة التى تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة هذه لأصحابه عامة ، وللرماة خاصة فهى ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره صلى الله عليه وسلم ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم قد غستشف بفراسة النبوة أو بوحى من الله تعالى هذا الذى قد حدث فيما بعد ، فراح يؤكد التوصيات و الأوامر ، وكأنه فى ذلك يجرى مناورة حية مع عدو لهم هو أنفسهم وأهواءهم وما تنطوى عليه من طمع فى المال و الغنائم ، والمناورة مهما كانت نتيجتها ، تفيد فائدة عظيمة .... وربما كانت النتائج السلبية أدعى للإستفادة من النتائج الإيجابية .

سادساً:- أبو دجانة ، الذى تناول السيف من يد رسول الله صلى اله عليه وسلم بحقه ، أخذه وراح يتبختر بين الصفوف ، فما أنكر عليه رسول الله ، وإنما قال : إن هذه مشية يكرهها الله إلا فى مثل هذا الموضع ! ... وهذا يدل على أن كل مظاهر الكبر المحرمة فى الأحوال العادية ، تزول حرمتها فى حالات الحرب ، فمن مظاهر الكبر المحرمة أن يسير المسلم فى الأرض مرحاً متبختراً ، ولكن ذلك فى ميدان القتال أمر حسن وليس بمكروه ، ومن مظاهر الكبر المحرمة تزيين البيوت أو الأوانى أو القدح بالذهب و الفضة ، غير أن تزيين آلات الحرب وأسلحتها بالفضة غير ممنوع ، فمظهر الكبر هنا هو إفتخار بعزة الإسلام على أعدائه . ثم هو معنى من معانى الحرب النفسية التى ينبغى أن لا تفوت المسلمين أهميتها .

سابعاً:- إذا تأملنا مدة الحرب التى إستمرت بين المسلمين وأعدائهم فى هذه الغزوة وجدناها تنقسم الى شطرين :

الشطر الأول : - وفيه إلتزم المسلمون أماكنهم وأوامرهم التى كانوا قد تلقونها من قائدهم عليه الصلاة و السلام ، فما الذى كان من ثمرة ذلك ؟ لقد سارع النصر الى المسلمين وسارعت الهزيمة الى صفوف المشركين ، وما هو إلا أن غكتسح الرعب أفئدة الآلاف الثلاثة فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الأدبار ، وهذا الشطر هو الذى علقت عليه الآية الكريمة فى قوله تعالى :(لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) .

والشطر الثانى :- وفيه أخذ المسلمون ينطلقون خلف المشركين ليجهزوا على من يدركونه منهم وليأخذوا الغنائم و الأسلاب ، وحينئذ نظر الرماة من فوق الجبل الذى كانوا يتمركزون فيه ، الى إخوانهم وهم يضعون السيوف فى أعدائهم اللائذين بالفرار ويعودون بالأموال و الغنائم ، فرغب بعضهم أن يشتركوا معهم فى الغنيمة ، وخيلت إليهم هذه الرغبة أن الفترة الزمنية للأوامر التى تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد إنتهت ، فهم فى حل منها وهم فى غنى عن إنتظار إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بمغادرة أماكنهم وهو إجتهاد خالفهم فيه بعض زملائهم وفى مقدمتهم أميرهم عبد الله ابن جبير ، ولكن أصحاب هذا الإجتهاد نزلوا وانطلقوا يشاركون فى أخذ الغنائم .... فما الذى كان من نتيجة ذلك ؟

لقد كان أن إنقلب الرعب الذى داهم أفئدة المشركين الى إستبسال جديد ! وكان أن تفتحت أسباب الحيلة و المكر لدى خالد ابن الوليد الذى كان يولى هارباً ، فنظر حوله متأملا ، فوجد الجبل المحصن قد خلا من حماته وحراسه ، فلمعت الفكرة العسكرية فى

رأسه ، وما هو إلا أن غستدار الى الجبل ومن معه من المشركين فقتلوا من بقى ممن لم ينزل وأوجعوا المسلمين رمياً بالسهام من خلفهم .... وجاء الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين كما رأينا .

وهذا الشطر من المعركة هو الذى علقت عليه الآية الكريمة فى قوله تعالى :(حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) .....

وانظر ... ! كم كان وبال هذه الخطيئة جسيماً ، وكم كانت نتيجتها عامة ؟

لقد عادت خطيئة أفراد قليلين فى جيش المسلمين ، بالوبال عليهم جميعاً ، بحيث لم ينج حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نتائجها ، وتلك هى سنة الله فى الكون ، لم يمنعها من الإستمرار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم موجود فى ذلك الجيش ، وأنه أحب الخلق الى ربه جل جلاله .

فتأمل أنت فى نسبة خطيئة هؤلاء الأفراد ، الى خطيئة المسلمين المختلفة المتنوعة اليوم والمتعلقة بشتى نواحى حياتنا العامة و الخاصة ، تأمل هذا لتتصور مدى لطف الله بالمسلمين إذ لا يهلكهم بما تكسب أيديهم ، وبتقاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الإجتماع فى كلمة واحدة على ذلك .

وإذا تأملت فى هذا ، علمت أن الجواب على سؤال بعضهم اليوم عن الحكمة من أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها امام الدول الباغية الأخرى ، رغم أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون .

ثامناً:- لقد رأينا أن النبى صلى الله عليه وسلم أوذى كثيراً فى هذه الغزوة فوقع لشقه ، وشج رأسه ، وكسرت رباعيته ،وساح الدم غزيراً من وجهه ، وكل ذلك جزء من مظهر نتائج تلك الخطيئة ..... خطيئة أولئك المسلمين فى الخروج على أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم القائد ، ولكن ما الحكمة فى أن يشيع خبر مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفوف المسلمين ؟!

و الجواب : أن إرتباط المسلمين برسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوده فيما بينهم كان من القوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التماسك من بعده ، فكان أمر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يخطر لهم على بال ، وكأنهم كانوا يسقطون حساب ذلك من أذهانهم ، ولا ريب أنهم لو إستيقظوا من غفلتهم هذه على خبر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الحقيقية ، لصدع الخبر افئدتهم ، ولزعزع كيانهم الإيمانى بل لقوضه فى نفوس كثير منهم .

فكان من الحكمة الباهرة أن تشيع هذه الشائعة تجربة درسيّة بين تلك الدروس العسكرية العظيمة ، كى يستفيق المسلمون من ورائها الى الحقيقة التى ينبغى أن يوطنوا أنفسهم لها منذ الساعة ، وأن لا يرتدّوا على أعقابهم إذا وجدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد إختفى مما بينهم

ومن أجل بيان هذا الدرس الجليل نزلت الآية تعليقاً على ما أصاب كثيراً من المسلمين من ضعف و تراجع لدى سماعهم نبأ قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بقوله تعالى :(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل غنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين) .

ولقد غتضح الأثر الإيجابى لهذا الدرس ، يوم أن لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلا بالرفيق الأعلى فقد كانت شائعة أحد هذه مع ما نزل بسببها من القرآن هى التى أيقظت المسلمين ونبهتهم الى الحقيقة ، فودعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلوبهم الحزينة ، ثم رجعوا الى الأمانة التى تركها بين ايديهم ، أمانة الدعوة و الجهاد فى سبيل الله ، فنخضوا بها أقوياء بإيمانهم أشداء فى عقيدتهم وتوكلهم على الله تعالى .

تاسعاً:- ولنتأمل فى وقع الموت على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم ، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام ، وهم فى نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يبالون بغير ذلك ...!

فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة ؟

إنه الإيمان بالله تعالى ورسوله أولاً ، ثم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً ، فهما معاً سبب هذه التضحية الرائعة العجيبة ، والمسلم يحتاج إليهما معاً ، لا يكفيه أن يدعى الإيمان بما ينبغى الإيمان به من أمور العقيدة ، حتى يمتلىء قلبه بمحبة الله ورسوله أيضاً ، ولذلك قال عليه الصلاة و السلام : لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده و الناس أجمعين).

وبيان ذلك أن الله عز وجل قد غرس فى الإنسان عقلاً وقلباً ، أما الأول فلكى يفكر به فيؤمن بما يجب الإيمان به . وأما الثانى فلكى يستعمله فى محبة من أمر الله بمحبته وبغض من أمر الله ببغضه ، وإذا لم يشغل القلب بمحبة الله ورسوله و الصالحين من عباده فسيمتلىء ولابد بمحبة الشهوات و الأهواء و المحرمات ، وإذا فاض القلب بمحبة الشهوات والأهواء فهيهات أن يصبح الإعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أى عمل من أعمال التضحية أو الفداء .

وهذه الحقيقة من الأوليات التى أقرها علماء التربية و الأخلاق ، ودلت عليها التجارب البديهيه ، واسمع ما يقوله فى ذلك جان جاك روسو فى كتابه (اميل) :(كم قيل وأعيد القول عن الرغبة فى إقامة الفضيلة على العقل وحده ، وياله من أساس متين ! ... أى أساس هذا ! ... إن الفضيلة كما يقولون هى النظام ، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتى الخاصة ؟ ... إن هذا المبدأ المزعوم ليس إلا لعباً بالألفاظ فالرذيلة هى حب النظام بشكل مختلف)

من أجل هذه الحقيقة لم تستطع الحكومة الأمريكية أن تلتزم بما آمنت به واعتقدت بفائدته يوم أقدمت على تحريم الخمر ومنع مداولتها فى المجتمعات و النوادى وذلك عام 1933 إذ لم تمض سوى فترة وجيزة حتى نكص المقننون على أعقابهم وارتدّوا مترنحين من ألم الحرمان فألغوا القانون الذى إلتزموه وراحوا يعبون أقداحهم من جديد .

هذا على حين ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم - وهم من هم من الثقافة والمدنية و المعرفة بالأضرار والفوائد بالنسبة للمريكيين اليوم - عمدوا بمجرد أن سمعوا أمر الله عز وجل لهم بإجتناب الخمر ، الى دنان الخمر فأراقوها وإلى الأقداح فكسروها ، وارتفعت أصواتهم تقول : إنتهينا يارب إنتهينا ...!

والفرق بين الصورتين و الواقعتين ، أن ههنا شيئاً قد وقر فى القلب فكان هواه تبعاً لأمر الله و أحكامه ، هذه المحبة ، بل هذا الهوى المستحوذ على قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى جعلهم يمدون نحورهم دون نحر رسول الله ويعانقون الموت فى سبيل حفظ حياته عليه الصلاة و السلام.

وكم فى غزوة أحد من المشاهد الرائعة التى تكشف عن أثر هذه المحبة إذ تغمر قلب صاحبها .

روى ابن هشام أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : من رجل ينظر ما فعل سعد ابن الربيع أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد ، فنظر فإذا هو جريح فى القتلى وبه رمق ، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ..! قال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله عنى السلام ، وقل له إن سعد ابن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جازى نبى عن أمته ،وأبلغ قومك منى السلام وقل لهم : إن سعد ابن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص الى نبيكم صلى الله عليه وسلم ولكم عين تطرف ، قال ألنصارى : فلم أبرح حتى مات .

ويوم تمتلىء أفئدة المسلمين فى عصرنا هذا بنحو هذه المحبة ، بحيث تبعدهم قليلاً عن شهواتهم وأنانيتهم ، وتتغلب عليهم - أقول : يوم يحدث هذا فى أفئدة المسلمين فإنهم يصبحون خلقاً آخر جديداً، وسينتزعون إنتصارهم من بين شدقى الموت ، وسيتغلبون

على أعدائهم ، مهما كانت العقبات و السدود . و إذا سألت عن السبيل الى مثل هذه المحبة ، فاعلم أنها كثرة الذكر وكثرةالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ة وفى كثرة التأمل و التفكر فى ىلاء الله ونعمه عليك ، وفى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وشمائله ، وهذا كله بعد الإستقامة على العبادات فى خشية وحضور ، والتبتل الى الله عز وجل بين الحين و الآخر .

عاشراً :- وقد رأينا فيما رواه البخارى رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بدفن قتلى المسلمين بدمائهم ولم يصل عليهم ، وجمع بين الرجلين فى قبر واحد ، وقد إستدل من ذلك العلماء على أن الشهيد فى معارك الجهاد لايغسل ولا يصلى عليه ، بل يدفن بدمائه ، قال الشافعى رضى الله عنه : جاءت الأحاديث من وجوه متواترة أنه لم يصل عليهم ، وأما ماروى أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليهم عشرة عشرة وفى كل عشرة حمزة ابن عبد المطلب، حتى صلى عليه سبعين مرة فضعيف وخطأ .

كما إستدلوا بذلك أيضاً على أنه يجوز عند الضرورة الجمع بين أكثر من واحد فى القبر ، أما بدون ضرورة فلا يجوز .

حادى عشر :- وإذا تأملنا فيما أقدم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اصحابه فور عودتهم الى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين - إتضح لنا درس معركة أحد إتضاحاً كاملاً ، وتبين لنا كل من نتائجها : السلبية و افيجابية ، وظهر لنا بما لا يدع مجال للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر وإطاعة أوامر القائد الصالح واستهدف القصد الدينى المجرد .

فقد رأينا أن النبى صلىالله عليه وسلم لم يكد يؤذن فى الناس للخروج مرة أخرى لطلب العدو ، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس ، من بعد ما أصابهم القرح وأنهكتهم الجروح والآلام ، ولم يسترح أحد منهم بعد فى بيته أو يفرغ للنظر فى حاله وجسمه ، وانطلقوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتغون المشركين الذين لم تخمد بعد فى رؤسهم جذوة النشوة بالنصر ة ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع فى غنيمة أو غرض دنيوى ، وإنما هو التطلع الى النصر أو الإستشهاد فى سبيل الله وهم يسوقون بين يدى ذلك جراحاتهم الدامية وقروحهم المؤلمة . فما الذى كان من نتيجة ذلك ؟

لا نشوة الظفر ولا لذة افنتصار ربطت على قلوب المشركين ليتمموا نصرهم و التغلب على خصومهم ، ولا وقع الهزيمة وآلام الجروح الكثيفة فى المسلمين حال شىء من ذلك دون إقدامهم وانتصارهم .

وكيف كان السبيل ؟ لقد كان السبيل الى ذلك ىية إلهية خارقة لتتمم الدرس و الموعظة للمسلمين : وقع الرعب فجأة فى قلوب المشركين وتصوروا كما أخبرهم صاحبهم الذى كان قد لمح المسلمين عن بعد ، أن محمداً وأصحابه قد جاؤوا هذه المرة ومعهم الموت المؤكد لينثروه فيما بينهم ، فارتدوا على أعقابهم بعد أن كانوا متجهين صوب المدينة ، وانطلقوا سراعاً الى مكة لا يلوون على شىء .

أما كيف داخل هذا الرعب الغريب من المسلمين ، وهم الذين كسروا شوكتهم ووضعوا السيف فيهم قبل ساعات فقط من الزمن ، فمردّ ذلك الى الإرادة الإلهية التى جعلت من هذه الموقعة كلها درساً بليغاً للمسلمين جمع بين كلا مظهريه افيجابى و السلبى فى آن واحد .

وفى هذا الختام الأخير المتمم لموعظة أحد نزل قول الله تعالى :(الذين إستجابوا لله و الرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم .)

يوم الرجيع وبئر معونــة

أولاً :- يوم الرجيع : فى السنة الثالثة

قدم وفد من قبائل عضل و القارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن أخبار الإسلام قد وصلتهم وأهم بحاجة الى من يعلمهم شؤون هذا الدين ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه ، وفيهم : مرثد ابن أبى مرثد ، وخالد ابن بكير ، وعاصم ابن ثابت ، وخبيب ابن عدى ، وزيد ابن الدثنه ، وعبد الله ابن طارق ، وأمّر عليهم عاصم ابن ثابت .

روى البخارى بسنده عن ابى هريرة ، قال : فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ، ذكروا لحىّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان ، فتبعوهم فى قريب من مائة رام ، فاقتصّوا آثارهم ، حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة ، فقالوا هذا تمر يثرب ، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم فلما إنتهى عاصم و أصحابه لجأوا الى فدفد ، وجاء القوم فأحاطوا بهم ، فقالوا لكم العهد و الميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً ، فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك ، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما فى سبعة نفر بالنبل ، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر ، فأعطوهم العهد و الميثاق ، فلما أعطوهم العهد و الميثاق نزلوا إليهم فلما إستمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال الرجل الثالث الذى معهما : هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجرروه وعالجوه ، على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد وباعوهما بمكة ، فاشترى خبيباً بنو الحارث ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله إستعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها ، قالت فغفلت عن صبى لى ، فدرج إليه حتى أتاه فأجلسه على فخذه ، فلما رايته فزعت فزعة عرف ذاك منى ، وفى يده الموسى ، فقال أتخشين أن أقتله ؟ وما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى .

وكانت تقول ما رأيت أسيراً قط خير من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب ، وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق بالحديد ، وما كان إلا رزقة من الله ة فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال : دعونى أصلى ركعتين ، ثم إنصرف إليهم فقال : لولا أن تروا أنّ ما بى جزع من الموت لزدت ، فكان أول من سن الركعتين قبل القتل . ثم قال :

ولست ابالى حين أقتل مسلماً ... على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشـــأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة ابن الحارث فقتله . وبعثت قريش الى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر ، فبعث الله عليه مثل المظلة من البر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شىء .

وزاد الطبرى فروى عن أبى كريب قال : حدثنا جعفر ابن عون عن إبراهيم ابن إسماعيل قال : وأخبرنى جعفر ابن عمرو ابن أمية عن أبيه عن جده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وحده عينا الىقريش ، قال فجئت الى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون ، فرقيت فيها فحللت خبيباً ، فوقع الى الأرض ، فانتبذت غير بعيد ، ثم إلتفت فلم أر لخبيب رم، فكأنما الأرض إبتلعته ، فلم تذكر لخبيب رمة حتى الساعة .

قال ابن إسحاق : وأما زيد ، فابتاعه صفوان ابن أمية ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه ، قال له أبو سفيان : أنشدك بالله يازيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى ! فقال ابو سفيان : ما رايت من الناس أحداً يحب أحد كحب أصحاب محمد محمداً .

ثانياً بئر معونة : فى السنة الرابعة

قدم عامر ابن مالك المشهور بلقب (ملاعب الأسنّة) على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام ، ولكنه لم يسلم ولم يظهر تجنباً عن الإسلام ، بل قال يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه الصلاة و السلام : إنى أخشى عليهم أهل نجد ، قال عامر : أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين وكان ذلك على ما رواه ابن إسحاق وابن كثير فى

صفر على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، فلما نزلوها بعثوا أحدهم (حرام ابن ملحان) بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عامر ابن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه ، وعدا عليه فقتله ، روى البخارى عن أنس ابن مالك : أن حرام ابن ملحان لما طعن وانتضح الدم فى وجهه صاح : فزت ورب الكعبة . ثم استصرخ عامر ابن الطفيل بنى عامر يستعديهم على بقية الدعاة فأبوا أن يجيبوه وقالوا : لن نخفر أبا براء (عامر ابن مالك) ، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصيّة ورعل وذكوان فأجابوه ، وانطلقوا فأحاطوا بالقوم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم ، فقتل المسلمون عن آخرهم .

وكان فى سرح الدعاة إثنان لم يشهدا هذه الموقعة الغادرة ، أحدهما (عمرو ابن أمية الضمرى) ولم يعرف النبأ إلا فيما بعد ، فأقبلا يافعان عن إخوانهما فقتل زميله معهم وأفلت هو فرجع الى المدينة ، وفى الطريق لقى رجلين من المشركين ظنهما من بنى عامر فقتلهما ، ثم تبين له لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر أنهما من بنى كلاب وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أجارهما فقال عليه الصلاة و السلام : لقد قتلت قتيلين لأديّنهما .

وتأثر النبى صلى الله عليه وسلم لمقتل هؤلاء الدعاة الصالحين من أصحابه ، وبقى شهراً يقنت فى صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم ورعل وذكوان وبنى لحيان وعصيّة

العبر و العظات :

فى هاتين الحادثتين المؤثرتين دلالات هامة نجملها فيما يلى :

أولاً:- يدل كل من حادثة الرجيع وبئر معونة على إشتراك المسلمين كلهم فى مسؤولية الدعوة الى الإسلام و تبصير الناس بحقيقته و أحكامه ، فليس أمر الدعوة موكولاً الى الأنبياء و الرسل وحدهم أو الى خلفائهم العلماء دون غيرهم .

وإنك لتستشعر مدى أهمية القيام بواجب الدعوة من إرسال النبى صلى الله عليه وسلم أولئك القراء الذين بلغت عدتهم سبعين شاباً من خيرة صحابته صلى الله عليه وسلم ، ولما يمض أمد بعيد على مقتل أولئك النفر الستة الذين كان قد بعثهم فى ذلك السبيل نفسه .... ولقد إستشعر الخوف عليهم ، وذكر ذلك لعامر ابن مالك عندما إقترح عليه إرسال وفد لدعوة الناس الى الدين ولكنه كان يرى أن القيام بأعباء التبليغ أهم من كل شىء ، ولئن لم يمكن تحمل مسؤولية الدعوة و النهوض بها إلا بمثل هذه المغامرة وقبول ما قد ينتج عنها ، فلتكن المغامرة ، وليكن ما أراد الله تعالى فى سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته .

ثانياً :- كنا قد قلنا فى القسم الأول من هذا الكتاب ، أنه لا يجوز للمسلم المقام فى دار الكفر أو الحرب إن لم يمكنه إظهار دينه ، ويسن له ذلك إن أمكنه إظهار دينه ، والذى يدل على هذا المشهد من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه يستثنى من ذلك ما إذا كان المقام للمسلم فى دار الكفر إبتغاء القيام بواجب الدعوة الإسلامية هناك ، فذلك من أنواع الجهاد الذى تتعلق مسؤوليته بالمسلمين كلهم على أساس فرض الكفاية الذى إن قام به البعض قياماً تاماً سقطت المسؤولية عن الباقين ، وإلا إشتركوا كلهم فى المأثم .

ثالثاً :- إذا تجاوزنا ما تنطوى عليه كل من حادثتى الرجيع وبئر معونة من دلالة واضحة على مدى ما كانت تفيض به أفئدة المشركين من غل وحقد على المؤمنين ، حتى إنهم إرتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة و الغدر إبتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين - أقول إذا تجاوزنا ذلك- وقفنا على صورة رائعة لعكس هذه الطبيعة لدى أولئك المسلمين الذين راحوا ضحية تلك الخيانةو الأحقاد ، فقد رأيت كيف حبس خبيب رضى الله عنه أسيراً فى بيت الحارث فى إنتظار ساعة قتله ، وكان قد إستعار شفرة ليصلح بها شأنه ويتطهر إستعداداً للموت ، وفى البيت طفل صغير راح يدرج نحوه فى غفلة من أمه ، ولقد كانت هذه اللحظة ، فى حساب من يتعلق بالحياة ويفكر فى الإنتقام ، فرصة رائعة لمساومة أو غدر مقابل غدر ، ولقد كان هذا هو حساب أهل البيت كلهم ، فما إن إنتبهت أم الطفل الى إنصرافه نحو خبيب حتى هبت مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد ! ... ولكنها وقفت مندهشة

عندما رأت طفلها وقد أجلسه خبيب فى حجره يلاطفه كأنه أب شفوق ! .... ونظر إليها وقد ألمّ بما فى نفسها من الخوف وقال لها فى هدوء المؤمن الحليم : أتخشين ان أقتله ؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله ! ....

فانظر الى معجزة التربية الإسلامية للإنسان ! ... خبيب هذا وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون الموت له ظلماً وعدواناً ، عرب أنبتتهم أرض واحدة وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة ، ولكن خبيباً إعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنساناً آخر ، وأولئك عكفوا على ضلالهم ، فحبستهم ضلالاتهم فى طبائعهم المتوحشة الغادرة ، فما أعظم ما يفعله الإسلام فى الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل.

رابعاً :- يستدل مما سبق أن للأسير فى يد العدو أن يمتنع عن قبول الأمان ، ولا يمكن من نفسه ولو قتل ، ترفعاً عن أن يجرى عليه حكم كافر ، كما فعل عاصم ، فإن أراد الترخص ، فله أن يستأمن ، مترقباً الفرصة مؤملاً الخلاص كما فعل خبيب وزيد ، ولكن لو قدر الأسير على الهرب لزمه ذلك فى الأصح وإن أمكنه إظهار دينه بينهم ، لأن الأسير فى يد الكفار مقهور مهان ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر

خامساً :- إذا تأملنا فى جواب زيد ابن الدثنّة لأبى سفيان ، قبيل قتله - علمنا مدى المحبة التى كانت تنطوى عليها أفئدة الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ريب أن هذه المحبة من أهم الأسباب التى حببت الى قلوبهم كل تضحية وبذل فى سبيل دين الله تعالى و الدفاع عن رسوله ، ومهما بلغ المسلم فى إيمانه ، فإنه بدون هذه المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر ناقص الإيمان ، وإنها لحقيقة صرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال :(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ووالده و الناس أجمعين) .

سادساً :- دلّ ما ذكرناه من أمر خبيب أيام كان أسيراً فى مكة ، أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبى جاز أن يكون كرامة لولى ، مع فارق أساسى لا بد منه ، وهو أن معجزة النبى تكون مقرونة بالتحدى ودعوة النبى ، أما كرامة الولياء و الصالحين فتأتى عفوا دون أن تقترن بأى نوع من التحدى.

وهذا ما جرى عليه جمهور أهل السنة و الجماعة ، ولا أدل عليه من هذا الذى أكرم الله به خبيباً قبل القتل ، وهو ثابت كما رأيت فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره .

سابعاً :- قد يتساءل البعض : فما الحكمة من تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين الذين لم يخرجوا إلا إستجابة لأمر الله ورسوله ؟ وهلاّ مكنهم الله من أعدائهم ليتغلبوا عليهم ؟ .....

و الجواب هو كما ذكرناه أكثر من مرة ، من أن الله تعالى تعبد عباده بتحقيق أمرين إثنين : إقامة المجتمع المسلم ، والسعى الى ذلك فى طريق شائكة غير معبدة ، والحكمة من ذلك أن تتحقق عبودية الإنسان لله تعالى ، وأن يمحص الصادقون عن المنافقين ، وأن يتخذ الله منهم شهداء، وأن يتجلى المعنى التنفيذى للمبايعة التى جرت بين الله وعباده المؤمنين و التى صرح بها قوله تعالى :(إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون)

وأى معنى كان يبقى لتوقيع على صك هذه المعاهدة ، لو أن كل ما جاء فى مضمونها وهم لا يتحقق ؟ ! بل وأى قيمة تبقى حينئذ لهذا التوقيع حتى يحرز به صاحبه الجنة و السعادة الأبديةالخالدة .

و المشكلة فى اساسها ، إنما تطوف فى رأس من قدّر هذه الحياة العاجلة أكثر من قدرها الحقيقى وأولاها أكثر مما تستحق من الإهتمام ، وضعف تعلقه فى المقابل بالحياة الآخرة وشأنها ، وتلك هى آية عدم الإيمان بالله تعالى أو ضعفه فى النفس ، ومثل هؤلاء الناس لا ينتظر منهم أن يغامروا بروح ولا مال ، أما المؤمنون حقاً فالمشكلة غير متصورة لديهم من أساسها ، فلذة الحياة الدنيا فى يقينهم ، أقل شأناً من أن تحبس المسلم عن أداء أصغر طاعة يتقرب بها الى خالقه ، وما التضحية بالروح فى يقينهم إلا

الإنطلاقة من سجن الدنيا الى نعيم الآخرة وأنعم بها من غاية هى كل أمل المسلم فى حياته التى يعيشها ، وهذا الشعور يتجلى بأوضح صورة فى الأبيات التى قالها خبيب عند مقتله ، خاصة فى آخر بيت
منها وهو يقول :

ولست بمبد للعدو تخشعاً ولا جزعاً إنى الى الله مرجعى

إجلاء بنى النضير ـ فى شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة

روى ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج يوم السبت ، فصلى فى مسجد قباء ومعه نفر من اصحابه من المهاجرين و الأنصار ، ثم أتى بنى النضير ، فكلمهم أن يعينوه فى ديّة الكلابيين اللذين قتلهما عمرو ابن أمية الضمرى وكان لهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم جوار وعهد ، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف ، وذلك على ما رواه ابن اسحاق وغيره ، فقالوا : نفعل يا ابا القاسم ما أحببت ، وخلا بعضهم الى بعض وهمّوا بالغدر ، وقال عمرو ابن جحاش النضرى : أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا الى جنب جدار من بيوتهم .

وزاد ابن سعد أن سلام ابن مشكم (وه من يهود بنى النضير) قال لهم لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما هممتم به وإنه لنقض العهد الذى بيننا وبينه .

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر بما همّوا فنهض سريعاً كأنه يريد حاجة ، وتوجه الى المدينة ولحقه أصحابه ، فقالوا قمت ولم نشعر ؟ قال : (همّت يهود بالغدر ، فأخبرنى الله بذلك فقمت) .

ثم أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أخرجوا من بلدى فقد هممتم بما هممتم به من الغدر وقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه .

فأخذوا يتهيأون للخروج ، ولكن عبد الله ابن أبى ابن سلول ارسل إليهم : أن لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم ، فإن معى الفين من قومى وغيرهم يقاتلون عنكم ، فعادوا عما عزموا عليه من الخروج وتحصنوا فى حصونهم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهىء لحربهم و السير إليهم .

ثم سار رسول الله صلى اله عليه وسلم إليهم ، وقد تحصن اليهود بحصونهم معهم النبل و الحجارة ، ولكن ابن أبى خذلهم فلم ينفذ وعده معهم ، فحاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها فنادوه : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يصنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وقد أنزل الله تعالى فى ذلك قوله :(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين)

فعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة كما أراد ..... ولكنه صلى الله عليه وسلم قال : لا أقبله اليوم إلا على أن تخرجوا بدمائكم فقط وليس لكم من أموالكم إلا ما حملته الإبل ، عدا الحلقة (أى السلاح) ، فنزل اليهود على ذلك واحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل .

قال ابن هشام : فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه (أى عتبته) فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، وتفرقوا بين خيبر و الشام ولم يسلم منهم إلا رجلان : يامين ابن عمير ابن كعب ابن عم عمرو ابن جحاش وأبو سعد ابن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا إثنين من الأنصار أعطاهما لما ذكر له من فقرهما وهما (سهل ابن حنيف وأبو دجانةسماك ابن خرشة) ، وكانت أموال بنى النضير خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر البلاذرى فى فتوح البلدان أنه كان يزرع تحت النخل فى أرضهم فيدخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة وما فضل جعله فى الكراع و السلاح ، ونزل فى بنى النضير سورة الحشر كاملة ، ونزل تعليقاً على سياسته صلى الله عليه وسلم فى تقسيم أموال بنى

النضير قوله تعالى :(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير ، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى و اليتامى و المساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما ىتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب) .

العبر و العظات :

وهذه صورة ثانية من طبيعة الغدر و الخيانة المتأصلة فى نفوس اليهود ، وقد رأينا من قبلها صورة أخرى من خيانتهم فيما اقدم عليه يهود بنى قينقاع ، وتلك حقيقة تاريخية صدقتها الوقائع التى لا تحصى ، وذلك هو سر اللعنة الإلهية التى حاقت بهم وسجله بيان الله تعالى فى قوله :(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

ثم إن فى هذه الواقعة لدروساً بليغة ، ودلالات هامة تتعلق بكثير من أحكام الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلى :

أولا :- الخبر الذى جاء من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم بكشف ما بيته اليهود من الغدر به ، تعد واحدة من الخوارق الكثيرة التى أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وأثناءها ، وهى مما ينبغى أن يسترعى إنتباهنا ليحملنا على مزيد من الإيمان بنبوته ورسالته ، والإقتناع بأن شخصيته النبوية تعتبر الأساس الأول لوجوده وصفاته الشخصية الأخرى .

وقد عبر بعض الكاتبين فى السيرة وفقهها عن هذا الخبر الإلهى الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بفضح نوايا اليهود - عبر عن ذلك بأنه ألهم ما بيته اليهود له ! وكلمة الإلهام تدل على معنى مشترك للناس كلهم فحاسة الإلهام - عن طريق الإشارات و القرائن - حاسة طبيعية لا تختص بها فئة من الناس دون غيرهم . وكلمة (الخبر الإلهى) كما يستعملها علماء السيرة رحمهم الله تعالى ، إنما تدل على معنى هو من سمات النبوة و خصوصياتها ، ونحن نعلم أن أن هذا المعنى دون غيره هو الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم يحس بالمكر ، فهو الوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله : والله يعصمك من الناس .

وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم التمويه فى التعبير ؟ ... أما إن هذا ليس إلا مظهراً من مظاهر إنكار معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت فيما مضى أن مصدر إنكار المعجزات للرسول صلى الله عليه وسلم - بعد ثبوتها بالقطع المتواتر - ليس إلا صعفاً فى الإيمان بنبوته صلى الله عليه وسلم .

ثانياً:- قطع نخيل بنى النضير وإحراقها ، ثبت بالإتفاق ، والذى أتلفه الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقى ، وقد نزل القرآن تصويباً لما أقدم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك : قطعاً و إبقاءً ، وذلك فى قوله تعالى :(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ....) الحشر 5 .

وقد إستدل العلماء بذلك ، على أن الحكم الشرعى فى أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام و القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم ، فالمسألة إذاً من قبيل ما يدخل تحت إسم السياسة الشرعية . قال العلماء وإنما كان قصد الرسول صلى الله عليه وسلم بتصرفه هذا فى نخيل بنى النضير - قطعاً أو كفاً - تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها ، إرشاداً وتعليماً للأئمة من بعده .

وبهذا ايضاً علل الشافعى رحمه الله ، أمر ابى بكر رضى الله عنه بالإحراق و القطع حينما أرسل خالداً الى طليحة وبنى تميم ، مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك فى حروب الشام ، ويقول رحمه الله فى هذا :(ولعل أمر أبى بكر بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجراً مثمراً ، إنما هو لأنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر أن بلاد الشام تفتح على المسلمين ، فلما كان مباحاً له أن يقطع ويترك ، إختار الترك نظراً للمسلمين) . وهذا الذى قلناه من إباحة قطع شجر الكفار وإحراقه إذا إقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك و الثورى وأبى حنيفة و الشافعى وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء .

وروى عن ليث ابن سعد وأبى ثور و الأوزاعى بعدم جوازه .

ثالثاً:- إتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال (وهو الفىء) يعود النظر و التصرف فيه الى ما يراه الإمام من المصلحة ، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التى غنموها بعد قتال وحرب ، مستدلين على ذلك

بسياسته صلى الله عليه وسلم فى تقسيم فىء بنى النضير ، فقد خص به - كما رأيت - المهاجرين دون الأنصار وقد نزل القرآن تصويبا فى الايتين اللتين ذكرناهما .

ثم إختلفوا فى الأراضى التى غنمها المسلمون بواسطة الحرب : فذهب مالك الى أن الأرض لا تقسم مطلقاً ، وإنما يكون خراجها وقفاً لصالح المسلمين إلا أن يرى الإمام أن المصلحة تقضى القسمة فإن له ذلك ، ويذهب الحنفية قريباً من هذا المذهب .

أما الشافعى فذهب الى أن الأرض المأخوذة عنوة تجب قسمتها كما تجب قسمة غيرها من الغنائم ، وهو الظاهر من مذهب الإمام أحمد .

ودليل ما ذهب إليه الشافعى ، أن تصرف النبى صلى الله عليه وسلم بأموال بنى النضير على خلاف ما تقتضيه القسمة بين الغانمين فى الحرب ، إنما كان بسبب عدم وجود أى قتال تسبب عنه الحصول على تلك الغنائم ، وقد نصت الآية على ذلك فى معرض تعليل حكمه صلى الله عليه وسلم ، فى فىء بنى النضير ، وهى قوله تعالى :(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) وإذا كان هذا هو مناط جواز عدم القسمة لأراضى الفىء فمن الواضح أنه إذا إرتفع الحكم معه ، وعاد الحكم المنصوص عليه فى حق الغنائم ، سواء فى ذلك الأراضى وغيرها .

ودليل ما ذهب إليه مالك وأبو حنيفة أمور كثيرة ، من أهمها عمل عمر رضى الله عنه حينما إمتنع عن تقسيم سواد العراق ، وجعلها وقفاً يجرى خراجها ريعاً للمسلمين وليس المجال هنا متسع لأكثر من هذا العرض المجمل فى الموضوع .

إنما الذى ينبغى أن ننتبه إليه من هذا البحث هنا ، هو التعليل الذى ذكره الله تعالى فى الآيتين اللتين أوضحتا سياسته صلى الله عليه وسلم فى تقسيم فىء بنى النضير إذ إختص به أناساً دون آخرين ، فقد ذكر الله تعالى فى تعليل ذلك بقوله :(لكى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أى كى لا يكون تداول المال محصور فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط .

و التعليل بهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية فى شؤون المال قائمة فى جملتها على تحقيق هذا المبدأ ، وإن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الإقتصاد و المال يبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس و فئاتهم ويقضى فيع على أسباب الثغرات التى قد تظهر فيما بينهم ، والتى قد تؤثر على سير العدالة و تطبيقها .

ولو طبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بالمال من إحياء لشريعة الزكاة ومنع للربا وقضاء على جميع مظاهر الإحتكارات لعاش الناس كلهم فى بحبوحة من العيش ، قد يتفاوتن فى الرزق ولكنهم جميعاً مكتفون ، ليس فيهم كل على آخر وإن كانوا جميعاً متعاونون .

والمهم أن تعلم أن الله تعالى لما جعل غاية شريعته فى الدنيا إقامة هذا المجتمع ، شرع لذلك وسائل وأسباباً معينة ألزمنا إتباعها وعدم الخروج عليها ، أى أن الله تعالى تعبدنا بكل من الغاية و الوسيلة معاً ، فلا يجوز أن يقال : أن الغاية من الإسلام إقامة العدالة الإجتماعية ، فلنسلك الى ذلك ما نراه من الأسباب و السبل ، بل إن هذا يعد خروجاً على كل من الغاية و الوسيلة معاً ، فلن تتحقق الغاية التى أمرنا الله تعالى بتحقيقها إلا باتباع الوسيلة التى شرعها لنا سبيلا الى تلك الغاية، والتاريخ أعظم دليل و الوقائع أكبر شاهد .

هذا وجدير بك أن تعود الى سورة الحشر بكاملها ، لتتأمل التعليق الإلهى العظيم على هذه الحادثة بمجموعها وعامة ملابساتها : اليهود المنافقون ، سياسة الرسول فى المال و الحرب وغير ذلك ... ، فهذه السورة من أهم ما يمكنك من الوقوف على دوس هذه القصة وعظاتها .

غزوة ذات الرقاع

وقد كانت فى السنةالرابعة للهجرة ، بعد مرور شهر ونصف تقريباً على إجلاء بنى النضير ، على ما ذهب إليه عامة علماء السير و المغازى . ورجّح البخارى وبعض المحدثين أنها كانت بعد غزوة خيبر .

وسببها ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد وسليم بالمسلمين ، ذلك أن الغدر الذى تجلى فى مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون الى الله تعالى ، فخرج عليه الصلاة و السلام قاصداً قبائل محارب وبنى ثعلب ، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى رضى الله عنه . وعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكان بنجد من أرض غطفان يسمى (نخل) ولكن الله تعالى قذف الرعب فى قلوب تلك القبائل ـ وقد كانت كما يقول ابن هشام جموع كبيرة ـ فتفرقوا بعيداً عن المسلمين ، ولم يقع أى قتال ، غير أن قصة هذه الغزوة ـ مع ذلك ـ فيها مشاهد تستأهل النظر فيها وأخذ الدرس منها فلنجتزىء عن ذكر القصة كلها ، بذكر هذه المشاهد :

أولاً:- روى فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ، قال : فنقبت أقدامنا ، فنقبت قدماى وسقطت أظفارى ، فكنا نلف على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب على أرجانا من الخرق . قال أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك ، قال كأنه كره أن يكون شبيئاً من عمله أفشاه .

ثانياً :- روى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم صلى فى غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف ، وأن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلى بالتى معه ركعة ، ثم ثبت قائما وأتموا لأنفسهم ، ثم إنصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الباقية من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم .

ثالثاً:- روى البخارى أيضاً عن جابر رضى الله عنه أنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه ، فأدركتهم القائلة (وقت القيلولة) فى واد كثير العضاة (نوع من الشجر) فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرق الناس يستظلون الشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة فعلق بها سيفه ، فقال جابر فنمنا نومة ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا إخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً ، فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله ، فها هو جالس ..... ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً:- روى ابن اسحاق وأحمد عن جابر رضى الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات الرقاع فأصيبت إمرأة من المشركين فلما إنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً وجاء زوجها وكان غائباً ، فحلف أن لا ينتهى حتى يهريق دماً فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فخرج يتبع أثر النبى صلى الله عليه وسلم فنزل النبى منزلاً ، فقال من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ قال فانتدب رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار ، فقالا نحن يا رسول الله ، قال : فكونا بفم الشعب ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد نزلوا الى شعب من الوادى ، فلما خرج الرجلان الى فم الشعب ، قال الأنصارى للمهاجرى : أى الليل تحب أن أكفيكه ؟ أوله أم آخره ؟ قال : بل أكفنى أوله . فاضطجع المهاجرى فنام وقام الأنصارى يصلى ، قال وأتى الرجل فلما رأى شخص الأنصارى عرف أنه ربيئة القوم (الطليعة الذى يحرسهم) فرمى بسهم فوضعه فيه ، فنزعه الأنصارى وثبت قائما يصلى ، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، فنزعه وثبت قائما يصلى ، ثم عاد له بالثالثة فنزعه ، ثم ركع وسجد ، وأهب صاحبه (أيقظه) قائلاً إجلس فقد أثبت ، قال فوثب ، فلما رآهما الرجل عرف أنه نذر به فهرب ، ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء قال : سبحان الله أفلا أيقظتنى أول ما رماك ، قال : كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها ، فلما تابع علىّ الرمى ركعت فأذنتك ،وأيم الله ، لولا أن أضيع ثغراً آمرنى رسول الله بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها .

خامساً :- روى البخارى ومسلم وابن سعد فى طبقاته وابن هشام فى سيرته عن جابر ابن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة ذات الرقاع على جمل لى ضعيف ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاق تمضى ، وجعلت أتخلف حتى أدركنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لك يا جابر ؟ قلت يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا ، قال : أنخه ، فأنخته ، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أعطنى هذه العصا من يدك ، ففعلت فأخذها فنخسه بها نخسات ثم قال : إركب ، فركبت فخرج - والذى بعثه بالحق - يواهق ناقته مواهقة .

وتحدثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : أتبيعنى جملك هذا يا جابر ؟ قلت يا رسول الله بل أهبه لك ، قال لا ولكن بعنيه ، قلت فسمنيه يا رسول الله ، قال : آخذه بدرهم ،قلت : لا إذن تغبنّى يا رسول الله ، قال : فبدرهمين ؟ قلت لا فلم يزل يرفع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمنه حتى بلغ الأوقية ، فقلت : أفقد رضيت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قلت : فهو لك ، قال : قد أخذته .... ثم قال : يا جابر هل تزوجت بعد ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أثيباً أم بكراً ؟ قلت : بل ثيباً ، قال : أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ قلت : يا رسول الله إن أبى أصيب يوم أحد وترك لى بنات سبعاً ، فنكحت إمرأة جامعة ، تجمع رؤسهن وتقوم عليهنّ ، قال : أصبت إن شاء اله ، أما إنا لو قد جئنا صراراً أمرنا بجزور فنحرت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا فنفضت نمارقها ، فقلت : والله يا رسول الله ما لنا من نمارق ! ، قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيساً .

قال جابر : فلما جئنا صرارا ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحر ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا المدينة .

قال جابر : فلما أصبحت أخذت برأس الجمل ، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلست فى المسجد قريباً منه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى الجمل فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فدعيت له ، فقال يا ابن أخى ، خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالاً فقال لأه : إذهب بجابر فأعطه أوقية ، فذهب بى فأعطانى أوقية وزادنى شيئاً يسيراً ، فوالله ما زال ينمو عندى ويرى مكانه من بيتنا .

العبر و العظات :

تحقيق فى تاريخ هذه الغزوة :

إتفق علماء المغازى و السير ، كما أسلفنا ، على أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل خيبر ، ثم رجّح معظمهم أنها كانت بعد غزوة بنى النضير فى العام الرابع للهجرة ، وذهب بعضهم كإبن سعد وابن حبان الى أنها كانت فى العام الخامس .

غير أن الإمام البخارى نصٌ فى صحيحه على أنها كانت بعد خيبر ، ولكنها جاءت مع ذلك فى ترتيب كتابة قبلها ! .. ورجح الحافظ ابن حجر ما ذهب إليه البخارى مستدلاً بأن صلاة الخوف كانت مشروعة فى ذات الرقاع مع أنه لم يصلها فى الخندق وقد فاتته فصلاها قضاءاً ، كما إستدل بما روى فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى يصف كيف نقبت أقدامهم فى ذات الرقاع حتى لفوا على أقدامهم الخرق فلذلك سميت بذات الرقاع وأبو موسى الأشعرى لم يعد من الحبشة إلا بعد غزوة خيبر ، واستشكل ابن القيم الأمر على ضوء هذه الأدلة فقال : إن هذا يدل على أن غزوة ذات الرقاع ربما كانت بعد غزوة الخندق .

قلت : بل يتعين أن تكون غزوة ذات الرقاع هذه قبلها ، إذ ثبت فى الصحيح أن جابراً رضى الله عنه إستأذن الرسول الى بيته فى غزوة الخندق وأخبر إمرأته بما رأى من جوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قصة الطعام الذى دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وفيه انه صلى الله عليه وسلم قال لزوجة جابر : كلى هذا واهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة ، وثبت فى الصحيحين أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جابر فى غزوة ذات الرقاع هل تزوج أم لا ؟ قال : نعم يا رسول الله .... الحديث وقد مرّ تفصيل ذلك . أى فلم يكن قد علم صلى الله عليه وسلم بعد شيئاً عن زواجه .

فهذا يدل دلالة واضحة على أن ذات الرقاع كانت قبل الأحزاب فضلاً عن خيبر .

ولم أر مستدلاً بهذا على تأخر الأحزاب عن ذات الرقاع ، ممن قال بذلك ، ولا من أجاب عنه ممن قال بعكسه ولكنه على كل حال ، دليل يكاد يكون قاطعا على ما نقول ، أمّا ما استدل به الحافظ ابن حجر من أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل صلاة الخوف فى الأحزاب وصلاها قضاء فيجاب عنه بأنه ربما كان سبب تأخير رسول الله صلى الله عليه وسلم لها إذ ذاك ، إستمرار الرمى بين المشركين و المسلمين بحيث لم يدع مجالاً للإنصراف الى الصلاة ، وربما كان العدو فى جهة القبلة وصلاة الخوف التى صلاها الرسول فى ذات الرقاع كان العدو فى غير جهة القبلة كما قد رأيت ، أو ربما أخرها لبيان مشروعية قضاء الفائتة كيفما كانت ، كما يجاب على الإستدلال بحديث أبى موسى الأشعرى بما ذكره كثير من علماء السير و المغازى من أن أبا موسى الأشعرى إنما قصد بها غزوة أخرى هى أيضاً سميت بذات الرقاع ، بدليل أنه قال عنها : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه ... الخ ، وغزوة ذات الرقاع التى نتحدث عنها كان العدو أكثر من ذلك .

وقد حاول الحافظ ابن حجر رحمه الله أن يرد على هذا الكلام ولكن ليس ثمّة داع الى ذلك ، خصوصاً وقد ثبت الدليل القاطع على ما ذهب إليه علماء السير و المغازى ، مما ذكرناه من حديث جابر فى كل من الغزوتين ، هذا ، وسنفصل الحديث عن تأخير النبى صلى اله عليه وسلم الصلاة عن وقتها يوم الخندق وما يتعلق به من مسائل و الأحكام فى مناسبته إن شاء الله .

ثم إن غزوة ذات الرقاع لم يشتبك فيها المسلمون مع أحد من المشركين بقتال ، كما رأيت من إستعراض خلاصتها ، ولكنها مع ذلك تنطوى على مشاهد ذات دلالات مختلفة يجب دراستها و الإعتبار بها ، ولقد ذكرنا منها خمسة مشاهد هى خلاصة أحداثها ، فلنذكر ما يمكن أن يفهم من كل واحد منها :

أولاً:- فيما رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى فى بيان سبب تسمية هذه الغزوة بهذا الإسم صورة واضحة عن مدى ما كان يتحمله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبليغ رسالة ربهم و الجهاد فى سبيله ، لقد أوضحت الصورة أنهم كانوا فقراء لا يجدون حتى الظهر الذى يمتطونه لجهادهم و غزواتهم ، فالستة أوالسبعة الذين كانوا يتعاقبون ركوب البعير الواحد فى قطع مسافة بعيدة شاقة ، ولكن الفقر مع ذلك لم يستطع أن يعيقهم عن أداء رسالتهم : رسالة الدعوة الى الله و الجهاد فى سبيله ، فقد تحملوا فى سبيل ذلك كل النتائج وكل ألوان المحن .... نقبت أقدامهم من طول سيرها على الوعثاء و القتاد ، وتساقطت أظفارهم مما إصطدمت بالحجارة و الصخور ، وتعرت أقدامهم فلم يجدوا إلا الخرق يلفونها عليها الواحدة فوق الأخرى !!..

ومع ذلك فما ضعفوا وما إستكانوا ، واستهانوا بكل ذلك فى جنب عظم المسؤولية الإلهية الملقاة على أعناقهم منذ أن أصبحوا مسلمين ، فقد كانوا يتمثلون قول الله تعالى :(إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنّة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وهو نص البيعة التى واقعوا عليها وأخذوا أنفسهم بها .

ثم إنك ترى أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه ، كره من نفسه أنه أباح بهذا الخبر ، بعد أن أفلت من فمه ، عندما سألوه عن سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع ، وإنما كره ذلك وندم عليه بسبب أنه أفشا شيئاً عمله الذى إحتسب أجره على الله غز وجل .

وهذا يدل كما يقول الإمام النووى ، على أنه يستحب للمسلم أن يخفى ألأعماله الصالحة وما قد يكابد من المشاق فى سبيل الله وفى طاعته ، وأن لا يتعمد إظهار شىء من ذلك إلا لمصلحة ، مثل بيان حكم ذلك الشىء و التنبيه على الإقتداء به ونحو ذلك ، وعلى مثل هذا يحمل ما وجد للسلف من الأخبار ببعض أعمالهم .

ثانياً:- الطريقة التى صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة مع أصضحابه فى هذه الغزوة هى الأساس الذى قامت عليه مشروعية صلاة الخوف .

ولصلاة الخوف كيفيتان ، إحداهما خاصة بأن يكون العدو فى جهة القبلة ، والثانية خاصة إذا كان العدو فى غير جهتها ، والكيفية الثانية هى التى صلى بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة ذات الرقاع فقد حان وقت الصلاة ، وأشتات العدو من حولهم فى

أكثر من جهة القبلة وحدها ويخشى أنهم يراقبون المسلمين من بعد ، حتى إذا رأوهم أدبروا عنهم جميعاً وانشغلوا بصلاتهم غدروا بهم وانحطوا فيهم بسيوفهم ، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة مع فرقة من أصحابه ،وإخوانهم يراقبون العدو فى جهاته المختلفة ، حتى إذا أتم الرسول صلى الله عليه وسلم من صلاته نصفها ، أى ركعة واحدة ، فارقه من كانوا يصلون خلفه وأسرعوا فأتموا الركعة الثانية وخدهم ، والرسول واقف فى صدر ركعته الثانية ، ثم ذهبوا ليرابطوا مكان إخوانهم ، حيث جاء هؤلاء فاقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته ، ثم قاموا فأتموا وحدهم الركعة الثانية لهم و النبى ينتظرهم جالساً ، ثم سلموا عليه .

والذى إقتضى هذه الكيفية من الصلاة مع إمكان أدائهم الصلاة بجماعتين ، سببان إثنان :

الأول : قصد إجتماعهم كلهم على الإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك فضيلة لا يصار الى غيرها عند إمكان تحقيقها.

الثانى : إستحباب وحدة الجماعة قدر الإمكان ، فتجزئة القوم أنفسهم الى عدة جماعات تتوالى لأداء فريضة من الفرائض مكروه بدون ضرورة .

ولم يلاحظ السادة الحنفية إلا السبب الأول لها ، ولذلك ذهبوا الى أنه لا مسوغ لبقاء مشروعيتها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : قصة المشرك الذى أخذ سيف النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم تحت الشجرة .... الخ ، قصة ثابتة وصحيحة كما رأيت ، وهى تكشف عن مدى رعاية البارى جل جلاله وحفظه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم هى تزيدك يقيناً بالخوارق التى أخضعها الله جل جلاله له عليه الصلاة و السلام مما يزيدك تبصراً ويقيناً بشخصيته النبوية ، فقد كان من السهل الطبيعى بالنسبة لذلك المشرك ـ وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبى صلىالله عليه وسلم وهو أعزل غارق فى غفلة النوم ـ أن يهوى به عليه فيقتله ، وإنك لتلمس ذلك من المشرك هذا الإعتداد بنفسه و الزهو بالفرصة الذهبية التى أمكنته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى قوله من يمنعك منى !؟ ..... فما الذى طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل ؟ ... إن الذى طرأ .... هو ما لم يكن فى حساب المشرك وتقديره ، ألا وهو عناية الله وحفظه لنبيه ورسوله ، فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف فى ساعديه تياراً من الرجفة ، فيسقط من يده السيف ..... ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهم ما يجب أن تعلمه من هذه الحادثة أن هذا هو مصدق قوله تعالى :(والله يعصمك من الناس) فليست العصمة المقصودة فى الآية ان لا يتعرض لأذى أو محنة من قومه ، إذ تلك هى سنة الله فى عباده كما قد علمت ، وإنما المراد من العصمة أن لا تطول إليه أى يد تحاول إغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التى بعث لتبليغها .

رابعاً:ـ إنما ذكرنا قصة جابر ابن عبد الله وما كان بينه و بين الرسول صلى الله عليه وسلم من المحادثة فى طريق عودتهما الىالمدينة ، مع أنها لا تتعلق بشىء من أمر الغزوة لما فيها من الصورة الكاملة الدقيقة لخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، وما إنطوى عليه خلقه الكريم هذا من لطف المعاشرة ورقة فى الحديث و فكاهة فى المحاورة ومحبة شديدة لأصحابه .

فأنت إذا تأملت جيداً فى هذه القصة التى سردناها ، علمت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان متأثراً بالمحنة التى طافت على بيت جابر ابن عبد الله ، فقد إستشهد والده فى غزوة أحد ، فقام هو ـ وهو أكبر أولاد أبيه ـ على شأن الأسرة ورعاية الأطفال الكثيرين الذين خلفهم له والده من ورائه ، وهو على ذلك رقيق الحال ليس له نصيب وافر من الدنيا .

وكأنما إستشعر الرسول صلى الله عليه وسلم فى تأخر جابر عن القوم بسبب جمله الضعيف الذى لا يملك غيره ، مظهراً لحالته العامة هذه ... (وقد كان من عادته صلى الله عليه وسلم إذا سار مع أصحابه فى طريق ، أن يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم

بين كل فترة و أخرى) ، فانتهزها فرصة وتخلف حتى إلتقى معه وراح يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه الذى رأيت ، فى طريق ليس معهما فيه ثالث .

عرض عليه صلى الله عليه وسلم شراء بعيره ، وهو إنما يريد أن يجعل ذلك ذريعة ومناسبة لإكرامه ومساعدته على وضعه الذى هو فيه ، ثم سأله عن زوجته و البيت ، فى أسلوب فكه رقيق ، وراح يطمئن الزوج الجديد ، أنهم إذا وصلوا قريباً من المدينة أقاموا ساعات هناك ، حتى يتسامع أهل المدينة بمقدمهم ، فتسمع زوجته فتصلح من شأنها وتهىء له البيت بزينته ونمارقه ، وينساق معه جابر فى الأسلوب نفسه فيقول : واله يا رسول الله ما لنا من نمارق ! ... فيجيبه صلى الله عليه وسلم قائلاً : إنها ستكون . صورة رائعة عن لطف معشره وأنس حديثه ، والفكاهة الحلوة فى محاورته لأصحابه ، لم يكتب لنا أن نراها ونسعد بها فى مجالسه صلى الله عليه وسلم وغزواته وأسفاره ، ولكن ها نحن نستشفها من سيرته وأخباره العطرة فيهزنا الشوق الى رؤيته التى حرمناها و مجالسه التى سمعنا بها ولم نرها ، وغزواته التى قرأناها ولم يكن لنا شرف الإشتراك فيها ، اللهم عوضنا عن ذلك كله بلقاء معه فى جنان خلدك ، وهيئنا لذلك بتوفيق من لدنك للتمسك بهديه واقتفاء أثره فى تحمل كل محنة وضيم فى سبيل دينك وتحقيق شريعتك .

خامساً :- لابد من أن يقف المسلم وقفة متأملة طويلة ، أمام خبر ذينك الصحابيين ، وهما يقومان على الثغر الذى أمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراسته ، ليعلم طبيعة الجهاد الإسلامى وكيف كان يمارسه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الجهاد عملاً حركياً يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة ، ولم يتصور واحد من المسلمين هذه الصورة الشوهاء له ولا فى لحظة واحدة ، إنما الجهاد - كما علمه الرسول صلى الله لعيه وسلم لأصحابه وفهمه الصحابة منه - عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كله بخالقه جل جلاله خاشعاً مستغيثاً متبتلاً ، وما ساعة يكون فيها المؤمن أقرب الى ربه جل جلاله من تلك الساعة التى يستدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت والإستشهاد .

ولذلك كان من الطبيعى جداً بالنسبة لذلك الأنصارى ، (عباد ابن بشر) رضى الله عنه ، أن يشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدى ربه عز وجل وقد إنصرفت مشاعره كلها الى مناجاته بآيات من كتابه الكريم .

وكان من الطبيعى جداً أن لا يبالى بذلك السهم الذى أسرع فانحط فى جسده ، ولا بالسهم الثانى الذى تبعه ، لأن بشريته كلها إنما كانت فى تلك الساعة مطوية ضمن مشاعره المنصرفة الى ربه جل جلاله وقد غمرتها لذة المناجاة بين العبد و خالقه ، ولما إرتد شعوره إليه وأخذ يهتم بما قد أصابه ، لم يكن ذلك لمزيد من الألم بدأ يشعر به ،وإنما للمسؤولية المنوطة به مخافة أن يضيعها بضياع حياته واستمرار سكوته ، فكان ذلك هو الذى إضطره الى أن يلتفت فيوقظ صاحبه ليستلم منه أمانة الثغر الذى أنيط بهما حفظه .

وتأمل يا أخى المسلم فى قوله رضى الله عنه : وأيم اله ، لولا أن أضيع ثغراً أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ، لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها (أى الصلاة) .

تلك هى طبيعة الجهاد الذى تكفل الله لأربابه بالنصر و الفوز ، مهما كانت القوة المتألبة عليهم المتجمعة من حولهم ، فقارن - ليتقطع منك الكبد حسرة وأسى - بين ذلك الجهاد و (الجهاد) الآخر الذى نفخر باسمه و شعاراته اليوم .

قارن ، لتقف على مدى عدالة الله فى الأرض ، ولتعلم أن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، ثم إرفع يديك الى السماء متوسلا أن لا يهلكنا الله بما فعل المبطلون ، واجتهد ا، تسكب قطرات حارة من دمع عينيك فيهما ، فلعل فى ذل العبودية إذ نتسربل به صادقين أمام الله ما يرد عنا نقمة حقت علينا بتقصيرنا وما جنيناه من سىء الأعمال على نفوسنا .

غزوة بنى المصطلق وتسمى غزوة المريسيع

ذكر ابن إسحاق وبعض علماء السيرة أنها كانت فى العام السادس من الهجرة ، والصحيح الذى ذهب إليه عامة المحققين أنها كانت فى شعبان من العام الخامس للهجرة ، ومن أبرز أدلة ذلك أن ابن سعد ابن معاذ كان حياً فى هذه الغزوة ، وله ذكر فى قصة الإفك التى سياتى تفصيلها إن شاء الله تعالى ، وقد توفى سعد ابن معاذ فى غزوة بنى قريظة متأثراص بجرحه الذى أصيب به فى الخندق ، وقد كانت غزوة بنى قريظة سنة خمس من الهجرة كما سيأتى بيان ذلك ، فكيف يكون سعداً حياً بعد عام من وفاته ؟

وسببها ما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن بنى المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث ابن ضرار ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى لقيهم عند ماء يقال له ((المريسيع) فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ،وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة اخماس الغنيمة على المقاتلين للراجل سهم وللفارس سهمان .

وخرج مع المسلمين فى هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين ، كان يغلب عليهم التخلف فى الغزوات السابقة ، وذلك لما رأوا من إضطراد نصر المسلمين وطمعاً فى الغنيمة .

وقد روى البخارى ومسلم من طريقين مختلفين أن بعض الصحابة إستفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن العزل فى هذه الغزوة ـ وذلك عندما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم السبى ـ فقال لهم : ما عليكم ألا تفعلوا ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة إلا وهى كائنة .

وروى ابن سعد فى طبقاته وابن هشام فى سيرته ، أن غلاما لعمر ابن الخطاب رضى الله عنه إسمه جهجاه ابن سعيد الغفارى تنازع مع سنان ابن وبر الجهنى ، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام الرسول صلى الله عليه وسلم هناك ، وكادا يقتتلان ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فسمع بالأمر عبد الله ابن أبى ابن سلول ، فغضب وقال للرهط ممن معه ، أو فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى ديارنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش (يقصد المسلمين) إلا كما قالوا : سمّن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وكان ممن سمع كلامه زيد ابن أرقم ، فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره الأمر ، وكان عنده عمر رضى الله عنه ، فقال يا رسول الله مر به عباد ابن بشر فليقتله ، فقال عليه الصلاة و السلام : فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذّن بالرحيل ، وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

ومشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ،وإنما فعل رسولالله صلى الله عليه وسلم ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبى ابن سلول ، ونزلت سورة المنافقين تصديقاً لقول زيد ابن أرقم عن عبد الله ابن أبى ، وفيها يقول الله تعالى :(يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

وجاء عبد الله ابن عبد الله ابن أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن رجعوا الى المدينة ـ فقال : إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلاً ، فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبربوالده منى وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل عبد الله ابن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله فأقتل رجلاً مؤمنا بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وجعل بعد ذلك إذا حدّث عبد الله ابن أبى بعد ذلك حديثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر : قد والله علمت أن لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

خبر الإفك

وفى منصرف المسلمين من هذه الغزوة كان حديث عائشة وقول أهل الإفك فيها ، ونحن نسوق لك خلاصة ما جاء فى الصحيحين من خبر ذلك :

فقد روت رضى الله عنها أنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ... قالت : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته وقفل ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت الى بعض شأنى ، فلما رجعت الى الرحل ، لمست صدرى فإذا عقدى قد إنقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسنى إبتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحّلونى فاحتملوا هودجى - وكان ذلك بعد نزول آية الحجاب - فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ..... فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عقدى بعدما إستمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فيممت منزلى الذى كنت به و ظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون الى ، وكان صفوان ابن المعطل من وراء الجيش فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان ، فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، وكنت قد غلبتنى عيناى فنمت ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير إسترجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فقمت عليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة ، وهم نزول ، فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله ابن أبى ابن سلول .

قالت : واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً ، والناس يفيضون فى قول الإفك ولا اشعر بشىء من ذلك غير أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فلما نقهت خرجت ذات ليلة مع أم مسطح لقضاء حاجة - ولم نكن قد إتخذنا الكنف - فلما رجعنا عثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها بئس ما قلت ، أتسبين رجلا قد شهد بدراً ؟! .. قالت أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت فأخبرتنى بخبر الإفك فازددت مرضاً الى مرضى ... وبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير بعض أصحابه فى الأمر وفى فراق أهله ، فمنهم من يقول يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، ومنهم من يقول : لم يضيق الله عليك النساء كثير واسأل الجارية - يعنى بريرة - تصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ، وسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ؟ فأخبرته أنها لم تعلم عنها إلا الخير ، فقام عليه الصلاة و السلام على المنبر فقال : يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغ أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهل بيتى إلا خيراً ، ولقد ذكروا لى رجل ما علمت عليه إلا خيراً ، فقام سعد ابن معاذ ، فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فتلاغط الناس فى المسجد حتى أسكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبواى عندى وهما يظنان أن البكاء فالق كبدى ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبثت شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت : فتشهد حين جلس ، ثم قال : أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت الممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته ، قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله ما أدرى ما أقول ، فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت : والله ما أدرى ما أقول ، فقلت : والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى إستقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى فى ذلك ، ولئن إعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى بريئة - لتصدقننى ، إنى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف :(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى . قالت فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم : فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشات من ثقل القول الذى أنزل عليه ، قالت : فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك

، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة أما الله فقد برأك ، فقالت أمى : قومى إليه (أى إشكريه) فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد أحداً إلا الله هو الذى أنزل براءتى ، قالت : فأنزل الله عز وجل :(إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شر اً لكم بل هو خير لكم لكل إمرىء منهم ما إكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) الى آخر عشرة آيات .

قالت : وكان أبى ينفق على مسطح لقرابته وفقره ، فقال : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله عز وجل (ولا يأتل أولوا الفضل منكم و السعة أن يؤتوا أولى القر بى) الى قوله تعالى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) ، فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ،فرجع الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

ثم خرج صلى الله عليه وسلم الى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمسطح ابن أثاثة ، وحسان ابن ثابت ، وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم .

العبر و الدلالات :

نأخذ من هذه الغزوة ما يلى :

أولاً:- مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين ، بعد إستثناء السلب و الخمس من الغنيمة ، فأما السلب فهو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه ، فيجوز أن يأخذه القاتل لقوله صلى الله عليه وسلم : من قتل قتيلاً فله سلبه وأما الخمس فهو لمن ذكرهم الله تعالى فى كتابه :(واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه و للرسول ولذى القربى و اليتامى والمساكين وابن السبيل) ، وأما الأخماس الأربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا متفق عليه بين الأئمة فى الأموال المنقولة ، أما الأرض فقد وقع الخلاف فى أمر تقسيمها كما عرضنا له عند الحديث عن أمر بنى النضير ،

ثانياً :- حكم العزل عند الجماع وتحديد النسل

ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها ، كما يتبع ذلك عموم ما يسمى اليوم بتحديد النسل .

والحديث الذى ذكرناه فى هذا صريح بجواز العزل ، فقد قال لهم حينما إستفتوه فى ذلك : ما عليكم ألا تفعلوا ، (وفى رواية لمسلم : لا عليكم أن لا تفعلوا ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة إلا وهى كائنة) أى ليس عليكم أن تتركوا العزل ، لأن ما قد قدر الله واقع لا ريب فيه ، فلا يمكن أن يمتنع المقدر بعملكم . وأصرح من هذا الحديث ما رواه الشيخان عن جابر رضى الله عنه أنه قال : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و القرآن ينزل .

وقد ذهب جمهور الأئمة بناءاً على هذا الى جواز ممارسة العزل ، ولكنهم إشترطوا لذلك موافقة الزوجة ، لما قد يكون من الضرر بها ، غير أنه يكره ذلك إذا كان سببه خشية النفقة وقلة ذات اليد .

وخالف ابن حزم الجمهور ، فذهب الى حرمة العزل مطلقاً ، مستدلاً بما رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن العزل ، فقال : ذلك الوأد الخفى ، واستدل بأحاديث أخرى كلها موقوفة على الصحابة ، فمن ذلك ما رواه بسنده عن نافع عن ابن عمر كان لا يعزل ، وقال لو علمت أحداً من ولدى يعزل لنكلته ، ومنه ما رواه من طريق الحجاج ابن منهال أن علىّ ابن أبى طالب كان يكره العزل .

وأجاب ابن حزم عن حديث جابر الذى غستدل به الجمهور بأنه منسوخ .

وذكر ابن حجر فى فتح البارى رأى ابن حزم ثم قال : وهذا معارض بحديثين أحدهما أخرجه الترمذى والنسائى وصححه من طريق معمر عن يحى ابن كثير عن جابر قال : كانت لنا جوارى وكنا نعزل ، فقالت اليهود إن تلك المؤودة الصغرى ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : كذبت اليهود ، لو أراد الله خلقه لم تستطع رده ، قال : و الحديث الثانى فى النسائى من وجه آخر عن محمد ابن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة .

أقول : وواضح أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن العزل : الوأد الخفى ، لا يعنى التحريم ، بل الأظهر أن يحمل كلامه هذا - على ضوء الأحاديث الثابتة الأخرى - على النهى التنزيهى كما ذهب الى ذلك الجمهور. ودعوى ابن حزم أن الأحاديث المبيحة للعزل منسوخة ، يردها ما رواه الستة خلا ابا داود من حديث جابر : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و القرآن ينزل زاد مسلم : فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا فلولا أن حكم إباحة العزل ظل مستمراً الى وفاته صلى الله عليه وسلم ، لما قال جابر رضى الله عنه ذلك ، ولأوضح آخر ما إستقر عليه الحكم الشرعى .

وحكم إسقاط النطفة قبل نفخ الروح فيها يتبع ما ذكرنا من حكم العزل ، إلا أن بعضاً من الجماهير الذين أفتوا بالعزل حرموا الإسقاط ، ولعلهم تحرجوا عن القياس فى ذلك ، واعتبروا المضغة أقرب الى التخليق بالذات الإنسانية من النطفة قبل العلوق ، وهو تحرج لا يتضح سببه ، اللهم إلا أن يكون ضرراً صحياً للحامل .

إذا علمت هذا ، علمت الحكم الشرعى الذى يتعلق بتحديد النسل وهو إتباع وسيلة علاجية لمنع الحمل بدلاً من العزل فهو جائز إذا إتبعت الوسائل التى أجازها جمهور الأئمة ، بشرط أن لا يظن فيه أى ضرر للزوجة وبشرط أن يكون ذلك برغبة متفقة من الزوجين ، ولست أعلم ما يخالف هذا الحكم عند أحد من الأئمة الفقهاء رحمهم الله ، إلا ما روى من ذلك الحافظ ولى الدين العراقى ، عن الشيخ عماد الدين ابن يوسف و الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، فقد روى عنهما القول بحرمة إستعمال المرأة دواء ما من شأنه أن يمنع الحمل ، قال ابن يونس : ولو رضى به الزوج .

أقول وهذا الرأى محجوج بمقتضى دلالة السنة ، وبما ذهب إليه بناء على ذلك الجمهور .

غير أن من أهم ما ينبغى تعلمه فى هذا الصدد ، أن الحكم بإباحة العزل وعموم ما يسمى اليوم بتحديد النسل ، منوط برضى الزوجين أنفسهما دون أن يكون عليهما سلطان أو توجيه من الخارج . إذ أن ما يجوز ممارسته للفرد صاحب العلاقة ، قد لا يجوز تشريعه بشكل إلزامى للجماعة ، وهذه قاعدة من القواعد الفقهية المتفق عليها .

فالطلاق مما يجوز للفرد المتزوج ممارسته عند الحاجة أو المصلحة التى يراها ، ولكن ليس للحاكم أن يأمر الناس أمراً إلزامياً أو أدبياً أو توجيهياً ، بأن يمارسوا هذا الحق فيطلقوا زوجاتهم ، وتحديد النسل شأنه فى ذلك شأن الطلاق تماماً وهذه القاعدة الهامة لابد من أن تعيها وتفهمها جيداً ، كى لا يلبس عليك أحد ممن يحترفون اليوم صناعة الفتوى قائلين : لقد أباحت السنة تحديد تانسل ،وهذا دليل على أن للدولة أن تحمل الناس - بما تراه من السبل - على ذلك .

و الحقيقة أنه لا علاقة إطلاقاً بين ذلك الدليل وهذا المدلول إلا علاقة التلبيس و التمويه .

فالخلاصة أن أمر العزل أو تحديد النسل ، إذا نظر غليه من حيث علاقة الزوجين ببعضهما وما تشيع بينهما من حقوق ويجمعهما من مصالح ، أمر سهل لا مشكلة فيه كما قد رأيت .

ولكنه إذا نظر إليه على أساس أن يكون مبدأ يدعى إليه دعوة عامة ويغرى الناس به بناءاً على فلسفة توجيهية تنشط وسائل الإعلام والتوجيه فى بثها ، فإنه يغدوا حينئذ من المسلمين أن ينشطوا فى محاربته محاربة واعية فعالة : تقوم على أساس فهم الخطط الماكرة المختلفة التى يبيتها أعداء المسلمين للإجهاز عليهم ، وعليهم أن لا ينخدعوا بما يشاع من مشاكل الإنتاج و الإقتصاد فذلك جزء من التخطيط نفسه .

ثالثاً :- تدلنا معالجة النبى صلى الله عليه وسلم للمشكلة التى إستغلها عبد الله ابن أبى ابن سلول بالشكل الذى رأيناه ، على مدى ما قد آتاه الله من براعة فائقة فى سياسة الأمور و تربية الناس و التغلب على مشاكلهم ، لقد كان ما سمعه صلى الله عليه وسلم من كلام ابن أبى مسوغاً كافياً لأن يأمر بقتله بحسب الظاهر ، ولكنه صلىالله عليه وسلم استقبل الأمر بصدر أرحب من ذلك ، وسمع عن اللغط الذى جرى و التناوش الذى وقع و الجيش فيه عدد كبير من المنافقين الذين يبحثون عن شىء مثل هذا ليقوموا ويقعدوا به ، فلم يعالج الأمر بعاطفة متاثرة ، وإنما ترك الحكمة وحدها هى التى تدبر ، فكان أن أمر القوم بالمسير فى وقت لم

يكونوا يعتادونه ، حتى يشغلهم السير عن الإجتماع و المحادثة و الكلام ، وظل يسير بهم بقية اليوم و الليل كله وصدر اليوم التالى ، لا يدع لهم مجالاً يفرغ فيه المنافقون للخوض فيما يريدونه من باطل ، فلما إنحطوا بعد ذلك على الأرض لم يدع لهم التعب فرصة الحديث عن شىء ، وذهب الجميع فى سبات عميق .

وانتظر الناس أن يجدوا من الرسول صلى الله عليه وسلم إذا وصل المدينة شدة على المنافقين لا ريب أنها تتجلى فى قتل عبد الله ابن أبى ابن سلول فلذلك جاءه ابنه عبد الله رضى الله عنه يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتولى هو قتل أبيه إذا كان الرسول يريد أن يحكم بذلك ولكنه فوجىء من رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لم يكن متوقعاً حينما قال : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ، وانظر الى التعليل فيما قاله لعمر رضى الله عنه : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟

ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن إنحسر عبد الله ابن أبى ابن سلول قومه فكانوا هم الذين يعنّفونه ويفضحون أمره إذا ما أراد أن يحدث شيئاً ، وأنت خبير أن المنافق يعتبر فى الأحكام القضائية الدنيوية مسلماً مع وجوب الحيطة و الحذر منه.

وقبل أن تستغرق فى التأمل فيما كان يتصف به صلى الله عليه وسلم من البراعة فى الحكمة و السياسة وتدبير الأمور ، ينبغى أن أذكرك مرة أخرى بأن كل هذه الصفات إنما تأتى من وراء صفة النبوة فيه ، فهى كلها متفرعة عن كونه نبياً ورسولاً الى الناس ، ومن الخطأ الفادح أن يعمد باحث فيحلل مثل هذه الصفات فى حياته صلى الله عليه وسلم دون أن يربطها بمصدره الأساسى الأول وهو نبوته صلى الله عليه وسلم ورسالته .

وتلك خطة ـ كما بينا ذلك سابقاً ـ يختارها محترفوا الغزو الفكرى لشغل المسلمين عن التأمل فى نبوته عليه الصلاة و السلام ويتلقفها منهم أولئك الذين فاقوا حتى القردة فى إتقان فن التقليد الأعمى .

رابعاً:ـ وأما قصة الإفك فإنها حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء و المحن التى لقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعداء الدين ، ولقد كانت هذه الأذية أشد فى وقعها على نفسه صلى الله عليه وسلم من كل تلك المحن السابقة ، وتلك هى طبيعة الشر الذى يصدر من المنافقين ، فهو دائما يكون أقسى من غيره و أبلغ فى المكيدة و الضرر ، إذ تكون الفرص و الأسباب الخاضعة لهم أكثر من غيرهم ، وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذى تفرد به المنافقون .

وإنما كانت هذه القصة أبلغ من غيرها فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم لأن كل ما كان قد كابده قبل ذلك من المحن التى تحدثنا عن طرف منها ، أمور كان يتوقعها ، قد وطن نفسه لقبولها وتحملها وليس إلتقاؤه بها فى طريق الدعوة مفاجأة له ، أما هذه فقد فوجىء بها ... لأنها ليس مما قد إعتاده ، أو توقعه . إنها اليوم شىء آخر .... إنها شائعة ، لو صحت لكانت طعنة نجلاء فى أخص ما يعتز به إنسان ، أخص ما يتصف به الشرف و الكرامة وما الذى أدراه إنها شائعة صحيحة أو باطلة ؟ ... من هنا كانت هذه الأذية أبلغ فى تأثيرها من كل ما عداها ، لأنها جاءت لتلقى بشعوره النفسى فى إضطراب مثير لا مناص منه . ومع ذلك فلو أن الوحى سارع الى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان فى ذلك مخلص من هذا الإضطراب و الشكوك المثيرة ، ولكن الوحى تلبث أكثر من شهر لا يعلّق على ذلك ، فكان ذلك مصدراً آخر للقلق و الشكوك .

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه ، جاءت منطوية على حكمة إلهية إستهدفت إبراز شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يتلبس بها . إن معنى النبوة فى حياته صلى الله عليه وسلم كان من المحتمل أن يبقى مشوباً فى وهم بعض المؤمنين به ، والكافرين على السواء لو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهز شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هزا قوياً يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه ، ثم لتجلى معنى النبوة و الوحى تجلية تامة امام الأنظار و الأفكار ، حتى لا يبقى أى مجال التباس بينه و بين أى معنى من المعانى النفسية أو الشعورية الأخرى .

لقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبى صلى الله لعيه وسلم ، وهو فى طور من إنسانيته العادية ة يتصرف ويتأمل ويفكر كأى أحد

من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء ، و المرسلين ، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أى بشر عادى من الناس ، ليس له إضطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول ، ولا على قصد ملفق كاذب ، فاضطرب كما يضطربون ، وشك كما يشكون ، وأخذ يقلب الرأى على وجوهه ، ويستنجد فى ذلك بمشورة أولى الرأى من أصحابه .

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية فى إبراز هذا الجانب الإنسانى المجرد فيه صلى الله عليه وسلم ، أن يتأخر الوحى كل هذه الفترة التى تأخرها كى تتجلى للناس حقيقتان كل منهما على غاية من الأهمية :

أما الحقيقة الأولى : فهى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشراً من الناس ، فلا ينبغى لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية ، فينسب إليه من الأمور و التأثير فى الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله تعالى وحده .

وأما الحقيقة الثانية : فهى أن الوحى الإلهى ليس شعوراً نفسياً ينبثق من كيان النبى صلى الله عليه وسلم ، كما أنه شيئاً ليس خاضعاً لإرادته أو تطلعاته وأمنياته . إذ لو كان كذلك ، لكان من السهل عليه أن ينه هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها و نتائجها ، ويجعل مما يعتقد من الخير و الإستقامة فى أهله قرآناً يطمئن به أصحابه المؤمنين ، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول ، ولكنه لم يفعل ، لأنه لا يملك ذلك .

ولننقل لك ما يقوله فى بيان هذه الحقيقة الدكتور / محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) يقول : (ألم يرجف المنافقون فى المدينة بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ، وأبطأ الوحى وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس (إنى لا أعلم عنها إلا خيراً) ثم إنه بعد أن بذل جهده فى التحرى و السؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهراً بأكمله والكل يقولون : ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر : يا عائشة أما إنه قد بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله)

هذا كلامه بوحى ضميره ، وهو كما ترى كلام البشر الذى لا يعلم الغيب ، وكلام الصديق المتثبت الذى لا يتبع الظنون ولا يقول ما ليس له به علم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها .

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل ليحمى بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها الى الوحى السماوى ، لتنقطع ألسنة التخرصّين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله :(ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين)

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها ، اول من تجلت لها هاتان الحقيقتان ، حتى ذهبت فى توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهباً أنساها ما سواه ومن سواه ، فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة : لا أقوم إليه ولا احمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى .

إن هذا الكلام من السيدة عائشة رضى الله عنها قد يبدو وكأن فيه شيئاً من عدم اللباقة تجاه النبى صلى الله عليه وسلم ، غير ان الظروف والحالة هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام ،فهى إنما إنساقت بوحى الحالة التى كونتها الخكمةالإلهية تثبيتاً لعقيدة المؤمنين ، وقطعاً لإفك المنافقين و الملحدين وإظهاراً لمعنى التوحيد و العبودية الشاملة لله وحده .

وهكذا فقد إنطوت قصة الإفك على حكمةإلهية باهرة إستهدفت تثبيت العقيدة الإسلامية ، ورد ما قد يعرض من شبهة عليها ، وتلك هى الخيرية التى عبر الله عنها بقوله : لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم .

خامساً :ـ فى قصة الإفك هذه ، ما يدلنا على مشروعية حد القذف فقد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بأولئك الذين تفوهوا بصريح القذف ، فضربوا حد القذف وهو ثمانون جلدة وليس فى هذا من إشكال .

إنما الإشكال فى أن ينجو من الحد الذى تولى كبر هذه الشائعة وتسييرها بين الناس وهو عبد الله ابن أبى ابن سلول ، والسبب كما قال ابن القيم ، أنه كان يعالج الحديث من الإفك بين الناس بخبث ، فكان يستوشى الكلام فيه ويجمعه ويحكيه فى قوالب من لا ينسب إليه ، وأنت خبير أن حد القذف إنما يقع على من يتفوّه به بصريح القول .

هذا ولنختم الحديث عن قصة الإفك ودروسها بذكر الآيات العشر التى نزلت ببراءة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وإدانة المنافقين و الخاطئين ، يقول الله تعالى :(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل إمرىء منهم ما إكتسب من الإثم و الذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل عليكم ورحمته فى الدنيا و الآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ولولا فضل الله عليكم ورخمته وأن الله رؤوف رحيم .)

غزوة الخندق

وتسمى بغزوة الأحزاب ، وقد كانت فى شوال سنة خمس هجرية على ما جزم به ابن إسحاق وعروة ابن الزبير وقتادة و البيهقى وجمهور علماء السيرة ، وقيل فى سنة أربع من الهجرة . وقد تفرد به موسى ابن عقبة ورواه عنه البخارى وتابعه فى ذلك مالك .

وسببها : أن نفراً من زعماء اليهود من بنى النضير خرجوا حتى قدموا مكة فدعوا قريشاً الى حرب رسول الله صلىالله عليه وسلم وقالوا : سنكون معكم حتى نستأصله ، وقالوا لهم إن ما أنتم عليه خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم ففيهم نزل قول الله تعالى :(ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت و الطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتواعدوا لذلك .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم الى مثل ما دعوا إليه قريش ، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ، ثم إلتقوا ببنى فزارة وبنى مرة ، وتم لهم مع هؤلاء جميعاً تواعد فى الزمان و المكان لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تهيؤ المسلمين للحرب : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وسمع بخروجهم من مكة ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم فى الأمر ، فأشار عليه سلمان الفارسى بالخندق ، فأعجب ذلك المسلمين (والخندق مما لم يكن يعلمه العرب من وسائل الحرب) فخرجوا من المدينة وعسكر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفح جبل سلع فجعلوه خلفهم ، ثم هبوا جميعاً يحفرون الخندق بينهم وبين العدو ، كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف ، وعدد ما إجتمع من قريش و الأحزاب و القبائل الأخرى عشرة آلاف .

مشاهد من عمل المسلمين فى حفر الخندق : روى البخارى عن البراء رضى الله عنه قال : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب عنى جلدة بطنه ،وكان كثير الشعر ، وروى أنس رضى الله عنه أن الأنصار و المهاجرين كانوا يرتجزون وينقلون التراب على متونهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً

فيجيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك فى الأنصار و المهاجرة

وروى البخارى أيضاً فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة ، فجاؤا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل (أو أهيم) فقلت يا رسول الله إئذن لى الى البيت فقلت لإمرأتى رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ما كان لى فى ذلك صبر ، فعندك شىء ؟ قالت عندى شعير وعناق ، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم و العجين قد إنكسر و البرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج ، فقلت طعيّم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال : كم هو ؟ فذكرت له ، قال كثير طيب ، فقل لها لا تنزع البرمة و لا الخبز من التنور حتى آتى ، ثم نادى المهاجرين و الأنصار فقال لهم قوموا .... وفى طريق أخرى : فصاح النبى صلى الله عليه وسلم : يا أهل الخندق ، إن جابر قد صنع سوراً فحىّ هلا بكم ، فلما دخل جابر على إمرأته قال : ويحك جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين و الأنصار ومن معهم ! .... قالت : هل سألك كم طعامك ؟ قال : نعم ، قالت : الله ورسوله أعلم .

ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه الحم ويخمّر البرمة و التنور إذا أخذ منه شىء ، ويقرب الى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية ! قال : كلى هذا واهدى ، فإن الناس قد أصابتهم مجاعة (وفى رواية أخرى) فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو) .

موقف المنافقين من العمل فى الخندق :

روى ابن هشام أنه أبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم فى الخندق رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون الى أهليهم بغير علم الرسول صلىالله عليه وسلم ، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد له منها يستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له ، فإذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله ، وفى ذلك نزل قوله تعالى :(إنما المؤمنون الذين إذا آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) .

نقض بنى قريظة للعهد :

وخرج حيى ابن أخطب النضرى حتى أتى كعب ابن أسد القرظى فأغراه بنقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له : جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى الى جانب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر .... ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءاً ، ولم يزل حيى بكعب حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد ، وانتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل سعد ابن معاذ ليتحقق من الخبر وأوصاه أن يلحن له بإشارة يفهمها إذا كان الخبر حقاً . وأن لا يفت فى أعضاد الناس وإن كان كذباً فليجهر به فى الناس ، فلما استطلع سعد الخبر ورآه حقاً عاد الى رسول الله صلى اله عليه وسلم فقال له : عضل والقارة، أى كغدر عضل و القارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

ما آل إليه حال المسلمين إذ ذاك :

بلغ المسلمين خبر نقض بنى قريظة العهد ، وذر قرن المنافقين بينهم يفتّون فى أعضادهم ، وجاءهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، وراح المنافقون يرجفون فى المدينة حتى إن أحدهم ليقول :(كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغئط) ولما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر كذلك وأن البلاء قد إشتد بالمسلمين بعث الى سعد ابن معاذ وسعد ابن عبادة فاستشارهما فى أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كى ينصرفوا عن قتال المسلمين فقالا له : يا رسول الله ، أهو أمر تحبه فنصنعه ، أم شىء أمرك به الله ، أم شىء تصنعه لنا ؟ ، فقال : بل شىء أصنعه لكم كى أكسر عنكم من شوكتهم ، وحينئذ قال له سعد ابن معاذ : والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا و بينهم ، فتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : فأنت وذاك .

قال ابن اسحاق يروى عن عاصم ابن عمرو ابن قتادة وعن محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى : ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح (أى بين المسلمين وغطفان) إلا المراوضة فى ذلك .

أما المشركون فقد فوجئوا بالخندق حينما وصلوا إليه ، وقالوا إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، فعسكروا حول الخندق يحاصرون المسلمين ،ولم يحدث قتال غير أن بعض المشركين أخذوا يتيممون مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموا منه ، فأخذ عليهم المسلمين الثغرة التى إقتحموا منها ، فارتد بعضهم وقتل البعض ، وكان ممن قتل إذ ذاك عمرو ابن عبد ودّ قتله علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه .

هزيمة المشركين بدون قتال :

وكفى الله المؤمنين القتال فهزم جموع المشركين بوسيلتين لا دخل للمسلمين فيهما :

أما أولاهما : فرجل من المشركين إسمه /(نعيم ابن مسعود) أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً وعرض عليه تنفيذ أى أمر يريده النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : إنما أنت رجل واحد فينا ، ولكن خذّل عنا إن غستطعت ، فإن الحرب خدعة ، فخرج نعيم ابن مسعود فأتى بنى قريظة فأقنعهم - وهم يحسبونه لا يزال مشركاً - أن لا يتورطوا مع قريش فى قتال حتى يأخذوا منهم رهائن ، كى لا يولوا الأدبار ، فيبقون وحدهم فى المدينة دون أى نصير لهم على محمد وأصحابه فقالوا له : إنه للرأى ! .....

ثم خرج حتى أتى قريشاً فأنبأهم أن بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا وأنهم قد إتفقوا خفية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يختطفوا عددا من اشراف قريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم ، فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلاً منكم ، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل الذى قال لقريش ، وهكذا تألب بعضهم على بعض ، واختفت الثقة مما بينهم ، وأصبح كل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بالغدر و الخيانة .

أما الوسيلة الثانية : فهى ريح هوجاء مخيفة فى ليلة مظلمة باردة ، جاءت فقلبت قدورهم واقتلعت خيامهم ، وقطعت أوتادهم ، وذلك بعد بضعة عشر يوماً من المحاصرة التى ضربها المشركون على المسلمين .

روى مسلم بسنده عن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة ، فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله معى يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، (ردد ذلك ثلاثاً)ثم قال : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم .فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم قال : إذهب فأتنى بخبر القوم ولا تذعرهم علىّ ، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان ابن حرب يصلى ظهره بالنار ، فوضعت سهماً فى كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا تذعرهم علىّ ، ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام ، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت ، فألبسنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها . فلم أزل نائما حتى أصبحت ، قال : قم يا نومان .

وروى ابن اسحاق بزيادة : فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءاً ، فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش لينظر إمرؤ من جليسه ؟ قال حذيفة ، فأخذت بيد الرجل الذى كان الى جانبى فقلت له من أنت ؟ فلان ابن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع و الخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون .... فارتحلوا فإنى مرتحل .

وفى صباح اليوم الثانى ، كان المشركون كلهم قد ولوا الأدبار ، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة .

وكان لا يفتر عليه الصلاة و السلام طيلة هذه الأيام و الليالى عن الإستغاثة و التضرع و الدعاء الى الله تعالى أن يؤتى المسلمين النصر ، وكان من جملة دعائه عليه الصلاة والسلام فى ذلك :(اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، إهزم الأحزاب ، اللهم إهزمهم وزلزلهم) .

* وفى هذه الغزوة فاتت النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فى وقتها فقضاها بعد خروج الوقت ، فقد ورد فى الصحيحين أن عمر ابن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ، فقال : يا رسول الله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب ! ... فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والله ما صليتها ، فقمنا الى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب) وزاد مسلم على هذا حديثاً آخر أنه صلى الله عليه وسلم ، قال يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً ، ثم صلاها بين العشاءين : بين المغرب و العشاء .

العبر و العظات :

وهذه الغزوة أيضاً ـ كما ترى ـ قامت على غدر اليهودوكيدهم فهم الذين أثاروا وألبوا ، وجمعوا الجموع و الأحزاب ، ولم يتوقف ذلك على بنى النضير الذين كانوا قد أخرجوا من المدينة ، بل إشترك معهم بنو قريظة الذين كانوا لا يزالون مرتبطين بعهود ومواثيق مع المسلمين ، دون أن يجدوا منهم أى مكروه من شأنه أن يدعوهم الى نقض تلك العهود و المواثيق !....

ولم نعد بحاجة الى أن نعلق على هذا ونحوه ، ونستنبط منه العظات و الدروس ، فهومن جليات الأمور التى أصبحت من المقولات التاريخية المعروفة فى كل زمان ومكان .

ولنعد الآن الى هذا الذى استعرضناه من وقائع هذه الغزوة ومشاهدها لنقف على ما تنطوى عليه من دروس وعظات وأحكام ، وسنلخصها فى الأمور التالية :

أولاً:ـ لقد كان من جملة الوسائل الحربية التى غستعملها المسلمون فى هذه الغزوة حفر الخندق ، ولقد كانت غزوة الأحزاب أول غزوة فى التاريخ العربى و الإسلامى يحفر فيها الخنادق ، إذ هو مما كان متعارفاً بين العاجم فقط ، ولقد رأيت أن الذى غقترح ذلك هو سلمان الفارسى ، وقد رأيت أن النبى صلى الله عليه وسلم أعجب بهذه الوسيلة الحربية وسرعان ما دعا أصحابه الى القيام بتحقيقها .

وهذا من جملة الأدلة الكثيرة التى تدل على أن الحكمة هى ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها بل هو أولى بها من غيره ، وأن الشريعة الإسلامية بمقدار ما تكره للمسلمين إتباع غيرهم وتقليدهم على غير بصيرة ، تحب لهم أن يجمعوا لأنفسهم أطراف الخير كله والمبادىء المفيدة جميعها ، أينما لاح لهم ذلك ، وحيثما وجد ، فالقاعدة الإسلامية العامة فى هذا الصدد ، هى أن لا يعطل المسلم عقله الحر وتفكيره الدقيق فى سلوكه وعامة شؤونه و أحواله ، وإذا كان المسلم كذلك ، فهو ولا ريب ، لا يمكن أن يربط فى عنقه زماماً يسلم طرفه للآخرين فيقودوه حيثما أرادوا بدون وعى ولا بصيرة ، وهو أيضاً لا يمكن أن يتجاهل أى مبدأ أو عمل أو نظام يسلّم به العقل النير و الفكر الحر وينسجم مع مبادىء الشريعة الإسلامية ، ليتجاوزه ولا يتعب نفسه بأخذه و الإستفادة منه .

وهذا السلوك الذى شرعه الله للمسلم ، إنما ينبع من أصل أساسى هو الكرامة التى فطر الله الإنسان عليها إذا إقتضت مشيئته أن يكون هو سيد المخلوقات ، وما ممارسة العبودية لله تعالى والتزام أحكام شريعته إلا ضمان لحفظ هذه الكرامة و السيادة .

ثانياً:- وفيما استعرضناه من مشهد عمل الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، عبر بالغة كبرى ، توضح لك حقيقة المساواة التى يرسيها المجتمع الإسلامى بين جميع أفراده المسلمين ، وتكشف لك عن أن العدالة و المساواة ، ليستا فى الإعتبار الإسلامى مجرد شعارات يزين بها ظاهر المجتمع أو يوضع منه فى إطار لامع براق ، وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعى الذى تنبثق منه عامة القيم و المبادىء الإسلامية ظاهراً و باطناً .

فأنت تجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يندب المسلمين الى حفر الخندق ، ثم ذهب يراقبهم فى قصر منيف له مستريحاً هادئاً ، ولا أقبل إليهم فى إحتفال صاخب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه ، فيضرب به ضربة واحدة فى الأرض إيذاناً ببدء العمل وتخييلاً لهم أنه قد شاركهم فى ذلك ، ثم يلقى المعول ويدير ظهره إليهم ، ينفض عن حلته ما قد علق بها من ذرات الغبار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنخرط فى العمل كأى واحد من أصحابه ، حتى لبس ثوباً من الأتربة و الغبار على جسمه فما تفرقه عن أى عامل آخر من صحبه وإخوانه ، يرتجزون لينشط بعضهم بعضاً ،فيرتجز معهم ، ويتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعباً وجوعاً ، وتلك هى حقيقة ما أقامته الشريعة الإسلامية من مساواةبين الحاكم و المحكوم ، والغنى و الفقير ، والصعلوك و الأمير ، وأنت لا تجد فرعاً من فروع الشريعةوأحكامها إلا قائماً على هذا الأساس ضامناً لهذا الحق .وأعيذك أن تخطىء فتسمى هذه ديمقراطية فى السلوك و الحكم ، فشتان ما بينهما من الفرق .

مصدر هذه العدالة والمساواة فى الدين الإسلامى ، هو العبودية لله تعالى ، وهى صفة عامة شاملة للناس كلهم ، تضعهم فى صف واحد من المكانةو الإعتبار ، ومصدر ما يسمونه بالديمقراطية ، تحكيم رأى الأكثرية أى تأليه رأى الأكثرية على الآخرين ، مهما كانت طبيعة ذلك الرأى ومرماه .

من أجل هذا ، لا تعوج الشريعة الإسلامية على شىء مما يسمى بالإمتيازات لأى طبقة أو فئة من الناس ، ولا تخص جماعة منهم بحصانة ما مهما كانت الدوافع و الأسباب ، لأن صفة العبودية لله تعالى من شأنها أن تذيب كل ذلك وتلغيه من الإعتبار .

ثالثاً :- وفى هذا المشهد نفسه أيضاً عظة وعبرة أخرى تكشف لك عن مظهر النبوة فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، وتضعك امام مدى ما كانت تمتلىء به نفسه من محبة أصحابه و الشفقة عليهم وتعطيك مثالاً آخر للخوارق و المعجزات التى أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم .

فأما ما يتجلى من شخصيته النبوية فى هذا المشهد ، فذلك يبدو فى مكابدته صلى الله عليه وسلم للجوع الشديد أثناء عمله مع أصحابه ، حتى إنه ليشد الحجر على بطنه ، يتقى بذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ فى معدته ، ترى ما الذى يمكن أن يحمله على المعاناة لمثل هذه المشقة و الجهد ؟ أهو التطلع للزعامة ؟ .... أم هى الرغبة فى المال و الملك ؟ .... أم هو الطموح الى أن يجد من حوله شيعة وأتباعاً ؟ ..... كل هذه المطامع ، تناقض مناقضة صارخة هذا الذى يكابده ويعانيه ، وما أبعد الرجل الذى يطمع فى جاه أو ملك أو سلطان عن الصبر على تحمل مثل هذه الآلام .

إن الذى يحمله على تحمل كل ذلك إنما هو مسؤولية الرسالة و الأمانة التىى كلف بتبليغها و السير بها الى الناس فى طريق هذه طبيعتها ، فهذه الشخصية النبوية التى تتجلى فى عمله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى حفر الخندق .

وأما ما يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لأصحابه و الشفقة عليهم ، فإنك لتجده واضحاً فى موقفه صلى الله عليه وسلم من دعوة جابر رضى الله عنه له الى طعامه القليل ، ذلك الذى صنعه له . لقد كان الذى دفع جابر الى دعوته صلى الله عليه وسلم ، ما إكتشفه من شدة جوعه عليه الصلاة و السلام حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف ، ولم يكن فى بيته من الطعام إلا ما يكفى لبضعة أشخاص ، فاضطر الى أن يجعل الدعوة على قدر ما عنده من طعام .

ولكن كيف يتصور أن يترك النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعاً ، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون و يأكلون ، وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها ! ، أما جابر فقد كان مضطراً الى ما فعل ، وكان ذلك منه طبيعياً ، إذ أنه كأى مفكر عادى من الناس - لم يكن يملك أن يتصرف إلا حسب ما لديه من الأسباب المادية و الطعام الذى لديه لا يكفى فيما يجمع عليه عرف البشر إلا لهذا العدد اليسير ، فليختص به إذاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يشاء من بعض أصحابه فى حدود ضيقة .

ولكنه عليه الصلاة و السلام لم يكن ليتأثر بنظرة جابر إليه ، فهو أولا لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشىء من النعمة أو الراحة ، وهو ثانياً لا يمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها التى ألفها البشر ، فالله وحده مسبب الأسباب و خالقها ، ومن اليسير عليه سبحانه أن يجعل من الطعام اليسير كثيراً ، وأن يبارك فى القليل منه حتى يكفى القوم كلهم ، ومهما يكن فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلت كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت ... ! فمن أجل ذلك أرسل جابراً الى داره ليهيىء لهم الطعام ، وانفتل هو الى عامة القوم يناديهم أن يقبلوا جميعاً الى صنيعة كبرى لهم فى دار جابر .

وأما المعجزة الخارقة فى هذه القصة : فهى ما رأيت من إنقلاب شاة جابر الضعيفة الى طعام وفير كثير ، شبع منه مئات الصحابة، وبقيت منه بقية كثيرة تركوها بعد أن إقترح النبى صلى الله عليه وسلم على أهل البيت أن يتصدقوا بها ! ... لقد كانت هذه الخارقة العجيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تقديراً إلهياً لمدى محبته صلى الله عليه وسلم لأصحابه وإعراضه عن الأسباب المادية وشأنها فى جنب قدرة الله وسلطانه .

والذى أريده من القارىء أن ينتبه بفكره الى مثل هذه المؤيدات الإلهية التى كان يؤيد بها النبى صلى الله عليه وسلم من وراء قيمة الأسباب المادية وسلطانها ، فهى من أهم ما يبرز معالم شخصيته النبوية للدارس المتأمل ، أريد من القارىء أن ينتبه بفكره الى هذه الحقيقة ، بمقدار ما يمعن بعضهم فى الإعراض عنها ، وإن قابلتهم وجها لوجه أثناء البحث ، بأدلة ثابتة لا تقبل الشك .

رابعاً:- ما هى الحكمة ترى فى إستشارته عليه الصلاة و السلام لبعض أصحابه فى أن يعرض صلحا على غطفان ، قوامه إعطاؤهم ثلث ثمار المدينة على ان ينصرفوا عن تأييد قريش ومن معهم ، ويرجعوا عن حرب المسلمين ، وماهى الدلالة التشريعية التى تؤخذ من تفكيره هذا ؟

أما الحكمة ، فهى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يطمئن الى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية و الإعتماد على نصر الله وتوفيقه رغم هذا الذى فوجئوا به من إجتماع أشتات المشركين عليهم فى كثرة ساحقة ، الى جانب ما طلعت به بنو قريظة فى الوقت نفسه من نقض العهود والمواثيق ، وقد كان من عادته صلى الله عليه وسلم - كما رأيت - أنه لم يكن يحب أن يسوق أصحابه الى الحرب أو مغامرة لا يجدون فى أنفسهم شجاعة كافية لخوضها ، أو لا يؤمنون بجدواها ، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، فمن أجل ذلك عرض على أصحابه هذا الراى ، وأنبأهم أنه ليس تبليغاً من الله تعالى ، وإنما هو شىء يبديه لهم كى يكسر عنهم شوكة المشركين ، إذا كانوا لا يجدون فى أنفسهم طاقة على مقابلتهم .

وأما الدلالة التشريعية فى هذه الإستشارة فهى محصورة فى مجرد مشروعية مبدأ الشورى فى كل ما لا نص فيه ، وهى بعد ذلك لا تحمل أى دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما إقتحموها بإقتطاع شىء من أرضهم أو خيراتهم لهم ، إذ مما هو متفق عليه فى أصول الشريعة الإسلامية أن الذى يحتج به من تصرفاته صلى الله عليه وسلم إنما هو أقواله وأفعاله التى قام بها ، ثم لم يرد إعتراض عليها من كتاب الله تعالى ، فأما ما كان من ذلك فى حدود الإستشارة و الرأى المجرد فلا يعتبر دليلاً بحال ، إذ الإستشارة أولاً : يمكن أن يكون المقصود منها مجرد إستطلاع لما فى النفوس كما ذكرنا ، أى فهى ممارسة لعمل

تربوى بحت ، وهى ثانياً : حتى ولو إنتهت بعمل تنفيذى ، يمكن أن يرد على عقبه إعتراض من كتاب الله تعالى فلا تبقى فيه أى دلالة تشريعية .

على أن علماء السيرة نصّوا كما قد رأيت على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبرم صلحاً مع غطفان ولم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح وإنما الأمر كان مراوضة لم يتجاوزها .

نقول هذا لأن فئة مجهولة فى عصرنا هذا ، أخذت تزعم زعماً شنيعاً فى منتهى الغرابة ، وهو : أنه يجب على المسلمين أن يدفعوا (الجزية) الى غير المسلمين إذا إقتضت الحاجة ، مستدلة على ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم قد إستشار أصحابه فى غزوة الخندق أن يفعل ذلك !

وبقطع النظر عن هذا الذى أوضحناه من أن مضمون الرأى المعروض على بساط الإستشارة لا يعتبر دليلاً تشريعياً ، فلسنا ندرى ما الصلة بين الجزية وما يمكن أن يتصالح عليه فريقان متحاربان ؟

فإن قلت : فهب أن المسلمين إضطروا - بسبب من أسباب الضعف - الى الخروج عن بعض أموالهم حفظاً على حياتهم وحذراً من أن تستأصل شأفة المسلمين ، أفليس لهم أن يفعلوا ذلك ؟

فالجواب أن هنالك حالات كثيرة تستلب فيها أموال المسلمين وتصبح غنائم لأعدائهم ، ويستعدى فيها الكافرون على بلاد المسلمين وخيراتهم فيتمكنون فيها ويسيطرون عليها ومعلوم - بالبداهة-أن المسلمين لا يخضعون لشىء من ذلك عن طريق الإختيار واتباع الفتوى ، وإنما يلجأون الى ذلك إلجاءاً ويحملون عليه كرهاً ، وهم مع ذلك يتربصون بأعدائهم الفرص السانحة ، وأنت خبير أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما يخاطب بها من لم يكن مكرهاً ولا ملجأ ولا صبياً أو مجنون .

وإذاً فمن العبث إنتزاع هذه الحالة التى هى من وراء حدود التكليف كما يقرر على أساسها حكم تكليفى يختار على أساس الرأى و المصلحة و المراوضة .

خامساً:- كيف وبأى وسيلة إنتصر المسلمون وانهزم المشركون فى هذه الغزوة ؟

لقد رأينا الوسيلة التى إلتجأ إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى غزوة بدر ، هى نفس الوسيلة التى إلتجأ إليها فى الخندق .... إنها وسيلة التضرع الى الله تعالى والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء و الإستغاثة ، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذى ظل الرسول صلى الله عليه وسلم يفزع إليه كلما لقى عدواً أو سار الى جهاد ، وهى الوسيلة التى تعلو فى تأثيرها على كل الأسباب و التهييآت المادية الأخرى ، وهى الوسيلة التى لا تصلح حال المسلمين إلا إذا قامت على أساس بعناية كاملة .

أما كيف إنهزم المشركون على كثرتهم ، بعد ثبات المؤمنين وصبرهم وصدق إلتجائهم الى الله تعالى فقد وصف الله الكيفية فى كتابه المبين إذ قال :(يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) الى قوله تعالى :(وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) . إن هذا المعنى الذى يتكرر فى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ،ليس يعنى إغراء المسلمين بالمغامرة و الجهاد دون إستعداد وتأهب ، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم فى مقدمة اسباب النصر المختلفة صدق الإلتجاء الى الله تعالى وإخلاص العبودية له ، فلن تجدى وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها ، وإذا تحققت فى أعمال المسلمين هذه الوسيلة فحدّث عن معجزات النصر ولا حرج .

وإلا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم ، دون أن يشعر بها المسلمون الى جانبهم ؟! .. هى هناك تقلب قدورهم وتطير خيامهم وتقلع أوتادها ، وتزلزل أفئدتهم بالرعب ، وهى هنا ريح باردة رخاء ، تنعش ولا تؤذى أحداً !

....

سادساً :- لقد فاتت النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر كما قد رأيت فى هذه الموقعة لشدة إنشغاله ، حتى صلاها قضاء بعدما غربت الشمس ، وفى روايات أخرى غير الصحيحين أن الذى فاته أكثر من صلاة واحدة ، صلاها تباعاً بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها .

وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة ولا ينقض هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الإنشغال كان جائزاً إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركباناً عند إلتحام القتال بينهم وبين المشركين ، إذ النسخ - على فرض صحته - ليس وارداً على مشروعية القضاء ، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الإنشغال . أى أن نسخ صحة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً ، بل هى سكوت عنها ، فتبقى على مشروعيتها السابقة ، على أن الذى يقتضيه الدليل القطعى هو أن صلاة الخوف شرعت قبل هذه الغزوة كما مر تحقيق ذلك عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع . ومن أدلة هذه المشروعية أيضاً ما ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عند منصرفه الى المدينة من غزوة الأحزاب ، لا يصلين أحد العصر (أو الظهر) إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم وقت الصلاة فى الطريق فقال البعض : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يرد منا ذلك ، فصلاها الفريق الأول بعد وصولهم الى بنى قريظة قضاء .

وإذا ثبت وجوب قضاء المكتوبة بعد فواتها ، فسيان أن يكون السبب نوماً أو إهمالاً وتركاً متعمداً ، إذ لم يرد - بعد ثبوت الدليل العام على وجوب قضاء الفائتة عموماً - أى دليل يخصص مشروعية القضاء ببعض أسباب التفويت دون بعضها الآخر ، والذين تركوها فى طريقهم الى بنى قريظة لم يكونوا نائمين ولا ناسين ... فمن الخطأ إذاً أن تخصص مشروعية قضاء الفائتة المكتوبة - مع ذلك - بما عدا التفويت المتعمد ... وهو أشبه ما يكون بمن يخصصها ببعض المكتوبات دون بعض ، بدون أى مخصص شرعى ، وربما توهم البعض أنه قد ثبت دليل يخصص عموم أدلة مشروعية القضاء وهو المفهوم المخالف لحديث :(من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها) ولكن هذا وهم لا ينبغى أن يدخل على طالب علم متبصر ، فالمقصود بالحديث ليس هو أمر الناسى و النائم بقضاء الصلاة ، دون غيرها ، ولكن المقصود التركيز على القيد ، وهو (إذا ذكرها) وذلك للتنبيه الى أنه لا يشترط لمن فاتته صلاة وأراد تداركها أن ينتظر حلول وقتها من اليوم الثانى ثم يؤديها إذ ذاك ، بل عليه أن يبادر الى قضائها بمجرد التذكر ، فى أى وقت كان ، فإذا عرفت إن هذا هو مقصود رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تدل على ذلك صيغة الحديث نفسها وكما ذكر علماء الحديث ذلك وشرّاحه ، عرفت أنه لا دلالة تشريعية تتعلق بالمفهوم المخالف للنوم أو النسيان فى الحديث .

غزوة بنى قريظة

جاء فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الخندق ووضع السلاح واغتسل ، أتاه جبريل عليه الصلاة و السلام ، فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناها ، فاخرج إليهم قال : فإلى أين ؟ قال : ههنا ،وأشار الى بنى قريظة ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم إليهم .

ونادى صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ألا لا يصلين احد العصر إلا فى بنى قريظة ، فسار الناس ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ولم يرد منا ذلك فذكروا ذلك للنبى صلى الله لعيه وسلم فلم يعنف واحداً منهم .

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة (وهم متحصنون فى حصونهم) خمساً وعشرين ليلة وقيل خمسة عشر يوماً حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

روى ابن هشام أن كعب ابن أسد قال لليهود : لما رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم : يا معشر يهود : قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم : قالوا فما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ،

فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ، قال : فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف ، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، قالوا فما ذنب المساكين ؟ قال : فإن أبيتم هذه أيضاً فإن الليلة ليلة السبت ، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة ، فأبوا ذلك أيضاً .

ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ـ وقد كانت بنو قريظة حلفاء للأوس ـ فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكل الحكم عليهم الى واحد من رؤساء الأوسيين ، فجعل الحكم فيهم الى سعد ابن معاذ ، وكان قد أصيب بسهم فى الخندق فكان يداوى فى خيمة هناك ، فلما حكّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة وأرسل إليه بذلك ، أتى على حمار ، فلما دنا من المسجد ، قال للأنصار : قوموا الى سيدكم أو خيركم : ثم قال إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال تقتل مقاتلهم ، وتسبى ذريتهم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : قضيت فيهم بحكم الله تعالى .

ثم قال سعد ابن معاذ رضى الله عنه : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبّ إلىّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه ، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها ، واجعل موتى فيها ، فانفجرت من لبّته ، فلم يرعهم وفى المسجد خيمة من بنى غفار إلا الدم يسيل إليهم ، فقالوا ياأهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً فمات منها رضى الله عنه ، وفى رواية أحمد أن جرحه حينما إنفجر كان قد برىء إلا مثل الخرص (حلى يوضع فى الأذن) أى إلا شىء يسير قد بقى منه .

ثم إستنزل اليهود من حصنهم فسيقوا الى الخنادق فى المدينة ، فقتل مقاتلهم (أى رجالهم) وسبى ذراريهم ، وكان من جملة من سيق الى القتل فقتل : حيى ابن أخطب الذى كان قد سعى حتى أقنع بنى قريظة بالغدر ونقض العهد . روى ابن إسحاق أنه جىء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويداه مجموعتان الى عنقه بحبل ، فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم جلس فضربت عنقه .

العبر و العظات :

إستنبط علماء الحديث و السيرة من قصة بنى قريظة هذه أحكاماً هامة نجملها فيما يلى :

أولاً:ـ جواز قتال من نقض العهد

وقد جعل الإمام مسلم رحمه الله هذا الحكم عنواناً لغزوة بنى قريظة ، فالصلح و المعاهدة والإستئمان بين المسلمين وغيرهم ، كل ذلك ينبغى إحترامه والتزامه علىالمسلمين ، ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان ، وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة فى ذلك .

ثانياً:ـ جواز التحكيم فى أمور المسلمين ومهامهم :

قال النووى رحمه الله : فيه جواز التحكيم فى أمور المسلمين وفى مهامهم العظام و الرجوع فى ذلك الى حكم مسلم عادل صالح للحكم ، وقد أجمع العلماء عليه فى شأن الخوارج ، فإنهم أنكروا على علىّ التحكيم وأقام الحجة عليهم ، وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصن على حكم حاكم مسلم عدل صالح للحكم أمين على هذا الأمر ، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين ، وإذا حكم بشىء لزم حكمه و لا يجوز للإمام ولا لهم الرجوع ، ولهم الرجوع قبل الحكم .

ثالثاً:ـ مشروعية الإجتهاد فى الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها :

وفى إختلاف الصحابة فى فهم كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ألا لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة) على النحو الذى روينا ، مع عدم تعنيف النبى صلى الله عليه وسلم أحداً منهم أو معاتبته ـ دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى ، وهو تقرير مبدأ الخلاف فى المسائل الفرعية ، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً ، سواء قلنا أن المصيب واحد أو متعدد

، كما أن فيه تقريراً لمبدأ الإجتهاد و الإستنباط للأحكام الشرعية ، وفيه ما يدل على إستئصال الخلاف فى مسائل الفروع التى تنبع من دلالات ظنية ، أمر لايمكن أن يتصور أو يتم ، فالله سبحانه وتعالى تعبد عباده بنوعين من التكاليف :

أحدهما :- تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك .

ثانيهما :- البحث وبذل الجهد إبتغاء فهم المبادىء و الأحكام الفرعية من ادلتها العامة المختلفة ، فليس المطلوب ممن أدركته الصلاة فى بادية إلتبست عليه جهة القبلة فيها أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى فى أن يبذل كل ما لديه من وسع لمعرفة جهة القبلة حسب فهمه وما يبدو له من أدلة ، حتة إذا سكنت نفسه الى جهة ما ، إستقبلها فصلى إليها .

ثم إن هنالك حكماً باهرة لمجىء كثير من الأدلة و النصوص الشرعية ظنية الدلالة غير قطعية من أبرزها ، أن تكون الإجتهادات المختلفة فى مسألة ما ، كلها وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعاً ، حتى يكون للمسلمين متسع فى الأخذ بأيها شاؤا حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده ، فى كل عصر وزمن .

وإذا تأملت هذا ، علمت أن السعى فى محاولةالقضاء على الخلاف فى مسائل الفروع معاندة للحكمةالربانية و التدبير الإلهى فى تشريعه ، عدا أنه ضرب من العبث الباطل ، إذ كيف تضمن إنتزاع الخلاف فى مسألة ما ما دام دليلها ظنياً محتملاً ؟ ... لو أمكن ذلك أن يتم فى عصر ما ، لكان أولى العصور به عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه ، فما بالهم إختلفوا مع ذلك كما قد رأيت ؟ .

رابعاً: - تأكد اليهود من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :

لقد رأيت من مجرى كلام كعب ابن اسد مع إخوانه اليهود ، أنهم كانو ا على يقين من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه صلى الله عليه وسلم وعن علاماته وبعثته ، ولكنهم كانوا عبيداً لعصبيتهم وتكبرهم ، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الإيمان و الفهم ، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام فى عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية ، ينسجم فى فى تشريعاته و أحكامه مع حاجات الإنسان و مصالحه فلن تجد من عاقل سمع باسم الإسلام وألمّ بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفراً عقلياً صادقاً ، إنما هو أحد شيئين : إما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته وإنما قيل له عنه كلام زائف باطل ، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره ، فهو يأباه إباءً نفسياً لحقد على المسلمين أو غرض هوى يخشى فواته .

خامساً :- حكم القيام إكراماً للقادم :

أمر النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار حينما أقبل نحوهم سعد ابن معاذ راكباً دابته أن يقوموا إليه تكريماً له ، ودلّ على هذا التعليل قوله : لسيدكم أو خيركم ، وقد إستدل العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين و العلماء بالقيام إليهم فى المناسبات الداعية الى ذلك عرفاً .

يقول الإمام النووى فى تعليق على هذا الحديث :(فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا ، هكذا إحتج به جماهير العلماء لإستحباب القيام ، قال القاضى : وليس هذا من القيام المنهى عنه ، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قياماً طول جلوسه ، قلت القيام للقادم من أهل الفضل مستحب ، وقد جاء فيه أحاديث ، ولم يصح فى النهى عنه شىء صريح) .

ومن الأحاديث الثابتة الدالة أيضاً على ذلك ، ما جاء فى حديث كعب ابن مالك المتفق عليه ، وهو يقص خبر تخلفه عن غزوة تبوك ، قال : فانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة ، ويقولون لى لتهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إلىّ طلحة ابن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره - فكان كعب لا ينساها لطلحة -.

ومن ذلك أيضاً ما رواه الترمذى وأبو داود و البخارى فى الأدب المفرد عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت احداً من النس كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة ، قالت : وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا رآها أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها فى مكانه ، وكانت إذا أتاها النبى صلى الله عليه وسلم رحبت به ثم قامت إليه فقبلته .

واعلم أن هذا الكلام لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحبّ أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار . لأن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعى السعى منهم الى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته ، بل إن من أبرز صفات الصالحين و الفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهّاداً فى طلب هذا الشىء . أرأيت الى الفقير المحتاج ؟ إن الأدب الإسلامى يوصيه ويعلمه الترفع عن المسألة وإظهار الفاقة و الحاجة للناس ، ولكن هذا الأدب الإسلامى نفسه يوصى الأغنياء بالبحث عن هؤلاء الفقراء المتعففين ويأمرهم بإكرامهم و إعطائهم من فضول أموالهم .

فلكل أدب ووظيفة ، ولا ينبغى أن نخلط بينهما ، أو ننسخ الواحد بالآخر فإن ذلك من اسوأ مظاهر التسرع و الجهل . غير أن من أهم ما ينبغى أن تعلمه فى هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدوداً إذا تجاوزها إنقلب الأمر محرماً ، واشترك فى الإثم كل من مقترفه و الساكت عليه .

فمن ذلك ما قد تجده فى مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين وهم جلوس ، يقف الواحد منهم أمام شيخه فى إنكسار وذل مطرقاً لا يطرف إلى أن يأذن له بالجلوس ، ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على ركبة الشيخ أو يده عند قدومه عليه ، أو ما يفعله من الحبو إليه عندما يغشى المجلس .... ولا يخدعنّك ما قد يقال فى تسويغ ذلك من أنه أسلوب من التربية للمريد ! ... فالإسلام قد شرع مناهج وأساليب للتربية وحظر على المسلمين الخروج عليها ، وليس بعد الأسلوب النبوى فى التربية من أسلوب يقرّ أو يعاج عليه .

سادساً :- مزايا خاصة لسعد ابن معاذ :

وإنك لتقف خلال إطلاعك على هذه الغزوة ، على مزية كبرى لسيدنا سعد ابن معاذ رضى الله عنه ، فإنك لتجد ذلك أولا فى إعطاء النبى صلى الله عليه وسلم له صلاحية الحكم بما يشاء على بنى قريظة ، وجعل موقفه منه - وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم - موقف الموافق و المؤيد لكل ما سيحكم به ، ونجد ذلك ثانياً فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم ، وتلك مزية كبرى لسعد حينما يكون هذا الأمر صادراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تجد ذلك فى قصة الجرح الذى كان قد أصابه فى كاحله فى غزوة الخندق ، لقد رفع يديه يدعو الله تعالى يوم أن أصابه هذا الجرح قائلاً: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم ، وأخرجوه ، اللهم فإن بقى من حرب قريش شىء فأبقنى له حتى أجاهدهم فيك) وقد استجيب دعاء سعد ابن معاذ فتحجر جرحه وتماثل للشفاء ، حتى كانت غزوة بنى قريظة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إليه ، وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم ، رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول :(اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا و بينهم (يعنى قريشاً و المشركين) فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا و بينهم فافجرها واجعل موتى فيها) ، وقد إستجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله تعالى .

قال ابن حجر فى الفتح : و الذى يظهر لى أن ظن سعد كان مصيباً وأن دعاءه فى هذه القصة كان مجاباً ، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين و بين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون إبتداء القصد فيها من المشركين ، فإنه صلى الله عليه وسلم تجهز للعمرة فصدوه عن دخول مكة ، وكادت الحرب أن تقع بينهم فلم تقع كما قال تعالى :(هو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن

مكة من بعد أن أظفركم عليهم) ثم وقعت الهدنة ، واعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل ، واستمر ذلك الى أن نقضوا العهد ، فتوجه إليهم غازياً ففتحت مكة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منصرفه عن غزوة الأحزاب ، فيما رواه البخارى : الآن نغزوهم هم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ، وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب ، وقد جمعوا له جموعاً كثيرة ، لا يغزونكم بعد هذا أبداً ولكن أنتم تغزونهم .

وأخيراً ، فإن قصة سعد هذه بملابساتها التى ذكرناها ، تذكرك بما كنا قد قررناه سابقاً من أن الحرب الدفاعية فى الإسلام ما كانت إلا مرحلة من مراحل الدعوة التى سار فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جاءت من بعدها مرحلة دعوة الناس كلهم الى الإسلام بحيث لا يقبل من الملاحدة و المشركين إلا الإسلام ، ولا يقبل من أهل الكتاب إلا الدخول فيه والخضوع تحت حكمه العام ، مع قتال كل من وقف دون هذه السبيل ، ما دام ذلك ممكناً ، وبعد إستنفاد وسائل الدعوة السلمية المعروفة .

وليس بعد تكامل الحكم الإسلامى فيما يتعلق بالجهاد والدعوة ، أى معنى لما يسمى بالحرب الدفاعية التى شاعت أخيراً على ألسنة بعض الباحثين وإلا فما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : ولكن أنتم تغزونهم ؟

القسم السادس : الفتـــح -مقدماته و نتائجه - مرحلة جديدة من الدعوة

صلح الحديبية :

كان فى شهر ذى القعدة ، آخر سنة ست للهجرة وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم أعلن فى المسلمين أنه متوجهاً الى مكة معتمراً ، فتبعه جمع كبير من المهاجرين و الأنصار بلغ عددهم ألف وأربعمائة تقريباً . وأحرم النبى صلى الله عليه وسلم بالعمرة فى الطريق ، وساق معه الهدى ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً البيت معظماً له . وأرسل صلى الله عليه وسلم وهو عند ذى الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة إسمه بشر ابن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى وصل الى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذى كان قد أرسله ، فقال له : إن قريشاً قد جمعت لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك ، فقال : أشيروا أيها الناس .... فقال له أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه ، قال : إمضوا على إسم الله .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال له رجل من بنى أسلم : أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى إذا كانوا فى ثنية المرار (وهى طريق فى الجبل تشرف على الحديبيةبركت به راحلته ،

فقال للناس : حل ،حل (اسم كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما خلأت ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : و الذى نفسى بيده ، لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، وشكوا الى رسول الله العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيها ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه ،فبينما هم كذلك إذ جاء بديل ابن ورقاء الخزاعى فى نفر معه ، فقال : إنى تركت كعب ابن لؤى وعامر ابن لؤى نزلوا مياه الحديبية ، ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاؤا ماددتهم مدة ويخلّوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمّوا (إستراحوا) وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، ولينفذنّ الله أمره ، فقال بديل : سأبلغهم ما تقول ، فانطلق بديل فحدّث قريشاً بما سمعه من رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عروة ابن مسعود يعرض على المشركين أن يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فيكلمه فى تفصيل ما جاء به بديل ابن ورقاء ، فقالوا له : دونك فاذهب .

فذهب ، فكلمه صلى الله عليه وسلم بمثل ما كلم به بديلاً ، فقال له عروة ابن مسعود : أرأيت إن إستأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب إجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى ،فإنى والله لا أرى وجوهاً ،وإنى لأرى أشواباً من الناس (أى أخلاطاً منهم) خليقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : أمصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه ! ....

فالتفت قائلاً : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، فقال : أما إنه لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك ، فجعل يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فكلما تكلم أخذ بلحيته ، والمغيرة ابن شعبة قائم على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما هوى عروة بيده الى لحية النبى صلى الله عليه وسلم ، ضرب يده بنعل السيف ، وقال له أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة ابن شعبة ، فقال : أى غدر وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : والله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم إبتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون النظر إليه تعظيماً له . فرجع عروة الى أصحابه فقال : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى و النجاشى ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً ! .... وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

ثم إنهم أرسلوا إليه سهيل ابن عمرو ممثلاً عنهم ليكتب بينهم وبين المسلمين كتاب الصلح ، فلما جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هات أكتب بيننا وبينك كتاباً ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الكاتب (وكان الكاتب علياً رضى الله عنه - فيما رواه مسلم) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل : أما (الرحمن) فوالله ما أدرى ما هى ، ولكن أكتب باسمك اللهم ، فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أكتب باسمك اللهم ، ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن أكتب (محمد ابن عبد الله) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى) ! ... أكتب محمد ابن عبد الله . (وفى روايم مسلم : فأمر علياً أن يمحوها ، فقال علىّ لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرنى مكانها ، فأراه مكانها فمحاها) ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام القادم وليس مع المسلمين إلا السيوف فى قرابها ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، ومن جاء منكم لم نرده عليك ، فقال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلماً ؟! (والتفتوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه : أكتب هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً) ، وكانت مدة الصلح بناءاً على هذه الشروط - على ما رواه ابن اسحاق وابن سعد و الحاكم - عشر سنين لا إسلال فيها ولا إغلال (أى لا سرقة ولا خيانة) ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد قر يش و عهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم .

ولما فرغ من الصلح و الكتابة ، أشهد على الكتاب رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين .

وفى الصحيحن أن عمر رضى الله عنه قال : فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألست على حق وعدونا على باطل ؟ قال : بلى ، قلت : أليس قتلانا فى الجنّة وقتلاهم فى النار ؟ قال : بلى ، قلت : ففيم نعطى الدنيّة فى ديننا إذن ؟ ، قال : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى . قلت : أولست كنت تحدثنا أنّا سنأتى البيت فنطوف به

؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قلت : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به ، فلم يصبر عمر حتى أتى أبا بكر رضى الله عنه فسأله مثل ما سأل النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يابن الخطاب إنه رسول الله ولن يعصى ربه ولن يضيعه الله أبداً ، فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى عمر فأقرأه إياها ، فقال : يارسول الله ، أو فتح هو ؟! ... قال : نعم ، فطابت نفسه .

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم أقبل على أصحابه فقال لهم قوموا فانحروا ثم إحلقوا - وكرر ذلك ثلاثاً - فوجم جميعهم وما قام منهم أحد ، فدخل على زوجته أم سلمة ، وذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت له : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعض ، حتى كاد بعضهم يقتل الآخر لفرط الغم .

ثم جاء نسوة مؤمنات (بعد إنصرافه الى المدينة) مهاجرات بدينهن ، بينهن أم كلثوم بنت عقبة ، فأنزل الله تعالى قوله :(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهنّ الى الكفار ، لا هنّ حل لهم ولاهم يحلون لهنّ) فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردهنّ بدينهنّ الى الكفار .

بيعة الرضوان

وكان قد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عثمان ابن عفان رضى الله عنه الى قريش قبل كتابة الصلح ليكلمهم فى الأمر ، فاحتبسته قريش عندها مدة ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أن عثمان ابن عفان قد قتل ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة هنالك .

فكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بيد أصحابه الواحد تلو الآخر يبايعونه على أن لا يفروا ،وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان .

ولما تمت البيعة ،إنتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى بلغه من مقتل عثمان باطل .

العبر و العظات :

كلمة وجيزة عن حكمة هذا الصلح :

قبل أن نخوض فى تفصيل ما ينبغى أن نقف عليه من دروس صلح الحديبية وعظاتها وأحكامها ، نقول فى كلمة وجيزة : إن أمر هذا الصلح كان مظهراً لتدبير إلهى محض تجلى فيه عمل النبوة وأثرها كما لم يتجل فى أى عمل أو تدبير آخر ، فقد كان نجاحه سراً مرتبطاً بمكنون الغيب المطوى فى علم الله وحده ، ولذلك إنتزع - كما قد رأيت - دهشة المسلمين أكثر مما إعتمد على فكرهم وتدبيرهم ، ومن هنا ، فإنا نعتبر أمر هذا الصلح ، بمقدماته ومضمونه ونتائجه ، من الأسس الهامة فى تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها .

ولنتحدث أولاً عن طرف من الحكم الإلهية العظيمة التى تضمنها هذا الصلح ، والتى تجلت للعيان فيما بعد ، حتى أضحت آية من آيات الله الباهرة ، ثم نتحدث بعد ذلك عن الأحكام الشرعية التى تضمنتها وقائع هذا الصلح .

فمن الحكم الباهرة : أن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدى فتح مكة ، فقد كانت هذه الهدنة - كما يقول ابن القيم - باباً له ومفتاحاً وتلك هى عادة الله سبحانه وتعالى ، يوطىء بين يدى الأمور التى تعلقت إرادته إنجازها ، مقدمات تؤذن بها وتدل عليها .

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا فى حينه ، فذلك لأن المستقبل غائب عنهم ، فأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذى رأوه بالغيب الذى لم يتصوروه بعد ؟

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن ، حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد إنطوت عليه من خير ، فالناس قد أمن بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة ، وأسمعوهم القرآن ، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين ، وظهر من كان متخفياً بالإسلام .

روى ابن هشام عن ابن اسحاق و الزهرى قال : ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه (أى من صلح الحديبية) إنما كان القتال حيث إلتقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث و المنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

ولذلك أطلق القرآن إسم الفتح على هذا الصلح ، وذلك فى قوله تعالى :(لقد صدق الله رسول الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً .)

ومن الحكم الجليلة أيضاً : إن الله جل جلاله أراد بذلك أن يبرز الفرق واضحاً بين وحى النبوة وتدبير الفكر البشرى ، بين توفيق النبى المرسبل وتصرف العبقرى المفكر ، بين الإلهام الإلهى الذى يأتى من فوق دنيا الأسباب و مظاهرها ، والإنسياق وراء إشارة هذه الأسباب وحكمها ، أراد الله عز وجل أن ينصر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أمام بصيرة كل متأمل عاقل ، ولعل هذا من بعض تفسير قوله تعالى : وينصرك الله نصراً عزيزاً ، أى نصراً فريداً فى بابه من شأنه أن ينبه الأفكار السادرة و العقول الغافلة . فمن هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، وتساهل معهم فى أمور لم يجد أحد من الصحابة ما يسوغ التساهل فيها ، ولقد رأيت كيف إستبد الضيق و القلق بعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، حتى أنه قال عن نفسه فيما بعد ـ فيما رواه أحمد وغيره ـ : ما زلت أصوم وأصلى وأتصدق وأعتق من الذى صنعت مخافة كلامى الذى تكلمت به يومئذ ، ولقد رأيت كيف ساد الوجوم القوم حينما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحلق و النحر ، ليعودوا الى المدينة ، رغم أنه كرر عليهم ثلاثاً مرات الأمر ، لقد كان السر فى ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم إنما كانوا يتأملون فى تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم يقفون على أرض من البشرية العادية ، فلا يتبصرونها إلا بمقدار ولا يفهمون منها إلا ما تفهمه عقولهم البشرية القائمة على الخبرات المحسوسة ، على حين كان النبى صلى الله عليه وسلم واقفاً من تصرفاته هذه فوق مستوى البشرية وخبراتها وأسبابها ، كانت النبوة المطلقة هى التىتوجهه وتلهمه وتوحى إليه ، وكان تنفيذ الأمر الإلهى هو وحده الماثل أمام عينيه .

يتضح لك هذا من جوابه صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب حينما أقبل إليه سائلاً ومتعجباص ، بل وربما مستنكراً ، فقد قال له : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى . ويتضح لك هذا أيضاً من وصيته صلى الله عليه وسلم لعثمان حينما أرسله الى مكة ليكلم قريشاً فيما جاء له النبى صلى الله عليه وسلم فقد أمره أيضاً أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

فلا غرو أن يدهش المسلمون لموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى تمخض عن المفاهيم البشرية ومقاييسها فى تلك الآونة .ولكن سرعان ما انتهت الدهشة وزال الغم واتصح المبهم ، حينما تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم سورة الفتح التى تنزلت عليه عقب الفراغ من امر الصلح ، وتجلى للصحابة رضى الله عنهم أن إحتمالهملتلك الشروط كان عين النصر لهم ، وأن المشركين ذلوا من حيث من حيث تأملوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة و الغلبة وظهر من وراء ذلك كله النصر العظيم لرسوله و المؤمنين دون أن يكون فى ذلك أى إقتراح للعقول و الأفكار .

فهل فى أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل وأظهر ؟ ....

ولقد تضايق المسلمون بادىء الأمر من موافقة النبى صلى الله عليه وسلم على الشرط الذى أملاه سهيل ابن عمرو : من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه ، وازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل (ابن سهيل ابن عمرو) فاراً من المشركين يرسف فى الحديد ، فقام إليه أبوه آخذاً بتلابيبه وهو يقول : يا محمد ، لقد لجت القضية بينى

وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره ويجره ليرده الى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابا جندل ، إصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا أعطينا القوم عهوداً ، وإنا لا نغدر بهم .

ولقد أخذ الصحابة ينظرون الى هذا الأمر ، و قد داخلهم من ذلك همٌ عظيم ، ولكن ، فما الذى تم بعد ذلك ؟ لقد جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذهابه الى المدينة رجل آخر قد أسلم من قريش

اسمه : أبو بصير ، فأرسلوا ىف طلبه رجلين من المشركين ليستردوه فسلمه الرسول صلى الله عليه وسلم إليهما ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فغافل أبو بصير أحد حارسيه وأخذ منه سيفه فقتله ، ففر الآخر ، ثم عاد أبو بصير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا نبى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم فأنجانى الله منهم ، ثم غنه خرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلت أبو جندل ، فلحق به هناك ، وأصبح ذلك المكان مثابة للمسلمين من أهل مكة ، فلا يخرج من قريش رجل أسلم إلا لحق بأبى بصير و إخوانه ، فما كانوا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام إلا إعترضوا لها فقتلوا المشركين وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناشده الله و الرحم أن يقبلهم عنده ويضمهم إليه فجاؤوا الى المدينة .

ولما كان فتح مكة ، كان أبو جندل هذا هو الذى استأمن لأبيه وعاش رضى الله عنه حتى استشهد فى وقعة اليمامة .

وهكذا صحا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من همّهم ذاك على مزيد من الإيمان و الحكمة الإلهية ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، روى فى الصحيح أن سهل ابن سعد رضى الله نعه قال يوم صفين أيها الناس إتهموا رأيكم ، لقد رأيتنى يوم أبى جندل ، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته ! .....

ومرة أخرى نكرر القول : هل فى أدلة العقيدة دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل و أظهر ؟ .

ومن الحكم الجليلة : أن الله جلت قدرته إنما أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه فتح مرحمة وسلم ، لا فتح ملحمة وقتال فتحا يسارع الناس فيه الى دين الله أفواجاً ، ويقبل فيه أولئك الذين آذوه وأخرجوه ، يلقون إليه السلم ويخضعون له الجانب مؤمنين ىيبين موحدين ، فجعل من دون ذلك هذا التمهيد ، تؤوب فيه قريش الى صحوها وتحاسب فيه نفسها وضميرها وتشترك هى الأخرى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخذ العبرة من أمر هذا الصلح ومقدماته ونتائجه ، فتنضج الآراء فى الرؤوس و تتهيأ لقبول الحق الذى لا ثانى له .

وهكذا كان الأمر ، كما ستعلم تفصيله فى مكانه إن شاء الله تعالى .

الأحكام المتعلقة بذلك :

هذا عن بعض الحكم الإلهية المتعلقة بأمر صلح الحديبية ، أما ما يتعلق بذلك من الدلالات و الأحكام فإنه كثير ، وسنقتصر فى ذلك على ما يلى :

أولاً:- الإستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال :

قلنا أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل بشر ابن سفيان عيناً الى قريش ليأتيه بأخبارها ، وبشر ابن سفيان كان مشركاً من قبيلة خزاعة ، وفى هذا تأكيد لما كنا قد ذكرناه سابقاً من أن أمر الإستعانة بغير المسلم يتبع ظرف وحالة الشخص الذى يستعان به ، فإن كان ممن يطمأن غليه ولا تخشى منه بادرة غدر أو خديعة جازت ، وإلا فلا ، وعلى كل فإن النبى صلى الله عليه وسلم فى كل الحالات إنما إستعان بغير المسلمين بما دون القتال ، كإرساله عيناً على الأعداء أو إستعارة أسلحة منهم وما شابه ذلك، والذى يبدو أن الإستعانة بغير المسلمين فىالقضايا السلمية أشبه بالجواز منها فى أعمال القتال و الحرب .

ثانياً : ـ طبيعة الشورى فى الإسلام

لقد رأينا فى عامة تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم ما يدل على مشروعية الشورى وضرورة التمسك بها للحاكم ، وعمل النبى صلى الله عليه وسلم هنا ، يدل على طبيعة هذه الشورى و المعنى الذى شرعت من أجله : فالشورى فى الشريعة الإسلامية مشروعة ولكنها ليست ملزمة ، وإنما الحكمة منها إستخراج وجوه الرأى عند المسلمين ، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، أو إستطابة نفوسهم ، فإذا وجد الحاكم فى ىرائهم ما سكنت نفسه إليه على ضوء دلالة الشريعة الإسلامية وأحكامها ، أخذ به ، وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط أن لا يخالف نصاً فى كتاب الله ولا سنّة ولا إجماعاً للمسلمين ، ولقد وجدنا أن النبى صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه فى الحديبية ، وأشار عليه أبو بكر بما قد علمت ، قال له ك إنك يا رسول الله خرجت عامداً هذا البيت ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه .

ولقد وافقه النبى صلى الله عليه وسلم فى بادىء الأمر ، ومضى مع أصحابه متجهاً الى مكة حتى إذا بركت ناقته ، وعلم أ نها ممنوعة .... ترك الرأى الذى كان قد أشير عليه به ،وأعلن قائلاً : والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، وحينئذ تحول العمل عن ذلك الرأى الذى أبداه ابو بكر ، الى أمر الصلح و الموافقة على شروط المشركين ، دون أن يستشير فى ذلك أحداً ، بل ودون أن يصيخ الى إستعظام واستنكار المستنكرين كما قد رأيت .

فهذا يعنى أن أمر الشورى يأتى من وراء حكم الوحى الذى هو اليوم : الكتاب و السنة وإجماع الأئمة ، رضوان الله عليهم ، كما يدلنا أيضاً على أن الشورى إنما شرعت للتبصر بها لا للإلتزام أو التصويت على أساسها .

ثالثاً:- التوسل و التبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم :

قلنا إن عروة ابن مسعود ، جعل يرمق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ،وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ما يحدّون النظر إليه تعظيماً إليه .

إنها لصورة بارزة حية أوضحها عروة ابن مسعود لمدى محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له وإن فيها لدلالات هامة يجب أن يقف عندها كل مسلم ، إنها تدل أولاً: على أنه لا إيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم بدون محبة له ، وليست المحبة له معنى عقلانياً مجرداً ، وإنما هى الأثر الذى يستحوذ على القلب فيطبع صاحبه بمثل الطابع الذى وصف به عروة ابن مسعود أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى تدل ثانياً: على أن التبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم أمر مندوب إليه ومشروع ، ولقد وردت أحاديث صحيحة ثابتة عن التبرك بشعر النبى وعرقه ووضوئه وبصاقه و القدح الذى كان يشرب فيه صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا تفصيل بعض هذه الأحاديث فيما مضى .

وإذا علمت أن التبرك بالشىء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته علمت أن التوسل بآثار النبى صلى الله عليه وسلم أمر مندوب إليه ومشروع ، فضلاً عن التوسل بذاته الشريفة .

وليس ثمّة فرق بين أن يكون ذلك فى حياته صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته ، فآثار النبى صلى الله عليه وسلم وفضلاته ، لا تتصف بالحياة مطلقاً ، سواء تعلق التبرك و التوسل بها فى حياته أو بعد مماته كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى فى باب شيب النبى صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فقد ضل قوم لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وراحوا يستنكرون التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بحجة أن تأثير النبى صلى الله عليه وسلم قد إنقطع بعد وفاته ، فالتوسل به إنما هو توسل بشىء لا تأثير له البتة ! وهذه حجة - كما ترى - تدل على جهل عجيب جدا ... ! ، فهل ثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تأثير ذاتى فى الأشياء فى حال حياته ، حتى نبحث عن مصير هذا التأثير بعد وفاته ؟ ! إن أحداً من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أى تأثير ذاتى فى الأشياء لغير الله الواحد الأحد جل جلاله ، ومن إعتقد خلاف هذا يكفر بإجماع المسلمين كلهم ، فمناط التبرك و التوسل بآثار النبى

صلى الله عليه وسلم وبه ليس هو إسناد أى تأثير إليه ، والعياذ بالله ، وإنما المناط كونه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق وكونه رحمة من الله على العباد فهو التوسل بقربه صلى الله عليه وسلم الى ربه ، وبرحمته الكبرى للخلق ، وبهذا المعنى توسل الأعمى به صلى الله عليه وسلم فى أن يرد عليه بصره ، فرده الله عليه ، وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أى إنكار ، وقد مرّ فى الكتاب بيان الإستشفاع بأهل الصلاح و التقوى وأهل بيت النبوة فى الإستسقاء وغيره ، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة و الفقهاء بما فيهم الشوكانى وابن قدامة الحنبلى ، والصنعانى وغيرهم .

والفرق بعد هذا بين حياته وموته صلى الله عليه وسلم خلط عجيب وغريب فى البحث لا مسوّغ له .

رابعاً:- حكم الوقوف على الإنسان وهو قاعد :

لقد علمت مما سبق أن المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه ، كان واقفاً على رأس النبى صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وكلما أهوى عروة ابن مسعود بيده الى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنصل السيف ، قائلاً : أخر يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كنا ذكرنا فيما مضى عند الحديث عن غزوة بنى قريظة - أنه لا يشرع القيام على رأس أحد وهو قاعد ، وأن ذلك من مظاهر التعظيم الذى تعافه الأعاجم فيما بينهم وأنكره الإسلام ، وإنما التمثل الذى نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله :(من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار) فكيف كان الأمر على خلاف ذلك هنا ؟

و الجواب أنه يستثنى من عموم المنع مثل هذه الحالة بخصوصها ، أى فى حالة قدوم رسل العدو الى الإمام أو الخليفة ، فلا بأس حينئذ من قيام حرس أو جند على رأسه ، إظهاراً للعزة الإسلامية ، وتعظيماً للإمام ووقاية له مما قد يفاجأ به من سوء ، أما فى أعم الأحوال فلا يجوز ذلك لمخالفته مقتضى التوحيد و العقيدة الإسلامية ، دون أى ضرورة إليه ، ويشبه هذا ، ما مر بيانه عند الحديث عن أبى دجانة فى غزوة أحد فقد قلنا : إن كل ما يدل على التكبر و التجبر فى المشى ممنوع شرعاً ولكنه جائز فى حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله صلى الله عليه وسلم عن مشية أبى دجانة : إنها مشية يكرهها الله إلا فى هذا الموضع .

خامساً :- مشروعية الهدنة بين المسلمين وأعدائهم :

استدل العلماء و الأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم الى مدة معلومة ، سواء كان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض ، أما بدون عوض فلأن هدنة الحديبية كانت كذلك ، وأما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض ، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه .

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون ، فهذا غير جائز عند جمهور العلماء لما فيه من الصغار لهم ، ولأنه لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى كتاب الله تعالى ، قالوا : إلا أن دعت إليه ضرورة لا محيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك والأسر فيجوز ، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال

سادساً:- ذهب الشافعى وأحمد وكثير من الأئمة الى أن الصلح لا ينبغى أن يكون إلا إلى مدة معلومة ، وأنه لا تجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت ، لأنها هى المدة التى صالح النبى صلى الله عليه وسلم قريش عليها عام الحديبية .

سابعاً:- الشروط فى عقد الهدنة تنقسم الى صحيحة وباطلة ، فالصحيح : كل شرط لا يخالف نصاً فى كتاب الله أو سنة رسول الله ، مثل أن يشترط عليهم مالاً أو معونة للمسلمين عند الحاجة ، أو أن يشترط لهم أن يرد من جاءه من الرجال مسلماً أو بأمان ، ولقد أطلق الأئمة صحة هذا الشرط الخير ، ما عدا الشافعى رضى الله عنه ، فقد شرط لذلك أن تكون له عشيرة تحميه بين الكافرين ، وحمل على ذلك موافقة النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الشرط لقريش .

والباطل : كل شرط فيه معارضة لحكم شرعى ثابت ، ومنه أن يشترط ردّ النساء المسلمات أو مهورهنّ إليهم ، أو إعطائهم شيئاً من سلاح المسلمين أو أموالهم ، وأساس الإستدلال على هذا عدم رد النبى صلى الله عليه وسلم النساء الاتى جئن هاربات بدينهنّ ، ونهى القرآن صراحة عن ذلك ، كما مرّ بيانه فى حينه . ولعلك تقول : أفلم يخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك عهداً قطعه على نفسه، وذلك إذ وافق على رد كل ما أتاه مسلماً من مكة ؟ ... والجواب أن ذلك ليس نصاً فى خصوص النساء ، بل يحتمل أنه لا ينحط إلا على الرجال وحدهم ، ومهما يكن فقد علمت فيما سبق أن تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم لا تكتسب قوة الحكم الشرعى إلا إذا أقرها الكتاب بالسكوت عليها أو التأكيد لها ، ولقد أقر الكتاب كل بنود المصالحة ، إلا ما يتعلق برد النساء الى بلد الكفر فلم يقره ـ وذلك على فرض دخوله فى بنود الإتفاقية وشروطها .

ثامناً:ـ حكم الإحصار فى العمرة و الحج :

ودل عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من أمر الصلح ، من التحلل والنحر والحلق ، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل ، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو ما يقوم مقامها ويحلق ثم ينوى التحلل مما كان قد أهلّ به ، سواء كان حجاً أو عمرة . كما دل ذلك على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً ، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب ، على أن جميع الذين خرجوا معه صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية خرجوا معه فى عمرة القضاء التى سيأتى ذكرها ، إلا من توفى واستشهد منهم فى غزوة خيبر .

غزوة خيبر

ثم سارالنبى صلى الله عليه وسلم الى خيبر ، فى أواخر المحرم للسنة السابعة من الهجرة ، وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع تقع على بعد مائة ميل شمال المدينة جهة الشام .

وكان مع النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ألف و أربعمائة مقاتل ما بين فارس وراجل ، قال ابن هشام : فلما أشرف النبى صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه قفوا ، ثم قال : (اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل فرآه عمال خيبر وقد خرجوا بمساحيهم وفئوسهم ومكاتلهم ، يقصدون مزارعهم ، فلما رأوه صاحوا : محمد و الخميس ، ثم ولوا هاربين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . قال ابن سعد : فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وفرق بينهم الرايات ، وابتدأت المعارك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل خيبر ـ وقد تحصنوا بحصونهم ـ وأخذ المسلمون يفتحونها حصناً حصناً : إ لا الحصنين الأخيرين : الوطيح والسلالم ، فقد حاصرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة .

روى أحمد و النسائى وابن حبان و الحاكم من حديث بيردة ابن الخطيب ، قال : لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء ، فرجع ولم يفتح ، فلما كان الغداة أخذه عمر ، فرجع ولم يفتح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لأدفعنّ لوائى غداً الى رجل يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، قال : فبات الناس يدوكون ليلتهم (أى يتساءلون ويختلفون) أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علىّ ابن أبى طالب ؟ فقيل هو يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا ، فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علىّ يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا (أىمسلمين) ؟ فقال عليه الصلاة و السلام : أنفذ على رسلك حتى تنزل

بساحتهم ، ثم أدعهم الى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ، ثم خرج فقاتل ، فكان الفتح على يديه ، وغنم المسلمون كل ما فى تلك الحصون من أموال .

أما ذانك الحصنان ، فقد ظل المسلمون يحاصرونهما ، حتى إذا أيقن من فيه بالهلاك سألوه صلى الله عليه وسلم أن يخرجهم ويجليهم ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال ، فوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، ثم إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تبقى خيبر تحت أيديهم يعملون فيها ويزرعونها لأنهم أعرف بأراضيهم وأعمر لها ولهم شطر ما يخرج منها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وقال لهم : على أنا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .

قال ابن اسحاق : فلما إطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهدت له زينب بنت الحارث إمرأة سلام ابن مشكم ، شاة مصلية (مشوية) وكانت قد سألت أى عضو من الشاة أحبّ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تناول الذراعفلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر ابن البراء ابن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما بشر فأساغها ،وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ، ثم قال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات بشر من أكلته .

والذى جزم به الزهرى وسليمان التيمى فى مغازيه أنها أسلمت ، واختلفوا بعد ذلك ، هل قتلها النبى صلى الله عليه وسلم قصاصاً عن بشر أم لا ؟ ، فأخرج ابن سعد بأسانيد متعددة أنه صلى الله عليه وسلم دفعها الى أولياء بشر فقتلوها ، غير أن الصحيح ما رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : ما كان الله ليسلطك على ذاك (أى على قتلى) قالوا : ألا نقتلها يا رسول الله ؟ قال : لا .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر بين المسلمين ، للراجل سهم وللفرس سهمان وفسر ذلك نافع رضى الله عنه ، فيما رواه البخارى ، بأنه إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة اسهم ، فإن لم يكن ، فله سهم واحد ، وكانت صفية بنت حيى ابن أخطب - زعيم اليهود - بين من أسر من نساء خيبر ، فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن اسلمت - وتزوجها ، وجعل مهرها عتقها .

قدوم جعفر ابن أبى طالب من الحبشة

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة وهو فى خيبر جعفر ابن أبى طالب ومن معه وهم ستة عشر رجلاً وامرأة وجمع آخر كانوا فى اليمن فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم ، بعد أن إستأذن فى ذلك المسلمين .

قال ابن هشام : فلما قدم جعفر ابن ابى طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّل رسول الله بين عينيه والتزمه ،وقال : ما أدرى بأيهما اسرّ ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً الى المدينة استعمل على خيبر رجلاً من الأنصار قيل غنه :سوّاد ابن غزية من بنى عدى ، فجاءه منها بتمر جنيب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلّ تم خيبر هكذا ؟ فقال : لا والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ثم إبتع بالدراهم جنيباً .

العبر و العظات :

أول ما ينبغى أن يسترعى إنتباهنا من أمر هذه الغزوة ، ملاحظة الفرق بين طبيعتها وطبيعةالغزوات السابقة التى تحدثنا عنها .

لقد كانت الغزوات السابقة كلها قائمة على أسباب دفاعية ، إقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم ، وأن يردوا بها هجمات أعدائهم ، كما قد رأيت لدى بيان سبب كل غزوة منها .

أما هذه الغزوة ، وهى أول غزوة تأتى بعد وقعة بنى قريظة وصلح الحديبية ، فإن لها وضع آخر ، وإنها لتختلف إختلافاً جوهرياً عن تلك التى كانت من قبلها ، وهى تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية .

فغزوة خيبر أول غزوة بدأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغار فيها فجأة على اليهود الذين استوطنوا بقاع خيبر ، دون أن يبدأوا المسلمين بأى محارة أو قتال .

لقد كان السبب الوحيد لها هو دعوة اليهود الى الإسلام ، ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم عن قبول الحق وأحقادهم المعتلجة فى صدورهم رغم الدعوة السلمية التى قامت مدة طويلة على الأدلة و البراهين ، ولذلك بات رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة الأولى من وصوله الى خيبر دون أن يشعر أحداً بوجوده أو أن يقاتل أحد ، وانتظر حتى أصبح ولم يسمع أذاناً الى الصلاة - وهى الشعيرة الإسلامية الكبرى - أغار عليهم وقاتلهم على ذلك ، وقد قلنا إنه كان إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار .

ويزداد هذا السبب وضوحاً إذا تأملت فى سؤال على رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطاه اللواء : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ وفى جوابه صلى الله عليه وسلم إذ قال : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعهم الى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه .

ولقد استنبط العلماء من غزوة خيبر هذه الدلالات وأحكاماً كثيرة أخرى نذكر منها فيما يلى جملة :

أولها : جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها ، بدون إنذار مسبق أو دعوة مجددة :

وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء ، فذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إغارته على خيبر ، وأما بلوغ الدعوة وتفهم الإسلام فهماً صحيحاً على وجهه فهو شرط بالإتفاق .

ثانيها : تقسيم الغنائم على الأساس الذى ورد ذكره :

وهو تقسيم أربعة أخماسها بين الغانمين يعطى للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان للفرس ، والخمس الباقى يوزع أخماساً على من نصت عليه الآية القرآنية :(واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى و اليتامى و المساكين وابن السبيل) وسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخمس يوزع من بعده على مصالح المسلمين كما ذهب الى ذلك الشافعية والحنفية ، وقيل يختص به الخليفة فيصرفه فيما يراه ، والقولان متقاربان .

ثالثها :- جواز إشراك غير المقاتلين فى الغنيمة ممن حضر مكان القتال :

وذلك بعد إستئذان أصحاب الحق فيها ، فقد أشرك النبى صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب ومن معه فى الغنائم ، بإذن من الصحابة حينما عادوا من الحبشة واليمن .

واعلم أن رواية البخارى فى هذا خالية عن التقييد بإستئذان المسلمين ، ولكن زاد البيهقى فى روايته أن النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يقسم لهم كلّم المسلمين فأشركوهم ، وزيادة العدل مقبولة والذى زاد من قيمة القيد الذى رواه البيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسهم لأبان ابن سعيد ، وقد كان أرسله على سرية قبل نجد فعاد منها الى خيبر بعد إنتهاء القتال ، وقال له صلى الله عليه وسلم : إقسم لنا يا رسول الله ، فلم يقسم له ، وإنما يجمع بين الخبرين بحمل الأول منهما على إذن الجماعة فى القسمة ، والثانى على عدمه .

ولعلك تسأل ما مصير حكم الغنائمهذا مع ما تطورت إليه اليوم حالة الحروب و الجند و سياسة عطاءاتهم ومرتباتهم ؟

و الجواب : أنك قد علمت مما سبق أن الأموال غير المنقولة من الغنائم لا توزع بين المحاربين عند مالك و الحنفية على نحو ما مرّ بيانه إلا إذا دعت المصلحة أو الضرورة ، أما الأموال المنقولة منها فيجب أن توزع على الغانمين بنفس الطريقة التى كان يسلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ملاحظة ما تطورت إليه وسائل القتال وطرائقه فى تفاوت درجات المقاتلين .

ولا مانع من أن توزع عليهم حصصهم على شكل علاوات أو مرتبات متلاحقة إنما المهم أن الدولة لا يجوز لها أن تستملك شيئاً من هذه الأموال لنفسها .

رابعها :- مشروعية عقد المساقاة :

وهى أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر ليتعهده بالسقاية و التربية على أن الثمار تكون بينهما ، وقد ذهب مالك و الشافعى وأحمد رضى الله عنهم الى صحة هذا العقد مستدلين على ذلك بمعاملته صلى الله عليه وسلم أهالى خيبر ، وانفرد أبو حنيفة رضى الله عنه فلم يجوّز ذلك ، قال : ولا دليل فى الحديث ، لأن خيبر فتحت عنوة فكان أهلها عبيداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أخذه فهو له وما تركه فهو له ، وخالفه الصاحبان فاتفقا مع الجمهور على صحته ، ثم إختلف العلماء : هل ينبغى أن يقال بصحة هذا العقد على كل أنواع الشجر أم هو خاص بالنخيل و العنب ، وقوفاً عند مورد الدليل ، إذا كانت عامة أشجار خيبر نخيلاً وعنباً ، والذى ذهب إليه كثير من الفقهاء هو التعميم فى كل أنواع الشجر ، أما المزارعة فقد منعها قسم كبير ممن صحح عقد المساقاة ، منهم الشافعية ، وهى أن يعامل مالك الأرض شخصاً آخر على أن يعمل فيها بالزراعة و الإستنبات بجزء مما ستخرجه الأرض ، قال جمهور الشافعية هو غير صحيح ، لما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة ، قالوا : إلا أ، يكون عقد المزارعة تبعاً للمساقاة أى بأن يكون بين الشجر بياض إتفق الطرفان على زراعته ضمن إتفاقهما على عقد المساقاة .

والراجح لدى التأمل فى مجموع الأدلة صحة كل من عقد المساقاة و المزارعة فقد قالوا فى بيانه أن النهى كان فى أول الأمر لحاجة الناس وكون المهاجرين ليست لهم أرض ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم الأنصار بالتكرم بالمواساة ، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كان لرجال من الأنصار فضول أرض وكانوا يكرونها بالثلث و الربع فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسكها ، ثم بعد توسع حال المسلمين زال الإحتياج فأبيحت لهم المزارعة وأن يتصرف المالك فى ملكه كما يشاء ، ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة و المؤاجرة فى عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء من بعده .

خامسها :- مشروعية تقبيل القادم والتزامه :

وهو مما لا نعلم فيه خلافاً معتداً به إذا كان قادما من سفر أو طال العهد به ، واستدل العلماء فى ذلك بتقبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب بين عينيه والتزامه إياه عند قدومه من الحبشة ، والحديث رواه أبو داود بسند صحيح ، وروى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قدم زيد ابن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى فأتاه فقرع الباب ، فقام إليه النبى صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله .

ويشكل عليه فى الظاهر ما رواه الترمذى أيضاً عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا قال : فيأخذ بيده و يصافحه ؟ قال : نعم .

وجواب الإشكال أن سؤال الرجل فى هذا الحديث عن اللقاءات العادية المتكررة بين الرجل و صاحبه ، والتقبيل و الإلتزام أمر غير مرغوب فيه فى مثل هذه الحال ، أما ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك بالنسبة الى جعفر وزيد فإنما كان ذلك ـ كما قد علمت ـ أثر قدوم من سفر فالحالتان مختلفتان .

سادسها :- حرمة ربا الفضل فى المطعومات :

وهو أن يتبادل إثنان مطعومين من جنس واحد مع تفاضل بينهما ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم بأحاديث كثيرة صحيحة منها ما رواه مسلم عن عبادة ابن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والتمر بالتمر ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عيناً بعين فمن زاد أو إستزاد فقد أربى .

ومنها ما رويناه عن البخارى من نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مبادلة التمر الجيد بالتمر الردىء مفاضلة .

وليس هذا مجال البحث فى الحكمة من تحريم هذا التبادل واعتباره رباً محرماً ، فمجال ذلك المطولات من كتب الفقه ، ولكن الذى ينبغى التنبيه إليه هنا هو أن النبى صلى الله عليه وسلم أرشد من يريد أن يستبدل تمراً جيداً بردىء أو غيره من المطعومات بمثله الى وسيلة أخرى سائغة لا ربا فيها ، وهى أن يبيع الردىء بالدراهم ثم يشترى بها الجيد الذى يبتغيه ، ولا يضيره فى شىء إنه إنما يريد أن يتوسل بالبيع الى شىء آخر كان محرماً فى الأصل وأنه لا يقصد البيع لذاته لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سوغ ذلك ، وإنما المحرم ما قد نهى عنه الكتاب أو نهت عنه السنة نهياً جازماً .

و الحكم الذى يستنتج من هذا ، أنه يجوز التوصل الى تحويل حكم لآخر بواسطة مشروعة لذلك ، ولا يعتبر ذلك حيلة محرمة ، فيجوز أن ينكح الرجل إمرأة مطلقة بقصد تحليلها لزوجها السابق إذا لم يشترط ذلك فى العقد ، ويجوز أن يعطى صاحب الدين زكاة ماله للمدين الذى عجز عن إبراء ذمته نحوه ثم يسترده منه عن دينه .

ولا عبة لمخالفة ابن القيم فى هذا ، محتجاً بأن الأعمال بمقاصدها ، وأن الذى باع قاصداً شيئاً آخر غير ما شرع له البيع ،والذى نكح قاصداً غير الذى شرع له النكاح متلبسان بفعل باطل لأنهما حوّلا الحكم عن غايته الى غاية أخرى لم يشرع لها ذلك الحكم ، نقول : لا عبرة لكلامه هذا ، لأنه يناقض حديث البخارى الذى ذكرناه مناقضة صريحة ، والقواعد الفقهية إنما تأتى من وراء النصوص لا من فوقها ، ولأن ابن القيم ناقض نفسه مناقضة فى منتهى الغرابة و العجب بصدد هذا البحث فى كتابه إعلام الموقعين فقد أطال فى ذم تحريم بعض الصور التى سمّاها حيلاً محرمة وأطنب فى تفنيد آراء الأئمة القائلين بصحتها ، وتوعد بأن لهم مواقف عصيبة بين يدى الله يوم القيامة ، ثم ما لبث بعد بضع صفحات أن راح يسوّغها ويضرب بها المثل للحيل الشرعية الصحيحة ، وكأنه ليس هو الذى أطنب قبل قليل فى تفنيدها و التحذير منها .

ثم إن ىف هذه الغزوة حادثتين ، كل منهما ثابت بالحديث الصحيح ، تعدان من الخوارق العظيمة التى أيّد الله بها محمد صلى الله عليه وسلم :

أولاهما:- أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عين علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه وقد كان يشتكى منها فبرأت فى الوقت نفسه حتى كأن لم يكن به وجع .

الثانية :- ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ، ولأمر ما سبق قضاء الله تعالى فابتلع بشر ابن البراء لقمته قبل أن ينطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها مسمومة فكان قضاؤه فى ذلك ، ولعل فى ذلك مزيداً من بيان ما إختص الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم من الحفظ و العصمة من أيدى الناس و كيدهم ، تنفيذاً لوعده جل جلاله : والله يعصمك من الناس .

ولقد ذكرنا أن الرواة إختلفوا : هل أسلمت المرأة اليهودية أم لا ؟ ، و الذى يغلب - على ما جزم به الزهرى - أنها أسلمت ، ولذلك لم يقتلها النبى صلى الله عليه وسلم على ما ذكره مسلم .

لا يقال إن القصاص كان يقتضى قتلها ، لأن القاعدة المتفق عليها : أن الإسلام يجب ما قبله ، فالقتل الذى يستوجب القصاص هو ما كان واقعاً بعد إسلام القاتل أما ما قبله فالأمر فى ذلك راجع الى الحرابة ، ومعلوم أن الحرابة تنتهى بالدخول فى الإسلام .

ثم إن يهود خيبر مكثوا يزرعون الأرض على النصف من نتاجها ، الى أن كانت خلافة عمر رضى الله عنه ، فقتلوا أحد الأنصار وعدوا على عبد الله ابن عمر فقدعت يداه ، فقال رضى الله عنه للناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عامل يهود خيبر على أن يخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله ابن عمر فقدعو يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى من قبل ، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس لنا عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فإنى مخرج يهود .

وهكذا تم إخراج اليهود من الجزيرة العربية ، ولولا بغيهم وعدوانهم واستكبارهم على الحق لما طوردوا ولما أخرجوا ، ولكن الأرض يرثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

سرايا الى القبائل ..... وكتب الى الملوك

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا من أصحابه الى مختلف قبائل الأعراب المنتشرة فى الجزيرة العربية لتقوم بوظيفة الدعوة الى الإسلام فإن لم يستجيبوا قاتلوهم على ذلك .

ولقد كانت هذه السرايا خلال العام السابع للهجرة ، وتبلغ عدتها عشرة سرايا أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم بإمرة مختلف الصحابة .

وفى هذه الفترة نفسها ، بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يبعث كتباً الى مختلف ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها الى الإسلام ونبذ ما هم عليه من الأديان الباطلة .

روى ابن سعد فى طبقاته : أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الإسلام ، وكتب إليهم كتباً ، فقيل يا رسول الله ، إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتماً من فضة نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر من يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم .

فكان أول رسول بعثه صلى الله عليه وسلم عمرو ابن أمية الضمرى الى النجاشى فأخذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه على عينيه ونزل من سريره ، فجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية ابن خليفة الكلى الى هرقل ملك الروم ، فدفع دحية بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى الى هرقل ، فقرأه وكان فيه :(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من إتبع الهدى أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون) .

قال ابن سعد فى طبقاته : فقال هرقل بعد أن قرأ الكتاب لجمع من عظمائه وحاشيته : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح و الرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى ابن مريم ، قالت الروم : وما ذاك أيها الملك ؟ قال : تتبعون هذا النبى العربى ، قالوا فحاصوا حيصة الحمر الوحش ، وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخاف على نفسه وملكه ، فسكتهم ثم قال : إنما قلت لكم ما قلت لأختبركم لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب ، فسجدوا له .

وبعث رسول الله صلى اله عليه وسلم عبد الله ابن حذاقة السهمى الى كسرى يدعوه الى الإسلام ،وأرسل معه إليه كتاباً ، قال فدفعت إليه الكتاب ، فقرىء عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مزقالله ملكه ، وكتب

كسرى الى باذان عامله على اليمن أن إبعث من عندك برجلين جلدين الى هذا الرجل فليأتينى به ، فبعث إليه برجلين جلدين وكتب إليه معهما كتاباً ، فقدما المدينة ودفعا كتاب باذان الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إرجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد فأخبركما بما أريد ، فجاءاه من الغد فقال لهما : (أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها) ـ قال ابن سعد ـ وهى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع (وأن الله تعالى سلط عليه إبنه شيرويه فقتله) ، فرجعا الى باذان بذلك ، فأسلم هو و الأبناء الذين باليمن .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث ابن عمير الأزدى الى عظيم بصرى من قبل الروم شرحبيل ابن عمرو الغسانى ، فأوثقه رباطاً وقتله ، قالوا ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره .

وبعث صلى الله عليه وسلم برسل وكتب أخرى كثيرة الى كثير من الأمراء العرب المتفرقين من مختلف الجهات تعلن إسلامها وتدخل فى دين الله تعالى ، وممن أسلم فى هذه الفترة من كبار العرب وقادتهم : خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص .

روى ابن إسحاق عن عمرو ابن العاص قال : خرجت عامداً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيت خالد ابن الوليد ، وذلك قبل الفتح ، وهو مقبل من مكة فقلت : أين تريد يا أبا سليمان ؟ قال : أذهب والله لأسلم ، فحتى متى ؟ قلت له : وما جئت إلا لأسلم ، فقدمنا جميعاً ، فتقدم خالد فأسلم وبلغ ، ثم دنوت فبايعته .

العبر و العظات :

معالم المرحلة الجديدة : حديث هذه الساريا التى بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم منتشرة فى القبائل ، والكتب التى أرسلها الى مختلف ملوك ورؤساء العالم ، جزء من المظاهر التى تميز هذه المرحلة من الدعوة فى حياته صلى الله عليه وسلم ، عن المرحلة السابقة .

لقد كانت المرحلة التى تسير فيها الدعوة من بدء الهجرة الى صلح الحديبية ، مرحلة دفاعية كما قلنا ، الى جانب القيام بمهام الدعوة السلمية ، فلم يحدث أن أرسل سرية الى قبيلة ما ليدعوهم الى الإسلام ، فإن أبوا قاتلوهم عليه .

فلما أبرم صلح الحديبية بين المشركين من قريش و المسلمين فى المدينة ، واطمأنت أفئدة المسلمين واستراحوا من متاعب قريش ومناوشاتهم ـ تفرغ النبى صلى الله عليه وسلم للدخول فى مرحلة جديدة لابد منها فى حكم الشريعة افسلامية التى بعث لتبليغها و تطبيقها ، ألا وهى مرحلة قتال أولئك الذين بلغتهم الدعوة فوعوها وفهموها ، ولكنهم إستكبروا عن الإيمان بها والإذعان لها حقداً وعدواناً .

إنها المرحلة التى بها أنجز رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوة ربه ، وهى المرحلة التى أصبحت ـ بعمله وقوله ـ خكماً شرعياً باتفاق المسلمين فى كل عصر الى يوم القيامة ، وهى المرحلةالتى يحاول محترفوا الغزو الفكرى أن يطمسوا عليها ويغيبوها عن أعين المسلمين ، بزعم أن كل ما يتعلق بالجهاد فى الشريعة الإسلامية إنما هو قائم على أساس الحرب الدفاعية ورد العدوان ، وها هى ذى هيأة الأمم قامت لتتولى الدفاع ورد العدوان عن المستضعفين ، فلا حاجة الى إستبقاء مبدأ الحرب الدفاعية أيضاً .

وليس سراً خافياً أن الأمر الذى يدعوهم الى هذا الكيد و التضليل فى البحث ، إنما هو الخوف الشديد لدى الدول الجنبية ـ غربيها وشرقيها على السواء ـ من أن يعود فيستيقظ فى نفس المسلمين معنى الجهاد فى سبيل الله ، ثم يتصل هذا المعنى بجذوة الإيمان فى قلوبهم ! .... فلئن تم هذا ، فسيتم عندئذ لا محالة إنهيار الحضارة الأوروبية مهما تطاول بنيانها .

ولقد نضجت عقلية الرجل الأوروبى لمعانقة الإسلام بمجرد أن يسمع دعوة خالصة إليه ، فكيف بالدعوة الخالصة تتلوها تضحية و جهاد ؟ ! ..

حكمة مشروعية هذه المرحلة :

ولعلك تسال الآن : فما هى الحكمة من أن يساق المشرك أو الملحد الى الإسلام سوقاً ؟ وكيف يمكن أن تفهم عقلية القرن العشرين مثل هذه الشرعية ؟!..

والجواب أنا نتساءل : فما الحكمة من أن يحمل الفرد الواحد من الدولة حملاً على الخضوع لنظامها وفلسفتها ، رغم ما يملكه من الحرية الحقيقية وما يتمتع به من حقيقة المساواة مع غيره من عامة أفراد الدولة حكاماً ورعايا ؟

إن الإنسان إنما خلق فوق هذه الأرض ليقيم عليها دولة الله تعالى وحكمه فتلك هى الحكمة من وجوده وهى المعنى المقصود بالخلافة فى الأرض فى قوله تعالى :(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) وفلسفة هذه الدولة قائمة على حقيقة العبودية لله تعالى وحده ، ونظامها قائم على الإذعان بأن الحاكمية هى لله وحده ، لأنه وحده مالك الإنسان ومالك كل شىء ، ولأنه وحده هو قيوم السموات والأرض ، فكيف يعقل أن يكون لدولة يقوم عليها عبيد مملوكون لله ، حق إلزام رعاياهم بالخضوع لما يرونه من النظم و المبادىء و الأحكام ، ثم لا يكون لخالق هؤلاء كلهم الحق فى أن يلزمهم بالخضوع لسلطانه و التحول عن كل عقيدة ودين الى دينه ؟! وإذا كان الإنسان هو خليفة الله تعالى فى تطبيق أوامره وأحكامه فى الأرض ، فهل يكون الإلزام بالخضوع لسلطانه وحكمه إلا بواسطة الإنسان، إذ يدخل فى دينه ويبايع الله تعالى على بذل النفس و المال فى سبيل إقامة المجتمع الإسلامى الذى إنما خلق الإنسان لإقامته ، وليس من المهم أن تفهم هذا ، أن يكون فى القرن العشرين عقولا لاتريد أن تستسيغ هذا أو تفهمه ، لأن من الطبيعى أن تكون ثمّة عقول من هذا النوع ، ما دام أن هناك أمشاجاً و أخلاطاً من الناس يحترفون مهمة الغزو الفكرى بغية حقن الشعور الإسلامى فى العالم بالحقن المتوالية المخدرة والمنومة ، وهم ليسوا مشفقين على الحرية الإنسانية بمقدار ما يتربصون بها .

وليت شعرى أى قيمة توجد للحرية عند أولئك الذين يظلون يكذبون على أنفسهم وعلى شعوبهم ، إذ يصورون لهم الإسلام بالصور الكاذبة المنفرة ، ويصورون لهم المسلمين همجاً من الناس لا يزالون يعيشون فى البوادى مع الإبل و الأغنام ، كى يصدوا بذلك تطلعاتهم الفكرية الى فهم الإسلام ويحبسوا دوافع البحث عندهم ضمن خيوط عنكبوتية حقيرة حتى لا يطلعوا على حقيقة الإسلام فيؤمنوا به ، فيدخلوا فيه ، فتدول بذلك دولة البغى علىالإنسان فى أتعس أشكاله القذرة .

على أنه لا ينبغى أن يفوتك أن الدعوة السلمية بالحكمة و المناقشة و الموعظة الحسنة فى كل مجال ومكان ، أمر لابد منه الى أمد طويل قبل ذلك وحينما ينفذ المسلمون أمر هذه الدعوة على حقيقتها ستزداد يقيناً بأن الإسلام دين الفطرة وأن الناس ـ من أى قوم كانوا ـ سيجدون فى هذا الدين ضالتهم المنشودة ، ولن يستمر على التخلف عنه إلا الحاقدون ، وذلك أكبر دليل على عدوان مبيت فى نفوسهم على الإسلام ودعاته .

كما ينبغى أن لا يفوتك أن أمر هذا الإلزام الذى ذكرناه ، إنما هو خاص بالملحدين و المشركين و الوثنيين ومن لف لفهم ، أما أهل الكتاب فلا يلزمون ـ كما تعلم ـ إلا بالخضوع لنظام المجتمع الإسلامى ، إعتماداً على أن إيمانهم بالله تعالى مع إحتكاكهم بالمسلمين ومعايشتهم سينبههم الى جادة الصواب ويحملهم على تقويم العقيدة .

ثم إن قصة الكتب التى أرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم الى الملوك و الرؤساء دلالات وأحكاماً كثيرة نجملها فيما يلى :

أولاً :ـ أن الدعوة التى بعث بها النبى صلى الله عليه وسلم إنما بعث بها الى الناس كافة ، لا إلى قوم بأعينهم ، وأن رسالته إنما هى إنسانية شاملة ليس لها طابع عنصرية أو قومية أو جماعية معينة .

لذلك إتجه صلى الله عليه وسلم بدعوته يبلغها الى كل حكام الأرض وملوكها ، روى عن أنس رضى الله عنه أن النبىصلى الله عليه وسلم كتب الى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى والى كل جبار يدعوهم الى الله تعالى .

ثانياً:ـ يدلك موقف هرقل مع أتباعه الذين كانوا يزعمون أنهم كانوا على دين عيسى عليه الصلاة و السلام على مدى التكبر على الحق و التعنت فى الباطل عند كثير من أهل الكتاب ، وهم الذين تحول الدين فى تصورهم الى تقاليد و عصبية ، فلا ينظرون إليه إلا

من حيث أنه حق أو باطل بمقدار ما يتمسكون به من حيث أنه جزء من تقاليدهم ومظهر لعصبيتهم وشخصيتهم وليكن بعد ذلك إذا شاء حقاً أو باطلاً ، ولقد بدى موقف هرقل بادىء الأمر فى مظهر المتدبر المقدر لحقائق الأمور ، ولكن يبدو أنه كان يسوس بذلك رعيته وحاشيته ويجس نبضهم ، ليطمئن الى ما ينبغى أن يفعله حفظاً على ملكه وسلطانه حيال هذا الأمر .

ثالثاً :- دل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا على مشروعية إتخاذ الخاتم ، وكان خاتمه صلى الله عليه وسلم من فضة ، كما دل على مشروعية نقش إسم صاحبه عليه ، وقد إستدل كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع الخاتم من الفضة فى الإصبع التى كان صلى الله عليه وسلم يضع خاتمه فيه ، وهى إصبع الخنصر .

رابعاً:- ويدل أيضاً عمله صلى الله عليه وسلم على أنه ينبغى على المسلمين أن يهيؤوا للدعوة الإسلامية فى كل أرجاء الأرض وسائلها و أسبابها ، ومن أهم أسباب ذلك ، المعرفة بلغة الأمم و الأقوام الذين يقومون بدعوتهم الى الإسلام ، وتعريفهم بمبادئه و أحكامه ، فقد رأينا أنه صلى الله عليه وسلم بعث ستة رجال من أصحابه فى يوم واحد ليتفرقوا الى الملوك الذين أرسلهم النبى صلى الله عليه وسلم إليهم وكان كل واحد منهم يتقن لغة القوم الذين بعثه إليهم .

خامساً :- يدل عمله صلى الله عليه وسلم هذا ، مع ملاحظة التوقيت الذى جاء فيه على أن على المسلمين أن يقوموا أولاً بمسئولية الدعوة فيما بينهم ، وأن يصلحوا من أنفسهم ، حتى إذا قطعوا من ذلك شوطاً كبيراً وفرغوا من تطبيق نظام الإسلام على حياتهم وسلوكهم ، آن لهم حينئذ أن يقوموا بهذا الواجب الثانى ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قادراً على أن يرسل عدداً من الصحابة الى هؤلاء الرؤساء و الملوك قبل هذا التاريخ بكثير ، غير أن ذلك ينطوى على الإخلال بهذا الواجب الذى ذكرناه ، وينبغى أن نعلم أن إصلاح المسلمين أنفسهم هو بنفسه جزء عظيم من دعوة غيرهم الى الإسلام ، فالناس كانوا ولا يزالون يبحثون عن المثل الصالح فى السلوك و الخلق ، ليقتفوا أثره ويتبعوه ، ولو أن المسلمين اليوم كانوا معتزين بإسلامهم مطبقين مبادئه وأحكامه لرأيت ذلك الشعاع الهادى متوغلاً بضيائه فى مجاهل أفريقيا وأقاصى أوروبا .

هذا وقد كان زمن إرسال هذه الرسائل و الكتب ، خلال العام السابع للهجرة ، كما ذكرنا ، أى قبل الفتح وذلك هو الحين الذى أجمع عليه عامة علماء السيرة ، ولا يخل بذلك ما دل عليه صنيع الإمام البخارى فى صحيحه ، فقد أورد خبر كتبه صلى الله عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، وذلك يدل على أنه إنما كان فى العام التاسع .

قال ابن حجر : إن الجمع بين القولين أنه صلى الله عليه وسلم ، كاتب قيصر مرتين وهذه الثانية قد وقع التصريح بها فى مسند الإمام أحمد ، وكاتب النجاشى الذى أسلم وصلى عليه لما مات ، ثم كاتب النجاشى الذى ولى بعده ، وكان كافراً .

عمرة القضاء

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج فى ذى القعدة من السنة السابعة قاصداً مكة ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن دخولها ، فاعتمر عمرة القضاء ، وذكر ابن سعد فى طبقاته أن المعتمرين معه عليه الصلاة و السلام كانوا ألفين ، وهم أهل الحديبية ومن إنضم إليهم ولم يتخلف عنها من أهل الحديبية إلا من مات أو استشهد بخيبر .

قال ابن اسحاق : وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه فى عسرة وجهد وشدة ، قال : فصفّ له المشركون عند دار الندوة ، لينظروا إليه والى أصحابه ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اضطبع بردائه ، واخرج عضده اليمنى ثم قال : رحم الله إمرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه ، حتى هرول ثلاثة أطواف ومشى سائرها ، قال : فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم (أى ليست سنة عامة) وذلك أن الرسول إنما صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها .

وتزوج صلى الله عليه وسلم بميمونة بنت الحارث ، فقيل إنه تزوجها وهو محرم (عقد نكاحه فقط) وقيل بل عقد عليها بعد التحلل وكان الذى زوجه إياها العباس ابن عبد المطلب زوج أختها أم الفضل .

ولما مضى من دخوله صلى الله عليه وسلم مكة ثلاثة أيام (وهى المدة التى قاضى قريشاً على الإقامة بها) أتوا علياً رضى الله عنه فقالوا : قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم

وبنى عليه الصلاة و السلام بميمونة فى طريقه الى المدينة فى مكان اسمه (سرف) قرب التنعيم ، ثم انصرف الى المدينة فى ذى الحجة .

العبر و العظات :

هذه العمرة تعتبر تصديقاً إلهياً لما وعد بهالنبى صلى الله عليه وسلم أصحابه من دخولهم مكة و الطواف بالبيت ، وقد رأيت كيف سأل عمر ابن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء الحديبية أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ فأجابه : بلى أفاخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا فإنك آتيه ومطوّف به .

فهذا هو مصدق وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نبه الله عز وجل عباده الى هذا التصديق فى قوله :(لقد صدق الله رسوله الرؤيا ابلحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

ثم إن العمرة إنطوت على معنى تمهيدى للفتح الكبير الذى جاء من بعده ، فقد كان لمرآى ذلك العدد الوفير من المهاجرين و الأنصار وهم محدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فى طوافهم وسعيهم وسائر مناسكهم ، فى حماس ونشاط غير مأمولين منهم فيما كان يتصوره المشركون ـ كان لذلك أثر بعيد فى نفوسهم ، فقد داخلتها الرهبة منهم إذ فوجئوا بعكس ما كانوا يتصورون فيهم من الضعف و الخمول بسبب ما قد يحتمل أن يكونوا قد أصيبوا به من حمى يثرب وسوء مناخها .

روى الإمام مسلم عن ابن عباس أن المشركين لما رأوا رمل المسلمين حول الكعبة وفى المسعى قالوا لبعضهم : هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد أوهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا .

لا جرم أن كان لهذه العمرة إذاً ـ بالشكل الذى تمت به ـ أثر بالغ فى نفوس المشركين مهذ لفتح مكة فتحاً سلمياً كما سترى فيما بعد .

ثم إننا نأخذ من عمرة القضاء ما يلى :

أولاً : استحباب الإضطباع والهرولة فى طواف الأشواط الثلاثة الأولى ، إتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وإنما يستحب ذلك فى طواف يعقبه سعى لأن الطواف الذى رمل فيه النبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، والإضطباع هو جعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن وطرفيه على منكبه الأيسر ، ويسن ان يفعل ذلك أيضاً بين الميلين عند السعى بين الصفا و المروة للإتباع .

غير أن شيئاً من ذلك لا يستحب للمرأة .

ثانياً:ـ ذهب بعض الفقهاء الى جواز عقد النكاح حالة الإحرام بحج أو عمرة ، إعتماداً على الرواية التى نقلت أنه صلى الله عليه وسلم عقد على ميمونة أثناء إحرامه .

والذى عليه جمهور الفقهاء أنه لا يجوز للمحرم أنه لا يجوز للمحرم أن يعقد نكاحاً لا لنفسه ولا وكالة عن غيره مطلقاً ، وذهبت الحنفية الى أنه يحرم للمحرم أن يتولى عقد النكاح لغيره ممن لم يكن محرماً .

هذا وقد اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عمرات وحج حجة واحدة روى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إعتمر أربع عمر كلهنّ فى ذى القعدة إلا التى مع حجته : عمرة من الحديبية فى ذى القعدة ، وعمرة من العام المقبل فى ذى القعدة ، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين فى ذى القعدة وعمرة حجته .

غزوة مؤتة

وقد كانت فى شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، ومؤتة قرية على مشارف الشام وهى التى تسمى اليوم : الكرك .
وسببها ما ذكرناه من مقتل الحارث ابن عمير الأزدى ، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك بصرى ، ولم يقتل رسول لرسول الله غيره ، فندب الناس للخروج الى الشام ، وسرعان ما إجتمع المسلمون فى ثلاثة آلاف مقاتل قد تهيأوا للخروج الى مؤتة . ولم يخرج النبى صلى الله عليه وسلم معهم ، وبذلك تعلم أنها فى الحقيقة ليست بغزوة ولكنها سرية ، ولكن عامة علماء السيرة أطلقوا عليها اسم غزوة لكثرة عدد المسلمين فيها ولما كان لها من أهمية بالغة ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمير الناس زيد ابن حارثة ، فإن قتل فجعفر ابن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله ابن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم ، وأوصاهم صلى الله عليه وسلم أن يدعوا من هناك الى الإسلام ، فإن أجابوا ، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم .
قال ابن اسحاق : ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه المسلمين وأمراءهم عند خروجهم من المدينة ، وفى تلك الأثناء بكى عبد الله ابن رواحة ، فقالوا ما يبكيك ؟ قال : أما والل ما بى حب للدنيا ولا صبابة بكم ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله تعالى يذكر فيها النار :(وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود .
وناداهم المسلمون وهم يسيرون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين فقال عبد الله ابن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات قرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء و الكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى أرشده الله من غاز وقد رشدا

ولما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم ، فجمعوا لهم : جمع لهم هرقل اكثر من مائة ألف مقاتل من الروم ، وجمع شرحبيل ابن عمرو مائة ألف آخرين من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء ، وسمع المسلمون بذلك فأقاموا فى معان ليلتين يفكرون فى أمرهم ، وقالوا نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا ، فشجعهم عبد الله ابن رواحة وقال لهم : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور أو شهادة .
والتقى المسلمون بأعدائهم قبيل الكرك ، وقد إجتمع منهم ما لا قبل لأحد به من العدد و السلاح والعتاد ، فأخذ اللواد زيد ابن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه حتى قتل رضى الله عنه طعنا بالرماح ، ثم أخذ اللواد جعفر ابن أبى طالب فأبلى بلاء عظيماً حتى إذا ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها ثم إنطلق يشتد فى قتال القوم وهو يرتجز :

يا حبذا لاجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إذ لاقيتها ضرابها

وظل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، ضربه رجل من الروم فقده نصفين ، فوجد فى جسده خمسون طعنة ، ليس منها شىء فى ظهره ! .... ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة وانطلق يرتجز قائلاً :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدّوا الرنة مالى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة فى شنّة

ولم يزل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، ثم إتفق الناس على إمرة خالد ابن الوليد فأخذ اللواء ، وقاتل المشركين حتى إنهزموا ، فانحاز بجيشه حينئذ عائداً الى المدينة .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى زيداً وجعفراً وعبد الله ابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم .

وهذا الحديث يدل كما ترى على أن الله أيد المسلمين بالنصر اخيراً ، وليس كما قال بعض الرواة للسيرة أن المسلمين انهزموا وتفرقوا ، وعادوا بعد ذلك الى المدينة ولعل المقصود من الذين قالوا هذا ، أن المسلمين لم يتبعوا الروم ومن معهم فى هزيمتهم ، واكتفوا بانكشافهم عن مواقعهم ، خوفاً على المسلمين ، وانقلبوا عائدين الى المدينة ،ولا شك أنه تدبير حكيم من خالد ابن الوليد رضى الله عنه .

قال ابن حجر : وقع فى المغازى لموسى ابن عقبة ـ وهى أصح المغازى ـ قوله : ثم أخذه (يعنى اللواء) عبد الله ابن رواحة فقتل ، ثم إصطلح المسلمون على خالد ابن الوليد ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين ، قال العماد ابن كثير : ويمكن الجمع بأن خالد ابن الوليد حاز المسلمين وبات ، ثم أصبح وقد غير هيأة العسكر فجعل الميمنة ميسرة و الميسرة ميمنة ، ليتوهم العدو أن مدداً قد جاء المسلمين ، فحمل عليهم خالد فولوّا فلم يتبعوهم ورأى الرجوع بالمسلمين هى الغنيمة الكبرى .

ولما دنوا الى المدينة ، تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقيهم الصبيان يسرعون فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر ! فأتى بعبد الله فحمله بين يديه ... وجعل الناس يصيحون بالجيش : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله .... فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ليسوا الفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

العبر و العظات

أهم ما يثير الدهشة فى هذه الغزوة تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم و المشركين العرب ! ... لقد رأيت أن عدد المشركين ومن معهم من الروم قد بلغ مائتين ألف مقاتل ! ... وذلك على ما رواه ابن اسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعنى ذلك أن عدد المشركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعف من عدد المسلمين !.

وهى نسبة إذا ما تصورتها ، تجعل رقعة الجيش الإسلامىأمام حشود الروم و المشركين ، أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة الى بحر خضم مائج ، هذا الى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة و الذخيرة و السلاح ومظاهر الأبهة و البذخ ،

على حين أن المسلمين كانوا يعانون من ذلك القلة والفقر ! .

ومكان الدهشة فى الأمر ، أن تجد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرية ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم - مقبلين غير مدبرين ، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزناً ، مع أ،ها فيما يبدو ويظهر لو إلتفت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا الى ما يشبه نواة صغيرة فى جوف قطعة أرض سوداء ! ..

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك ، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليم المتلاطم ، يقتل أميرهم الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ، وتقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى !..

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهى ، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله و الإعتماد عليه ، واليقين بوعده . بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين - إذا كانوا مسلمين - أن لا يكونوا كذلك و العجيب فيهم حقاً ، أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد و العدة حساب مع ذلك فى أفكارهم ، الى جانب ما وعد الله به من نصر و تأييد ، أو جنة ونعيم خالدين ! ... فالمسلمون كما قال عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه - لا يقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذى أكرمهم الله به . ثم إن هذه الغزوة تنطوى على عظات و دلالات باهرة كثيرة ، نذكر منها ما يلى :

أولاً:- دلت توصية النبى صلى الله عليه وسلم على أنه يجوز للخليفة أو رئيس المسلمين أن يعلق إمارة أحد الناس بشرط وأن يولى المسلمين عدة أمراء بالترتيب كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فى تولية زيد ثم جعفر ثم عبد الله ابن رواحه ، قال العلماء : و الصحيح أنه إذا أمر الخليفة بذلك فإن ولاية الكل تنعقد بوقت واحد فى الحال ، ولكنها لا تنفذ إلا مرتبة .

ثانياً:- دلت توصية الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً على مشروعية إجتهاد المسلمين فى إختيار أميرهم . إذا غاب أميرهم ، أو وكل إليهم الخليفة إختيار من يرون ، وقال الطحاوى : هذا أصل يؤخذ منه أن على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه الى ان يحضر . كما دلت التوصية على مشروعية إجتهاد المسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً:- لقد رأيت أن النبى صلى الله عليه وسلم نعى لأصحابه زيداً وجعفر وابن رواحة وعيناه تذرفان وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم مسافات بعيدة ، وهذا يدل على أن الله تعالى قد زوى لرسوله الأرض فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ، ما حدّث أصحابه به ، وهى من جملة الخوارق الكثيرة التى أكرم الله بها حبيبه صلى الله عليه وسلم .

كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقته على أصحابه ، فلم يكن شيئاً قليلاً أن يبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف فى أصحابه يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء ، وأنت خبير أن بكاءه صلى الله عليه وسلم عليهم لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره فإن العين لتدمع و القلب ليحزن - كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم - وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليهما .

رابعاً:- وحديث نعيه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الشهداء الثلاثة ، يسجل فضلاً خاصاً لخالد ابن الوليد رضى الله عنه ، فقد قال لهم فى آخر حديثه : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . وتلك أول وقعة يحضرها خالد رضى الله عنه فى صف المسلمين ، إذ لم يكن قد مضى على إسلامه إلا مدة يسيرة ، ومن هنا تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى سجل لقب سيف الله ، لخالد رضى الله عنه.ولقد أبلى خالد رضى الله عنه فى هذه الغزوة بلاء رائعاً ، روى البخارى عنه رضى الله عنه قال : لقد إنقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية ، قال ابن حجر وهذا الحديث يدل على أن المسلمين قد قتلوا من المشركين كثيراً ،هذا ، وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم الى المدينة : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ، فهو أنهم لم يتبعوا الروم ومن معهم فى هزيمتهم ، وتركوا الأرض التى قاتلوا فيها كما هى ولم يكن ذلك شأنهم فى

الغزوات السابقة ، واكتفى خالد بذلك فكرّ عائداً الى المدينة ، ولكنه كما رايت تدبيراً حكيماً من خالد ابن الوليد رضى الله عنه حفظاً للمسلمين وهيبتهم التى إنطبعت فى أفئدة الروم ، ولذلك رد النبى صلى الله عليه وسلم عليهم قائلاً : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .

فتح مكــة

وكان ذلك فى رمضان سنة ثمان من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وسببها أن أناساً من بنى بكر ، كلموا أشراف قريش فى أن يعينوهم على خزاعة بالرجال و السلاح (وخزاعة كانت قد دخلت فى عهد المسلمين) فأجابوهم الى ذلك ، وخرج حشد من قريش متنكرين كتنقبين فيهم صفوان ابن أمية ، وحويطب ابن عبد العزى ومكرز ابن حفص ، فالتقوا مع بنى بكر فى مكان إسمه (الوتير) و بيتوا خزاعة ليلاً وهم مطمئنون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً ، وعندئذ خرج عمرو ابن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً من خزاعة ، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بما أصابهم ، فقام وهو يجر رداءه قائلاً :(لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب ، مما أنصر منه نفسى) وقال :(إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب).

وندمت قريش على ما بدر منها فأرسلت أبا سفيان ابن حرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجدد الهدنة ويماددها ، وقدم أبو سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيئاً فذهب الى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما أنا بفاعل .

ثم أتى عمر ابن الخطاب فكلمه فقال : أأشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به (و الذر صغار النمل) .

وانطلق أبو سفيان عائداً الى مكة خائباً ، لم يأت بشىء ! ، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخفى أمره ، وقال :(اللهم خذ على أبصار قريش فلا يرونى إلا بغتة) .

ولما أجمع النبى صلى الله عليه وسلم المسير كتب حاطب ابن أبى بلتعة الى قريش يحذرهم من غارة عليهم من المسلمين ، قال علىّ رضى الله عنه : فبعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا و الزبير ، و المقداد فقال إنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة (إمرأة) معها كتاب فخذوه منها ، قال فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لنلقينّ الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب ابن أبى بلتعة الى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علىّ ، إنى كنت إمرأ ملصقاً فى قريش- أى كنت حليفاً لهم ولست منهم - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى ، ولم أفعله إرتداداً عن دينى ولا رضى بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد صدقكم ، فقال عمر : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله إطلع على من شهد بدراً فقال : إعملوا ما شئتم قد غفرت لكم ، فأنزل الله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الآيات الى قوله تعالى : فقد ضل سواء السبيل .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة كلثوم ابن حسين ، وخرج يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر ، وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى من حوله من العرب : أسلم وغفار ومزينة ، وجهينة وغيرهم ، فالتقى كلهم فى الظهران - مكان بين مكة و المدينة - وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف ، ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد ، ولكنهم

كانوا يتوقعون أمراً بسبب فشل أبى سفيان فيما جاء به الى المدينة ، فأرسلوا أبا سفيان ، وحكيم ابن حزام ، وبديل ابن ورقاء ليلتمسوا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسيرون ، حتى دنوا الى مر الظهران فإذا هم بنيران عظيمة ، فبينما هم يتساءلون فيما بينهم عن هذه النيران ، إذ رآهم أناس من حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم أبو سفيان .

قال ابن اسحاق : يروى عن العباس تفصيل إيمان أبو سفيان : فلما أصبح غدوت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك يا ابا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ، وقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت و أمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : ويحك ... أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم .

قال العباس : فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : نعم ، من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير مقبلاً الى مكة ، قال للعباس : إحبس أبا سفيان بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها ، قال : فخرجت حتى حبسته عند مضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه ، ومرت القبائل عليها راياتها ، كلما مرت قبيلة قال يا عباس من هذه ؟ فأقول : سليم فيقول مالى وسليم ؟ ...وهكذا ، حتى مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة فيها المهاجرين و الأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت هذا رسول الله فى المهاجرين و الأنصار ! ... قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! .. فقال : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

ثم قال له العباس : النجاة الى قومك ! .. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فأقبلت إليه إمرأته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه وهى تقول : اقتلوا الحميت الدمس الأحمس ، قبح من طليعة قوم ! فقال : ويلكم لاتغرنكم هذه من نفوسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس الى دورهم وإلى المسجد .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سعد ابن عبادة قال لأبى سفيان عندما رآه فى مضيق الوادى ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فلم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا ، وقال : بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعظم الله الكعبة ، وأمر قادة جيوشه أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا ستة رجال وأربعة نسوة ، أمر بقتلهم حيثما وجدوا ، وهم : عكرمة ابن أبى جهل ، وهبّار ابن الأسود ، وعبد الله ابن أبى سرح ، ومقيس ابن صبابة الليثى ، والحويرث ابن نقيد ، وعبد الله ابن هلال ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو ابن هشام ، وفرتنى وقرينة (وكانتا جاريتين تتغنيان دائما بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم) .

ودخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها (كداء) وأمر خالد ابن الوليد أن يدخل بمن معه من أسفلها (كدى) ، فدخل المسلمون مكة من حيث أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجد أحد منهم مقاومة ، إلا خالد ابن الوليد فقد لقيه جمع من المشركين فيهم عكرمة ابن أبى جهل وصفوان ابن أمية ، فقاتلهم خالد فقتل منهم أربعة وعشرين من قريش ،وأربعة نفر من هذيل ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بارقة السيوف من بعيد ، فأنكر ذلك ، فقيل له : إنه خالد قوتل فقاتل ، فقال : (قضاء الله خير) .

روى ابن اسحاق عن عبد الله ابن أبى بكر و الحاكم عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما إنطوى الى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً (متعمماً) بشقة بردة حبرة ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عنثونه ليكاد يمس واسطة الرحل . وروى البخارى عن معاوية ابن قرة قال : سمعت عبد الله ابن مغفل يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح ، يرجع ، وقال لولا أن يجتمع الناس حولى لرجعت كما رجع .

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة متجهاً الى البيت ، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها الواحدة تلو الأخرى بعود فى يده ، وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . وكان فى جوف الكعبة ايضاً آلهة ، فأبى أن يدخل وفيها الآلهة ،وأمر بها فأخرجت وأخرجت صور لإبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، ثم دخل البيت فكبر فى نواحى البيت وخرج ولم يصل فيه .

وكان قد أمر عثمان ابن طلحة (وهو من حجبة البيت) أن يأتيه بالمفتاح ، فجاءه به ففتح البيت ، ثم دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت ، ثم خرج فدعا عثمان ابن طلحة فدفع إليه المفتاح ، وقال : خذوها خالدة مخلدة ، إنى لم أدفعها إليكم (أى حجابة البيت) ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم ، يشير بذلك الى قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأقبل الناس كلهم يدخلون فى دين الله أفواجاً .

قال ابن اسحاق : وأمسك النبى صلى الله عليه وسلم بعضادتى باب الكعبة وقد إجتمع الناس من حوله ما يعلمون ماذا يفعل بهم ، فخطب فيهم قائلاً : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ،وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى تحت قدمىّ هاتين ، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج ... ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، وتلا قول الله تعالى :(يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة كلثوم ابن حسين ، وخرج يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر ، وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم الى من حوله من العرب : أسلم وغفار ومزينة ، وجهينة وغيرهم ، فالتقى كلهم فى الظهران - مكان بين مكة و المدينة - وقد بلغ عدد المسلمين عشرة آلاف ، ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد ، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً بسبب فشل أبى سفيان فيما جاء به الى المدينة ، فأرسلوا أبا سفيان ، وحكيم ابن حزام ، وبديل ابن ورقاء ليلتمسوا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسيرون ، حتى دنوا الى مر الظهران فإذا هم بنيران عظيمة ، فبينما هم يتساءلون فيما بينهم عن هذه النيران ، إذ رآهم أناس من حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم أبو سفيان .

قال ابن اسحاق : يروى عن العباس تفصيل إيمان أبو سفيان : فلما أصبح غدوت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك يا ابا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ، وقال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت و أمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ،

فقال له العباس : ويحك ّ ... أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم .

قال العباس : فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : نعم ، من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير مقبلاً الى مكة ، قال للعباس : إحبس أبا سفيان بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها ، قال : فخرجت حتى حبسته عند مضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه ، ومرت القبائل عليها راياتها ، كلما مرت قبيلة قال يا عباس من هذه ؟ فأقول : سليم فيقول مالى وسليم ؟ ...وهكذا ، حتى مرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة فيها المهاجرين و الأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت هذا رسول الله فى المهاجرين و الأنصار ! ... قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! .. فقال : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن .

ثم قال له العباس : النجاة الى قومك ! .. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة قبل أن يصلها رسول الله وصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فأقبلت إليه إمرأته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه وهى تقول : اقتلوا الحميت الدمس الأحمس ، قبح من طليعة قوم ! فقال : ويلكم لاتغرنكم هذه من نفوسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس الى دورهم وإلى المسجد .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سعد ابن عبادة قال لأبى سفيان عندما رآه فى مضيق الوادى ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة ، فلم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله هذا ، وقال : بل اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعظم الله الكعبة ، وأمر قادة جيوشه أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا ستة رجال وأربعة نسوة ، أمر بقتلهم حيثما وجدوا ، وهم : عكرمة ابن أبى جهل ، وهبّار ابن الأسود ، وعبد الله ابن أبى سرح ، ومقيس ابن صبابة الليثى ، والحويرث ابن نقيد ، وعبد الله ابن هلال ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو ابن هشام ، وفرتنى وقرينة (وكانتا جاريتين تتغنيان دائما بهجاء النبى صلى الله عليه وسلم) .

ودخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة من أعلاها (كداء) وأمر خالد ابن الوليد أن يدخل بمن معه من أسفلها (كدى) ، فدخل المسلمون مكة من حيث أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجد أحد منهم مقاومة ، إلا خالد ابن الوليد فقد لقيه جمع من المشركين فيهم عكرمة ابن أبى جهل وصفوان ابن أمية ، فقاتلهم خالد فقتل منهم أربعة وعشرين من قريش ،وأربعة نفر من هذيل ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بارقة السيوف من بعيد ، فأنكر ذلك ، فقيل له : إنه خالد قوتل فقاتل ، فقال : (قضاء الله خير) .

روى ابن اسحاق عن عبد الله ابن أبى بكر و الحاكم عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما إنطوى الى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً (متعمماً) بشقة بردة حبرة ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عنثونه ليكاد يمس واسطة الرحل . وروى البخارى عن معاوية ابن قرة قال : سمعت عبد الله ابن مغفل يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح ، يرجع ، وقال لولا أن يجتمع الناس حولى لرجعت كما رجع .

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة متجهاً الى البيت ، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها الواحدة تلو الأخرى بعود فى يده ، وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . وكان فى جوف الكعبة

ايضاً آلهة ، فأبى أن يدخل وفيها الآلهة ،وأمر بها فأخرجت وأخرجت صور لإبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، ثم دخل البيت فكبر فى نواحى البيت وخرج ولم يصل فيه.

وكان قد أمر عثمان ابن طلحة (وهو من حجبة البيت) أن يأتيه بالمفتاح ، فجاءه به ففتح البيت ، ثم دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت ، ثم خرج فدعا عثمان ابن طلحة فدفع إليه المفتاح ، وقال : خذوها خالدة مخلدة ، إنى لم أدفعها إليكم (أى حجابة البيت) ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم ، يشير بذلك الى قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فصعد فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأقبل الناس كلهم يدخلون فى دين الله أفواجاً .

قال ابن اسحاق : وأمسك النبى صلى الله عليه وسلم بعضادتى باب الكعبة وقد إجتمع الناس من حوله ما يعلمون ماذا يفعل بهم ، فخطب فيهم قائلاً : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ،وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى تحت قدمىّ هاتين ، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج ... ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، وتلا قول الله تعالى :(يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعاً:- تأملات فى كيفية دخوله صلى الله عليه وسلم الى مكة :

1- لقد رأينا فيما يرويه البخارى عن عبد الله ابن مغفل أنه صلى الله عليه وسلم كان وهو على مشارف مكة يقرأ سورة الفتح ، يرجّع فى تلاوته لها ، والترجيع كيفية فى القراءة يترنم بها القارىء ، وهذا يدل كما نرى أنه صلى الله عليه وسلم كان مستغرقاً فى حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة ، فما كانت لنشوة النصر و الظفر العظيم الى نفسه من سبيل ولم يكن شىء من التعاظم أو التجبر ليستولى على شىء من مشاعره ، إنما هو الإنسجام التام مع شهود الله تعالى و الشكر على نصره وتأييده .

ويزيد فى تصوير هذا المعنى ما رواه ابن اسحاق من أنه صلى الله عليه وسلم لما وصل الى ذى طوى كان يضع راسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن عنثونه ليكاد يمس واسطة الرحل ، وهذا يعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان مندمجاً فى حالة من العبودية التامة لله تعالى إذ رأى ثمرة القيام بأمر ربه ، ونظر الى نتيجة كل ما قد كان لقيه من العذاب من قومه ، وكيف أن الله تعالى أعاده الى البلد التى أخرجته عزيزاً منصوراً مكرماً !.. إنها الساعة التى ينبغى أن تمتلىء بشكر الله تعالى وحده ، و ينبغى أن يفيض الزمن كله بمعنى العبودية التامة لله تعالى .

وهكذا يجب أن تكون حال المسلمين دائماً : عبودية مطلقة لله فى السراء و الضراء ،فى الرخاء و الشدة ، عند الضعف و القوة ، وليس من شأن المسلين إطلاقاً ، أن يتظاهروا بالذل لله تعالى كلما حاقت بهم مصيبةأو كرب ، حتى إذا إنكشف الكرب وزال الضر ، أسكرتهم الفرحة بل أسكرهم الطغيان عن كل شىء ، ومرّوا من جانب أوامر اله تعالى وأحكامه ساهين لا هين ، كأن لم يدعوه الى ويتذللوا غليه فى كشف ضر مسّهم !..

2- يدلنا أيضا هذا الذى رواه البخارى على مشروعية الترنم و التغنى بقراءة القرآن وهو المعنىى الذى عبر عنه عبد الله ابن المغفل بالترجيع ، وهو الحق الذى عليه عامة العلماء من الشافعية و الحنفية وكثير من المالكية وغيرهم . ولقد حمل هؤلاء الأئمة ما روى عن كثير من الصحابة و التابعين مما يدل علىالنهى عن التطريب و التغنى فى تلاوة القرآن ، على التطريب الذى يطغى على سلامة الأداء ويذهب بالحروف و الكلمات عن مخارجها العربية الصحيحة ، إذ أن مثل هذه التلاوة غير جائزة بإتفاق .

3- لقد كان التدبير الحكيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا فى مداخل مكة ، فلا يدخلوها من طريق ومدخل واحد ، وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك إذ يضطرون الى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم فى جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة و مغرياتها .

وإنما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، حقناً للدماء ما أمكن ، وحفظاً لمعنى السلامة والأمن فى البلدة الحرام ، ومن أجل هذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم وأعلن أن من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن .

خامساً :- ما اختص به الحرم المكى من الأحكام :

1- حرمة القتال فيه :

لقد رأينا أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه عن قتال أحد ، إلا أن يبدأ أناس المسلمين بالقتال ، و إلا ستة أنفار أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم اينما وجدوا .

ولقد رأينا انه صلى الله عليه وسلم أنكر على خالد ابن الوليد قتاله لبعض اهل مكة حينما راى بارقة السيوف على بعد ، فقيل له إنه قوتل فقاتل ، فقال : قضاء الله خير ، ولم يقع فيما عدا ذلك قتال فى مكة كما رأينا أنه صلى الله عليه وسلم قال فيما خطب به الناس يوم الفتح : إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، لا يحل لإمرىء يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد به شجراً ، فإن ترخص فى قتال فيها فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن له ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس .

وقد أخذ العلماء من هذا أنه لا يجوز القتال فى مكة وما يتبعها من الحرم ، وهو صريح أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة يوم الفتح ، ولكنهم بحثوا بعد هذا ، فى كيفية تطبيق هذا الأمر ، وسبيل التوفيق بينه وبين النصوص التى تأمر بقتال المشركين و البغاة وقتل من ثبت عليهم القصاص ، فقالوا : أما المشركون و الملحدون فلا يتصور أن تقع المشكلة بالنسبة لقتالهم ، فقد ثبت شرعاً أنه لا يجوز شرعاً تمكين أحد يدين بغير الإسلام من الإستيطان بمكة ، بإتفاق الأئمة ، بل ومن مجرد الدخول إليها عند الشافعية وكثير من المجتهدين ، وذلك لقول الله تعالى :(إنما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وعلى من فيها أن يقاتلوا هؤلاء قبل وصولهم إليها و الدخول فيها ، هذا الى أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ حرمه من أن يدنس بإقامة أى كافر أو مشرك فيه ، وذلك مظهر من مظاهر إعجاز هذا الدين الذى يتجلى فى صدق الوعد الذى جاء فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأما البغاة : - وهم الذين يعلنون البغى على الإمام الصالح - فقد ذهب جمهور من الفقهاء الى أنهم يقاتلون على بغيهم إذا لم يمكن ردّهم عن بغيهم إلا بالقتال ، لأن قتال البغاة من حقوق الله تعالى التى لا يجوز إضاعتها ، فحفظها أولى فى الحرم من إضاعتها ، قال النووى : وهذا الذى نقل عن الجمهور هو الصواب وقد نص عليه الشافعى فى كتاب إختلاف الحديث .

قال الشافعى : ويجاب عما يقتضيه ظاهر الحديث من منع القتال مطلقاً (أى حتى للبغاة) بأن القتال المقصود بالتحريم إنما هو نصب القتال عليهم وقتالهم بما يعم كالمنجنيق وغيره ، إذا أمكن إصلاح الحال بدون ذلك ، وأما إذا تحصن الكفار فى بلد آخر فإنه يجوز قتالهم حينئذ على كل وجه وبكل شكل.

وذهب بعض الفقهاء الى أنه يحرم قتال البغاة بل يضيق عليهم فى كل الوجوه حتى يضطروا الى الخروج من الحرم أو الرجوع الى الطاعة .

وأما إقامة الحدود : فقد ذهب الإمام مالك و الشافعى إلى أن الحدود تقام فى الحرم المكى ، لما رواه البخارى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :(إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة) .

وذهب ابو حنيفة ـ وهو رواية عن أحمد ـ إلى أنه آمن ما دام فى الحرم ولكن يضيق عليه ويضطر الى الخروج منه ، حتى إذا خرج استوفى منه الحد أو القصاص ، ودليل هؤلاء عموم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الزركشى : فوجه الخصوصية إذاً للحرم المكى ، إن الكفار و البغاة لو تحصنوا بغير مكة من البلدان الأخرى جاز نصب حرب عامة شاملة عليهم على أى وجه وبأى شكل تقتضيه المصلحة ، ولكنهم لو تحصنوا بها لم يجز قتالهم على ذلك الوجه ، قلت : هذا الى جانب أن الله تعالى تعهد بأن يكون هذا الحرم موئلاً ومثابة للمسلمين وحدهم ، وإذا كان الواقع كذلك ففيم يقوم سبب القتال فيه إذاً اللهم إلا إقامة الحدود ورد البغى وقد عرفت حكم كل منهما .

2- تحريم صيده :

وهذا ثابت بالإجماع لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ، فإذا حرم التنفير فالإتلاف أولى ، فإن أصاب صيداً فيه وجب عليه إرساله ، وإن تلف فى يده ضمنه بالجزاء كالمحرم ، ويستثنى من عموم الحيوانات خمسة أصناف استثناها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عموم المنع وسماها الفواسق : الغراب و الحدأة ، و العقرب ، و الفأرة ، و الكلب العقور ، وقد قاس عليها العلماء ما يشاركها فى صفة الإيذاء من الحيوانات الأخرى كالحية و السباع الضارية .

3- تحريم قطع شىء من نباته :

ودليله قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث السابق : لا يعضد شوكه ، وضابط ذلك قطع كل نبات أنبته الله تعالى دون أن يغرسه أحد من الناس ما دام رطباً ، فلا يحرم ما غرسه الآدميون ، كما لا يحرم فيه ذبح الأنعام ، واسترعاء خلاه ونباته وقطع ما يبس من أشجاره و أعشابه ، وروى الزركشى عن أبى حنيفة وأحمد منع رعى البهائم فى الحرم ، واستثنى الجمهور من عموم النباتات ما كان مؤذياً منها قياساً علىالفواسق الخمسة التى إستثناها صلى الله عليه وسلم ، فهو من قبيل تخصيص النص بالقياس .

4- وجوب دخوله محرماً :

فمن قصد مكة ـ أو قصد شيئاً من حرمه كما قال النووى ـ وكان ممن لا يتكرر دخوله كالتجار و الحطابين ، ومن تجبرهم مهنتهم على إستمرار الدخول الى الحرم و الخروج منه ، أنه عليه أن لا يدخل إلا محرماً بحج أو عمرة . وقد إختلف العلماء هل يتعلق الطلب بذلك وجوباً أم ندباً ؟

المشهور عن الأئمة الثلاثة وهو المفتى به عند الحنفية و المروى عن ابن عباس أن الطلب على سبيل الوجوب ، وذهب جمهور الشافعية إلى أنه على سبيل الندب . وسبب الخلاف أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما دخل مكة يوم الفتح لم يكن محرماً بدليل ما رواه مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء بغير إحرام .

فالذين قالوا إن الإحرام مندوب استدلوا بهذا الحديث ، والذين صححوا الوجوب ، قالوا إن النبى صلى الله عليه وسلم دخل خائفاً من غدر الكفار فكان متهيأ لقتال من سيقاتله منهم وهى من الحالات التى تستثنى من عموم حالات الوجوب .

5- حرمة تمكين غير المسلمين من الإقامة فيه :

وقد أوضحنا هذا الحكم مع بيان دليله عند ذكر الحكم الأول ، وهو حرمة القتال فيه .

سادساً :- تأملات فيما قام به صلى الله عليه وسلم من أعمال عند الكعبة المشرفة :

1- الصلاة داخل الكعبة : ذكرنا ما رواه البخارى عن ابن عباس من أنه صلى اله عليه وسلم لم يدخل البيت حتىأخرج ما كان فيه من أصنام ، وأخرجت صورة لإبراهيم وإسماعيل وفى أيديهما الأزلام ... ثم دخل البيت فكبر فى نواحيه ولم يصل .

وقد روى مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان ابن طلحة الحجى ، فأغلقها عليه ثم مكث فيها ، قال ابن عمر : فسألت بلالاً حين خرج ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه- وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى ، وقد روى البخارى عن ابن عمر قريباً من هذا .

وقد قال العلماء إنه لا تعارض بين الحديثين ،وذلك لأن ابن عباس - وهو راوى حديث عدم الصلاة - لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة ، وإنما أسند نفى الصلاة - كما يقول ابن حجر - تارة الى اسامة وتارة الى أخيه الفضل ، على أن الفضل أيضاً لم يكن معهم فى الكعبة ، أما بلال وهو الذى نقل ثبوت الصلاة فقد كان مع النبى صلى الله عليه وسلم وبناءاً على هذا ينبغى أن أن يقدم حديث ابن عمر عن بلال لسببين :

الأول :- أنه مثبت فمعه زيادة علم ،والمثبت مقدم على المنفى .

الثانى :- أن رواية بلال عن تثبت ومشاهدة لأنه كان معه صلى الله عليه وسلم فى داخل الكعبة ، أما رواية ابن عباس فهى كما علمت إنما تستدل الى نقل لا مشاهدة ، وهو مرة ينقل عن أسامة ومرة ينقل عن أخيه الفضل ، والفضل لم يكن موجوداً معه صلى الله عليه وسلم .

قال النووى : أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال ، لأنه مثبت فمعه زيادة علم فواجب ترجيحه .

وقد ذهب الشافعى وأحمد وأبو حنيفة وجمهور العلماء الى أن الصلاة تصح فى داخل الكعبة إذا اتجه المصلى الى أحد جدرانها ، سواء فى ذلك النافلة والفريضة ، وفرق مالك فصحح النفل المطلق دون الفرض و الرواتب .

2- حكم التصوير واتخاذ الصور :

وقد رأيت فيما نقلناه من حديث البخارى نفسه أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل الكعبة حتى أخرج كل ما فيها من صور وأصنام وقد روى أبو داود عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عمر ابن الخطاب ، وهو بالبطحاء ،أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وقد روى البخارى فى كتاب الحج عن أسامة أنه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم ، فدعا بماء فجعل يمحوها .

وهذه الأحاديث فى مجموعها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ، أمر بالرسوم المخطوطة على الجدران فمحيت ، كما أمر بالصور المجسمة القائمة فى جوفها فأخرجت ،ويبدو أنه حينما دخل بعد ذلك وجد آثاراً لتلك الرسوم على بعض الجدران فدعا بماء وجعل يبالغ فى حتها ومحوها . وهذا يدل بوضوح على حكم الإسلام فى حق التصوير و الصور المجسمة و غير المجسمة ، ولننقل لك من ذلك نص الإمام النووى رحمه الله تعالى فى شرحه على صحيح مسلم قال :(قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد الحرمة ، وهو من الكبائرلأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور فى الأحاديث ، وسواء صنعه بما يمتهن أو بغيره ، فصنعته حرام على كل حال ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها) .

أما تصوير الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان ، فليس بحرام . هذا حكم نفس التصوير . وأما حكم اتخاذ المصوّر فيه صورة حيوان ، فإن كان معلقاً على حائط أو ثوباً ملبوساً أو عمامة ونحو ذلك ، مما لا يعد ممتهناً فحرام . وإن كان

فى بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام ، ولكن هل يمنع دخول الملائكة الرحمة ذلك البيت ؟ فيه كلام نذكره فيما بعد إن شاء الله ، ولا فرق فى هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا فى هذه المسألة .

وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة و التابعين ومن بعدهم ، وهو مذهب الثورى ومالك وأبو حنيفة وغيرهم ، وقال بعضهم : إنما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصورة التى ليس لها ظل ، وهذا مذهب باطل ، فإن الستر الذى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم الصور فيه ، لا يشك أحد أنه مذموم ، وليس لصورته ظل ، مع باقى الأحاديث المطلقة فى كل صورة) .

ثم قال رحمه الله تعالى :(وأجمعوا على منع ما كان له ظل ، ووجوب تغييره ، قال القاضى إلا ما ورد فى لعب البنات : اللعب لصغار البنات ففى ذلك رخصة) .

قلت : ويستشكل الناس فى حكم الصور الفوتوغرافية اليوم ، هل هى فى حكم الرسوم و الصور التى ترسم وتخطط بمهارة اليد ، أم لها حكم آخر .

وقد فهم بعضهم من علة حرمة التصوير التى ذكرها الإمام النووى فيما نقلناه من كلامه ، أ، التصوير الفوتوغرافى ليس فى حكم الرسم باليد ، إذ العمل الفوتوغرافى لا يقوم على أى مهارة فى الصنعة أو اليد ، بحيث تتجلى فيها محاولةة المضاهاة بخلق الله تعالى ، إذ هو يقوم على تحريك بسيط لناحية معينة فى جهاز التصوير ، يتسبب عنه انحباس الظل فى داخله بواسطة أحماض معينة ، وهى حركة بسيطة يستطيع أن يقوم بها أى طفل صغير ، والحق أنه لا ينبغى أن تكلف أى فرق بين أنواع التصوير المختلفة حيطة فى الأمر ،ونظراً لإطلاق لفظ الحديث .

هذا فيما يتعلق بالتصوير ، أما الإتخاذ فلا فرق بين الفوتوغرافى و غيره .

ولكن مهما يكن فإن لنوع الصور أثراً فى الحكم على التصوير واتخاذه ، فإن كان الشىء المصور من قبيل المحرمات كصور النساء وما شابه ذلك فهو محرم ولا شك ، وإن كان مما تدعو المصلحة والحاجة الى تصويره فربما كانت فى ذلك رخصة ، والله أعلم .

ثم إنه ربما يعجب البعض من الناس اليوم من أن يكون التصوير أو النحت محرماً فى الإسلام مع أنهما يعدان من المقومات الفنية الكبرى لدى سائر الأمم المتحضرة فى هذا العصر ، وسر العجب عند هؤلاء الناس ، أنهم يتوهمون الإسلام متفقاً مع هذه الحضارة الغربية اليوم ،وإنما يخالف منها هذه المظاهر الجزئية فيعجبون للتناقض ، مع أن الإسلام حينما لا يقر هذه المظاهر من الفن ويحرمها فإنما ذلك لأن للإسلام منطلقاً حضارياً آخر مستقلاً بذاته لا يتفق ومنطلقات هذه الحضارة التى فرضت نفسها علينا من نافذة التقليد الأعمى ، ولم تتقدم إلينا عن طريق المحاكمة العقلية الصافية ، فهم يحتجون على الإسلام باسم الفن ، مع أن للفن فى الحكم الإسلامى مضموناً آخر غير هذا المضمون الذى تلقيناه من فلسفة أخرى لا شأن لها بعقيدتنا .

3- حجابة البيت :

وبناءاً على ما ذكرناه من أنه صلى الله عليه وسلم أعاد مفتاح البيت الى عثمان ابن طلحة وقال له : خذوها خالدة مخلدة ـ يقصد بنى عبد الدار وبنى شيبة ـ لا ينزعها منكم إلا ظالم ، فقد ذهب عامة العلماء الى أنه لا يجوز لأحد أن ينتزع حجابة البيت وسدانته منهم الى يوم القيامة ، قال النووى نقلاً عن القاضى عياض : هى ولاية لهم عليها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبقى دائمة لهم ولذرياتهم أبداً ، ولا ينازعون فيها ولا يشاركون ما داموا موجودين صالحين لذلك ، أقول : وهى لا تزال اليوم فى أيديهم طبق وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره .

4- تكسير الأصنام :

وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله ، إذ كان يطعن تلك الآلهة المزيفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه ، وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ، وقد روى ابن اسحاق وغيره أن كل صنم منها كان ينكفىء على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً !.. ولماذا لا تنقلب لإشارته صلى الله عليه وسلم ولا تتكسر ، وقد قلب الله جبروت قريش خضوعاً له وذلاً ، وجعل مكة كلها وبمن فيها تدين للدين الذى جاء به وتذعن للحق الذى نادى به !!..

سابعاً :- تأملات فى خطابه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح :

والآن .... ها هى ذى مكة البلدة التى هاجر منها قبل ثمان سنوات ، خاضعة له مؤمنة برسالته وهديه ، وها هم أولاء الذين طالما ناصبوه العداء ة وساموه أصناف الأذية و العذاب ، مجتمعون حوله فى خشوع وترقب وإطراق ، فما الذى سيقوله لهم اليوم ؟

إن عليه قبل كل شىء أن يبدأ بالثناء على ربه الذى نصره وأيده وصدق وعده ، وهكذا استفتح خطابه بقوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعهده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم عليه بعد ذلك أن يعلن أمام قريش وغيرهم من سائر الناس عن المجتمع الجديد وشعاره الذى يتجلى فى قوله تعالى :(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ,إذاً فلتدفن تحت الأقدام المسلمين بقايا تلك الشعارات الجاهلية العتيقة العفنة ، من التفاخر بالآباء و الأجداد ، والتباهى بالقومية و القبلية و العصبية ،والإعتداد بفوارق الشكل و الغة والأنساب فالناس كلهم لآدم ,ىدم من تراب .

لقد طويت منذ اللحظة جاهلية قريش ، فلتطو معها سائر عاداتها وتقاليدها ، ولتدفن فى غيهب الماضى الذى أدبر ، ولتغتسل قريش من بقايا أدرانها لتنضم الى القافلة وتسير مع الركب .... فإن الموعد عما قليل هناك ... عند إيوان كسرى ، وداخل بلاد الروم ،وإن مكة ستصبح بعد اليوم مشرق حضارة ومدنية جديدتين تلبس منهما الدنيا كلها حلة من السعادة الإنسانية الشاملة ،وهكذا دفنت فعلاً فى تلك الساعة بقايا المآثر الجاهلية تحت الأقدام ، وبايعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، على أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وعلى أنه لا تعاظم إلا بحلة الإسلام ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه ، وبناء على ذلك ملكهم الله زمام العالم وأخضع لهم الدنيا .

فاعجب بعد ذلك لجيفة منتنة تبعث اليوم من رمثها بعد مضى أربعة عشر قرناً على موتها ودفنها ! ..

ثامناً :- بيعة النساء وما يتعلق بها من أحكام :

نأخذ منها ما يلى :

أولاً :- اشتراك المرأة مع الرجل - على أساس المساواة التامة - فى جميع المسؤوليات التى ينبغى أن ينهض بها المسلم ، ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المسلم أن يأخذ عليهنّ العهد بالعمل على إقامة المجتمع المسلم بكل الوسائل المشروعة الممكنة ، كما يأخذ العهد فى ذلك على الرجال ، ليس بينهما فرق ولا تفاوت .

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شئون دينها ، كما يتعلم الرجل ،وأن تسلك كل السبل المشروعة الممكنة الى التسلح بسلاح العلم والوعى و التنبه الى مكامن الكيد و اساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به ، حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذى قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذى فى عنقها ، وواضح أن المرأة تستطيع أن تنهض بشىء من هذا إذا كانت جاهلة بحقائق دينها غير منتبهة الى أساليب الكيد الأجنبى من حولها .

ثانياً:- علمت مما ذكرناه من كيفية بيعة النساء للنبى صلى الله عليه وسلم ، أن بيعتهنّ إنما كانت بالكلام فقط من غير أخذ الكف ، وذلك على خلاف بيعة الرجال ، فدلّ ذلك على أنه لا يجوز ملامسة الرجل بشرة إمرأة اجنبية عنه ، ولا أعلم خلافاً فى ذلك عند علماء المسلمين ، اللهم إلا أن تدعو ضرورة لذلك كتطبيب وفصد وقلع ضرس ونحو ذلك .

وليس من الضرورى شيوع العرف بمصافحة النساء ، كما قد يتوهم البعض ، فليس للعرف سلطان فى تغيير الأحكام الثابتة بكتاب الله وسنة رسول الله إلا حكم كان قيامه من أصله بناء على عرف شائع ، فإن تبدل ذلك العرف من شأنه أن يؤثر فى تغيير ذلك الحكم ، إذ هو فى أصله حكم شرطى مرهون بحالة معينة ، وليس موضوع البحث من هذا فى شىء .

ثالثاً :- دلت أحاديث البيعة التى ذكرناها على أن كلام الأجنبية مباح سماعه عند الحاجة ، وأن صوتها ليس بعورة ، وهو مذهب جمهور الفقهاء ومنهم الشافعية ، وذهب بعض الحنفية الى أن صوتها عورة للأجنبى ، وهم محجوبون فى ذلك بما صح من احاديث بيعته صلى الله عليه وسلم للنساء ، واحاديث كثيرة أخرى .

تاسعاً :- هل فتحت مكة عنوة أم صلحاً ؟

اختلف العلماء فى ذلك ، فذهب الشافعى وأحمد رضى الله عنهما وآخرون الى أنه دخلها صلحاً ،وكان الممثل لقريش فى هذا الصلح هو أبو سفيان ، وكان الإتفاق و الشرط فيه على أنه : من أغلق بابه فهو آمن ، ومن أسلم فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، إلا ستة نفر هدر دمهم .

غزوة حنين

وقد كانت فى شوال سنة ثمان من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وسببها أن الله جل جلاله حينما فتح على رسول مكة ، ودانت ه قريش بعد بغيها وعدوانها ، مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها الى بعض ، وقد توغر صدورهم للنصر الذى آتاه الله رسوله و المؤمنين ، فحشدوا حشوداً كبيرة ، وجمع أمرهم مالك ابن عوف سيّد هوازن ، وأمرهم فجاؤوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم ، حتى نزلوا بأوطاس (مكان بين مكة و الطائف) ، وغنما أمرهم بذلك حتى يجد كل منهم ما يحبسه عن الفرار ، وهو الدفاع عن الأهل والمال و الولد ! ... وأجمعوا المسير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم لست ليال خلون من شوال فى إثنى عشر ألف من المسلمين ، عشرة آلاف من أهل المدينة وألفين من أهل مكة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ابن أبى حدود الأسلمى ليذهب فيدخل بين المشركين ويقيم فيهم ويعلم أخبارهم ، ثم يعود بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق حتى دخل بينهم وطاف بمعسكرهم ثم جاءه بخبرهم ، وكان قد ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن عند صفوان ابن أمية أدراعاً و أسلحة ، فأرسل إليه - وهو يومئذ مشرك - فطلب منه الدروع و الأسلحة ، فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟! ... قال : بل عارية ، وهى مضمونة حتى نؤديها إليك ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، وعلم مالك ابن عوف بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعبأ أصحابه فى وادى حنين وانتثر وا يكمنون فى أنحائه ، وأوعز إليهم أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة .

ووصل المسلمون الى وادى حنين ، فانحدروا فيه فى غبش الصبح ، فما راعهم إلا الكتائب خرجت إليهم من مضايق الوادى وشعبه وقد حملوا حملة واحدة على المسلمين فانكشفت الخيول وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على الآخر ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم نادى فى الناس : إلىّ عباد الله ، أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، روى مسلم عن العباس رضى الله عنه قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمته أنا و أبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب ولم نفارقه ، وهو على بغلة له بيضاء ، فلما إلتقى المسلمون و الكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار ، قال عباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ، إرادة أن لا تسرع ، وابو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة و السلام : ناد أصحاب السمرة (وكان رجلاً صيّتاً) فقلت بأعلى صوتى يا أصحاب السمرة ، قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها فقالوا : يا

لبيك ، يا لبيك ... وأقبلوا يقتتلون مع الكفار ، وكان النداء : يا للأنصار ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى قتالهم قائلاً : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ حصيات من الأرض فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : إنهزموا ورب محمد .

وقذف الله فى قلوب المشركين الرعب ، فانهزموا لا يلوى واحد منهم على أحد ، واتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، فما رجع الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذه الغزوة أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه .

فروى ابن اسحاق و غيره عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : لقد استلب أبو طلحة يوم حنين عشرين رجلاً وحده ، هو قتلهم .

وروى ابن اسحاق وابن سعد بسند صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أم سليم ! .. قالت : نعم بأبى أنت و أمى يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ؟ - وكان معها خنجر - فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به .

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة وقد قتلها خالد ابن الوليد ، والناس مجتمعون عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إمرأة قتلها خالد ابن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من معه : أدرك خالد فقل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليداً أو إمرأة أو عسيفاً .

وفرّ مالك ابن عوف ومن معه من رجالات قومه حتى وصلوا الى الطائف فامتنعوا بحصنها وقد تركوا وراءهم مغانم كثيرة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم فحبست كلها فى الجعرانة ، وجعل عليها مسعود ابن عمرو الغفارى ، واتجه صلى الله عليه وسلم ومن معه الى الطائف فحاصروها ، وأخذت تقذف المسلمين من حصونها بالنبال ، فقتل بذلك ناس منهم ، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حصاره للطائف بضعة عشر يوماً ، وقيل بضعة وعشرين يوماً ، ثم بدا له أن يرتحل ، روى عبد الله ابن عمرو أنه صلى الله عليه وسلم أعلن فى أصحابه : إنا قافلون إن شاء الله ، فقال بعض أصحابه : نرجع ولم نفتتحه ؟ فقال لهم : أغدوا علىالقتال - أى فقاتلوا إن شئتم - فغدوا عليهم ، فأصابهم جراح ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا قافلون غداً ، فأعجبهم ذلك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً ، قال لأصحابه : قولوا :(آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون) ، وقال له بعض الصحابة : يا رسول الله أدع على ثقيف فقال : اللهم أهد ثقيفاً وأت بهم ، قلت : وقد هدى الله ثقيفاً بعد ذلك بقليل ، فقد جاء وفدهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة لإعلان إسلامهم .

أمر الغنائم و كيفي تقسيم رسول الله صلى الله عليه وسلم له

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الجعرانةوفيها السبى و الغنائم التىأخذت من هوازن فى غزوة حنين ، فقسم السبى هناك ، ثم قدم عليه وفد هوازن من المسلمين ، وسألوه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : معى من ترون ، وأحب الحديث الىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبى وإما المال ، وقد كنت إستأنيت بكم (أى أخرت قسم السبى و الغنائم آملاً إسلامكم) ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أنظرهم عشرة ليال حين رجع من الطائف . فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فالحسب أحب إلينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين ، وإنى رأيت أن أرد إليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل ، فنادى الناس جميعاً : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة و السلام ، إنا لا ندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم

، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيّبوا ، وأذنوا ، فأعيد الى هوازن سبيها .

وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد هوازن ـ فيما رواه ابن اسحاق ـ عن مالك ابن عوف ما فعل ؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف ، فقال لهم : أخبروه أنه إن أتانى مسلماً رددت عليه أهله وماله واعطيته مائة من الإبل ، فأخبر مالك بذلك ، فجاء يلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه فيما بين الجعرانة ومكة ، فردّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، وخصّ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم ـ وهم أهل مكة ـ بمزيد من الغنائم و الأعطيات يتألف قلوبهم على الإسلام ، فوجد بعض الأنصار فى نفوسهم من ذلك وقالوا : يغفر الله لرسول الله ، يعطى قريشاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ! ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل الى الأنصار فاجتمعوا فى مكان أعد لهم ، ولم يدع معهم أحد غيرهم ، ثم قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وكنتم عالة فأغناكم الله بى (كلما قال لهم من ذلك شيئاً قالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل) ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسولع المنّ و الفضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم وصدّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، فصاحوا : بل المنّ علينا لله ورسوله ، ثم تابع صلى الله عليه وسلم قائلاً: أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتم الى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة و البعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، وإنكم سترون أثرة من بعدى فاصبروا حتى تلقونى على الحوض ، الله أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء ابناء الأنصار ، فبكى القوم حتى إخضلت لحاهم ، وقالوا رضينا بالله ورسوله قسماً و نصيباً ، وتبعه صلى الله عليه وسلم ناس من الأعراب يسألونه مزيد من العطاء ، حتى إضطروه الى سمرة تعلق بها رداؤه ، فالتفت إليهم قائلاً : أعطونى ردائى ايها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً ، ايها الناس والله مالى من فيئكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، وأدركه أعرابى فجذبه صلى الله عليه وسلم جذبة شديدة من برده ، وكان عليه برداً نجرانى غليظ ، حتى أثرت حاشيةالرداء فى صفحة عنقه ، وقال له ، مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء .

قال ابن اسحاق : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمراً فلما فرغ إنصرف راجعاً الى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب ابن أسيد .

العبر و العظات

تعتبر غزوة حنين هذه درساً فى العقيدة الإسلامية وقانون الأسباب و المسببات من نوع ذلك الدرس الذى أوحت به غزوة بدر ، بل متمماً له .

فإذا كانت غزوة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً فى جنب كثرة أعدائهم ، إذا كانوا صابرين و متقين ، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرةأيضاً لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين ، وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى فى تقرير عبرة بدر ، فقد نزلت آيات منه أيضاً فى تقرير العبرة التى ينبغى أن تؤخذ من حنين .

كان المسلمون فى بدر أقل عدداً منهم فى أى موقعة اخرى ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئاً بسبب صدق إسلامهم ونضج إيمانهم وشدة ولائهم لله ورسوله .

وكان المسلمون فى غزوة حنين أكثر عدداً منهم فى أى موقعة أخرى خاضوها من قبل ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئاً ، بسبب تلك الجماهير التى لم يتمكن الإيمان بعد فى نفوسهم ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد فى أعماق افئدتها .

لقد إنضمت تلك الجماهير الى الجيش بجسومهم وأشكالهم ، بينما لا تزال الدنيا وأهواؤها تتخطف أفئدتهم وتستولى على نفوسهم ، وهيهات أن يكون لتعداد الجسوم و الأشكال أى أثر فى النصر و التوفيق ، فمن أجل ذلك أدبرت هذه الجماهير وارتدت على أعقابها متفرقة فى متاهات وادى حنين ، حينما فوجئوا بكمائن العدو تخرج فى وجوههم ، وربما إمتدت ظلال هذا الهلع الى أفئدة كثير من المؤمنين الصادقين أيضاً بادىء الأمر ، ولكن ما هو إلا أن سمع الأنصار و المهاجرون صيحات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونداءه لهم حتى كرّوا عائدين ، يلتفون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخوضون معه معركة حامية الوطيس ، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين ! .. ، ولكن بهؤلاء المائتين عاد النصر الى المسلمين ، ونزلت السكينة على قلوبهم وهزم الله عدوهم شر هزيمة ، بعد أن كانوا إثنى عشر ألفاً من الأمشاج الذين لم يغنوا عن أنفسهم شيئاً ! .. وأنزل الله تعالى هذه العظة البليغة فى كتابه الكريم :(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) التوبة 25-27 .

وإليك ما يؤخذ من هذه الغزوة من العظات و الأحكام :

أولاً:- بث العيون بين الأعداء لمعرفة شأنهم وأخبارهم

سبق أن ذكرنا أن هذا العمل جائز بل هو واجب إذا دعت إليه الحاجة ، وهذا ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة فقد بعث عبد الله ابن أبى حدرد الأسلمى ليتحسس أخبار العدو ويأتى المسلمين بالخبر عد عددهم وعدتهم ، وهو ما لم يقع فيه خلاف بين الأئمة .

ثانياً :- للإمام أن يستعير أسلحة من المشركين لقتال أعداء المسلمين :

ومثل الأسلحة فى ذلك ما يحتاجه الجيش من عدة الحرب و القتال ، ومثل الإستعارة تملكها منهم مجاناً أو بثمن ، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ، حينما استعار أسلحة من صفوان ابن أمية وكان لا يزال مشركاً إذ ذاك . ،وهذا داخل فى عموم حكم الإستعانة بالكفار عند الحرب ، وكنا قد ذكرنا هذه المسألة عند تعليقنا على غزوة أحد ، ويتبين لك الآن أن الإستعانة بالكفار تنقسم الى نوعين :

النوع الأول :- الإستعانة بالأشخاص منهم للقتال مع المسلمين ، وهذا ما مضى الحديث عنه فى غزوة أحد ، وقد قلنا إذ ذاك إنه جائز إذا دعت الحاجة إليه ، واطمأن المسلمون الى صدق وأمانة أولئك الذين سيقاتلون معهم .

النوع الثانى :- الإستعانة ببعض ممتلكاتهم كالسلاح وأنواع العدة ، ولا خلاف فى أن ذلك جائز بشرط أن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين ، وأن لا يتسبب عن دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم أو تركهم لبعض واجباتهم وفروضهم الدينية ، وأنت تجد أن صفوان ابن أمية حينما أعار الأسلحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى وضع المغلوب الضعيف وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى المركز الأقوى .

ثالثاً:- جرأته صلى الله عليه وسلم فى الحرب :

وإنك لتبصر صورة نادرة حقاً لهذه الجرأة عندما تفرقت جموع المسلمين فى الوادى وقد ولوا مدبرين ، ولم يبق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو التى فوجئوا بها ، فثبت ثباتاً عجيباً إمتد أثره الى نفوس أولئك الفارين من أصحابه ، فعادت غليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة .

وى ابن كثير فى تفسيره خبر غزوة حنين ثم قال :(قلت : وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه فى مثل هذا اليوم ، فى حومة الوغى ، وقد إنكشف جيشه عنه ، وهو مع هذا على بغلته ، وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفرّ ولا لكرّ ولا لهرب ، وهو مع ذلك أيضاً يركضها الى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان)

رابعاً :- خروج المرأة للجهاد مع الرجال :

فأما خروجها لسقى العطاش ومداواة الجرحى فقد ثبت ذلك فى الصحيح ، فى عدة غزوات ، وأما حروجها للقتال ، فلم يثبت فى السنة وإن كان الإمام البخارى قد ذكر فى كتاب الجهاد باباً جعل عنوانه : باب غزو النساء وقتالهنّ مع الرجال : ، إذ أن الأحاديث التى ساقها فى هذا الباب ليس فيها ما يدل على غشتراك النساء مع الرجال فى القتال قال ابن حجر : ولم أر فى شىء من ذلك (أى الأحاديث الواردة فى هذا الموضوع) التصريح بأنهنّ قاتلن .

أما ما ذكره الفقهاء فى حكم خروج المرأة للقتال ، فهو أن العدو إن داهم بلدة من بلاد المسلمين وجب على جميع أهلها الخروج لقتاله بما فيهم النساء ، إن تأملنا منهنّ دفاعاً و بلاءاً ، وإلا فلا يشرع ذلك ، أما الخنجر الذى كان مع أم سليم فقد كان لمجرد الدفاع عن نفسها كما قالت ، وعلى هذا ينزل ما رواه البخارى وغيره عن عائشة رضى الله عنها أنها إستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجهاد ، فقال : جهادكنّ الحج ، فالمقصود بالجهاد الذى إستأذنت به عائشة رضى الله عنها ، غنما هو المشاركة فى القتال لا الحضور للمداواة و الخدمة وما أشبه ذلك ، فهو مشروع ، إذا توافرت شروطه ، باتفاق .

وعلى كل فإن خروج المرأة مع الرجال الى الجهاد مشروط بأن تكون فى حالة تامة من الستر و الصيانة ، وأن يكون خروجها لحاجة حقيقية الى ذلك ، فأما إذا لم تكن ثمّ حاجة حقيقية أو كان ذلك يعرضها للوقوع فى المحرمات فخروجها محرم لا يجوز إقراره .

و المهم أن تعلم أن الأحكام الإسلامية منوطة ببعضها ، فلا ينبغى تخيّر ما توحى به الأهواء منها لأسباب معينة مع الإعراض عما يتعلق به من الأحكام و الواجبات الأخرى ، إن مثل هذا يعتبر بلا ريب مصداقاً واضحاً لقول الله تعالى :(... أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) البقرة 85 .

ومن المكر القبيح لدين الله تعالى ما يعمد إليه بعض الناس لأغراض دنيوية حقيرة من إلتقاط ما قد يطلب منهم من الفتاوى الشرعية بعد أن يشذبوا منها كل القيود و الشروط ويقطعوا عنها ما قد يتعلق بها من التتمات ، حتى تخرج موافقة للمطلوب خاضعة لأهواء السادة الموجهين ، ثم يقدمون هذه الفتاوى على طبق من المداهنة و النفاق !

خامساً:- تحريم قتل النساء و الأطفال و الأجراء و العبيد فى الجهاد :

فقد دل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى المرأةالتى قتلها خالد ابن الوليد ، وقد إتفق العلماء و الأئمة كلهم على ذلك ، ويستثنى منه ما إذا اشتركوا فى القتال وباشروا فى مقاتلة المسلمين ، فإنهم يقتلون مقبلين ، ويجب الإعراض عنهم مدبرين ، كما أنه يستثنى ما إذا تترس الكافر بصبيانه ونسائه ، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم ، فإن ذلك جائز ، وعلى الإمام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة .

سادساً:- حكم سلب القتيل :

قلنا أن النبى صلى الله عليه وسلم أعلن فى هذه الغزوة أن من قتل قتيلاً فله سلبه ، قال ابن سيد الناس : فصلر ذلك حكماً مستمراً ، قلت : وهذا متفق عليه ، ولكن وقع الخلاف بين الأئمة فى نوع هذا الحكم الثابت المستمر ، هل هو من أحكام الإمام أم الفتوى ؟

أى هل أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله عز وجل حكماً لا خيرة له ولا لأحد فيه كتبليغه أحكام الصلاة أم أعلنه حكماً مصلحياً قضى به بوصفه إمام المسلمين يقضى فيهم بما يرى أنه الخير و المصلحة لهم ؟ ، فذهب الشافعى رحمه الله الى انه حكم قائم على أساس التبليغ و الفتوى وعليه فإن المجاهد له فى كل عصر أن يأخذ سلب من قتل على يده من أهل الحرب ولا حاجة فى ذلك الى إذن الإمام أو القائد . وذهب أبو حنيفة ومالك رحمهما الله الى أنه حكم قضائى قائم على أساس الإمامة فقط ، فيتوقف جواز السلب فى كل عصر على إذن الإمام ، فإن لم يأذن أضيفت الأسلاب الى الغنائم وسرى عليها حكمها .

سابعاً :- الجهاد لا يعنى الحقد على الكافرين :

وقد دل على ذلك ما ذكرناه من أن بعض الصحابة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند منصرفهم من حصار الطائف : أدع الله على ثقيف ، فقال : اللهم أهد ثقيف وأت بهم ، وهذا يعنى أن الجهاد ليس إلا ممارسة لوظيفة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، وإنما هى مسئولية الناس جميعاً تجاه بعضهم ، لمحاولة إعتاق أنفسهم من العذاب الأبدى يوم القيامة .

ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغى أن يتجه الى غيرهم إلا بالهداية والصلاح ، لأن هذه الغاية هى الحكمة من مشروعية الجهاد .

ثامناً:- متى يتملك الجند الغنائم :

ذكرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفد هوازن حينما جاؤا مسلمين : لقد إستأنيت بكم ، أى أخرت قسم الغنائم آملا إسلامكم .

وهذا يدل على أن الجند إنما يملكون الغنائم بعد تقسيم الحاكم أو الإمام لها ، فمهما دامت قبل القسمة فهى لا تعتبر ملكاً للمقاتلين ، وتلك هى فائدة تأخير النبى صلى الله عليه وسلم لتقسيمها بين المسلمين . كما أن هذا يدل على أن للإمام أن يعيد الغنائم إذا جاءه أصحابها مسلمين إذا لم يكن قد قسمها بين الجند ، وقد كان هذا ما يفضله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويدل موقفه صلى الله عليه وسلم من وفد هوازن وأموالهم التى غنمها المسلمون ، على أن ما قسم من هذه الموال بينهم ، لا يجوز للإمام أن يسترد منه شيئاً إلا بطيب نفس من أصحابه دون أن يتأثر بأى جبر أو إكراه ، وتأمل مدى دقته صلى الله عليه وسلم فى أمر الإستئذان من أصحاب الأموال فإنه صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يكتفى بصيحاتهم الجماعية المرتفعة ، قد طيبنا ذلك يا رسول الله (أى طابت بإرجاعه نفوسنا) بل أصر على أن يعلم أمر هذا الرضى ويستوثق منه بواسطة السماع من كل شخص من حدة أو السماع من وكلائهم وعرفائهم .

وهذا يعنى أنه ليس للحاكم أن يستعمل شيئاً من صلاحياته وسلطانه فى حمل الناس على أن يتنازلوا عن شىء من حقوقهم وممتلكاتهم المشروعة ، بل وإن الشارع لم يعطه شيئاً من هذه الصلاحيات و الإمتيازات ، حتى ولو كان رسولاً ، وتلك هى العدالة و المساواة الحقيقية الرائعة ! فلتدفن نفسها فى الرغام كل دعوى باطلة تريد أن تخب - بالألفاظ و الشعارات - وراء هذه المثل و القيم الإلهية العظيمة.

تاسعاً:- سياسة الإسلام نحو المؤلفة قلوبهم :

لقد رأيت أن النبى صلى الله عليه وسلم إختص أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم عن غيرهم ، ولم يراع فى تلك القسمة قاعدة المساواة الأصلية بين المقاتلين ، وهذا العمل منه صلى الله عليه وسلم من أهم الأدلة التى إستدل بها عامة الأئمة و الفقهاء على أنه يجوز للإمام أن يزيد فى عطاء من يتألف قلوبهم على الإسلام بالقدر الذى تدعو إليه المصلحة من تألف قلوبهم ، بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه ، ولا مانع من أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم . ومن هنا كان لهؤلاء سهم خاص باسمهم فى الزكاة ، يجتمع تحت يد الحاكم ليعطى منه (كلما دعت الحاجة)لمن يرى أن المصلحة الإسلامية تدعو الى تألف قلوبهم .

عاشراً :- فضل الأنصار ومدى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم :

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فقد أراد الشيطان أن يبث فى نفوس جماعة من الأنصار معنى النقد على السياسة التى إتبعها عليه الصلاة و السلام فى توزيع الغنائم ، وربما أراد لهم الشيطان أن يتصوروا أن النبى صلى الله عليه وسلم أدركته محبة قومه وبنى وطنه فنسى فى جنبهم الأنصار !..

فماذا قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك ؟

إن الخطاب الذى ألقاه عليهم جواباً على هذه الوساوس ليفيض بمعانى الرقة و الذوق الرفيع ، ومشاعر المحبة الشديدة للأنصار ، وهو يفيض فى الوقت ذاته بدلائل التألم من أن يتهم من قبل أحب الناس إليه بنسيانهم و الإعراض عنهم ، عد الى خطابه هذا فتأمله ... فسترى أنه قد ضمنه أدق خفقات قلبه وألطف إحساسياته ! ، وقد لامست هذه الرقة و الخفقات مشاعر الأنصار فهزتها هزاً ونفضت منها ما كان قد علق بها من الوساوس و الهواجس ، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحاً بنبيهم وابتهاجاً بقسمتهم و نصيبهم ، فما المال وما الشياه و الغنائم فى جنب حبيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يعودون به ويعود بهم الى ديارهم ليكون المحيا بينهم و الممات بينهم ؟ وأى برهان منه صلى الله عليه وسلم ينطق بالوفاء و خالص المحبة و الود أكثر من هذا ... أى أكثر من أن يدع وطنه ومسقط رأسه ليقضى بينهم بقية أيامه ؟! .

ثم متى كان المال فى ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلاً على التقدير و الحب ؟ !

إنه أعطى قريشاً كثيراً من الأموال و الغنائم ... فهل خص نفسه بشىء من ذلك أم جعل نصيبه منه كنصيب الأنصار ؟ لقد عمد الى الخمس الذى جعله الله خالصاً برسوله يضعه حيث يشاء ، فوزعه بين أولئك الأعراب الذين كانوا من حوله ،وتأمل فيما قاله لهم ، وهم يحدقون به ويستزيدون فى العطاء : أيها الناس والله مالى من فيئكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم .

صلى الله عليك يا رسول الله وعلى أصحابك البررة من الأنصار و المهاجرين وجمعنا تحت لواءك المحمود ، وجعلنا مع أولئك الذين سيلقونك علىالحوض يوم القيامة .

8---55

غزوة تبوك

وسببها على ما رواه ابن سعد وغيره ، أنه بلغ المسلمين من الأنباط الذين كانوا يتنقلون بين الشام و المدينة للتجارة ، أن الروم قد جمعت جموعاً وأجلبت الى جانبها لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم ، ووصلت طلائعهم الى أرض البلقاء فندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج ، وروى الطبرانى من حديث ابن حصين أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل ، وكان ذلك فى شهر رجب سنة تسع من الهجرة ، وكان الفصل صيفاً ، وقد بلغ الحر أقصاه ، والناس فى عسرة من العيش ، وكانت ثمار المدينة ـ فى الوقت نفسه ـ قد أينعت وطابت ، فمن أجل ذلك أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجهة التى سيتجهون إليها ـ وذلك على خلاف عاداته فى الغزوات الأخرى ، قال كعب ابن مالك : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرّ شديد واستقبل سفراً ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم .

وهكذا فقد كانت الرحلة فى هذه الغزوة ثقيلة على النفس ، فيها أقسى مظاهر الإبتلاء و الإمتحان ، فأخذ نفاق المنافقين يعلن عن نفسه هنا وهناك ، على حين أخذ الإيمان الصادق يعلن عن نفسه فى صدور أصحابه ، أخذ أقوام من المنافقين يقولون لبعضهم : لا تنفروا فى الحر .. وجاء آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إئذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل

بأشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيما أراد ة وعسكر عبد الله ابن أبى ابن سلول فى ضاحية بالمدينة مع فئات من أصحابه و حلفائه ، فلما سار النبى صلى الله عليه وسلم تخلف بكل من معه !..

ومما نزل فى ذلك قوله تعالى :(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءاً بما كانوا يكسبون) وقوله تعالى :(ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) .

أما المؤمنون فأقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل صوب ، وكان قد حض أهل الغنى على النفقة وتقديم ما يتوفر لديهم من الدواب للركوب فجاء الكثيرون منهم بكل ما أمكنهم من المال و العدة ، وجاء عثمان ابن عفان رضى الله عنه بثلاثمائة بعير بأحلاسها و أقتابها وبألف دينار نثرها فى حجره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يضر عثمان ما فعل بعدها .

وجاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه بكل ماله ، وجاء عمر بنصف ماله ، روى الترمذى عن زيد ابن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر ابن الخطاب يقول : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك عندى مالاً ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوماً ، قال فجئت بنصف مالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت مثله ، وأتى ابو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ فقال أبقيت لهم الله و رسوله ، قلت : لا أسبقه الى شىء أبداً).

وإذا صح هذا الحديث فلا بد أن يكون هذا الندب بمناسبة غزوة تبوك كما قال ذلك فريق من العلماء .

وأقبل رجال من المسلمين أطلق عليهم (البكاؤون) يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهوراً يركبونها للخروج الى الجهاد معه ، فقال لهم : لا اجد ما أحملكم عليه ، فتولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا لديهم ما ينفقونه فى أسباب خروجهم للغزو .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقارب ثلاثين ألف من المسلمين ، وتخلف عنه نفر من المسلمين عن غير شك وارتياب ، منهم كعب ابن مالك ، ومرارة ابن الربيه ، وهلال ابن أمية ، وابا خيثمة ، وكانوا ـ كما قال ابن اسحاق ـ نفر صدق لا يتهم فى إسلامهم ، غير أن أبا خيثمة لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فى تبوك .

روى الطبرانى وابن اسحاق و الواقدى أن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدة أيام الى أهله فى يوم حار ، فوجد إمرأتين له فى عريشين (أى خيمتين) لهما فى بستان له ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له ماء فيه وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش فنظر الى إمرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشمس والريح و الحر ، وابو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى مال مقيم ؟! ما هذا والله بالنصف ، ثم قال والله لا ادخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيأتا له زاداً ، ثم قدم ناضحه فارتحله وخرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك ، ولما دنا أبو خيثمة من المسلمين قالوا : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كن أبا خيثمة) ! فقالوا يا رسول الله : هو والله أبا خيثمة ، فلما أناخ أقبل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة و السلام : أولى لك يا ابا خيثمة ! .. ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فدعا له صلى الله عليه وسلم بخير .

وعانى المسلمون فى هذه الرحلة جهوداً شاقة وأتعاباً جسيمة .

روى الإمام أحمد وغيره أن الرجلين و الثلاثة كانوا يتعاقبون على بعير واحد ، واصابهم عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا يا رسول الله : لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إفعلوا ، فجاء عمر فقال يا رسول الله إنهم إن فعلوا قل الظهر ، ولكن أدعهم بفضل أزوادهم ثم أدع لهم بالبركة لعل الله أن يجعل فيه ذلك ، فدعا عليه الصلاة و السلام بنطع فبسطه ، ثم دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجىء بكف الذرة ، والاخر بكف التمر ، والآخر بالكسرة حتى إجتمع على النطع من ذلك شىء يسير ، ثم دعا عليه بالبركة ، ثم قال لهم : خذوا فى أوعيتكم قال : فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت منه فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة .

ولما إنتهوا الى تبوك لم يجدواهناك كيداً ولا قتالاً ، فقد إختفى وتفرق الذين كانوا قد تجمعوا للقتال ، ثم أتاه يوحنّه حاكم (أيلة) فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية ، واتاه أهل جرباء واذرح فأعطوه أيضاً الجزية ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك لهم كتاباً .

ومرّ الجيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر (وهى منازل ثمود) فقال لأصحابه : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ، أن يصيبكم ما أصابهم ، إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادى .

ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم قفل راجعاً الى المدينة ، فلما أشرفوا على المدينة قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : هذه طابة ، وهذا احد جبل يحبنا ونحبه ، وقال لأصحابه : إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر . ، وقدم المدينة عليه الصلاة و السلام فى رمضان من السنة نفسها فيكون قد غاب قرابة شهرين ...

أمر المخلفين

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةبدأ بالمسجد فصلى ركعتين ، ثم جلس للناس فجاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له و كانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ،وأرجأ أمر كعب ابن مالك وصاحبيه الى أن نزلت آيات قبول توبتهم .

وقد روى كعب رضى الله عنه خبره فى ذلك - فى حديث طويل رواه البخارى ومسلم - وجاء فيه قوله : كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلف عنه فى تلك الغزوة ... وطفقت أغدوا لكى أتجهز مع المسلمين ، فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه (أى لن يعيقنى شىء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازى شيئاً ، ولم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو (أى خرجوا وفاتوا) وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتنى فعلت - فلم يقدر لى ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً وغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ... ولما بلغنى انه توجه قافلاً حضرنى همّى ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غداً ؟ ... واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، ولما قيل لى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل ، زاح عنى الباطل وأجمعت أن أصدقه ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى ما خلّفك ؟ ألم تكن قد إبتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد اعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكنّ الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا لأيسر منى حين تخلفت عنك !.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت ، وثار

رجال من بنى سلمة فاتبعونى يؤنبوننى (أى يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم ، هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما ؟ فقالوا : مرارة ابن الربيع ، وهلال ابن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدراً لى فيهما أسوة ... ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أى الثلاثة من بين من تخلف ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرفها ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرّك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه أسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىّ ، وإذا إلتفت نحوه أعرض عنى ، وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول من يدلنى على كعب ابن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع الىّ كتاباً من ملك غسان ، فإذا فيه :(أما بعد قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله فى دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك) فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت به التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعين ليلة من الخمسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل إمرأتك ، فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال لا بل إعتزلها ولا تقربها ،وأرسل الى صاحبى بمثل ذلك ، فقلت لإمرأتى إلحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ... فلبثت بعد ذلك عشر ليالى حتى كملت لنا خمسين ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكرها الله (قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الدنيا بما رحبت) سمعت صوت صارخ أوف على جبل سلع باعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشرونا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون .. ولما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبى فكسوته إياه ببشراه ة والله ما أملك غيرها يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة ، ودخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام الىّ طلحة ابن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ما قام الىّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله ، فقلت يا رسول الله ! إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة الى الله ورسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، فقلت : يا رسول الله إنما نجانى الصدق ،وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، وأنزل الله تعالى على رسوله :(لقد تاب الله علىالنبىو المهاجرين و الأنصار) الى قوله : (وكونوا مع الصادقين) .

العبر و العظات :

أولا:- كلمة على هامش الغزوة :

لقد أخذالإسلام يستقر فى الجزيرة العربية ، واستولى سلطانه على الأفئدة و النفوس وهذا ما كانت النصارىتراقبه من بعيد فى خوف وقلق .

فالرومان ، لم يعانقوا النصرانية إيماناً منهم بها ، وإنما كانوا اتخذوها ذريعة الى إستعمار شعوب تلك المنطقة ، ولأجل ذلك تلاعبوا كما أرادوا ، وغيروا منها وبدلوا ، فخلطوا هديها بوثنيتهم وأضافوا الى ما فيها من الحق الكثير من باطلهم .

والإسلام ـ وهو الدين الذى تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل و الأنبياء ـ إنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان الله تعالى ، فلا يكون لأحد عليهم سيادة ولا سلطان ولا حكم إلا سلطان الله وحكمه . ، وهم ـ قد علموا من النصرانية كل حقائقها ـ أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الأخيرة وما تحمل فى طيها من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين وبغى الباغين ، فلا غرو أن يكون هذا الدين ـ وقد استقر أمره فى الجزيرة العربية ـ مصدر قلق وتخوف لدى الطغاة من الروم وأتباعهم الذين ما دخلوا النصرانية إلا ظاهرا ، وما أرادوا من ذلك إلا ضمان بسط سلطانهم على المستضعفين . فمن أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة ونبأ إنتصار الإسلام فى الجزيرة العربية بالذعر ، ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام و الحجاز ، علّهم يقفون فى وجه هذا الدين الذى سيكون فى إنتشاره القضاء عليهم وعلى سلطانهم .

ولقد كان من مقتضى هذا الإهتمام لدى الروم ، أن يكون الإشتباك بينهم وبين المسلمين عظيماً و خطيراً ، ولكن حكمة الله عز وجل تشاء أن يكتفى من جهاد المسلمين فى هذه الغزوة بذلك الجهد العظيم الذى بذلوه و المشقات الجسيمة التى تحملوها ، إذ قطعوا تلك المسافة المضنية بين المدينة وتبوك ذهاباً و إياباً ، ولقد كانت ـ كما رأيت ـ رحلة عجيبة فى عذابها و أتعابها ومشاهد العسر التى فيها ... وما الجهاد الذى أمر الله به ؟ هل هو إلا بذل النفس و الجهد فى سبيل شرعة الله ودينه ؟ إن هذا هو كل ما يريد الله من عباده ، ومعاذ الله أن يكون بحاجة من وراء ذلك الى معونتهم لرد كيد الكافرين أو إدخال معنى الهداية و الإيمان فى قلوب الجاحدين ، وقد بذل جيش العسرة فى هذه الغزوة العسيرة المضنية ، المال و الجهد وضحوا بالراحة فى أجمل فرصها ، واستبدلوا بها العذاب فى أقسى صوره وأشكاله ، ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم له ، فحق لهم النصر و التأييد ، وأن يكفيهم الله القتال ، برعب من لدنه يقذفه فى قلوب أعدائهم ، فيتفرقون عنهم ويخضعون لحكم الله فيهم ، وهكذا فقد كان عسر خضوع الروم لحكم الجزية و قيودها ، فى مقابل العسر الذى تحمله المسلمون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم فى مرضاة ربهم جل جلاله .

ثانياً :ـ العبر و الأحكام :

وإنك لتجد فى هذه الغزوة دروساً و أحكاماً كثيرة ، نجمل منها ما يلى :

1ـ أهمية الجهاد بالمال :

فالجهاد ضد أعداء الإسلام ليس محصوراً بالخروج للغزو ، بل ولا يكفى منه ذلك وحده ، فحيثما توقف أمر الجهاد بالقتال و السلاح على نفقات ومال ، وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا من ذلك ما يقع موقع الكفاية بشرط أن يكون ذلك بنسبة ما يتفاوتون به من كفاية وغنى .

ولقد قرر الفقهاء أن الدولة إذا ما إضطرت الى النفقات للجهاد ، كان لها أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك بالشكل الذى ذكرناه ، غير أنهم إتفقوا على أن ذلك مشروط بأن لا يكون فى أموال الدولة ما يوضع فى نفقات كمالية أو غير مشروعة ، إذ أن أموال الناس ليس أولى من أموال الدولة بأن تصرف الى حاجات الجند و القتال .

هذا ، ولقد رأيت كيف أن عثمان ابن عفان رضى الله عنه قد جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثمائة بعير بكل ما تحتاجه من الأقتاب و الأحلاس وبمائتى أوقية من الفضة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ، وفى هذا بيان لفضل عثمان رضى الله عنه ، بل وإن فى هذه الكلمة التى قالها عليه الصلاة و السلام : ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم زجراً وتأديباً لكل من أراد أن يطيل لسانه على عثمان من أمثال أولئك الذين يتشدقون بالنقد على سياسته أيام خلافته ، يكتبون الصفحات الطوال عما يسمونه بمظهر الضعف أوالتحيز فى سياسته .، مقتفين فى ذلك ما يطيب للمستشرقين القيام به من إمطار

التاريخ الإسلامى بوابل النقد و الكذب و التضليل تحقيقاً لغاية مرسومة معروفة يتطلعون إليها ويغذون السير للوصول إليها . إن هؤلاء الذين يضعون أنفسهم فى أبراج عالية من النزاهة النادرة ، لينطلقوا من هناك بأحكامهم على عثمان و سياسته ، هم أحوج ما يكونون الى أن يتحسسوا أمراضهم المختلفة ثم يداووها بدراسة شىء من مناقب هذا الخليفة العظيم و الإهتداء بهديه وسلوكه ، ومهما يكن من شأن عثمان فى خلافته ، فأى بقية من أدب توجد عند من يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) ثم يمضى بعد ذلك منتشياً بنقده و تسفيه سياسته ؟!..

2- كلمة عن حديث أبى بكر وما إختلقه البعض فيه من زيادة ليسوغوا بها بدعة من أهم البدع المحرمة :

ذكرنا الحديث الذى رواه الترمذى وأبو داود ، عن تقديم أبى بكر ماله كله للرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه أجابه حينما سأله صلى الله عليه وسلم وما أبقيت لأهلك ؟ ، أجاب : أبقيت لهم الله ورسوله .

وقد إختلق بعضهم زيادة على الحديث ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : يا أبا بكر إن الله راض عنك ، فهل أنت راض عن الله ؟ ، فاستفزه السرور و الوجد ، وقام يرقص أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : كيف لا أرضى عن الله ؟ ... ثم ذهبوا يجعلون من هذه الزيادة المختلقة دليلاً على مشروعية الرقص و الدوران فى حلق الذكر على نحو ما يفعل (المولوية) وطوائف أخرى من المتصوفة .

فأما الدليل الذى يستندون إليه فهو دليل مختلق كما ذكرنا ، ولم يثبت فى حديث صحيح ولا ضعيف أن أبا بكر قام بفعل ذلك بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كل ما ورد فى الأمر هو ما ذكرته من نص حديث الترمذى و الحاكم وأبى داود ، على ما فيه من إحتمالات الضعف التى بينتها فىتخريج الحديث .

وأما المدلول فلا نقول أنه لم يثبت دليلاً عليه ، بل الحق الذى ينبغى أن يقال : إن الدليل قد ثبت على حرمته ، وإليك بيان ذلك :

أجمع الأئمة على أن الرقص محرم ، إن كان مع التثنى ، واتفق الجمهور على أنه مكروه إن كان بدون ذلك ، فإدخال الرقص - مهما كانت كيفيته - فى ذكر الله تعالى ، إقحام لما هو مكروه أو محرم فى عبادة مشروعة ، وتحويل له بذلك الى عبادة يتقرب بها الى الله تعالى دون أى دليل عليها ، أو على أنها قد خرجت عن الكراهة و التحريم .

أضف الى ذلك ما يتلبس به حال هؤلاء الذاكرين من التفوه بأصوات ليس من ألفاظ الذكر فى شىء ، وإنما هى حمحمات وهمهمات تصّاعد من حلوقهم ، ليتكون منها دوىّ متناسق معين ينسجم مع تواقيع المنشدين و المطربين ، فتحدث بذلك مزيداً من النشوة و الطرب فى النفوس . فكيف يكون هذا ذكر لله تعالى كالذكر الذى أمر به و الذى كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ .. وكيف يكون هذا العمل عبادة والعبادة كما تعلم ، هى ما شرعه الله تعالى فى كتابه أو سنة رسوله لا يزاد عليها ولا ينقص منها .

واعلم أن هذا الذى نقوله ، هو ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية فى مختلف العصور ، لم يشذ عنها إلا القلة من مبتدعة شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، فكم من محرمات استحلوها ،ومن موبقات إرتكبوها ، باسم الوجد و التواجد آناً ، وباسم الإنعتاق من ربقة التكاليف آناً آخر .

وإليك ما يقوله فى هذا إمام من أجل أئمة المسلمين ديناً وعلماً وورعاً وتصوفاً وهو العز ابن عبد السلام

:(وأما الرقص و التصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث ، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب ، كيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :(خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقتدون بهم يفعل شيئاً من ذلك) .

ويقول مثل هذا الكلام ابن حجر أيضاً فى كتابه : كف الرعاع ، وابن عابدين فى حاشيته المشهورة المعتمدة عند السادة الأحناف ، مفرقاً بين الوجد القاهر و التواجد المصطنع .

أما الإمام القرطبى فيتوسع فى التحذير من هذه البدعة وبيان حرمتها توسعاً كبيراً ، وإذا أردت أن تقف على كلامه فى ذلك فارجع الى تفسيره عند قول الله تعالى :(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ، وقوله تعالى :(ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) .

ولولا الإطالة فيما ينبغى أفختصار فيه لسردت لك نصوص كثير من الأئمة فى هذا الشأن ، لتعلم أن هذا هو الحق الذى إتفق عليه عامة الأئمة من سلف وخلف لا خلاف فيه ولا نزاع .

ومن الواضح أنه يستثنى من عموم ما ذكرناه ما إذا خرج الذاكر عن طوره بأن سيطرت عليه حال لم يملك معها شعوره وزمام نفسه ، إذ لا يتعلق به حكم تكليفى فى ذلك الطور ،وعليه يحمل ما قد قيل من أن العز ابن عبد السلام نفسه قد هاج مرة فقام يقفز ، إذ كيف يفعل ذلك باختيار وقصد وهو صاحب النص الذى نقلناه عن كتابه ؟ .

3- المنافقون : طبيعتهم ومدى خطورتهم على الإسلام :

نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها وتعليقه عليها ما لم تنله أى غزوة أخرى ، وإنك لتقرأ عنها فى سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة ، وتركز معظم هذه الآيات على بيان أهمية الجهاد فى سبيل الله بالمال و النفس ، وأنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم ، وأنه أهم فارق بين المؤمنين و المنافقين ، وأن على المسلمين - إذا كانوا مسلمين - أن لا يركنوا الى الدعة و الراحة وأن يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدة فى سبيل الله تعالى ، كما أطالت فى الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم و الخفىّ من مقاصدهم .

والدرس الذى فى ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق و المنافقين على المسلمين فى كل عصر ، وإيضاح أن الإسلام دعوى لابد أن يصدقها الجهاد و التعرض للمحن ، حتى يتميز الصادق عن الكاذب ، ويمحص إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين ، ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآنى، إذ كان إختبار المسلمين بها أعظم إختبار إلهى كشف اللثام عن النفاق فى المدينة وميز المنافقين عن المسلمين الصادقين أعظم تمييز ، ثم نزلت الآيات القرآنية المتوالية فى كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سرائرهم وتحذرهم منهم فى كل زمان ومكان :(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا : لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءاً بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين).

وأنت إذا رجعت الى ما قبل هذه الآيات وما بعدها ، رأيت إهتماماً غريباً بشأن المنافقين والحديث عنهم والتحذير منهم ، وما ذلك إلا لأن المسلمين لا يؤتون فى معظم ما يصيبهم من نكبات إلا من قبل المنافقين ، فلا يتسنى لعدوهم أن يتسلل إليهم إلا من خلال ثغرات النفاق و المنافقين ، ولا ينخدع المسلمون بعدوّهم كما ينخدعون للمنافقين منهم ، ، ولا يصابون بعدوى الضعف و الخبال و التفرق كما يصابون به من قبل المنافقين ، وصدق الله العظيم إذ يقول :(لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) .

ومكمن الخطورة فيهم ، أنهم إنما يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح و المرونة والتمسك بروح التشريع ويستخرجون منه الفتاوى الملفقة المصطنعة تحقيقاً لأمانيهم أو تقرباً الى سادتهم وأولياء

نعمتهم ، والعظة التى ينبغى أن يأخذها المسلمون من هذا الدرس هو أن يحذروا عدوهم الخارجى مرة على ا، يحذروا المنافقين ألف مرة ، وأن يحاربوا أول ما يحاربون ما قد يشيع بينهم من النفاق .

4- الجزية وأهل الكتاب :

فى هذه الغزوة دليل على مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب ، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم ، فقد رأيت أن الروم اختفوا و تفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وصل الى تبوك ، وجاءه متنصرة العرب فصالحوه صلى الله عليه وسلم على الجزية ، وكتب لهم صلى الله عليه وسلم بذلك كتاباً والجزية ضريبةمالية تقوم بالنسبة لأهل الكتاب مقام الزكاة بالنسبة للمسلمين و الفرق بينهما أن الجزية تقوم على أساس قضائى مجرد على حين تقوم مشروعية الزكاة على أساس من الديانة و القضاء معاً ، ويعتبر الخاضعون لحكم الجزية داخلين فى حكم الإسلام القضائى فى المجتمع الإسلامى ، وإن لم يدينوا به عقيدة فى نفوسهم ، ولذلك فإن عليهم أن لا يجاهروا فى مخالفة شىء من قوانينه و أحكامه العامة إلا ما يتدينون من ذلك بخلافه فى زعمهم كشرب الخمر ونحوه .

هذا ، والفرق بين الكتابيين وغيرهم من الملاحدة و الوثنيين فى أمر الجزية ، هو أن الكتابيين يمكنهم أن ينسجموا مع المجتمع الإسلامى و نظامه العام مع إحتفاظهم بما يدينون به ، أما الملاحدة و الوثنيين واشباههم فلن تجد بينهم و بين المجتمع الإسلامى قدراً مشتركاً يضمن الإنسجام ، إذ لا يمكن لفكرة الإلحاد و الوثنية أن تلتقى مع الحكم و النظام الإسلامى فى أى فرع من الفروع ، لقيام تناكر وتخالف بينهم فى أعمق الأسس و الجذور .

5- يدلنا ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرّ بمنازل ثمود أنه يكره للمسلم أن يدخل ديار الأمم الخالية ممن أهلكهم الله بكفرهم أو أن يمر على شىء من آثارهم - إلا معتبراً بحالهم ، يتأمل فى مآلهم ، يسأل الله تعالى العافية و الرحمة له و للمسلمين ، إذ هى منازل شهدت مظهراً من غضب الله تعالى ، وسجلت على إطلالها آثار من غضب الله ، فهى باقية عليها مع الدهر لتكون عبرة لأولى البصائر و الألباب ، كما أوضح ذلك فى كثير من آياته ، فمن الخطأ الكبير أن يمر الإنسان عليها ساهياً لا هياً ، لا يعبأ منها بغير مظهر الشكل أو البناء و النقوش .

وكم فى الأرض من عبر وعظات من هذا القبيل ، تظل تدوى بلسان حالها على أسماع الناس أن إعتبروا يا أولى الأبصار ، ولكن الناس لا يستمعون منها إلا الى ما يوسوس إليهم شياطينهم على ألسنتها ، ولا يقبلون منها إلا على مظاهر الفن و القيمة الأثرية و التاريخية !..

6- وعلينا الآن أن نتأمل فى الفرق بين سياسته صلى الله عليه وسلم مع المنافقين و سياسته مع أصحابه المؤمنين الصادقين ، لقد تخلف - كما رأيت - كثير من المنافقين عن هذه الغزوة ، وجاؤا يعتذرون له صلى الله عليه وسلم بشتى الأعذار المختلفة ، ومع ذلك فقد صفح عنهم وقبل علانيتهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى ، وتخلف عدد يسير من المؤمنين من غير ريبة ولا نفاق ، ثم جاؤا إليه صلى الله عليه وسلم لا يصطنعون عذراً ولا كذباً يسألونه العفو و الصفح ، ومع ذلك فقد عاقبهم ولم يصفح عنهم ، ولقد رأيت مدى قساوة العقوبةالتى أنزلها بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا؟ !... لماذا إختار مع المنافقين اللين والصفح ، واختار للمسلمين الصادقين الشدة و العقوبة ؟!...

و الجواب : أن الشدة و القسوة فى هذا المقام مظهر من مظاهر الإكرام و التشريف ، و هو ما لا يستأهله المنافقون ، وكيف يستأهل المنافقون أن تنزل آيات فى توبتهم وعفو الله عنهم ؟! ثم إن المنافقين محكوم عليهم - علىأى حال - أنهم كفرة ، ولن ينشلهم شىء مما يتظاهرون به فى الدنيا من الدرك الأسفل من النار يوم القيامة ، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ونجرى ألحكام الدنيوية حسب ظواهرهم ، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم و حقيقة أقوالهم ، وفيم معاقبتهم فى

الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط فى المعاملة و الأحكام ، كما يبدوا لنا ، هم أيضاً الظاهر فقط من أحوالهم و عقائدهم .

قال ابن القيم : وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده فى عقوبات جرائمهم ، فيؤدب عبده المؤمن الذى يحبه وهو كريم عنده ، بأدنى زلة وهفوة ، فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأما من سقط من عين الله تعالى وهان عليه فإنه يخلى بينه وبين معاصيه ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة ، واعلم أن فى حديث كعب ابن مالك الذى ذكرناه عبراً ودلالات هامة نذكر منها ما يلى :

أولاً:- مشروعية الهجر لسبب دينى ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن مكالمة كعب وصاحبيه طيلة تلك المدة ، قال ابن القيم : وفيه دليل أيضاً على أن رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب ، إذ كان مما قاله كعب : فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول هل حرك شفتيه برد السلام علىّ ام لا ؟ فلو كان رد السلام عليه واجباً لكان لا بد من إسماعه .

ثانياً :- وابتلاء آخر إمتحن الله به كعباً رضى الله عنه ، ومن الجدير التأمل فيه لتعلم كيف ينبغى أن يكون إيمان المسلم بربه جل جلاله ، فقد رأيت أن ملك غسان أرسل إليه معظماً ومبجلاً يدعوه الى ترك هؤلاء الذين ىذوه وأعرضوا عنه و اللحاق ببلاده ليجد عنده الإكرام و السعادة ، وكان قد بلغ الكرب إذ ذاك بكعب أشده ، ولكن هذا الإبتلاء لم يكشف إلا عن المزيد من إيمانه بربه وشدة إخلاصه ومحبته له .

وكم من أقدام زلت ، وتزل اليوم فى هذا المنزلق الذى وضع أمام كعب رضى الله عنه لابتلائه به واختباره ، فمرّ من فوقه عزيزاً بإيمانه قوياً بإسلامه ، لم يتأثر به ولا إنزلق فيه .

ثالثاً :- سجود الشكر لله تعالى عبادة مشروعة ، دل عليها سجود كعب رضى الله عنه حينما سمع صوت المبشر بتوبة الله عليه ، قال ابن القيم : وقد سجد أبو بكر الصديق لما جاءه قتل مسيلمة الكذاب ، وسجد علىّ ابن أبى طالب لما وجد ذا الثدية مقتولاً فى الخوارج ، وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بشره جبريل أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً .

رابعاً :- ذهب الحنفية ماعدا زفر الى أن الرجل إذا ندر ماله كله صدقة على المساكين لم يلزمه التصدق إلا بالأموال الزكوية فقط ، ولهم أدلة على ذلك ، لعل من جملتها ما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم كعباً حينما قال له : إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة لله ورسوله ، فقد قال له أمسك عليك بعض مالك . والذين ذهبوا الى أن كل ماله يصبح صدقة إذا نذره ، قالوا إن قول كعب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فى حقيقته إنشاء لصيغة نذر ، ولكنه إستشارة له عليه الصلاة و السلام ، فأخبره صلى الله عليه وسلم أن بعض ذلك يجزيه ، ولعل هذا هو الأقرب فى فهم سياق كلام كعب رضى الله عنه وجواب النبى صلى الله عليه وسلم له .

حج أبى بكر رضى الله عنه بالناس سنة تسع

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً من تبوك ، أراد الحج ، ثم قال : إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر رضى الله عنه وأردفه بعلى رضى الله عنه ، ينهيان المشركين عن الحج بعد ذلك العام ، ويعطيانهم مهلة للدخول فى الإسلام أربعة اشهر ، ثم ليس بينهم وبين المسلمين إلا القتال .

روى البخارى فى كتاب المغازى عن أبى هريرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه بعثه فى الحجة التى امره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل حجة الوداع يوم النحر فى رهط يؤذن فى الناس : لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وروى محمد ابن كعب القرظى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع من الهجرة ، وبعث علىّ ابن أبى طالب بثلاثين أو أربعين ىية من براءة ، فقرأها علىالناس يؤجل المشركين - أى يمهلهم - أربعة أشهر يسيحون فى

الأرض ، فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجلهم عشرين من ذى الحجة ، و المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشرً من ربيع الآخر ، وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان .

وروى الإمام أحمد عن محرز ابن أبى هريرة عن أبيه قال : كنت مع علىّ رضى الله عنه حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل مكة ببراءة ، فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف ابلبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأن أجله أو مدته أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال : فكنت أنادى حتى صحل صوتى ، فذلك هو المقصود بقوله تعالى :(وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) .

وروى ابن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمل أبو بكر على الحج ، خرج فى ثلاثمائة رجل من أهل المدينة ، وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة قلدها وأشعرها .

العبر و العظات :

1- المشركون و تقاليدهم فى الحج :

لقد عرفت فيما مضى أن الحج الى بيت الله الحرام كان مما ورثه العرب عن إبراهيم عليه الصلاة و السلام ، فكان من بقايا الحنيفية التى ما زالوا محافظين عليها ، إلا أن كثيراً من أدران الجاهلية و أباطيل الشرك قد تسلل إليه ، حتى غدا مظهراً من مظاهر الشرك أكثر من أن يكون عبادة قائمة على عقيدة التوحيد ،ذكر ابن عائذ أن المشركين كانوا يحجون مع المسلمين ، ويعارضهم المشركون بإعلاء أصواتهم ليغلطوهم بذلك ، فيقولون لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وكان الرجال منهم منهم يطوفون بالبيت عراة ليس على رجل منهم ثوب ، يرون ذلك تعظيماً للبيت !.. وكان يقول أحدهم : أطوف بالبيت كما ولدتنى أمى ، ليس على شىء من الدنيا خالطه الظلم ، وظلت هذه الأرجاس الى نهاية العام التاسع من الهجرة ، حيث كان حج أبى بكر رضى الله عنه و الإنذار الذى بلغه كل من ابى بكر وعلىّ رضى الله عنهما لسائر المشركين ، إيذاناً بطهارة المسجد الحرام عن تلك الأرجاس وزوالها الى غير رجعة .

2- إنتساخ العهد بإعلان الحرابة :

ثم أعلن أن المشركين كانوا إذ ذاك صنفين ، كما قال محمد ابن اسحاق وغيره ، أحدهما : كان بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد الى ما دون أربعة أشهر من الزمن ، فأمهل هذا الصنف الى تمام المدة ، وثانيهما : كان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد مفتوح ، أى بغير أجل ، فاقتصر به القرآن فى سورة براءة على أربعة أشهر ، ثم هو بعد ذلك الحرب بينهم وبين المسلمين .

يقتل أحدهم حيث أدرك ، إلا أن يسلم ويتوب ، وابتداء هذا الأجل من يوم عرفة من العام التاسع ، وانقضاؤه الى عشر من شهر ربيع الآخر . وقيل - وهو رأى الكلبى - إنما الأشهر الأربعة مدة لمن كان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد دون أربعة أشهر ، فأما من كان عهده أكثر من ذلك ، فقد امر الله أم يتم عهده الى مدته ، فذلك معنى قول الله تعالى :(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم ، إن الله يحب المتقين). و القول الأول أصح و أوجه ، إذ ليس فى سورة براءة شىء جديد على رأى الكلبى ، وإنما هو تأكيد للعهود القائمة بيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، لم تغير منها شيئاً ولم تأت بجديد ، فأى معنى عندئذ فى قراءة علىّ رضى الله عنه للسورة على مسامع المشركين ينذرهم بها ، وأى جديد فى أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم علياً بذلك ؟

3- تأكيد آخر لحقيقة معنى الجهاد :

وإنك لتلحظ فى هذا تأكيداً جديداً على أن الجهاد فى الشريعة الإسلامية ليس حرباً دفاعية كما يحب المستشرقين !.

تأمل فى قول الله تعالى وهو ينذر فلول المشركين وبقاياهم حول مكة ، من أهل نجد وغيرهم :(براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) .

إن هذه الآيات الواضحة القاطعة لم تبق فى ذهن أى مجال لتصور ما يسمى بالحرب الدفاعية ، أساساً لمعنى الجهاد فى الإسلام ، وأنت تعلم أن سورة براءة من أواخر ما نزل من القرآن ، فأحكامها - واكثر أحكامها متعلق بالجهاد - مستقرة باقية . ولست أرى ما يدعوا الى القول بأن هذه الآيات نسخت ما قبلها من الآيات التى تقرر الجهاد الدفاعى ، كقول الله تعالى :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير) ، ذلك لأن الجهاد فى مشروعيته غير ناظر الى هجوم أو دفاع ، إنما هو يستهدف إعلاء كلمة الله تعالى ، وإشادة صرح المجتمع الإسلامى السليم وإقامة دولة الله فى الأرض ، فأياً كانت الوسيلة المتعينة الى ذلك وجب إتباعها .

قد تكون الوسيلة ، لظرف ما المسالمة و بث النصيحة و التعليم و الإرشاد و التوجيه ، فهذا هو الجهاد المشروع حينئذ ، وقد تكون الوسيلة المتعينة لظروف أخرى الحرب الهجومية ، فهى عندئذ ذروة الجهاد وأشرفه ، وإنما يقدر الظرف ويعين الوسيلة ويحددها الحاكم المسلم المتبصر الواعى المخلص لله ورسوله ولعامة المسلمين ، وهذا يعنى أن جميع هذه الوسائل الثلاث مشروعة فى تحقيق الجهاد ، على أن لا يطبق منها إلا ما تقتضيه المصلحة الآنية التى يقدرها الحاكم المخلص ، وتبادل التطبيق ليس من النسخ فى شىء ، ثم إن حج أبى بكر هذا كان تعليماً للمسلمين أصول المناسك وكيفية أدائها ، ثم كان تمهيداً لحجة الإسلام وحجة الوداع التى كان قائدها محمد صلى الله عليه وسلم .

مسجد الضرار

روى ابن كثير عن سعيد ابن جبير وقتادة وعروة وغيرهم أنه كان فى المدينة رجل من الخزرج اسمه أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية وله مكانة كبيرة فى الخزرج ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية ، شرق أبو عامر الراهب بريقه وأظهر العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج فاراً الى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لما رأى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تقدم وارتفاع ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومنّاه ، فأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من منافقى المدينة يعدهم بما وعده به هرقل ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك فشرعو فى بناء مسجد قريب من مسجد قباء ، فبنوه واحكموا بناءه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك ، وجاؤا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم من أهل العلة فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه وقال :(إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) فلما قفل راجعاً عليه الصلاة و السلام الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما إعتمده بانوه من الكفر و التفريق بين جماعة

المؤمنين فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه الى المدينة ، ونزل قول الله تعالى :(والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

ومعنى قوله تعالى (ضراراً) أنهم إنما بنوه ضراراً لمسجد قباء ، وقوله تعالى :(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم) إشارة الى مسجد قباء .

العبر و العظات

تعتبر قصة هذا المسجد ، قمة الكيد الذى وصل إليه المنافقون بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المسلمين ، وليس هو هذه المرة نفاقاً فحسب ، بل هو مؤامرة وكيد يدبر ضد المسلمين .

ولذلك لم يكن موقف النبى صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر ، إستمراراً لموقف التجاهل و الإهمال ، وإنما كان له موقف آخر ، استلهمه بوحى من ربه جل جلاله ، وكان هذا الموقف هو الكشف عن حقيقة المنافقين وتعرية أهدافهم عن تلك الأقنعة التى ستروها بها ، ثم هدم وتحريق ذلك البناء الذى زعموه مسجداً ، وهم إنما بنوه مرصداً لنفاق المنافقين ومئلاً لتنظيم المكائد ضد المسلمين ، وذريعة للتفريق بينهم ، وإن قصة هذا الكيد الأخير من المنافقين مع القصص السابقة لنفاقهم وكيدهم ـ تعطينا صورة كاملة عن مجموع حكم الشريعة الإسلامية فى حقهم ، فهم فى كل ما يصدرون عنه من كذب وإظهار لغير ما يظنون ، يتركون لظواهرهم فى الدنيا ، وتوكل ضمائرهم الى الله تعالى وحكمه فيهم يوم القيامة ، ولكنهم فيما قد يصدرون عنه من مؤامرات ومساع ضد المسلمين ، يؤخذون من النواصى متلبسين بجريمتهم ، كما ينبغى أن يدك ويهدم كل ما قد بنوه من مكائد ومؤامرات .

وقد دل على ذلك مجموع سياسته صلى الله عليه وسلم ومعاملته مع هؤلاء المنافقين وهو ما اتفق عليه عامة الأئمة الباحثين استناداً الى هديه صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

هذا وإنك إذا تأملت فى خطوات هذا الكيد التلصص من المنافقين وكيفيته ووسائله ، علمت أن طبيعة النفاق واحدة فى كل عصر وزمن ، وأن وسيلة المنافقين لا تتبدل ولا تختلف ،وأنهم هم دائماً فى جبنهم الذليل وكيدهم الحقير وفى إبتعادهم عن النور وتعلقهم بالظلام .

فهم الذين دائماً يسجدون بجباههم على أقدام المستعمر الأجنبى ليعينهم وسيلة حرب ضد افسلام والمسلمين فى بلدهم ، حتى إذا إنفلتوا الى بنى قومهم من المسلمين المؤمنين ، تظاهروا بالإسلام واصطنعوا مظهر الإعجاب به والدعوة إليه ، فإذا أمكنتهم الفرصة من خنق حقيقة من حقائق هذا الدين و القضاء على بعض دعاته أعلنوا أنهم يقومون برسالة تطويره وإنما يقضون على مستغليه من أعداء الأمة !..

وبعد فقد دل عمل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا على ضرورة تعطيل أو هدم أو تحريق أماكن المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها وإن إختبأت حقيقة هذه الأماكن عن أنظار الناس وراء مظاهر الخير و البر .

وإذا كان هذا هو ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسجد الضرار ، فما بالك بأماكن المعاصى و الفواحش التى يعصى الله فيها جهاراً وعلناً ؟ وقد أحرق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قرية بكاملها كان يباع فيها الخمر , حرق حانوت رويشد الثقفى وسماه فويسقاً وهذا ما لم يقع فيه خلاف بين المسلمين .

وفد ثقيف ودخولهم فى الإسلام

وروى ابن اسحاق أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة من تبوك فى شهر رمضان ، وفى ذلك الشهر قدم عليه وفد ثقيف ، وكانوا قد تشاوروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايع كلهم وأسلموا ، فأرسلوا وفداً منهم يرأسهم كنانة ابن عبد ياليل ، فلما دنوا من المدينة لقيهم المغيرة ابن شعبة - وهو منهم - فاستقبلهم وعلّمهم كيف يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخولهم عليه ، ولكنهم لم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية . وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف فى المسجد وبنى لهم خياماً لكى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، ومكث الفد أياماً عديدة يختلفون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويختلف إليهم وهو يدعوهم الى الإسلام ، روى ابن سعد : أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء ، فيقف عليهم يحدثهم حتى يراوح بين قدميه (أى يقوم على كل قدم مرة من التعب).

روى موسى ابن عقبة فى مغازيه : أن عثمان ابن أبى العاص كان فى ذلك الوفد ، وكان أصغرهم ، فكانوا إذا ذهبوا الى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفوه على رحالهم ، ، فكان عثمان كلما رجع الوفد ، وقالوا فى الهاجرة ، عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الدين واستقرأه القرآن ، واختلف إليه عثمان على ذلك مراراً حتى فقه الدين ، وكان إذا وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما عمد فذهب الى ابى بكر ، وكان يكتم ذلك من أصحابه ، فأعجب ذلك منه صلى الله عليه وسلم وأحبه .وأخيراً دخل الإسلام أفئدتهم ، ولكن كنانة ابن عبد ياليل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيت الزنى ، فإنا قوم نغترب ولا بد لنا منه ، قال : هو عليكم حرام ، فإن الله تعالى يقول :(ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) ، قال : أفرأيت الربا ، فإنه أموالنا كلها ، قال : لكم رؤوس أموالكم إن الله تعالى يقول :(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) ، قالوا : أفرأيت الخمر ، فإن عصير أرضنا لابد لنا منها ، قال : إن الله قد حرمها ، وقرأ آية تحريم الخمر ، قال ابن اسحاق : وسألوه أيضاً أن يضع عنهم الصلاة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا خير فى دين بلا صلاة ، فخلا بعضهم الى بعض يتشاورون فى الأمر ثم عادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خضعوا لذلك كله ، ولكنهم سألوه أن يدع لهم وثنهم الذى كانوا يعبدونه (اللات) ثلاث سنين لا يهدمها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم ، حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم ، فأبى عليهم أن يدعها الى أى أجل - قال ابن اسحاق : وإنما أرادوا بذلك أن يتخلصوا من أذى سفهائهم ونسائهم وذراريهم ، وكراهية منهم أن يردعوا قومهم بهدمها حتى يدخل الإسلام قلوبهم . فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فتول أنت هدمها ، فأما نحن فإنا لا نهدمها ابداً ، فقال لهم : فسأبعث لكم من يكفيكم ذلك ، ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذن لهم ، وأكرمهم وحياهم ، وأمر عليهم عثمان ابن أبى العاص لما رأى من حرصه على الإسلام ، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وفداً على أثرهم أمّر عليهم خالد ابن الوليد وفيهم المغيرة ابن شعبة وابو سفيان ابن حرب ، فعمدوا الى اللات فهدموها ، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبكين عليها ويرثينها ، وكلما ضربها المغيرة ابن شعبة بفأسه قال أبو سفيان : واهاً لك ، آهاً لك !... يسخر منه ويصانع حزن تلك النسوةاللاتى يندبن و يبكين عليه .

قال ابن سعد فى طبقاته - يروى عن المغيرة رضى الله عنه - فدخلت ثقيف فى الإسلام ، فلا أعلم قوماً من العرب بنى أب ولا قبيلة ، كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم .

تتابع وفود العرب ودخولهم فى دين الله

قال ابن اسحاق : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وفرغ نمن تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، إذ كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت و الحرم ، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام وقادة العرب ، فلما إفتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة

لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عدوانه ، فدخلوا فى دين الله تعالى أفواجاً ، كما قال تعالى :(إذا جاء نصر الله و الفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

ونحن لا نرى حاجة - فى هذا المجال - الى سرد تفصيل هذه الوفود واخبارها إذ لا يوجد كبير غرض لنا فى هذا التفصيل .

العبر و العظات :

أتذكر خبر أولئك الذين قابلوارسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن هاجر الى الطائف ، شر استقبال ، وأخرجوه من ديارهم شر إخراج ، والحقوا به سفهاءهم و صبيانهم يضربونه ويؤذونه ويسخرون منه ؟ ... تلك هى ثقيف التى سعت اليوم إليه ودخلت فى دين الله تعالى صادقة طائعة .

وهل تذكر إذ قال زيد ابن حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عادا أدراجهما الى مكة من الطائف : كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ،وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه !..

إن ما حدث اليوم هو مصداق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد ، فتلك هى الطائف ، وهذه هى مكة وشتى قبائل العرب وبطونها قد سعت جميعها تدخل فى دين الله أفواجاً ، ثم تعال فتأمل !.. تأمل فى كل ذلك الإيذاء الذى رآه من ثقيف و الخيبة التى فوجىء بها بعد أن هاجر ساعياً على قدميه يعبر إليهم جبالاً و أودية قاصيية مؤملاً عندهم إستقبالاً كريماً أو استجابة حسنة ، إن أدنى ما يترك ذلك فى نفس الإنسان العادى من الناس من الأثر أن يفكر فى الإنتقام أو أن يقابل إساءة بمثلها ، ولكن أين تجد هذا - أو حتى شىء من هذا - فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه ثقيف ، لقد حاصر الطائف أياماً ثم أمر الصحابة بالرجوع ، فقيل له : أدع على ثقيف ، فأبى ذلك ورفع يديه يقول : اللهم أهد ثقيف وأت بهم مؤمنين !..

ولما استجاب الله دعاء رسوله فجاء وفد ثقيف الىالمدينة ، تسابق أبو بكر الصديق و المغيرة ابن شعبة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرانه بذلك ، لما يعلم كل منهما من شدة سرور رسول الله صلى الله عليه وسلم بنبأ إسلام ثقيف و هدايتهم ، فخرج يستقبلهم فى بشر و إكرام ، وراح يحبس عليهم وقته كله يعلمهم ويرشدهم وينصح لهم .

طالما أرادوا به الكيد وشفوا بإيذائه غليل أحقادهم عليه ، وهو لا يريد بهم إلا الخير و السعادة و الرشد فى الدنيا و الآخرة ، طالما فرحوا بمنظر النكبة و الضر يرى متلبساً بها ، ولكنه لم يفرح إلا بنعمة الخير و الإسلام إذ أكرمهم الله بهما !..

ترى ، أهذا كله طبيعة إنسان عادى ، يدعو الى مبدأ يراه أو عقيدة قد تخيرها ؟!

أما إنها ليست إلا طبيعة النبوة ، وليست إلا من أثر تطلعه عليه الصلاة و السلام الى هدف واحد فقط : هو أن تؤتى هذه الدعوة ثمارها فيلقى ربه وهو عنه راض ، وما أهون الآلام و النكبات كلها فى هذا السبيل ، وما أعظم الفرحة إذ يجتاز العبد تلك المفاوز كلها ويستقر عند هذا الهدف الجليل !..

وذلك هو الإسلام : لا يعرف الحقد ولا الضغينة ولا يريد شراً بالإنسان .

يأمر بالجهاد ولكن فى غير ضغينة وحقد ، يعلم القوة ، ولكن فى غير أنانية وكبر ، يدعو الى الرحمة ، ولكن فى غير مهانة أو ضعف ، ويعلم الحب ، ولكن فى سبيل الله وحده . إذاً لقد كان وفد ثقيف والوفود الأخرى التى تلاحقت متجهة الى المدينة داخلة فى الإسلام كان كل ذلك وفاء بموعد النصر العزيز الذى وعد الله به رسوله صلى الله عليه وسلم . تلك هى العبرة التى ينبغى أخذها من قصة هذه الوفود ، أما الدروس و الأحكام فإليك منها ما يلى :

أولاً:- جواز إنزال المشرك فى المسجد إذا كان يرجى إسلامه وهدايته :

فقد رأيت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستقبل وفد ثقيف فى مسجده لمحادثتهم و تعليمهم ، وإذا كان هذا جائزاً للمشرك ، فجوازه للكتابى أولى . وقد استقبل النبى صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، حينما جاؤوه لسماع الحق ومعرفة الإسلام .

قال الزركشى : واعلم أن الرافعى و النووى رحمهما الله أطلقا انه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم بإذن المسلم ، بقيود ، أحدها : أن يكون قد شرط عليه فى عقد الذمة عدم الدخول ، فإن كان قد شرط عليه ذلك لم يؤذن له ، ثانيها : أن يكون المسلم أذن له مكلفاً ، كامل الأهلية

ثالثها : أن يكون دخوله لسماع القرآن أو علم ورجى إسلامه ، أو دخل لإصلاح بنيان ونحوه ، وقضية كلام القاضى أبى على الفارقى : أنه لو دخل لسماع القرآن أو العلم وهوممن لا يرجى إسلامه أنه يمنع وليس لنا أن نأذن له فى الدخول ، أى كما إذا كانت الحالة تشعر بالإستهزاء ، أو بالمجاملة السياسية إبتغاء غرض معين كما هو شأن كثير من الأجانب اليوم .

، فأما إذا استأذن لنوم أو لأكل ونحوه ، قال فى الروضة : ينبغى أن لا يؤذن له فى دخوله لذلك ،

ظاهره الجواز ، وقال غيره - أى غير النووى - لايجوز لنا أن نأذن له فى ذلك .

قال الفارقى : وفى معنى ذلك ، الدخول لتعلم الحساب و اللغة وما كان فى معناه ولا خفاء أن موضع التجويز إذاً لم يخش على المسجد ضرر ولا تنجيس ولا تشويش على المصلين .

قلت : وأهم من ضرر التشويش ضرر الفتنة التى قد يتعرض لها المصلون بدخول نساء كافرات وهنّ بأزيائهن الفاضحة ، ومثل الدخول للنوم والأكل فى المنع ، الدخول للنظر فى معالم البناء ونقوشه .

ثانياً: حسن معاملة الوفود و المستأمنين :

و الفرق بين الوفد و المستأمن ، أن الأول قادم رسولاً عن قومه وهو يكون دائماً مكوناً من عدة أفراد ، أما الثانى فقادم لنفسه يطلب الأمان فى بلاد المسلمين ريثما يأخذ علماً عنهم وعن الإسلام ، فأما المستأمن فقد أمر الله بحسن إستقباله و المحافظة عليه ثم إبلاغه مأمنه عندما يريد ذلك ، وذلك بصريح قوله :(وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ..) .

وأما الوفود فقد دل على هذا الحكم أيضاً فى حقهم ، القياس على المستأمن وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حسن سياسته ومعاملته معهم ، فقد رأيت كيف أكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف فى القدوم و الإقامة .

ثالثا:- أحق الناس بالولاية والإمامة أعلمهم بكتاب الله تعالى :

ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم عثمان ابن العاص على ثقيف ، فقد أعجبه ما رأى فيه من الحرص على فهم كتاب الله تعالى ولقد أصبح خلال الفترة التى أقامها فى المدينة مع أصحابه ، أعلمهم بكتاب الله وأفقههم فى الإسلام ، والإمارة و الولاية ليس كل منهما إلا مسؤولية دينية يراد منها إقامة الحكم و المجتمع الإسلامى فلا بد من توفر هذا الشرط فيها .

رابعاً :- وجوب هدم الأوثان و التماثيل :

وليس من شرط وجوب ذلك أن يكون هناك من يعبدها أو يقدسها ، بل الحكم فى ذلك عام وشامل لكل حالة لعموم الدليل هنا ، ولدليل أمره صلى الله عليه وسلم بتحطيم تلك التماثيل التى استخرجت من جوف الكعبة ، مع أنها لم تكن تعبد كتلك الأصنام الأخرى ، وهذا يدل على ما كنا قد ذكرناه من حرمة صنع التماثيل على إختلاف أنواعها و أشكالها ، وعلى حرمة إقتنائها مهما كانت اسباب ذلك .

هذا ولنكتف بهذا الذى ذكرناه من خبر وفد ثقيف ، عن تفصيل ذكر أخبار الوفود الكثيرة الأخرى التى قدمت خلال هذا العام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم تعلق غرض كبير فى هذا المقام بذلك ، غير أنه مما ينبغى أن تعلمه ، أن هذه الوفود كانت فى مجموعها تمثل فئتين : إحداهما فئة المشركين ، والثانية فئة أهل الكتاب .

فأما المشركون فقد دخل عامتهم فى الإسلام ، وما رجعت وفودهم إلا وهى تحمل مشعل الإيمان والتوحيد الى قومها ، وأما أهل الكتاب فقد بقى أكثرهم على ما هم عليه من اليهودية أو النصرانية .

ولقد كان الوفد الذى جاء يمثل نصارى نجران مؤلفاً من ستين رجلاً ولقد لبثوا عنده صلى الله عليه وسلم أياماً يجادلهم ويجادلونه فى أمر عيسى عليه السلام ووحدانية اله تعالى ، وكان آخر ما عنده صلى الله عليه وسلم لهم أن تلا عليهم قوله تعالى :(إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل : تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) آل عمران .

فلما أبوا أن يقروا ، دعاهم الى المباهلة كما أمره الله تعالى بذلك ، وذهب عليه الصلاة و السلام فأقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضى الله عنهما فى خميل له ، وفاطمة رضى اله عنها تمشى خلفه للمباهلة ، فأبى رئيس وفدهم شرحبيل ابن وداعة المباهلة أيضاً وحذر أصحابه من عاقبة ذلك عليهم ، فأقبلوا إليه صلى الله عليه وسلم يحكمونه فيما دون كل من الإسلام و المباهلة ، وينزلون عند حكمه فى ذلك . فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً ، والتزم فيه صلى الله عليه وسلم لهم - إن دفعوا الجزية المتفق عليها - أن لا تهدم لهم بيعة ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثاً - أى غدراً أو خيانة - أو يأكلوا الربا.

خبر إسلام عدى ابن حاتم

كان عدى ابن حاتم نصرانياً ، وهو ابن حاتم الجواد المشهور ، وكان إمرءاً شريفاً فى قومه ، وكان يأخذ من قومه المرباع (وهو ربع ما يصلهم من غنائم الحروب ، كان العرب يجعلون ذلك للرئيس منهم) فلما سمع برسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، كره دعوته ، وترك قومه ولحق بنصارى الشام .

قال عدى: فكرهت مكانى هناك أشد من كراهتى له (أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم) فقلت : لو أتيته فإن كان ملكاً أو كاذباً لم يخف علىّ ، وإن كان صادقاً إتبعته . فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه وهو فى مسجد ، فسلمت عليه ، فقال : من الرجل : فقلت : عدىّ ابن حاتم ! فقام رسولالله صلى الله عليه وسلم فانطلق بى الى بيته ، فوالله إنه لعامد بى إليه (أى قصد بى الى الدار) إذ لقيته إمرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً ، تكلمه فى حاجتها ، فقلت فى نفسى ، والله ما هذا بملك !. ثم مضى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بى الى بيته ، تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إلىّ فقال : إجلس على هذه ، قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت ، فجلست عليها ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض . فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : إيه يا عدىّ ابن حاتم ، هل تعلم من إله سوى الله ؟ قلت : لا ، ثم قال : هل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ قلت : لا ، قال : ألم تكن ركوسياً ؟ (قوم لهم دين بين النصارى و الصابئة) قلت : بلى ، قال : أولم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قلت : بلى ، قال : فإن ذلك لم يكن يحل فى دينك ، قلت : أجل والله ، ثم قال : لعلك يا عدىّ إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجة أهله ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك و السلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم ! .. قال : فأسلمت .

قال عدىّ : فرأيت اثنين : الظعينة ، وكنت فى أول خيل أغار على كنوز كسرى ، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة .

العبر و العظات :

كان قدوم عدىّ ابن حاتم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخبر إسلامه فى الفترة التى قدم فيها الوفود من كل جهة وصوب ، ونستطيع أن نعده فى مجيئه هذا واحداً من تلك الوفود الكثيرة التى سعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلن إسلامها ، غير أن آثرنا إفراد خبر عدىّ بالتفصيل لما فيه من العبر الهامة المتعلقة بأسس العقيدة الإسلامية ، ولما فيه من التحليل الدقيق ، بل و وتجسيد واضح لشخصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك الشخصية التى ظهرت جلية واضحة لعدى ابن حلتم ، مصفاة من كل شوائب لزعامة أو ملك وحب الإمارة ، او الكبرياء و الجاه ، لا يتراءى فيها سوى الإعلام من أنه رسول رب العالمين الى الناس أجمعين ، فكانت اساس إيمانه وسر هدايته .

فلنتأمل فيما تأمل فيه عدىّ ... ولنعتبر بما اعتبر به عدىّ ، لنزداد إيماناً ويقيناً بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنزداد يقيناً بمعنى المكيدة التى تكمن خلف دراسات محترفى الغزو الفكرى فى العالم الإسلامى ... ولنقف قليلاً أمام السمة التى صور بها عدىّ شخصية الرسول عليه الصلاة و السلام كما رآها فتأثر بها ، فكانت سر إيمانه .

يقول عدىّ :(فوالله إنه لعامد الى داره ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها ، فقلت فى نفسى : والله ما هذا بملك) . أجل فما أبعد الطامع بالملك أو المؤمل فى الزعامة و المجد الدنيوى ، عن الصبر على مثل هذه الوقفة . ولأن صابر نفسه فتصنع لذلك وقسرها على ما تكره ، فما أسرع ما تظهر دلائل المصانعة من ضجر و تأنف ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت هذه سجيته و طبيعته ، فى كل حال ، فما كان يتميز على أصحابه فى مجلس ، وما كان يعلو فى معيشته وحياته من مستوى الفقراء و المساكين ، وما أثر أنه صلى الله عليه وسلم أكل على خوان قط ، وما رؤى أصحابه صلى الله عليه وسلم يكدون فى عمل شاق إلا كان النبى صلى الله عليه وسلم منهمكاً فيه معهم ، كانت هذه صفته صلى الله عليه وسلم حتى فارق الدنيا والتحق بالرفيق الأعلى ، فأى سر يمسكه على هذه الحال (مع ما فيه من الخصائل التى لو أحب أن يتعلق بها لرفعته الى مكانة عالية لا ينتهى إليها احد غيره) غير سر النبوة التى أكرمه الله بها ؟!.

ويقول عدىّ : فلما دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إلىّ فقال : اجلس على هذه ... فجلست عليها ، وجلس هو على الأرض ! ... فقلت فى نفسى والله ما هذا بأمر ملك .

ولعل عدياً ـ وهو الذى كان ذا مكانة مرموقة فى قومه ـ كان يحسب أن يجد بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطق بشىء من المعنى الذى كان يتمتع به هو ، ولكنه فوجىء بعكس ذلك ، وفوجىء برسول الله صلىالله عليه وسلم يتربع جالساً على أرض يابسة ! ... ونظر ، فإذا بالدار تنطق بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من تلك المظاهر التى كان يتوقع رؤيتها فى شىء ، أفيكون مع ذلك ينشد من وراء دعوته هذه ملكاً ويسعى وراء ثروة ومجد ؟!

ويصف عدى رضى الله عنه بعد ذلك ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف استشف فيه الغيب المتعلق بمستقبل الإسلام و المسلمين .

قال له : ليوشكن المال أن يفيض فى المسلمين حتى لا يوجد من يأخذه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بعث عمر ابن عبد العزيز عامله بأموال الزكاة لتوزيعها على المستحقين فى جهات من أفريقية ولكنه عاد بها ثانية لأنه لم يجد من يأخذها ، فاشترى بها ارقاء و أعتقهم .

وقال له : ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد إمتد فوق هذه الرقعة أمن الإسلام وسلامه ، فما من عابر سبيل فيها يخاف شيئاً غير الله عز وجل و الذئب على غنمه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر .

وقال له : وأيم الله ليوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت على المسلمين ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سمعنا بذلك ورأينا ، والحمد لله الذى أنجز ما وعد به رسوله عليه الصلاة و السلام . لقد وجد عدىّ سمات النبوة

الصادقة فى مظهر معيشته و حياته ، ووجد هذه السمات أيضاً فى لون حديثه وكلامه ، ووجد مصداق ذلك فيما بعد .. فى وقائع الزمن و التاريخ ، فكان ذلك سبب إسلامه ، وانخلاعه عن مظاهر الأبهة و الترف التى كان قد اسبغها عليه قومه . وإذا توفر عقل مفكر ، وتوفرت معه حرية فة التأمل ، فلا مفر إذاً من قبول الحق و الإيمان به مهما شق السبيل الى ذلك ، أما إذا فقدت الحرية للفكر وضاعت قدسية العقل ونبتت فى مكانها قدسية الحقد و الهوى ، فلا مناص من العكوف على الباطل ، ولا مفر من معانقة الجهل و التجاهل ، ولا نعمة تفوق نعمة العمى أو التعامى .

وصدق الله رب العالمين إذ يبين لنا صفات هؤلاء :(وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) .

بعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس لتعليمهم مبادىء الإسلام

وكما أقبلت الوفود تسعى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامها ، فقد أخذ صلى الله عليه وسلم يبعث رسله يتفرقون فى شتى الجهات ، وخاصة فى جنوب الجزيرة العربية لتعليم الناس مبادىء الإسلام و أحكامه ، فقد إنتشر أمر الإسلام فى الجزيرة فى مختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعية الى معلمين ودعاة ومرشدين يشرحون للناس حقائق الإسلام ، حتى يستقر فى قلوبهم بعد أن إنتشر فى ربوعه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد الى نجران ليدعو هناك الى الإسلام ويعلمهم مبادئه وأحكامه ، كما أرسل علياً رضى الله عنه الى اليمن ، وأرسل أبو موسى الأشعرى ومعاذ ابن جبل الى اليمن أيضاً بث كل منهما فى طرف من أطرافها ، ووصاهما قائلاً :(يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا) وقال لمعاذ :(إنك ستاتى قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، فإن هم اطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب .

وفى مسند الإمام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم خرج مع معاذ الى ظاهر المدينة ومعاذ راكب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى تحت راحلته ، ثم قال :(يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ! ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى) فبكى معاذ لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولبث معاذ فى اليمن الى ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الأمر كما أخبر به صلى الله عليه وسلم .

العبر و العظات :

أهم ما ينبغى على المسلم أن يفهمه من أمر هؤلاء الرسل و أمثالهم الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر الدعوة الى الإسلام وتعليم مبادىء الإسلام وأحكامه أن مسئولية الإسلام فى ا،ناق المسلمين جميعاً فى كل عصر وزمن وليست من السهولة و اليسر كما يتصور معظمهم اليوم ، فلا يكفى أن ندعى الإسلام بألسنتنا المجردة ، كما لا يكفى أن يكون نصيبه من حياتنا بعض أعمال يسيرة ، كانت فى أصلها جليلة ، ثم تحولت فى حياتنا الى عادات وتقاليد ، بل ولا يكفى أن يتمسك الواحد منا بالإسلام لنفسه فقط ، ثم يغلق بابه دونه لا يسأل عن شىء .

لا ترتفع مسؤولية الإسلام عن أعناق المسلمين حتى يضيفوا الى هذا القيام بواجب الدعوة إليه و التبشير به ، والسفر فى سبيل ذلك الى شتى الجهات و القرى و البلدان ، تلك هى الأمانة التى ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقنا ، وذلك هو الواجب الذى لا محيص عنه فى كل عصر ومكان ، وقد أجمع العلماء و الأئمة الأربعة أن القيام بحق هذه الدعوة فى داخل البلدة التى يقيم فيها المسلمون وخارجها فرض كفاية على كل المسلمين ، ولا يتحللون من مسؤوليته وجريرة التقصير فيه إلا بقيام

جمهرة منهم تنتشر فيما تستطيع أن تنتشر فيه من الجهات و البلدان داعية الى الله تعرض حجج الإيمان وبراهين افسلام وتزيل ما قد يعترض أذهان الناس الى ذلك من الشبه و الوساوس المختلفة ، بحيث تقع أعمال هذه الجمهرة موقعاً من الكفاية فى القيام بهذا الواجب ، وما لم تتوفر هذه الفئة فى كل بلدة من بلاد الإسلام فجميع أخل تلك البلدة آثمون .

والصحيح الذى ذهب إليه جمهور الأئمة و الفقهاء ، أن هذا الواجب الخطير لا يتعلق بأعناق الذكور من المسلمين فقط ، بل هو عام يشمل الذكور و النساء و الأحرار و العبيد ، وما داموا داخلين فى ربقة التكليف قادرين على القيام بأعباء الدعوة و التوجيه ، كل حسب حدود إمكاناته ووسائل استطاعته.

ثم إن التوجيه الذى زود به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ ابن جبل وأبو موسى الأشعرى تدل على بعض الآداب التى يجب أن يتحلى بها الداعى الى الله تعالى أثناء ما يقوم به من توجيه وتعليم .

فمن ذلك أن يغلب جانب التيسير على التشديد و التضييق ، وأن يعتمد على التبشير أكثر من الإنذار أو التهديد ، وهو ما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنفير ، وقد أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثال تطبيقى ، فأمر معاذ أن يدعو الناس أولاً الى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (الإقرار بالشهادتين) ، فإن هم استجابوا لذلك فليدعهم الى إقام الصلاة ، فإن هم استجابوا لذلك ، فليدعهم الى دفع الزكاة .... وهكذا .

غير أن مظاهر التيسير و التبشير ، ينبغى أن لا تتجاوز حدود المشروع والمباح ، فليس من التيسير المطلوب أو المشروع تبديل بعض الأحكام أو التلاعب بمفاهيم الإسلام بغية التيسير على الناس ، وليس منه الإقرار على المعصية مهما كان شأنها ، وإن كان للتيسير المشروع دخل فى إختيار الوسيلة التى ينبغى أن تستعمل لإنكارها . ومن آداب الدعوة الى الله (وهى من آداب الإمارة و الولاية) الإحتراز عن التلبس بظلم أى إنسان ، وخاصة ما يكون منه بأخذ شىء من أموال الناس بغير الحق ، وهو نوع خطير من الظلم قد يتعرض له الدعاة الى الله إذا ما غفلوا عن حقيقة مسؤولياتهم ومراقبة الله عز وجل لهم ، كما يتعرض له أرباب الولاية و السلطان .

ولما كان معاذ رضى الله عنه متسماً بكلا الصفتين لدى إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم له الى اليمن أى صفة الدعوة وصفة الإمارة و الولاية ، فقد شدد النبى عليه فى التحذير من الوقوع فى أى نوع من أنواع الظلم ، قائلاً : واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .

حجة الوداع و خطبته

روى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله.

وخرج صلى الله عليه وسلم من المدينة لخمس ليال بقين من ذى القعدة ، قال جابر : فلما استوت به ناقته فى البيداء ، نظرت الى مدّ بصرى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن . واختلف الرواة ، فأهل المدينة يروون أنه صلى الله عليه وسلم أهلّ بالحج مفرداً ، ويروى غيرهم أنه قرن مع حجته عمرة ، وروى بعضهم أنه دخل مكة متمتعاً بعمرة ، ثم أضاف إليه حجة . ودخل مكة من أعلاها من طريق كداء حتى إنتهى الى باب بنى شيبة ، فلما رأى البيت قال :(اللهم زد هذا البيت تشريفاً و تعظيماً وتكريماً ومهابة وزد من عظّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجه ، فعلم الناس مناسكهم وبين لهم سنن حجهم ،وألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم عرفة خطبة جامعة فى جموع المسلمين الذين احتشدوا حوله فى الموقف ، هذا نصها :(أيها الناس : إسمعوا قولى ، فإنى لا

أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا وإن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول رباً أضع ربا العباس ابن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس : إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات و الأرض ، السنة إثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

إتقوا الله ىف النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمان الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، إن لكم عليهنّ حقاً ولهنّ عليكم حقاً : لكم عليهنّ أن لا يوطئنّ فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلنّ ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرح ، ولهنّ عليكم رزقهنّ و كسوتهنّ بالمعروف .

فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وسنة رسوله . أيها الناس إسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبد حبشى مجدّع ما أقام فيكم كتاب الله تعالى .

أرقاءكم أرقاءكم ... أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ، وإن جاؤا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم .

أيها الناس : إسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنّ أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدى ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكتها الى الناس : اللهم اشهد (ثلاث مرات) .

ثم لم يزل النبى صلى اله عليه وسلم فى عرفات حتى غربت الشمس ، وحينئذ دفع بمن معه الى المزدلفة ، وهو يشير بيده اليمنى قائلا : أيها الناس السكينة السكينة ، فصلى فى المزدلفة المغرب و العشاء جمع تأخير ، وبات تلك الليلة فى المزدلفة ثم دفع قبل أن تطلع الشمس الى منى فرمى جمرة العقبة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها ثم إنصرف الى المنحر ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة ثم أعطى علياً فنحر ما غبر (أى تتمة المائة) ثم ركب رسول الله صلى اله عليه وسلم فأفاض الى البيت فصلى بمكة الظهر ،وأتى بنى عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلوه فشرب منه ، ثم قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عائداً الى المدينة .

العبر و العظات :

أولاً: عدد حجات الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن مشروعية الحج :

إختلف العلماء : هل حج رسول الله صلى الله عليه وسلم غير هذه الحجة فى الإسلارم ؟.

فقد روى الترمذى وابن ماجه أنه صلى الله عليه وسلم حج ثلاث حجج قبل هجرته الى المدينة ، قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وهو مبنى على عدد وفود الأنصار الى العقبة بمنى بعد الحج ، فإنهم قدموا أولاً فتواعدوا ، ثم قدموا ثانياً فبايعوا بيعة العقبة الأولى ، ثم قدموا الثالثة فبايعوا بيعة العقبة الثانية ، ومنهم من روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر ، وأيا ما كان المر ، فإنه مما لا شك فيه أن وجوب الحج إنما شرع فى العام العاشر من الهجرة ، فلم يكن واجباً قبل ذلك

ولم يحج النبى صلى الله عليه وسلم بعدها غير هذه الحجة ، ولذلك كان يطلق عليها كثير من الصحابة اسم حجة الإسلام ، أو حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وبها عنون الإمام مسلم حديث هذه الحجة .

ومن الأدلة على ذلك ما رواه الشيخان من خبر وفد عبد القيس الذين قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقد جاء فيهم أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : مرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة ، فقال : آمركم بأربع و أنهاكم عن أربع ، وعدد لهم الأوامر الأربع فقال : آمركم بالإيمان بالله ، وإقام الصلاة ،وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من الغنم ، ويبدوا أنه ذكر الأمر بالإيمان زيادة على الأربع ، إذ هو معروف لهم ، غير أنه أعاد الأمر للتأكيد و لبيان أنه أساس الأوامر الأربعة التى ذكرها بعد ، وقد كان مجىء هذا الوفد فى السنة التاسعة للهجرة ، فلو كان الحج مفروضاً إذ ذاك لعده من جملة الأوامر التى وجهها إليهم .

ثانياً:- المعنى الكبير لحجة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن لحجة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه معنى جليلاً يتعلق بالدعوةالإسلامية ويتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم ويتعلق بالمنهج العام للنظام افسلامى : لقد تعلم المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاتهم وصيامهم وأمر زكاتهم وعامة ما يتعلق بهم من عبادات وواجبات ، وبقى أن يعلمهم مناسكهم وكيفية أداء شعائر الحج بعد أن طويت تلك التقاليد الجاهلية المتوارثة ايام موسم الحج من تصدية وصفير وعرى أثناء الطواف ، وقضى عليها مع القضاء على الأوثان وتطهير بيت الله الحرام منها .

وإن الدعوة الى الحج لبيت الله الحرام ستظل قائمة الى يوم القيامة فهى دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة و السلام بأمر من الله سبحانه وتعالى ، ولكن إنحرافات الجاهلية وضلالات الوثنية قد زادت فيه تقاليد باطلة وصبغته بكثير من مظاهر الكفر و الشرك ، وقد جاء الإسلام ليغسل هذه الشعيرة مما قد علق بها من أدران ، ويعيدها نقية صافية تشع بنور التوحيد وتقوم على أساس العبودية المطلقة لله تعالى ، ومن أجل ذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حاج الى بيت الله الحرام ومن أجل ذلك اقبل الناس من كل حدب وصوب يريدون أن يأتموا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعلموا الأعمال الصحيحة للحج فلا يقعوا فى رواسب التقاليد الجاهلية البائدة .

ويبدو أنه قد ألقى فى روعه صلى الله عليه وسلم أن مهمته فى الأرض توشك أن تنتهى ، فقد أدى الأمانة وأينعت أرض الجزيرة العربية بغرس التوحيد وانتشر الإسلام يغزو الأفئدة و القلوب فى كل مكان ، وإن بالناس - وهم اليوم كثرة متفرقون - لشوقاً الى مزيد من اللقاء مع رسولهم و الإستفادة من هديه ونصائحه ، وبه هو أيضاً صلى الله عليه وسلم شوقاً الى مزيد من اللقاء معهم لا سيما تلك الحشود التى دخلت فى الإسلام حديثاً من مختلف جهات الجزيرة العربية ، ممن لم تتح لهم فرصة اللقاء الكافى معه صلى الله عليه وسلم ، وإن أكبر وأجمل فرصة لذلك إنما هو فرصة اللقاء فى الحج الى بيت الله الحرام ، وفى سفوح عرفات ، لقاء بين أمة ورسولها فى ظل شعيرة من أكبر شعائر الإسلام ، لقاء إتضح أنه كان فى علم الله تعالى وإلهام رسوله ، لقاء توصية ووداع .

ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً أن يلتقى بهؤلاء الحشود المسلمة الذين جاؤا ثمرة جهاد استمر ثلاثة وعشرين عاماً ليلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه فى كلمات جامعة وموعظة مختصرة يضمنها كوامن وجدانه و نبرات محبته لأمته ، وليستطلع من وجوههم صورة نسلهم وأعقابهم الذين سيأتون من بعد فينهى إليهم نصائحه وتوصياته من خلف حواجز الزمن ووراء أسوار القرون .

تلك هى بعض معانى حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم : حجة الوداع ، وإنك لتراها متجسدة فى خطبته التى ألقاها فى وادى عرنة فى يوم عرفة .

ثالثاً:- تأملات فى خطبة الوداع :

ولله ما أروعها من كلمات ، تلك التى ألقاها فى سفوح عرفات ، راح يخاطب فيها الأجيال و التاريخ بعد أن أدى المانة ونصح للأمة وجاهد فى سبيل الدعوة الى ربه ثلاثة وعشرين عاماً لا يكل ولا يمل ، ولله ما أروعها من ساعة تلك التى إجتمع فيها حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها الآلاف المؤلفة ، إجتمعوا خوله خاشعين متضرعين ، وطالما تربصوا به قبل ذلك متآمرين ومحاربين ، آلاف مؤلفة ما يمتد به النظر من كل الجهات ، تردد بلسان حالها قول الله عز وجل :(إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر من حلال وجوههم الى الأجيال المقبلة الى العالم الإسلامى الكبير الذى سيملأ شرق الأرض و غربها ، وراح يلقى على مسامع هذا العالم خطابه المودع :(أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .....) . وأنصتت الدنيا لتسمع قوله ، وأنصت الحجر و القفر و المدر الى الكلمة المودعة ينطق بها فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أنست وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستون عاما ، ها هو اليوم يلمح بالرحيل ، بعد أن قام بأمر ربه وغرس الأرض بغراس الإيمان وها هو الآن يلخص المبادىء التى جاء بها وجاهد فى سبيلها فى كلمات جامعة ، وبنود معدودة ، يلقى بها الى مسامع العالم

فماذا كان البند الأول منها ؟

يا سبحان الله ما أجل وأروع !.. لكأنه صلى الله عليه وسلم إنما كان يستلهم توصياته من واقع المنزلقات التى سينكب فيها أقوام من أمته عبر الزمن تائهين وراء غيرهم ضائعين عن القبس الذى سيتركه بين أيديهم فلقد كان أول بند منها قوله : أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . ولقد كرر هذه التوصية نفسها مرة أخرى فى خاتمة خطابه ، وأكد ضرورة الإهتمام بها وذلك عندما قال : تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لإمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمنّ أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟ . ونحن نقول : أجل والله لقد بلغت يا سيدى ... ولعلنا اليوم أولى من ينبغى أن يجيبك : اللهم لقد بلغت !... وإن كان فى ذلك إنما نسجل مسؤولية على أعناقنا قصرنا كل التقصير فى القيام بحقها

أما البند الثانى : فلم يكن مجرد توصية ولكنه قبل ذلك قرار أعلن عنه للملأ كله لأولئك الذين كانوا من حوله و للأمم التى ستأتى من بعده ، وهذه صيغة القرار : ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع !... دماء الجاهلية موضوعة .... ربا الجاهلية موضوع .

فما المعنى الذى تتضمنه صيغة القرار ؟ ... إنه يقول : إن كل ما كانت الجاهلية تفخر وتتمسك به من تقاليد العصبية و القبلية وفوارق الغات و الأنساب و العرق واستعباد الإنسان أخاه الإنسان بأغلال الظلم و المراباة قد بطل أمره ومات إعتباره فهو اليوم جيفة منتنة غيبتها شريعة الله فى باطن الأرض ، وأصبح مكانها من حياة المسلم اليوم تحت موطىء الأقدام ، إنه رجس ولى ، وعماهة أدبرت وغاشية بادت ، فمن ذا الذى يرجع بعد ذلك لينبش التراب عن الجيفة المنتنة فيعانقها ؟

.. وأى عاقل يتقمم الأدران التى تخلص منها ليتمسح ثانية بها ؟ وأى أبىّ يعمد الى القيد الذى كسره البارحة وألقاه ليصلحه ويعود فيتقيد به اليوم ؟

أرجاس من تقاليد الجاهلية أبعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن منطلقات الإنسانية وتقدمها الفكرى و الحضارى وأعلن أنها قد عادت حثالة مدفونة تحت قدميه ، كى يثبت للدنيا كلها ويسجل على سمع القرون و الأجيال أنه ما من تائه يزعم التقدم الفكرى إذ يعمد فينبش شيئاً من هذا الدفين القديم إلا وهو يرجع القهقرى يسبح فى أغوار قصية من التاريخ المظلم القديم ، وإن من خيل إليه وهمه أنه إنما يتقدم صعداً ويخطوا مترقياً .

وأما البند الثالث : فقد أعلن فيه صلى الله عليه وسلم عن تطابق الزمن إذ ذاك مع أسماء الأشهر المقسم عليها ، وذلك بعد طول تلاعب بها من العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام فقد كانوا - كما يقول مجاهد وغيره - يجعلون حجهم كل عامين فى شهر معين

من السنة ، فيحجون فى ذى الحجة عامين ، ثم يحجون فى المحرم عامين وهكذا ، فلما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العام ، وافق حجه شهر ذى الحجة وأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك أن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق السموات و الأرض ، أى فلا تتلاعبوا بالأشهر تقديماً وتأخيراً ولا حج بعد اليوم إلا فى هذا الزمن الذى استقر اسمه : ذا الحجة .

وذكر بعضهم أن المشركين كانوا يحسبون السنة إثنى عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، فكان الحج فى رمضان وفى شوال وذى القعدة .... وفى كل شهر من السنة ، وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة خمسة عشر يوماً ، ولقد كان حج أبى بكر فى السنة التاسعة من الهجرة واقعاً فى شهر ذى القعدة بسبب ذلك ، فلما كان العام المقبل ، وفيه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بحج الوداع ، وافق حجه ذا الحجة فى العشر منه وطابق الأهلة ، وأعلن حينئذ عليه الصلاة و السلام نسخ الحساب القديم للزمن وأن السنة تعتبر بعد اليوم إثنى عشر شهراً فقط ، فلا تداخل بعد اليوم ، قال القرطبى : وهذا القول أشبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن الزمان استدار ...) أى أن زمان الحج عاد الى وقته الأصلى الذى عينه الله يوم خلق السموات و الأرض بأصل المشروعية التى سبق بها علمه .

وفى البند الرابع : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً بالنساء وأكد فى كلمته المختصرة الجامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة فى الجاهلية ، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التى تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية ، ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد التوصية بها ، بسبب أولئك المسلمين كانوا قريبى عهد بتقاليد الجاهلية التى تقضى بإهمال شأن المرأة وعدم الإعتراف بأى حق لها ، ولعل هناك حكمة أخرى لهذه التوصية و الإهتمام بها ، وهى أن يكون المسلمون فى كل عهد وطور من الزمن على بينة من الفرق الكبير بين كرامة المرأة و حقوقها الطبيعية التى ضمنتها الشريعة الإسلامية ، وما يهدف إليه البعض من استباحة الوسائل المختلفة الى التمتع و التلهى بها ، وهو ما حاربه الإسلام .

وفى البند الخامس : وضع النبى صلى الله عليه وسلم الناس من جميع المشاكل التى قد تعترض حياتهم أمام مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم الإعتصام بهما الأمان من كل شقاء وضلال : هما كتاب الله وسنة رسوله . وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد و الضمان الى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده ، ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون غيره وأنه لا ينبغى أن يكون لأى تطور حضارى أو عرف زمنى أى سلطان أو تغلب عليهما .

وأما البند السادس :فقد أوضح فيه صلى الله عليه وسلم ما ينبغى أن يكون عليه علاقةالحاكم أو الخليفة أو الرئيس مع الرعية أو الشعب ، إنها علاقة السمع و الطاعة من الشعب للحاكم مهما كان نسبه وشأنه ومظهره ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، فإذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة ، فلا مناط لولاء الحاكم وضرورة اتباعه إلا سيره على نهج الكتاب و السنة وليكن بعد ذلك إن شاء عبداً حبشياً مجدعا ، فلا يخفضه ذلك قيد شعرة عن غيره عند الله تعالى ، ولقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، أنه لا إمتياز للحاكم من وراء حدود كتاب الله تعالى وسنة نبيه ، ولا يمكن لحاكميته أن ترفعه قيد شعرة فوق مستوى المنهج و الحكم الإسلامى ، إذ هو فى الحقيقة ليس بحاكم ولا يتمتع بأى حاكمية حقيقية ولكنه أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى ، ومن هنا لم تتعرف الشريعة الإسلامية على شىء مما يسمى بالحصانة أو الإمتيازات لطبقة ما من المسلمين فى شؤون الحكم أو القانون و القضاء .

وفى الختام .... يشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخرج مسؤولية الدعوة وتبليغها عن عنقه فها هو الإسلام قد إنتشر ، وها هى ضلالات الجاهلية و الشرك قد تبددت وها هى أحكام الشريعة الإلهية قد بلّغت ، وها هو الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى مخاطباً البشر كلهم :(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يريد أن يطمئن الى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألون .... فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم قائلا : إنكم ستسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ : نشهد إنك قد بلّغت .. وأديت .... ونصحت ، وحينئذ اطمأن الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم !.....

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التى سيلقى بها وجه ربه عز وجل ، ولقد إطمأن الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ، وشعشع الرضى فى عينيه ، ونظر بهما الى الأعلى مشيراً بسبابته الى السماء ثم الى الناس يقول : اللهم اشهد ..... اللهم اشهد ..... اللهم اشهد .

وما أعظمها من سعادة !؟ سعادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبابه الذى أبلاه وعمره الذى أمضاه فى سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله ، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذى قدم و العمر الذى بذل ، أصواتاً تعج وترتفع بتوحيد الله ، وجباهاً تعنوا ساجدة لدين الله وقلوباً خفاقة تجيش بحب الله ، ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر وشتات السفر فى القفار ، وإعذاب السخرية و الإيذاء فى سبيل هذا الإيمان الذى شاده فوق أرض الله !... فلتكتحل به عيناك يا سيدى سعادة وسروراً وليبارك لك ربك فى وجيب قلبك اليوم حمداً ونشوة وحبوراً .

ولا والله ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب يا سيدى يا رسول الله ولكنها شهادة المسلمين فى كل جيل وعصر الى أن يرث الله الأرض ومن عليها تعلن بلسان حالها ومقالها : نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجزاك الله عنا خير ما جوزى نبى عن أمته .

ولكن مسؤولية الدعوة قد إنتقلت من بعدك الى أعناقنا وما أبعدنا اليوم عن القيام بحقها وما أشد خيبتنا بلقائك يا سيدى غداً وإن علينا أوزاراً من التقاعس و التكاسل و الركون الى زهرة الحياة الدنيا ، بينما يلتف من حولك أصحابك البررة الكرام وإن فى أيديهم ، وعلى أبدانهم شهادة الدم الذى سفكوه و الجهد الذى بذلوه و الدنيا التى حطموها تحت أقدامهم نصرة لشريعتك ودفاعاً عن دعوتك وتأسياً بجهادك .

أصلح الله حالنا وحال المسلمين جميعاً وأيقظنا من سكرة الدنيا ونشوة الشهوات و الأهواء وتغمدنا بلطفه وكرمه وجوده .

وأتم صلى الله عليه وسلم حجه وتضلع من شرب ماء زمزم ، وعلّم الناس مناسكهم ، ثم عاد أدراجه الى المدينة ، ليواصل السعى و الجهاد فى سبيل دين الله عز وجل .

شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم - ولحاقــه بالرفيق الأعلــى

بعث أسامة ابن زيد الى البلقاء :

ما إن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة حتى أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم ، واختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لإمرة هذه الغزوة أسامة ابن زيد رضى الله عنه ، وكان رضى الله عنه شاباً حدثاً ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يسير الى موضع مقتل أبيه زيد ابن حارثة ، وأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و الداروم من أرض فلسطين ، ذولك مع بدء شكواه صلى الله عليه وسلم من مرضه الذى توفى فيه ولكن المنافقين راحوا يقولون مستنكرين : أمّر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين و الأنصار ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس وقد عصب رأسه وخطب فيهم قائلاً : (إن تطعنوا فى إمارة أسامة ابن زيد فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبله ، وأيم الله إن كان لخليقاً بها ، وأيم الله إن كان لأحب الناس الىّ ، وأيم الله إن هذا لها لخليق - يريد أسامة ابن زيد - وأيم الله إن كان لأحبهم الى من بعده فأوصيكم به فإنه من صالحيكم) ، فتجهز الناس ، وأوعب مع أسامة المهاجرين و الأنصار ، وخرج أسامة بجيشه الى ظاهر المدينة ، فعسكر بالجرف (مكان على بعد فرسخ من المدينة) .

شكوى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وفى هذه الأثناء اشتدت برسول الله صلى الله عليه وسلم شكواه التى قبض ه الله فيها ، فأقام الجيش هناك ، ينظرون ما الله قاض فى هذا الأمر .

وكان إبتداء شكواه ما رواه ابن اسحاق وابن سعد عن أبى مويهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل فقال : يا أبا مويهبة، قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى ، فانطلقت معه ، فلما وقفنا عليهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن مثل قطع الليل المظلم يتبع آخرها أولاها ، الآخرة شر من الأولى ، ثم أقبل علىّ فقال : إنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا و الخلد فيها ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى و الجنة فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتخلّد فيها ، ثم الجنة ، قال : لا والله أبا مويهبة ، قد إخترت لقاء ربى و الجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع ثم إنصرف فابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذى قبض فيه .

وكان أول وجعه صلى الله عليه وسلم صداعاً شديداً يجده فى رأسه ، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من البقيع استقبلته وهى تقول : وا رأساه فقال لها صلى الله عليه وسلم : بل أنا والله يا عائشة وا رأساه . ثم ثقل عليه الوجع فكان حمى شديدة تنتابه ، وكان بدء ذلك فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة وكانت عائشة ترقيه صلى الله عليه وسلم خلال ذلك بمعوذات القرآن .

روى البخارى ومسلم عن عروة أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التى كان ينفث وأمسح بيد النبى صلى الله عليه وسلم عنه .

وشعرت نساؤه صلى الله عليه وسلم برغبته فى أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله عنها لما يعلمن من محبته لها وارتياحه إليها ، فأذنّ له فى ذلك ، فخرج الى بيتها من عند ميمونة يتوكأ على الفضل ابن عباس وعلى ابن أبىطالب رضى الله عنهما .

وفى بيت عائشة رضى الله عنها اشتد به وجعه ، وكان قد شعر بقلق أصحابه وحزنهم عليه ، فقال : أهريقوا علىّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهنّ لعلى أعهد الى الناس (أى أخرج إليهم لأكلمهم) قالت عائشة رضى الله عنها : فأجلسناه فى مخضب (ما يشبه الإجّانة يغسل فيها الثياب) ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتنّ ، ثم خرج الى الناس فصلى بهم وخطبهم ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه ، فجلس على المنبر ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال :(عبد خير بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عنده) فبكى أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذ علم ما يقصده النبى صلى الله عليه وسلم وناداه قائلاً : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : على رسلك يا أبا بكر ، أيها الناس إنّ آمن الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام . لا تبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبا بكر ، وإنى فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم وإنى والله لأنظر الى حوضى الآن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإنى والله ما أخاف أن تشركوا من بعدى ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها) .

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته ، وما هو إلا أن اشتد به وجعه ، وثقل عليه مرضه .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه ادعى لى أبا بكر أباك وأخاك ، حتى أكتب كتاباً ، فإنى أخاف أن يتمنى متمنّ ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله و المؤمنون إلا أبا بكر .

وروى ابن عباس رضى الله عنه قال : لما اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لرجال كانوا فى البيت : هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده فقال بعضهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول غير ذلك ، فلما أكثروا اللغو والإختلاف قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا .

ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق الخروج الى الصلاة مع الناس ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، إن أبا بكر رجل اسيف (رقيق) وأنه إذا قام مقامك لم يكد يسمع الناس ، فقال : إنكن صواحب يوسف ، مروا أبابكر فليصل بالناس .

فكان أبو بكر هو الذى يصلى بالناس بعد ذلك ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم خلال ذلك مرة ـ وقد شعر بخفة ـ فأتى فوجد أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس فاستأخر أبو بكر ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كما أنت ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنب أبى بكر فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليسه وسلم وهو جالس ، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر .

واستبشر الناس خيراً بخروجه صلى الله عليه وسلم إذ ذاك ، ولكن البرحاء اشتدت عليه ، وكان ذلك آخر مرة خرج يصلى فيها مع الناس . روى ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعك ، فمسسته بيدى ، فقلت يا رسول الله ، إنك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم قال فقلت : ذلك أن لك أجرين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، مامن مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة وراقها . وكان صلى الله عليه وسلم أثناء ذلك يطرح خميصة (غطاء) له على وجهه ، فإذا اغتم وضايقه الألم كشفها عن وجهه فقال : لعنة الله على اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، كأنه صلى الله عليه وسلم يحذر من أن يصنعوا صنيعهم به .

رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكرة الموت

وذلك هو حكم الله فى عباده كلهم (إنك ميت وإنهم ميتون) فقد دخل فجر يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة ، وبينما الناس فى المسجد يصلون خلف أبى بكر رضى الله عنه ، إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة قد كشف ، وبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه ، فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة ، ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف ، فقد ظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج الى الصلاة ، وهم المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر ، وانصرف الناس من صلاتهم وهم يحسبون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشط من مرضه ، ولكن تبين أنها كانت نظرة وداع منه صلى الله عليه وسلم الى أصحابه ، فقد عاد عليه الصلاة و السلام فاضطجع الى حجر عائشة رضى الله عنها ، وأسندت رضى الله عنها رأسه الى صدرها ، وجعلت تتغشاه سكرة الموت ، قالت : وكان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ويمسح بها وجهه ويقول : لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ، وكانت فاطمة رضى الله عنها إذا رأت منه ذلك قالت : واكرب أباه !.. يفقول لها عليه الصلاة و السلام : ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته ، دخل علىّ عبد الرحمن وبيده السواك وانا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت آخذه لك ، فأشار برأسه أن نعم ، فقلت ألينه لك ؟ فأشار برأسه أ، نعم ، فلينته فأمره ، وبين يديه ركوة فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح وجهه ويقول : لا إله إلا الله إن للموت سكرات ، ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الأعلى ، حتى قبض ومالت يده .

وانتشر خبر وفاته صلى الله عليه وسلم فى الناس ، وأقبل أبو بكر رضى الله عنه على فرس من مسكنه فى السنح (وكان قد ذهب الى منزله هناك آملاً أنه صلى الله عليه وسلم قد عوفى من وجعه) حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه فقبله وبكى ، فقال : بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها ، ثم خرج رضى الله عنه ، و عمر يكلم الناس أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى ابن عمران وأنه صلى الله عليه وسلم لا يموت حتى يفنى الله المنافقين ، فأقبل أبو بكر يقول له : على رسلك يا عمر ، أنصت ولكنه استمر فى كلامه مهتاجاً ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فأقبلوا إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت ، قال الله تعالى :(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) الآية فكأن الناس لم يعلموا أن الله نزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما سمعها بشر من الناس إلا وأخذ يتلوها ، قال عمر رضى الله عنه : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها معقرت ما تقلنى رجلاى وحتى أهويت الى الأرض حين سمعته تلاها أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مات .

وقد أجمع الرواة وأهل العلم أنه صلى الله عليه وسلم توفى عن ثلاثة وستين عاما من العمر ، قضى أربعين منها قبل البعثة ، وثلاثة عشر عاما يدعو الى الله فى مكة وعشر سنين قضاها فى المدينة بعد الهجرة ، وكانت وفاته فى أول العام الحادى عشر .

وروى البخارى عن عمرو ابن الحرث قال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة .

العبر و العظات :

فى أحداث هذا القسم الأخير من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم تلوح قصة الحقيقة الكبرى فى هذا الوجود !.. الحقيقة التى يسقط عندها جبروت المتجبرين وعناد الملحدين ، وطغيان البغاة و المتألهين ، إنها الحقيقة التى تمتد صفحة هذا الوجود المائج كله بغاشية الإنتهاء و الفناء ، وتصبغ الحياة البشرية بصبغة العبودية و الذل لقهار السموات والأرض حقيقة تسربل بها (طوعاً أو كرها) العصاة و الطائعون ، والرؤساء و المتألهون ، والرسل و الأنبياء و المقربون و الأصفياء ، والفقراء ودعاة العلم و الإختراع !.. إنها الحقيقة التى تعلن على مدى الزمان و المكان ، وفى أذن كل سامع وعقل مفكر : أن لا ألوهية إلا لله وحده ، وأن لا حاكمية إلا لذاك الذى تفرد بالبقاء ، فهو الذى لا مرد لقضائه ولا حدود لسلطانه ولا مخرج عن حكمه ولا غالب على أمره . أى حقيقة تنطق بهذه الدلالة نطقاً لا لبس فيه ولا غموض أعظم من حقيقة الموت وسكرة الموت إذ قهر الله بهما سكان الدنيا كلها منذ فجر الوجود الى أن تغيب شمسه ، لقد مر فى معبر الدنيا كثير من أولئك المغترين الذين غرقوا فى شبر من القوة التى أوتوها ، او العلوم التى فهموها ، أو المخترعات التى إكتشفوها ، ولكن هذه الحقيقة الكبرى سرعان ما إنتشلتهم وألقت بهم فى بيداء العبودية وأيقظتهم الى صحو التذلل لقيوم السموات و الأرض مالك الملك كله ، فقدموا الى الله عبيداً أذلاء خاضعين . كل نفس ذائقة الموت !.....

إطلاق لا قيد فيه ، عموم لا مخصص له ، وشمول ليس للدنيا كلها أن تجعل له حداً ، فليأت دعاة العلم الجديد ، والرقى الحديث ومتوثبوا الغزو الفضائى فليجمعوا أمرهم و ليضفروا جميع إمكاناتهم المختلفة وليحشدوا كل أقمارهم المصنوعة ومراكبهم المشروعة فليستعينوا بذلك كله على أن يزيحوا عن أنفسهم شيئاً من سلطان هذا الموت الذى قهرهم واستذلهم ، وليبطلوا بذلك ولو جزء من هذا التحدى الإلهى : كل نفس ذائقة الموت ، فإن فعلوا ذلك فإن لهم حينئذ أن يشيدوا لأنفسهم صروحاً عالية من الجبروت و الطغيان و التأله والكفران ،وإلا فأحرى بهم أن يتفرغوا للتأمل فى تلك القبور التى سيغسيبون فى أحشائها و التربة التى سيمتدون تحتها ، وفى القبضة التى سوف لن ينجوا من حكمها .

ولقد كان من اليسير على الله عز وجل أن يجعل مرتبة رسوله صلى الله عليه وسلم فوق مستوى الموت وآلامه ، ولكن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون قضاء الله تعالى فى تجرع كأس الموت وآلامها عاماً لكل أحد مهما كانت درجة قربه من الله جل جلاله ، حتى يعيش الناس على معنى التوحيد وحقيقته ، وحتى يدركوا جيداً أن كل من فىالسموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، فليس لأحد أن يتمطى ليعلو بنفسه على مستوى العبودية بعد أن عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم خاضعاً لحكمها ونزل به قضاؤها

وليس لأحد أن لا يكثر من ذكر الموت وسكرته بعد أن عانى حبيب الله تعالى من برحائه و غشيته آلامها ، وهذا المعنى هو ما أوضحه كلام الله جل جلاله :(إنك ميت وإنهم ميتون) وقوله تعالى :(وما جعلنا لأحد من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ؟! كل نفس ذائقةالموت ونبلوكم بالشر و الخير فتنة وإلينا ترجعون)وإذاً فنحن فى هذا القسم الأخير من سيرته عليه الصلاة و السلام أمام مشهد لحقيقتين هما دعامتا الإيمان بالله عز وجل ، بل هما دعامتا الحقيقة الكونية كلها : حقيقة توحيد الله عز وجل ، وحقيقة العبودية الشاملة التى فطر الله الناس كلهم عليها ولا تبديل لحكم الله وأمره .

والآن فلنستعرض ما يوجد فى ثنايا هذا البحث من الدروس و الأحكام :

أولاً:- لا مفاضلة فى حكم الإسلام إلا بالعمل الصالح :

فقد كان زيد ابن حارثة رقيقاً وهو والد أسامة هذا ، وهو فى أصله مولى ، وكان أسامة كما قلنا فتى صغيراً بين الثامنة عشر و العشرين من العمر ، ومع ذلك فلا الصغر ولا الرق القديم منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يجعله أميراً على عامة الصحابة فى غزوة مهمة كبرى !.. ولئن وجد المنافقون فى هذا مثاراً للتعجب أو الإستنكار ، فإن شريعة الإسلام لالا تستغرب ذلك ولا تستنكره ، فما جاء الإسلام إلا ليحطم مقاييس الجاهلية التى كانوا يتفاضلون بها ويتفاوتون ، ولعل النبى صلى الله عليه وسلم وجد فى أسامة ميزة جعلته أولى من غيره بإمارة الجيش فى هذه الغزوة ، وليس على المسلمين فى هذه الحال إلا السمع و الطاعة وإن أمر عليهم عبد حبشى ، ولذلك كان أول عمل قام به أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خلافته هو إنفاذ جيش أسامة ، وخرج رضى الله عنه فشيع جيشه بنفسه ماشياً وأسامة راكباً ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلنّ ، فقال أبو بكر : والله لا نزلت ولا ركبت ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟ ولقد رجع أسامة رضى الله عنه من هذه الغزوة منصوراً ظافراً وكان فى تسيير ذلك الجيش نفع عظيم للمسلمين .

ثانياً:- مشروعية الرقية وفضلها :

وهى العويذ ، ودليل ذلك ما رويناه من حديث البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده ... الخ ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يرقى أصحابه بالقرآن آناً ، وبالأذكار و الأدعية الأخرى ، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى منا إنسان مسحه بيمينه ثم قال : أذهب الباس رب الناس ، واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقماً ، وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرا على نفسه بالمعوذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها ، ومن أوضح الأدلة على مشروعية الرقية بالقرآن الكريم قوله تعالى :(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) .

والفرق بين الدعاء و الرقية ، أن الرقية تزيد عليه المسح باليد و النفث بالفم ، وهو النفخ بدون ريق فى الأصح . ثم إنه ذهب مالك و الشافعى وأحمد واسحاق وأبو ثور الى جواز أخذ الأجر على الرقية ، وفصل أبو حنيفة فمنعها على تعليم القرآن وأجازها على الرقية ودليل ذلك حديث البخارى ومسلم أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا فى سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا لهم هل فيكم راق ، فإن سيد الحى لديغ أو مصاب ، فقال رجل منهم نعم ، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب ، فشفى الرجل فأعطى قطيعاً من غنم فأبى أن يقبلها ، وقال : حتى أذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : يا رسول الله ، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب ، فتبسم وقال: وما أدراك أنها رقية ؟ ثم قال : خذوا منهم واضربوا لى بسهم معكم ، وقد نقل النووى و الحافظ ابن حجر وغيرهما الإجماع على مشروعية الرقى عند إجتماع ثلاثة شروط :

أن يكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته ، وأن يكون باللسان العربى أو بما يعرف معناه من غيره ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى .

وقد دلت على هذه الشروط أحاديث صحيحة مثل ما رواه مسلم عن عوف ابن مالك الأشجعى قال : كنا نرقر فى الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : اعرضوا علىّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك .

السحر و الرقية منه :

ولقد كان من أهم ما رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بالمعوذات منه ، السحر الذى سحره به لبيد ابن عاصم فى الحديث الذى رواه الشيخان ، ولقد ذكر العلماء أن جمهور المسلمين على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، ودليله هذا الحديث ، وذكر اله تعالى له فى كتابه ، وأنه مما يعلم وذلك لا يكون إلا فيما له حقيقة ما ، وقوله سبحانه وتعالى عنه :(فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) والتفريق بين المرء وزوجه شىء حقيقى كما هو معروف .

وقد يستشكل بعضهم هذا الذى نقول لسببين :

الأول ـ كون السحر بحد ذاته حقيقة ثابتة ، إذ هو فيما يتوهمه البعض أمر مناف لقضية التوحيد وانحصار التأثير لله وحده .

الثانى ـ أن يقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سحر ، فذلك مما يحط فى أوهامهممن منصب النبوة ويشكك الناس فيها .

و الحقيقة أنه لا إشكال فى الأمر البتة ، أما الجواب عن الوهم الأول : فهو أن إعتبار السحر حقيقة ثابتة لا يعنى كونه مؤثراً بذاته بل هو كقولنا السم له مفعول حقيقى ثابت ، والدواء له مفعول حقيقى ثابت ، فهذا كلام صحيح لا ينكر ، غير أن التأثير فى الأمور الثابتة إنما هو لله تعالى ، وقد قال الله تعالى عن السحر (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) فقد نفى الله عز وجل عن السحر التأثير الذاتى ولكنه أثبت له فى نفس الوقت مفعولاً ونتيجة منوطة بإذن الله تعالى .

وأما الجواب عن الوهم الثانى : فهو أن السحر الذى أصيب به رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان متسلطاً على جسده وظواهر جوارحه كما هو معروف ، لا على عقله وقلبه واعتقاده ، فمعاناته من آثار أى مرض من الأمراض التى يتعرض لها الجسم البشرى لأى كان ، ومعلوم أن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تستلزم سلامته من الأمراض و الأغراض البشرية المختلفة .

قال القاضى عياض : وأما ما جاء فى الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه صلى الله عليه وسلم داخلة نقص أو عيب فى شىء من تبليغه أو شريعته ، لقيام الدليل و الإجماع على عصمته من هذا (أى مما يدخل داخلة نقص فى تبليغ الشريعة) وإنما هذا فيما يجوز طروّه من أمور الدنيا التى لم يبعث بسببها ولا فضل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها مالا حقيقة له ثم ينجلى عنه كما حصل .

قلت : وهو كما حصل للمريض عند شدة الحمى ، فمن الأعراض الطبيعية لذلك أن تطوف بالذهن أخيلة وأوهام غير حقيقية لشدة وطأة الحرارة ، والأمر فى ذلك وأشباهه من الأعراض البشرية التى يستوى فيها الأنبياء و الرسل مع غيرهم من الناس .

على أن خبر سحره صلى الله عليه وسلم إنما يدخل فى جملة الخوارق التى أكرمه الله تعالى بها فهو ليس مثار نقيصة له ، وإنما هو دليل إكرام الله تعالى له وحفظه إياه ، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل يكثر من الدعاء حين شعر بهذه الأعراض فى جسمه الى ان أطلعه الله على المكيدة التى صنعها له لبيد ابن الأعصم فى السر ، فذهب الى حيث كان قد طوى الرجل أمشاطه وأسباب سحره فأبطل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك وإليك نص الحديث :

روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة

وهو عندى ، لكنه دعا ودعا ، ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ، أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى و الآخر عند رجلى ، فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى مسحور) قال : من طببه : قال : لبيد ابن الأعصم ، قال : فى أى شىء ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف طلع نخل ذكر ، قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه ... فجاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين !.. قلت يا رسول الله : أفلا أستخرجه ، قال : لقد عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً ، فأمر بها (أى البئر) فدفنت .

فأنت ترى أن هذا الحديث دليل إكرام وعصمة من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من كونه دليل أذى قد أصابه فى جسمه أو أى جانب يتعلق ببشريته .

بقى أن أحداً قد يستشكل قائلاً : فكيف تتميز المعجزة الإلهية إذاً عن السحر ومظاهره ما دام أن له حقيقة ؟

والجواب أن المعجزة التى تحصل على يد النبى إنما تكون مقترنة بدعوى النبوة و التحدى بها كدليل على صدق دعواه ، وليس السحر كذلك ، فلا يمكن أن يتم على يد الساحر مع دعوى أنه نبى ، هذا إلا أن سلطان السحر محدود ، فهو وإن كان له حقيقة كما قلنا ، غير أن حقيقته لا تتجاوز حدوداً معينة ، ولا يمكن التوصل به الى قلب الحقائق وتبديل جاهر الشياء ، ولذلك عبر الله سبحانه وتعالى عن السحر الذى صنعه سحرة فرعون بقوله :(فألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) .

فعبر عما رآه موسى من صنيعهم بالخيال ، أى فالحبال لم تنقلب فىالحقيقة الى ثعابين بسحرهم الذى فعلوه ،وإنما الذى إتجه إليه السحر هو أبصار المشاهدين فقط ، فهى التى سحرت لا الحبال و العصى ، وهذا ما أوضحته الآية الأخرى وهى قوله تعالى :(سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم) ، وإذا تأملت فى هذا الذى نقول ، علمت أنه لا تنافى بين ما ذكرناه من أن السحر حقيقة ثابتة ، وقول الله تعالى (يخيل إليهمن سحرهم أنه تسعى) إذ أن إنقلاب الحبال ثعابين تسعى خيال ، أما تأثير العين بهذا الخيال وضعفها عن رؤية الحقيقة فذلك هو مفعول السحر وحقيقته لما أصاب العين هذا الذى أصابها ، وهذا التحقيق يؤكد لك أن مناط السحر دائماً هو جسم الإنسان أو حواسه وجوارحه ، تظهر بسببه بعض المرئيات أو المحسوسات على غير حقيقتها .

ثالثاً : مظاهر فضل أبى بكر رضى الله عنه :

وفيما أسلفناه من قصة مرضه صلى الله عليه وسلم أربع دلائل على أن أبا بكر رضى الله عنه من المزية و الفضل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الأولى :- حينما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطابه بقوله :(عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده) فقد ادرك أبو بكر ما يعنيه صلى الله عليه وسلم ولذلك الذى استشعره رضى الله عنه من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء فى بعض طرق هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى أنه لما بكى أبو بكر لقول الرسول صلى الله عليه وسلم قلت فى نفسى : ما يبكى هذا الشيخ أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن عبد خيّر فاختار ؟ قال : فكان رسول اله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به .

الثانية :- قوله عليه الصلاة و السلام : إن آمن الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر .... الحديث ، وإنها لكلمات خالدات ما سجل مثلها لغير أبى بكر رضى الله عنه .

الثالثة :- ما ذكرناه من رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : أدعى لى أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإنى أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله و المؤمنون إلا أن يكون أبا بكر . وإن هذا الحديث ليعبر بمثابة النص على استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم له من بعده ، ولئن كانت الحكمة الإلهية اقتضت أن لا يأخذ

رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه عهداً بذلك وأن لا يسجل لهم كتاباً به ، فكل ذلك كى لا يصبح توارث الحكم و الخلافة متبعة من بعده ، وفى ذلك من مفسدة القضاء على إتباع شروط الصلاح فى الحاكم ما هو غير خاف على أحد .

الرابعة:- استخلافه رضى الله عنه للصلاة بالناس فى مكانه ، ولقد رأيت مدى شدته فى تعيين أبى بكر لذلك ورده الشديد على عائشة رضى الله عنها فيما راجعته به .

ولئن كنا نقول أن هذه المزايا الثابتة فى صحاح الأحاديث لأبى بكر رضى الله عنه هى التى رجحت مبايعة المسلمين له بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا لا يغض من خصائص ةميز الصحابة والخلفاء الاخرين خصوصاً علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقد رأيت أنه صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر قال : لأعطينهذه الراية غداً لرجل يحبه الله ورسوله ، فذهب الناس يتساءلون فى تلك الليلة من سيكون صاحب الراية، فكان صاحبها هو علىّ رضى الله عنه .ولقد إنتهى أمر الخلافة وأبرم المسلمون الحكم فيها عقب وفاته صلى الله عليه وسلم دون أن يستلزم ذلك أى تفرق أو شقاق بينهم من وراء حدود المذاكرة و المناقشة التى لابد منها وظل كل من أبى بكر وعلىّ رضى الله عنهما مظهراً ولساناً ناطقاً بفضل الآخر . ولا ريب أن من تافه القول و العمل أن نعمد بعد مرور أربعة عشر قرناً على ذلك التاريخ فنضيع الوقت ونستثير الشحناء و البغضاء ، فى سبيل القول بأن هذا كان أولى بالخلافة أم ذاك ، مع أن أصحاب العلاقة أنفسهم لم يقم بينهم أى شقاق من هذا القبيل ، وما مضوا الى لقاء ربهم إلا وهم ينبضون بقلب واحد حباً وتضامناً .

رابعاً: النهى عن إتخاذ القبور مساجد :

ولقد رأيت من صيغة الحدديث الدال على ذلك شدة النهى و المبالغة فى التحذير من الإقدام على هذا العمل ، قال العلماء : وإنما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن إتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة فى تعظيمه والإفتتان به ، فربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم السابقة .

وتتحقق صورة النهى عنه بأن يشاد فوق القبر مسجد فيصبح ما حول القبر مصلى بذلك للناس ، أو بأن يصلى عند القبر ويتخذ مسجداً ، والعلماء فى حكمهم على الصلاة عند القبور بين محرم ومكره و الذين قالوا بالكراهة شددوا بها عندما تكون الصلاة عند القبر أى بأن يكون القبر بين المصلى و القبلة ، ولكنها صحيحة على كل ، لأن الحرمة تستلزم البطلان فيكون حكمها كحكم الصلاة فى الأرض المغصوبة قال الإمام النووى : ولما احتاج الصحابة رضوان اله عليهم و التابعون الى الزيادة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كثر المسلمون ، وامتدت الزيادة الى أن أدخلت بيوت أمهات المؤمنين فيها ، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى الى ىالمحذور ، ثم بنوا جدارين على ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى إلتقيا ، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر .

خامساً :- شعوره صلى الله عليه وسلم وهو يعانى سكرة الموت :

وإنا لنستطيع أن ندرك شعوره صلى الله عليه وسلم وما كان قد إنصرف إليه تفكيره وهمه فى تلك الساعة مما ذكرناه ، فقد رأينا أنه بينما كان الناس مصطفين لصلاة فجر يوم الإثنين إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة رضى الله عنها قد كشف ، وبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك ، حتى نكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وكاد الناس أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه أشار بيده إليهم أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

لقد كان تفكيره إذا منصرفاً تلك الساعة الى أمته وإلى ما سيكون عليه حالهم من بعده ..... وإنك لتشعر من نظرته الباسمة الى أصحابه وهم يقفون خاشعين بين يدى الله تعالى بمعنى الحب العظيم يفيض به فؤاده صلى الله عليه وسلم لهم ، بل وإنك لتجد فى إبتسامته مظهراً لما كان يخفق قلبه به من حبهم والدعاء لهم و التوجه إليهم .

لقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم (بأبى هو وأمى) وهو يمر بآخر دقائق عمره أن يتزود من أصحابه رضوان الله عليهم بآخر نظرة ، وأن يطمئن الى الحق الذى تركهم عليه و الهداية التى أرشدهم إليها ... فأراد منهم ما طابت به نفسه وقرت به عينه ، حتى غلب ذلك المشهد آلام الموت السارية فى جسده فغلبها ، وإذا بالبشر و السرور و الرضا يطفح كل ذلك على وجهه ، حتى خيل للصحابة أنه صلى الله عليه وسلم قد نشط من أوجاعه وعوفى من آلامه .

ولكنهم ما عرفوا إلا أخيراً أنه ما وقف ينظر إليهم تلك النظرة لينقلب بها الى سكرة الموت ، وهى آخر لوحة تسجل فى ذهنه لمشهد أصحابه ، بل وأمته كلها ، كى تكون هى العهد الباقى بينهم وبين الله عز وجل ، ولتكون هى الهمزة الواصلة بين لحظة الوداع لأمته فى الدنيا ولحظة الإستقبال لها فى الآخرة على حوضه الموعود .

ولقد شاءت إرادة الله وحكمته أن يكون هذا المشهد هو الصلاة !..... وأن تكون هى العهد الأخيـــر .

فيا أخى المسلم : العهد العهد الذى فارقك عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو راض يتبسم .

خاتمـــــة

فى بعض صفاته صلى الله عليه وسلم وفضل زيارة مسجده و قبره

كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما أدرج فى أكفانه وضع على سريره على شفير القبر ثم دخل الناس أرسالاً يصلون عليه فوجاً فوجاً لا يؤمهم أحد ، فأولهم صلاة عليه العباس ثم بنوا هاشم ثم المهاجرين ثم الأنصار ، ثم سائر الناس ، ودفن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكانه الذى توفى فيه فى حجرة عائشة .

توفى عليه الصلاة و السلام عن تسع نساء هن : سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ابن الخطاب ، وأم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيى ابن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكراً غير عائشة رضى الله عنها .

له صلى الله عليه وسلم ثلاثة بنين : القاسم (وبه كنى) ولد قبل النبوة وتوفى وهو ابن سنتين ، وعبد الله وسمى الطيب والطاهر ، ولد بعد النبوة ، وإبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان وتوفى سنة عشر

وكان له أربع بنات : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم ، وكان وفاة رقية يوم بدر فى رمضان سنة اثنين للهجرة ، وتوفيت أم كلثوم فى شعبان سنة تسع من الهجرة وكلاهما كانا عند عثمان ابن عفان رضى الله عنه .

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ،وكان أجود ما يكون فى رمضان ،وكان أحسنهم خلقاً وخلقاً ، وألينهم كفاً وأطيبهم ريحاً ، وأحسنهم عشرة ، وأشدهم لله خشية ، لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله فلا يقوم لغضبه شىء حتى ينتصر للحق ، وكان خلقه القرآن ، وكان أكثر الناس تواضعاً يقضى حاجة أهله ويخفض جناحه للضعفة ، وكان من أشد الناس حياءً ، وما عاب طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه ، ولا يأكل متكئاً ولا على خوان ، وكان يحب الحلواء و العسل ويعجبه الدباء (اليقطين) وكان يأتى الشهر و الشهران لا يوقد فى بيت من بيوته ناراً ، وكان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ويعود المريض ويجيب من دعاه من غنى و فقير ، كان فراشه من أدم حشوه ليف ، وكان متقللاً من أمتعة الدنيا كلها ، وقد أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض كلها فأبى أن يأخذها واختار الآخرة عليها ، وكان كثير الذكر دائم

الفكر جلّ ضحكه التبسم ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وكان يتألف أصحابه ويكرم كريم كل قوم ويوليه أمرهم .

ثبت فى الصحيح عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحته ، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى قط أف ، ولا قال لشىء فعلته لما فعلته ؟ ولا لشىء لم أفعله ألا فعلت كذا ؟ .

واعلم أن زيارة مسجده وقبره صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات الى الله تعالى ، أجمع على ذلك جماهير المسلمين فى كل عصر الى يومنا هذا ، لم يخالف فى ذلك إلا ابن تيمية غفر الله له ، فقد ذهب الى أن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم غير مشروعة .

ودليل ما أجمع عليه المسلمين من دونه عدة وجوه :

الوجه الأول : مشروعية زيارة القبور عموماً واستحبابها ، وقد ذكرنا فيما سبق أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يذهب كل ليلة الى البقيع يسلم على أهله ويدعو لهم ويستغفر لهم ، ثبت ذلك فى الصحيح ، والأحاديث الثابتة فى تفصيل ذلك كثيرة ، ومعلوم أن قبر الرسول صلى الله عليه وسلم داخل فى عموم القبور فيسرى عليه حكمها .

الوجه الثانى :- ما ثبت من إجماع الصحابة و التابعين ومن بعدهم على زيارة قبره صلى الله عليه وسلم والسلام عليه كلما مروا على الروضة الشريفة ، روى ذلك الأئمة الأعلام وجماهير العلماء بما فيهم ابن تيمية رحمه الله .

الوجه الثالث :- ما ثبت من زيارة كثير من الصحابة قبره صلى الله عليه وسلم منهم بلال رضى الله عنه رواه ابن عساكر بإسناد جيد ، وابن عمر فيما رواه مالك فى لاموطأ وأبو أيوب فيما رواه أحمد ، دون أن يؤثر عنهم أو عن أحد منهم استنكار أو نقد لذلك .

الوجه الرابع : ما رواه أحمد رضى الله عنه بسند صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج يودع معاذ ابن جبل الى اليمن قال له : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى ، فكلمة لعل تأتى فى أعم الأحوال للرجاء ، وإذا دخلت (أن) على خبرها تمخضت للعرض و الرجاء ، فالجملة تنطوى بصريح البيان على توصية معاذ بأن يعرج عند رجوعه الى المدينة على مسجده صلى الله عليه وسلم وقبره ليسلم عليه .

إذا تبين هذا فاعلم أنه لا وجه لما إنفرد به ابن تيمية رحمه الله من دفع هذه الأوجه كلها فى غير ما دافع و القول بأن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم عمل غير مشروع .

وجملة ما إعتمده ابن تيمية فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا و المسجد الأقصى ، وقوله : لعن الله اليهود و النصارى إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وقوله : لا تجعلوا قبرى عيداً .

وليس فى هذه الأحاديث الثلاثة ما يصلح أن يكون مستنداً لما إنفرد به .

1- فقوله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ..... الخ إستثناء مفرغ كما هو معلوم و المستثنى منه محذوف ، وإنما يقدر المستثنى من جنس المستثنى منه ، وإلا كان إستثناءاً منقطعاً ، وهو استثناء مجازى ، ولا يجوز إضمار المجاز إلا عند الضرورة التى لا تصلح الحقيقة .

فتقدير الحديث : لا تشد الرحال لإلا الى ثلاثة منها .... الخ فالمستثنى منه هو المساجد ، والمعنى أن جميع المساجد فى الفضل سواء ، إلا هذه المساجد الثلاثة ، فلا وجه لتفضيل بعضها على البعض فى زيارة أو إعتكاف أو نحو ذلك ، وعملاً بهذا الحديث قال الفقهاء : إنه لو نذر الإعتكاف وسمى مسجداً معيناً غير هذه المساجد الثلاثة ، لم يجب عليه قصد ذلك المسجد بخصوصه ولم يسنّ ، بل يغنيه أن يعتكف فى أى مسجد من مساجد الدنيا .

أما حديثنا فهو عن زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ليس داخلاً لا فى المستثنى ولا فى المستثنى منه ، فالحديث بمعزل عن أى إشارة إليه ، وهو كما قلت : لا يجوز أن تشد الرحال الى زيارة العلماءلنتعلم منهم أو الى زيارة الأرحام ، لحديث لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد ..... الخ .

ثم إننا نسأل بعد هذا : أفيفهم ابن تيمية من كلمة (تشد الرحال) معناها الحقيقى أم المعنى المجازى الذى هو القصد و العزم على الشىء ؟ .

فإن كان يفهم منها المعنى الحقيقى فينبغى ألا تحرم زيارة غير هذه المساجد الثلاثة من المساجد الأخرى إلا إذا شد لذلك رحلاً ثم مضى إليه بواسطة الرحل ، قربت المسافة أو بعدت ، فإن سعى إليه بوسيلة أخرى غير شد الرحال لم يعد ذلك حراماً ، وهل يقول عاقل بذلك ؟

وإن كان يفهم من الكلمة معناها المجازى - وإنما المعنى المجازى لها هو الإتجاه الى الشىء لا يقصد غيره - فإن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعارضه ويرده ، فقد كان صلوات الله عليه يزور مسجد قباء فى كل أسبوع ، وفى رواية كل يوم سبت ، وقد كان مسجد قباء خارج المدينة .

والخلاصة أن المستثنى منه فى الحديث هو المساجد ، وزيارة الأرحام و القبور و الأشخاص و المعالم غير داخلة فى المستثنى منه ، فلا شأن للحديث بها ، ومعنى الحديث : إن أولى المساجد بالإهتمام للتوجه إليها من مسافات بعيدة هى هذه المساجد الثلاثة .

2- وقوله صلى الله عليه وسلم : لعن الله اليهود و النصارى إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . لا شأن له بموضوع الزيارة إطلاقاً ، إذ هو نهى عن إتخاذ قبور الأنبياء وما حولها مصلى على نحو ما مر بيانه قريباً ، تعلم هذا من قوله (مساجد) إذ المساجد أماكن الصلاة ، ولو استقام أن يكون مجرد زيارة القبر اتخاذاً له مسجداً ، لكان من مقتضى ذلك أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد جعل من البقيع كله مسجداً له ، إذ كان يزوره دائماً .

3- أما قوله صلى الله عليه وسلم : لا تجعلوا قبرى عيداً . فإنما معناه لا تتخذوا لزيارة قبرى وقتاً معيناً لا يزار إلا فيه كما هو شأن العيد ، كما فسره بذلك الحافظ المنذرى وغيره من علماء الحديث ، ولا مانع من أن يضاف إليه أيضاً النهى عن إظهار الصخب و اللهو ومظاهر الزينة عنده على نحو ما يكون فى الأعياد . أما أن تدل الكلمة على النهى عن زيارة قبره فإنها عن ذلك بمعزل وما كان النبى صلى الله عليه وسلم لينهى الناس عن إتخاذ قبره عيداً بهذا المعنى المزعوم ثم يعمد هو فيتخذ البقيع فى كل يوم عيد ....!

ثم اعلم أن لزيارة قبره آداباً لا بد من إتباعها ، فإذا أكرمك الله تعالى بالتوجه الى زيارته ، فاعقد العزم أولا على زيارة مسجده ثم إنوى مع ذلك زيارة قبره الشريف ، ثم إغتسل قبل دخولك المدينة ، والبس أنظف ثيابك ، واستحضر فى قلبك شرف المدينة وأنك فى البقعة التى شرفها الله بخير الخلائق ، فإذا دخلت المسجد فاقصد الروضة الشريفة وصل ركعتين تحية المسجد ما بين القبر والمنبر ، فإذا دنوت الى القبر الشريف بعد ذلك ، فإياك أن تهجم عليه أو أن تلتصق بالشبابيك أو تتمسح بها كما يفعل كثير من الجهال ، فتلك بدعة توشك أن تكون محرمة ، بل قف بعيداً عن القبر نحو أربعة أذرع ناظراً الى أسفل ما يستقبلك من جدار القبر ، وانت غاض الطرف تستشعر الهيبة و الإجلال ، ثم سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت خفيض قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول اله ، أشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لأمتك ودعوت الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك كثيراً كما يحب ربنا ويرضى.

ثم استقبل القبلة وانحرف الى اليمين قليلاً حتى تكون بين القبر و الإسطوانة التى عند أول القبر وارفع كفيك بالدعاء خاشع الى الله جل جلاله ، ولا تتوهم أن فى ذلك سوء أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأن الدعاء ينبغى أن يكون مع استقبال القبر ، فإن الدعاء خطاب الله عز وجل و الخطاب لله لا يجوز أن يشرك فيه غيره ، وخير إتجاه الى الله عز وجل لدعائه هو إتجاه القبلة ،

ولا تلتفت الى كثرة من قد تراهم يخالفون هذا من الجهال و المبتدعين وابدأ دعائك قائلا : اللهم إنك قلت وقولك الحق :(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ، وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبى مستشفعا برسولك إليك ، فأسألك يا رب أن توجب لى المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه فى حياته ، ثم أكثر من الدعاء لما تشاء من أمر دينك ودنياك ولإخوانك وعامة المسلمين .

ولا تنس يا اخى أن تخصنى أنا أيضاً بشىء من دعائك ، قل : اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين لليوم الذى لا ريب فيه فأسبل جميل سترك على عبدك المذنب محمد سعيد ابن ملا رمضان وأدخله بمحض منك وفضلك فى عبادك المغفورين ، وامنحة شربة هنيئة من حوض نبيك محمد صلى الله عليه وسلم يوم يقف عليه مشرق الوجه باسم المحيا يستقبل أصحابه الذين عرفهم وإخوانه الذيم لم يرهم واشتاق إليهم ، ولا تجعله من المطرودين أوالمحرومين .

عهد يسألك الله عنه يا أخى المسلم أياً كنت ، أن تدعو لأخيك عند ختمك لهذا الكتاب فما أحوجنى - لو تعلم - الى دعاء خالص من أخ لأخيه فى ظهر الغيب .

وأحمد الله تعالى وأشكره على توفيقه لتتم هذا الكتاب ،وأتضرع إليه سبحانه وتعالى أن يرزقنى حسن التمسك بسنة حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأسأله سبحانه أن يتجاوز بالصفح عما أكون قد تلبست به فى هذا الكتاب من زلات وأخطاء وأن يجعل شفيعى فى ذلك سلامة القصد وبذل الجهد .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.